

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف   عصام فارس الحرستاني

المجلد الخامس

الإسراء إلى النمل

مؤسسة الرسالة




تفسير الطبري
٥

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسَّسَة الرّسَالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب : ٧٤٦٠ برقياً : بيوشران



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «سُبْحانَ الَّذِي أسْرَى بعَبْدِه لَيْلًا» تنزيهاً للذي أسرى بعبده وتبرئةً له مما يقولُ فيه المشركونَ من أنَّ له من خَلْقِه شريكاً، وأنَّ له صاحبةً وولداً، وعلوّاً له وتعظيماً عما أضافُوه إليه، ونسبوه من جهالاتهم وخطأ أقوالهم.

ويعني بقوله: «لَيْلًا» من الليل.

وأما قوله: «مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ» فإنه اختلُف فيه وفي معناه.

فقال بعضهم: يعني من الحَرَم، وقال: الحرمُ كلّه مسجدٌ.

وقال آخرون: بل أُسري به من المسجد، وفيه كان حين أُسريَ به.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ، أنْ يقال: إن الله عزَّ وجلَّ أخبر أنه أسرى بعبده من المسجد الحرام، والمسجدُ الحرامُ هو الذي يتعارفه الناسُ بينهم إذا ذكروه.

وقوله: «إلى المَسْجِدِ الأقْصَى» يعني: مسجدَ بيتِ المقدس، وقيل له: الأقصى، لأنه أبعدُ المساجدِ التي تُزَارُ، ويُبْتَغى في زيارته الفضلُ بعد المسجدِ الحرام.

فتأويلُ الكلام: تنزيهاً لله، وتبرئةً له مما نَحَلَهُ المشركون من الإشراكِ والأندادِ والصاحبةِ، وما يُجَلُّ عنه جَلَّ جلاله، الذي سار بعبده ليلاً من بيتهِ الحرامِ إلى بيته الأقصى.

ثم اختلف أهلُ العلم في صفةِ إسراءِ الله تبارك وتعالى بنبيه ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى.

فقال بعضهم: أسرى اللهُ بجسدِه، فسار به ليلاً على البُراقِ من بيتهِ الحرامِ إلى بيته الأقصى حتى أتاه، فأراهُ ما شاء أنْ يُرِيَهُ من عجائبِ أمرِه وعِبَرِه وعظيم سُلطانه، فَجُمِعَتْ له به الأنبياء، فصلَّى بهم هُنالك، وعَرَجَ به إلى السماء حتى صعدَ به فوق السمواتِ السبع، وأوحى إليه هنالك ما شاء أن يوحى، ثم رجعَ إلى المسجدِ الحرام من ليلته، فصلَّى به صلاةَ الصبح.

وقال آخرون ممن قال أُسري بالنبيِّ ﷺ إلى المسجدِ الأقصى بنفسه وجسمه: أُسْرِيَ به عليه السلام، غير أنه لم يدخل بيت المقدس، ولم يُصَلِّ فيه، ولم ينزلْ عن البراقِ حتى رجع إلى مكة.

وقال آخرون: بل أُسريَ بروحه، ولم يُسْرَ بجسده.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنَّ الله أسرى بعبده محمدٍ ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبرَ اللهُ عباده، وكما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، أنَّ الله حمله على البراقِ حين أتاهُ به، وصَلَّى هنالك بمن صَلَّى من الأنبياءِ والرسل، فأراهُ ما أراه من الآياتِ؛ ولا معنى لقولِ مَنْ قال: أسرى بروحه دون جسده، لأنَّ ذلك لو كان كذلك لم يكن

في ذلك ما يُوجِبُ أنْ يكون ذلك دليلاً على نبوّته، ولا حجةً له على رسالتهِ، ولا كانَ الذين أنكروا حقيقةَ ذلك من أهلِ الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عندَ أحدٍ من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدمَ أنْ يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرةِ سنةٍ، فكيف ماهو على مسيرةِ شهرٍ أو أقل؟ وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروحِ عبده، وليس جائزاً لأحدٍ أن يتعدَّى ما قالَ اللهُ إلى غيرِه. فإن ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك جائزٌ، إذْ كانت العربُ تفعلُ ذلك في كلامها، كما قال قائلهم:

حَسِبْتُ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقاً ... ومَا هِيَ وَيْبَ غيرِكِ بالعَنَاقِ!

يعني: حسبتُ بُغَامَ راحلتي صوت عناق، فحذف الصوتَ واكتفى منه بالعناق، فإنَّ العرب تفعل ذلك فيما كان مفهوماً مراد المتكلم منهم به من الكلام. فأما فيما لا دلالةَ عليه إلا بظهورِه، ولا يُوصَلُ إلى معرفةِ مُرادِ المتكلِّمِ إلا ببيانه، فإنها لا تحذفُ ذلك، ولا دلالةَ تدلُّ على أنَّ مرادَ الله من قوله: «أَسْرَى بِعَبْدِهِ» أسرى بروحِ عبدِه، بل الأدلةُ الواضحةُ، والأخبارُ المتتابعةُ عن رسولِ الله ﷺ أنَّ الله أسرى به على دابةٍ: يُقال لها البراق؛ ولو كان الإسراءُ بروحهِ لم تكن الروحُ محمولةً على البراق، إذ كانت الدوابُّ لا تحملُ إلا الأجسامَ. إلا أن يقولَ قائلٌ: إنَّ معنى قولنا: أُسْرِيَ بروحه: رأى في المنام أنه أُسْرِيَ بجسده على البُراق، فيكذب حينئذٍ بمعنى الأخبارِ التي رُويت عن رسولِ الله ﷺ، أنَّ جبرئيلَ حمله على البُراق، لأنَّ ذلك إذا كان مناماً على قولِ قائلِ هذا القولِ، ولم، تكن الروحُ عنده مما تركبُ الدوابَّ، ولم يحمل على البراق جسم النبيِّ ﷺ، لم يكن النبيُّ ﷺ على قولِهِ حُمِلَ على البراقِ لا جسمهُ، ولا شيءٌ منه، وصار الأمرُ عنده كبعضِ أحلامِ النائمين، وذلك دَفْعٌ لظاهرِ التنزيلِ، وما تَتَابعتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وجاءتْ به الآثارُ

عن الأئمة من الصحابة والتابعين[١].

وقوله: «الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ» يقول تعالى ذِكْرُه: الذي جعلنا حوله البركةَ لسكانهِ في معايشهم وأقواتهم وحُرُوثِهم وغروسهم.

وقوله: «لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: كي نُرِي عبدنا محمداً من آياتنا، يقول: من عِبَرِنَا وأدلَّتنا وحُجَجِنَا.

وقوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن الذي أسرى بعبده هو السميعُ لما يقول هؤلاء المشركون من أهلِ مكةَ في مسرى محمدٍ ﷺ من مكـةَ إلى بيتِ المقـدس، ولغيرِ ذلـك من قولهم وقولِ غيرهم، البصير بما يعملون من الأعمالِ، لا يَخْفى عليه شيءٌ من ذلك، ولا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، بل هو محيطٌ بجميعه علماً، ومُحْصِيه عدداً، وهو لهم بالمرصاد، ليجزيَ جميعَهُم بما هُمْ أهلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سبحانَ الذي أسرى بعبدِهِ ليلاً وآتى موسى الكتابَ، وردَّ الكلامَ إلى: «وآتَيْنا»، وقد ابتدأ بقولهِ أسرى لِمَا قَدْ ذكرنا قَبْلُ فيما مضى من فعلِ العرب في نظائرِ ذلك من ابتداءِ الخبرِ بالخبرِ عن الغائبِ، ثم الرجوعَ إلى الخـطابِ وأشباهِه. وعَنَى بالكتابِ الذي أُوتِيَ موسى: التوراة «وَجَعَلْناهُ هُدًى لِبَنِي إسْرَائِيلَ»، يقول: وجعلنا الكتابَ الذي هو التوراة بياناً للحقِّ، ودليلاً لهم على محجةِ الصوابِ فيما افترضَ عليهم، وأمرهم به، ونهاهم عنه.

---

(١) وهو مستفيض في الأحاديث الصحيحة مما لا يحتاج إلى إغراق.

وقوله: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا» معناه: ألّا تتخذوا حفيظاً لكم سواي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لبني إسرائيل ذريَّةَ مَنْ حملنا مع نوحٍ. وعَنَى بالذريةِ: جميعَ من احتجَّ عليه جلّ ثناؤه بهذا القرآنِ من أجناسِ الأممِ، عَرَبِهم وعَجَمِهم من بني إسرائيل وغيرهم، وذلك أنَّ كُلَّ مَنْ على الأرضِ من بني آدم، فهم من ذريةِ مَنْ حَمَلَهُ الله مع نوحٍ في السفينة.

وقوله: «إِنَّهُ كانَ عَبْدًا شَكُورًا»، يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «إنه» إنَّ نوحاً، والهاء من ذِكْرِ نوحٍ كان عبداً شكوراً لله على نعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾



وقد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ أنَّ معنى القضاء: الفراغ من الشيء، ثم يستعمل في كلِّ مَفْرُوغٍ منه.

فتأويل الكلام في هذا الموضع: وفَرَغَ رَبُّكَ إلى بني إسرائيل فيما أنزلَ

من كتابهِ على موسى صلواتُ الله وسلامه عليه بإعلامهِ إياهم، وإخباره لهم «لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ»، يقول: لَتَعْصُنَّ الله يا معشَرَ بني إسرائيل ولتخالفُنَّ أمرَهُ في بلادِهِ مرّتين «وَلَتَعْلُنَّ عَلُوًّا كَبِيرًا»، يقول: ولَتَسْتَكْبِرُنَّ على الله باجترائِكم عليه استكباراً شديداً.

وأما قوله: «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّا كَبِيراً» فقد ذكرنا قولَ مَنْ قال: يعني به: استكبارهم على الله بالجراءةِ عليه، وخلافهم أمره.

وأما قوله: «فاذَا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما»، يعني: فإذا جاء وَعْدُ أولى المرَّتينِ اللتين يفسدون بهما في الأرض.

وقوله: «بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلَالَ الدّيارِ، وكانَ وعَدْاً مَفْعُولاً»، يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «بَعَثْنا عَلَيْكُمْ» وجَّهنا إليكم، وأرسلنا عليكم «عِباداً لَنا أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ»، يقول: ذوي بطشٍ في الحروب شديد.

وقوله: «فَجاسُوا خِلالَ الدّيارِ، وكانَ وعَدْاً مَفْعُولاً»، يقول: فتردَّدُوا بين الدورِ والمساكنِ، وذهبوا وجاءوا، يقال فيه: جاسَ القومُ بين الديار وحاسوا بمعنى واحد، وجست أنا أجوس جوساً وجوساناً.

ويعني بقوله: «وكانَ وعَدْاً مَفْعُولاً» وكان جوسُ القومِ الذين نبعث عليهم خلال ديارهم وعداً من الله لهم مفعولاً ذلك لا مَحالة، لأنه لا يُخْلفُ الميعاد.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذين عنى الله بقوله: «أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ» فيما كان من فعلهم في المرّة الأولى في بني إسرائيل حين بعثوا عليهم، ومن الذين بعث عليهم في المرَّةِ الآخرة، وما كان من صنعهم بهم.

فقال بعضهم: كان الذي بعث الله عليهم في المرّة الأولى جالوت، وهو

من أهل الجزيرة[١].

وقال آخرون: بل بعث عليهم في المرّة الأولى سنحاريب[٢].

وقال آخرون: يعني بذلك قوماً من أهْلِ فارس، قالوا: ولم يكن في المرّة الأولى قتال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أدَلْنَاكُمْ يابني إسرائيل على هؤلاء القومِ الذين وصفهم جَلَّ ثناؤه أنه يبعثهم عليهم، وكانت تلك الإدالةُ والكرَّةُ لهم عليهم، فيما ذكر السُّدِّيُّ في خبره أن بني إسرائيل غزوهم، وأصابوا منهم، واستنقذوا ما في أيديهم منهم. وفي قول آخرين: إطلاقُ الملكِ الذي غزاهم ما في يديه من أسْرَاهُمْ، وردَّ ما كان أصابَ من أموالهم عليهم من غيرِ قتال. وفي قولِ ابن عباس الذي رواه عطية عنه: هي إدالةُ الله إياهم من عدوِّهم جالوت حتى قتلوه. «وأمْدَدْناكُمْ بأمْوالٍ وبَنِينَ»، يقول: وزِدْنَا فيما أعطيناكم من الأموالِ والبنين.

وقوله: «وَجَعَلْناكُمْ أكْثَرَ نَفِيراً»، يقول: وصَيَّرْنَاكُمْ أكثرَ عدَدَ نافرٍ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾

(١) يعني: الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي المعروفة بجزيرة ابن عمر.

(٢) أحد ملوك العراق الأشداء المعروفين.

يقول تعالى ذِكْرُه لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة: «إنْ أحْسَنْتُمْ» يا بني إسـرائيل، فأطعتم الله وأصلحتم أمرَكُمْ، ولزمتم أمره ونهيه «أحْسنْتُمْ» وفعلتم مافعلتم من ذلك «لأنْفُسِكُمْ» لأنَّكم إنما تنفعونَ بفِعْلَتِكُمْ ما تفعلونَ من ذلك أنفُسَكم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنَّ الله يدفعُ عنكم من بَغاكُمْ سوءاً، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قُوَّتِكم قُوَّةً. وأما في الآخرة فإن الله تعالى يُثِيبُكم به جنانه. «وإنْ أساْتُمْ»، يقول: وإنْ عَصَيْتمُ الله وركبتم ما نهاكم عنه حينئذٍ، فإلى أنفسكم تسيئون، لأنكم تُسْخِطُونَ بذلك على أنفسكم رَبَّكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدِوَّكُمْ، ويمكِّن منكم مَنْ بَغَاكُمْ سوءاً، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين. وقال جلّ ثناؤه: «وَإنْ أساْتُمْ فلها»والمعنى: فإليها كما قال: «بأنَّ رَبَّكَ أوْحى لَها» والمعنى: أوحى إليها.

وقوله: «فاذَا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ»، يقول: فإذا جاء وعدُ المرَّةِ الآخرة من مَرَّتَيْ إفسادِكم يا بني إسرائيل في الأرض «لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ»، يقول: لِيَسُوءَ مجيءُ الوعدِ للمرَّةِ الآخرةِ وجوهَكم فيقبِّحها.

وقـولـه: ««وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِـدَ كمَـا دَخلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول: وليدخل عدوُّكُم الذي أبعثُه عليكم مسجدَ بيتِ المقدس قهراً منهم لكم وغَلَبةً، كما دخلوه أوَّلَ مرّة حين أفسدتم الفسادَ الأوّل في الأرض.

وأما قوله: «وَلِيُتَبِّرُوا ماعَلَوْا تَتْبيراً»، فإنه يقول: وليدمِّرُوا ما غَلَبُوا عليه من بلادِكم تدميراً، يقـال منه: دمَّرتُ البلد: إذا خَرَّبتُه وأهلكتُ أهله، وتَبرَ تَبْراً وتباراً، وتَبَّرته أتبرهُ تتبيراً. ومنه قول الله تعالى ذكره: «وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاَّ تَباراً» يعني: هلاكاً.

القَـوْلُ فِي تَأوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يقول تعالى ذكره: لعلَّ ربكم يا بني إسرائيل أنْ يرحمكم بعد انتقامهِ منكم بالقومِ الذين يبعثهم اللهُ عليكم ليسوء مبعثُه عليكم وجوهَكُم، وليدخلوا المسجدَ كما دخلوهُ أوَّلَ مرّةٍ، فيستنقِذَكُمْ من أيديهم، ويَنْتَشِلَكُمْ من الذلِّ الذي يُحِلُّه بكم، ويرفعكم من الخمولـةِ التي تَصِيرونَ إليها؛ فيعزّكم بعد ذلك، وعَسَى مِنَ اللهِ: واجبٌ، وفعلَ اللهُ ذلك بهم، فَكَثَّرَ عَدَدهم بعد ذلك، ورفعَ خَساستهم، وجعـل منهم الملوكَ والأنبياء، فقال جَلَّ ثناؤه لهم: وإنْ عُدْتُمْ يا معشـرَ بني إسـرائيل لمعصيتي وخلافِ أمري، وقَتْلِ رسلي، عُدْنَا عليكم بالقتلِ والسِّباء، وإحلالِ الذلِّ والصَّغار بكم، فعادوا فعاد اللهُ عليهم بعقابهِ وإحلالِ سخطه بهم.

وقوله: «وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ للكافِرِينَ حَصِيراً»، يعني: فراشاً ومهاداً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلناهُ على نبينا محمدٍ ﷺ يرشدُ ويسدِّدُ من اهتدى به «لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»، يقول: للسبيلِ التي هي أقومُ من غيرِهَا من السُّبُل، وذلك دِينُ الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلامُ، يقول جَلَّ ثناؤه: فهذا القرآنُ يهدي عبادَ الله المهتدين به إلى قصدِ السبيل التي ضَلَّ عنها سائرُ أهلِ المللِ المكذِّبينَ به.

وقوله: «وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ»، يقول: ويبشر أيضاً مع هدايته مَن اهتدى به للسبيلِ الأقصدِ الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملونَ في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتهـون عَمَّا نهاهم عنه بأن «لَهُمْ أَجْراً» من الله على إيمانهم وعَمَلِهم

الصالحات «كَبيراً»، يعني: ثواباً عظيماً، وجزاء جزيلاً، وذلك هو الجنةُ التي أعَدَّها الله تعالى لمن رَضِيَ عمله.

وقوله: «وأنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأن الذين لا يُصَدِّقُونَ بالمعادِ إلى الله، ولا يُقِرُّونَ بالثواب والعقابِ في الدنيا، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوبِ معاصي الله «أعْتَدنا لهُمْ»، يقول: أعددنا لهم، لقدومهم على رَبِّهم يومَ القيامة «عَذاباً ألِيماً»، يعني: موجعاً، وذلك عذابُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُذَكِّراً عبادَهُ أياديه عندهم، ويدعو الإنسانُ على نفسه وولـده وماله بالشرِّ، فيقول: اللهمَّ أهْلِكْهُ والْعَنْهُ عند ضَجَره وغضبه، كدعائهِ بالخير: يقول: كدعائهِ رَبَّهُ بأنْ يَهَبَ له العافيةَ، ويرزقه السلامةَ في نفسِه ومالهِ وولـده، يقول: فلو استُجِيبَ له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرِّ كما يُسْتَجَابُ له في الخير هَلَكَ، ولكنَّ الله بفضله لا يستجيبُ له في ذلك.

واختلف في تأويل قوله: «وكانَ الإنْسانُ عَجُولاً».

فقال بعضهم: معناه: وكان الإنسانُ عَجُولاً، بالدعاءِ على مايكره، أنْ يُستجابَ له فيه.

وقـال آخرون: عَنَى بذلك آدم أنه عجل حين نفخَ فيه الروح قبل أن تجري في جميع جَسَدِه، فرامَ النهوضَ، فوصفَ وَلَدَهُ بالاستعجال، لِمَا كان من استعجالِ أبيهم آدم القيام، قبل أن يتمَّ خَلْقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ

ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن نعمته عليكم أيها الناسُ، مخالفته بين علامةِ الليلِ وعلامةِ النهارِ، باظلامهِ علامةَ الليل، وإضاءته علامةَ النهارِ، لتسكنُوا في هذا، وتتصرَّفُوا في ابتغاء رزقِ الله الذي قَدَّرَهُ لكم بفضله في هذا، ولتعلموا باختلافهما عددَ السنين وانقضاءها، وابتداءَ دُخُولها، وحسابَ ساعات النهار والليل وأوقاتها. «وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناه تفصيلاً»، يقول: وكلّ شيءٍ بَيَّناهُ بياناً شافياً لكم أيها الناسُ لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتخلصوا له العبادةَ، دونَ الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكلَّ إنسانٍ ألزمناهُ ما قضى له أنه عامله، وهو صائرٌ إليه من شقاءٍ أو سعادةٍ بعمله في عُنُقِه لا يفارقهُ، وإنما قوله: «أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ» مَثَلٌ لِمَا كانتِ العربُ تتفاءلُ به أو تتشاءم من سوانحِ الطيرِ وبوارِحها[1]، فأعلمهم جَلَّ ثناؤه أنَّ كُلَّ إنسانٍ منهم قد ألزمه ربُّه طائِرَهُ في عنقه نحساً كان ذلك الذي ألزمه من الطائرِ، وشقاءً يُورِدُه سعيراً، أو كانَ سعداً يورده جناتِ عدن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا



---

(١) سوانح الطير: مباركها، وبوارح الطير: أشائمها، يقال طائر أشأم جاء بالشؤم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ونُخرجُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كِتابا يَلقاهُ مَنْشُوراً»، فيقال له: «اقرأْ كِتابَكَ كَفَى بِنفسكَ اليَوْمَ عَلَيكَ حَسِيباً»، فتَرَكَ ذِكْرَ قوله (فنقولُ له) اكتفاء بدلالة الكلام عليه.

وعَنَى بقوله: «اقرأْ كِتابَكَ»: اقرأ كتابَ عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كاتِبَانَا يكتبانِه، ونُحْصِيه عليك. «كَفَى بنَفسِكَ اليَوْمَ عَلَيكَ حَسِيباً»، يقـول: حَسْبكَ اليوم نفسك عليك حاسباً يحسبُ عليكَ أعمالكَ، فيحصيها عليكَ، لا نبتغي عليكَ شاهداً غيرَها، ولا نطلبُ عليك مُحْصِياً سواها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَن استقامَ على طريقِ الحقِّ فاتبعه، وذلك دِينُ الله الذي ابتعثَ به نبيهُ محمداً ﷺ «فإنَّما يَهتَدِي لِنَفسِهِ»، يقول: فليس ينفعُ بلزومهِ الاستقامةَ، وإيمانهِ باللهِ ورسولهِ غيرَ نفسِه. «وَمَنْ ضَلَّ»، يقول: ومَنْ جار عن قَصْدِ السبيل، فأخذ على غير هُدى، وكفر باللهِ وبمحمدٍ ﷺ وبما جاء به من عندِ الله من الحقِّ، فليس يضرُّ بضلالهِ وجَوْره عن الهدى غيرَ نفسه، لأنه يُوجِبُ لها بذلك غضبَ الله وأليمَ عذابه.. وإنما عَنَى بقوله: «فإنَّما يَضِلُّ عَلَيها» فإنما يكسبُ إثمَ ضلالهِ عليها لا على غيرها.

وقوله: «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، يعني تعالى ذِكْرُه: ولا تحملُ حاملةٌ حملَ أخرى غيرها من الآثام. وقال: «وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» لأنَّ معناها: ولا تزرُ نفسٌ وازرةَ وزرِ نفسٍ أخـرى يقال منه: وزرتُ كذا أزره وزراً، والوزر: هو الإثم، يُجْمَعُ أوزاراً، كما قال تعالى: «وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أوْزَاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ» وكأنَّ

معنى الكلام: ولا تأثم آثمةٌ إثم أخرى، ولكن على كُلِّ نفسٍ إثمها دونَ إثمِ غيرِها من الأنفس.

وقوله: «وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما كنا مُهْلِكي قومٍ إلا بعد الإعذارِ إليهم بالرسلِ، وإقامةِ الحجة عليهم بالآياتِ التي تقطع عُذْرَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

يعني جل ثناؤه: أمَرْنَا أهلَها بالطاعةِ فَعَصَوْا وفَسَقُوا فيها، فَحَقَّ عليهم القولُ، لأن الأغلبَ من معنى: أمرنا: الأمرَ، الذي هو خلاف النهي دونَ غيره، وتوجيه معاني كلام الله جلّ ثناؤه إلى الأشهرِ الأعرفِ من معانيه، أوْلى، ما وُجِدَ إليه سبيلٌ، من غيره.

ومعنى قوله: «فَفَسَقُوا فِيهَا»: فخالفوا أمرَ اللهِ فيها، وخرجوا عن طاعته. «فَحَقَّ عَلَيْها القَوْلُ»، يقول: فَوَجَبَ عليهم بمعصيتهم الله وفُسُوقِهم فيها، وعيد الله الذي أوعد مَنْ كفر به، وخالفَ رُسُلَهُ، من الهلاكِ بعد الاعذارِ والإنذارِ بالرسلِ والحججِ «فَدَمَّرْناها تَدْميراً»، يقول: فَخَرَّبْنَاهَا عند ذلك تخريباً، وأهلكنا مَنْ كان فيها من أهلها إهلاكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

وهـذا وعيدٌ من الله تعـالى ذِكْرُه مُكَذِّبي رسولِه محمدٍ ﷺ من مشركي

قريش، وتهديدٌ لهم بالعقابِ، وإعلامٌ منه لهم، أنهم إنْ لم ينتهوا عَمَّا هُمْ عليه مُقِيمونَ من تكذيبهم رسولَهُ عليه الصلاة والسلام أنه مُحِلٌّ بهم سَخَطه، ومنزلُ بهم من عقـابه ما أنزلَ بِمَنْ قَبْلَهُم من الأممِ الذين سلكوا في الكفرِ بالله، وتكذيبِ رُسُلِه سبيلَهُمْ، يقول الله تعالى ذِكْرُه: وقد أهلكنا أيها القومُ من قبلكم من بعـد نوحٍ إلى زمانكم قروناً كثيرة كانوا من جحودِ آياتِ الله والكفرِ به، وتكذيبِ رسله، على مِثْلِ الذي أنتم عليه، ولستم بأكرمَ على الله تعالى منهم، لأنـه لا منـاسبةَ بين أحدٍ وبين الله جَلَّ ثناؤه، فيعذِّبَ قوماً بما لا يعذِّبُ به آخرين، أو يعفو عن ذنوبِ ناسٍ فيعاقبَ عليها آخرينَ، يقول جلّ ثناؤه: فأنيبوا إلى طاعةِ الله رَبِّكم، فقد بعثنا إليكم رسولاً يُنبِّهُكُمْ على حججنا عليكم، ويوقظكم من غَفْلتكم، ولم نكن لنعذِّبَ قوماً حتى نبعثَ إليهم رسولاً منبهاً لهم على حججِ الله، وأنتم على فُسوقِكم مقيمونَ، وكفى بربك يا محمدُ بذنوبِ عبادِه خبيراً: يقول: وحسبك يا محمدُ بالله خابراً بذنوبِ خَلْقِه عالماً، فإنه لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالِ مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعال غيرهم من خَلْقِه، هو بجميعِ ذلك عالمٌ خابرٌ بصير، يقول: يبصرُ ذلك كُلَّهُ فلا يغيبُ عنه منه شيءٌ، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرّةٍ في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقنُ بمعادٍ، ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً من ربه على عمله «عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ»، يقول: يعجل الله له في الدنيا ما يشاءُ من بَسْطِ الدنيا عليه، أو تَقْتيرِهَا لمن أرادَ الله أنْ يفعـلَ ذلـك به، أو إهلاكه بما يشاءُ من

عقوباته. «ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها»، يقول: ثم أصليناهُ عند مَقْدَمِه علينا في الآخرة جهنم، «مَذْموماً» على قِلَّةِ شُكْرِه إيانا، وسوءِ صنيعهِ فيما سلفَ من أيادينا عنده في الدنيا، «مَدْحُوراً»، يقول: مُبْعَداً: مُقْصىً في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ أراد الآخرةَ وإياها طَلَبَ، ولها عَمِلَ عملها، الذي هو طاعة الله وما يرضيه عنه، وأضاف السعيَ إلى الهاء والألف، وهي كناية عن الآخرة، فقال: وسعى للآخرةِ سعيَ الآخرةِ، ومعناه: وعمل لها عملها لمعرفةِ السامعين بمعنى ذلك، وأنَّ معناه: وسعى لها سَعْيَهُ لها وهو مؤمنٌ، يقول: هو مؤمنٌ مصدِّقٌ بثوابِ الله، وعظيمِ جزائهِ على سعيهِ لها، غير مكذِّبٍ به تكذيبَ مَنْ أراد العاجلةَ، يقولُ الله جلَّ ثناؤه: «فَأُولئكَ»، يعني: فَمَنْ فعلَ ذلك «كانَ سَعْيُهُمْ»، يعني عَمَلُهم بطاعةِ الله «مَشْكُوراً»، وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حُسْنُ جزائهِ لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سَيِّئها برحمته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُمِدُّ رَبُّكَ يا محمدُ كلا الفريقين من مُريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمدَ، واستيفائِهما الأجلَ ما كتب لهما، ثم تختلفُ بهما الأحوالُ بعد المماتِ، وتفترقُ بهما بعد الوُرودِ المصادرُ، ففريق مريدي العاجلةِ إلى جهنمَ مَصْدَرُهُمْ، وفريقُ مريدي الآخرةِ إلى الجنة

مآبهم، «وَمَا كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً»، يقول: وما كان عطاءُ ربك الذي يؤتيه مَنْ يشاءُ من خَلْقِهِ في الدنيا ممنوعاً عَمَّنْ بَسَطَهُ عليه لا يقدر أحدٌ من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه اللهُ إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمدُ بعينِ قلبكَ إلى هذين الفريقين اللذين هم أحدهما: الدار العاجلة، وإياها يطلبُ، ولها يعملُ؛ والآخر: الذي يريدُ الدارَ الآخرةَ، ولها يسعى مُوقناً بثوابِ الله على سعيه، كيف فضَّلنا أحدَ الفريقين على الآخر، بأنْ بَصَّرْنَا هذا رُشْدَهُ، وهديناهُ للسبيلِ التي هي أقومُ، ويَسَّرْنَاهُ للذي هو أَهْدى وأرشَد، وخَذَلْنَا هذا الآخر، فأضللناهُ عن طريقِ الحقِّ، وأغشينا بَصَرَهُ عن سبيلِ الرُّشد. «وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ»، يقول: وفريقُ مُريدِ الآخرةِ أكبرُ في الدارِ الآخرةِ درجاتٍ بعضُهم على بعض، لتفاوتِ منازلهم بأعمالِهم في الجنةِ، وأكبرُ تفضيلاً بتفضيلِ الله بعضَهم على بعضٍ من هؤلاء الفريقِ الآخرينَ في الدنيا فيما بسطنا لهم فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ ۞

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تجعلْ يا محمدُ مع الله شريكاً في ألوهته وعبادته، ولكنْ أخلِصْ له العبادةَ، وأفْرِدْ له الألوهةَ، فإنه لا إله غيره، فإنك إنْ تجعلْ معه إلهاً غيره، وتعبد معه سِواه، تقعد مذموماً: يقول: تصير مَلُوماً على ما ضَيَّعْتَ من شكرِ الله على ما أنعم به عليك من نعمه، وتصييرِكَ

الشكرَ لغيرِ مَنْ أوْلَاكَ المعروفَ، وفي إشراكك في الحمدِ مَنْ لم يشركه في النعمة عليك غيره، مخذولاً قد أسلمكَ رَبُّكَ لمن بَغَاكَ سوءاً، وإذا أسلمكَ رَبُّكَ الذي هو ناصرُ أوليائهِ لم يكنْ لكَ من دونهِ وليٌّ يَنْصُرُكَ ويدفعُ عنك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه حُكْمَ رَبِّكَ يا محمدُ بأمرِهِ إياكم ألا تعبدوا إلا الله، فإنه لا ينبغي أنْ يُعْبَدَ غيره.

وقوله: «وبَالوَالِدَيْنِ إحْساناً»، يقول: وأمركم بالوالدينِ إحساناً أنْ تُحْسِنُوا إليهما وتَبَرُّوهُمَا. ومعنى الكلام: وأمركم أنْ تُحسنوا إلى الوالدين.

وقوله: «فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ»، يقول: فلا تُؤَفِّفْ من شيءٍ تَرَاهُ من أحدهما أو منهما مما يتأذَّى به الناسُ، ولكن اصبرْ على ذلك منهما، واحتسبْ في الأجرِ صبركَ عَليه منهما، كما صبرا عليكَ في صِغَرِكَ.

وقوله: «وَلا تَنْهَرْهُما»، يقول جلَّ ثناؤه: ولا تَزْجُرْهُمَا.

وأما قوله: «وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً»، فإنه يقول جلّ ثناؤه: وقُلْ لهما قولاً جميلاً حسناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وكُنْ لهما ذليلاً رحمةً منك بهما تُطِيعُهُمَا فيما أمراكَ

به مما لم يكنْ للهِ معصية، ولا تخالفهما فيما أحبًا.

وأما قوله: «وَقُلْ رَبِّ ارحَمْهُما كمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً»، فإنه يقول: ادْعُ الله لوالديكَ بالرحمةِ، وقُلْ ربِّ ارحمهما، وتَعَطَّفْ عليهما بمغفرتكَ ورحمتكَ، كما تعطَّفا عليَّ في صغري، فرحماني وربياني صغيراً، حتى استقللتُ بنفسي، واستغنيتُ عنهما.

وقال جماعةٌ من أهل العلم: إنَّ قولَ الله جلّ ثناؤه: «وَقُل رَبِّ ارحَمْهُما كمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً» منسوخ بقوله: «ما كانَ للنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا للْمُشْرِكِينَ وَلَو كانُوا أُولِي قُربَى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُم أَصْحابُ الجَحِيمِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «رَبُّكُمْ» أيها الناسُ «أعْلَمُ» منكم «بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ» من تعظيمكم أمرَ آبائِكم وأمهاتكم وتكرمتهم، والبرّ بهم، وما فيها من اعتقادِ الاستخفافِ بحقوقهم، والعقوق لهم، وغير ذلك من ضمائرِ صدوركم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو مُجَازِيكم على حَسَنِ ذلك وسيِّئِه، فاحْذَرُوا أن تُضْمِرُوا لهم سوءاً، وتَعْقِدُوا لهم عقوقاً.

وقوله: «إنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ»، يقول: إن أنتم أصلحتم نِيَّاتِكم فيهم، وأطعتم اللهَ فيما أمرَكُمْ به من البِرِّ بهم، والقيامِ بحقوقِهم عليكم، بعد هفوةٍ كانتْ منكم، أو زَلَّةٍ في واجبٍ لهم عليكم مع القيامِ بما ألزمكم في غيرِ ذلك من فرائضِه، فإنه كان للأوَّابينَ بعد الزَّلةِ، والتائبينَ بعد الهَفْوةِ غفوراً لهم.

والأوَّابُ: هو التائبُ من الذنب، الراجعُ من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأنَّ الأوَّابَ إنما هو فَعَّالٌ، من قولِ القائل: آبَ فلانٌ من كذا إما مِنْ سَفَرِه إلى منزله، أو من حالٍ إلى حال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «وآتِ ذَا القُرْبى».

فقال بعضهم: عَنى به: قرابةَ الميتِ من قِبَلِ أبيه وأمه، أمر الله جلّ ثناؤه عباده بِصِلَتِهَا.

وقال آخرون: بل عَنَى به قرابةَ رسولِ الله ﷺ.

وأَوْلى التأويلين عندي بالصواب، تأويلُ مَنْ تأوّل ذلك أنها بمعنى وصية الله عبادَهُ بصلةِ قَرَاباتِ أنْفُسِهم وأرحامهم من قِبَلِ آبائِهم وأمهاتهم، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ عَقَّبَ ذلك عقيبَ حَضِّهِ عبادَهُ على بِرِّ الآباءِ والأمَّهات، فالواجبُ أنْ يكونَ ذلك حَضًّا على صِلَةِ أنسابِهم دونَ أنسابِ غيرهم التي لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويلُ الكلام: وأعطِ يا محمدُ ذا قرابتك حَقَّهُ مِنْ صلتكَ إياه، وبِرِّكَ به، والعطف عليه، وخرج ذلك مَخْرجَ الخطابِ لنبيِّ الله ﷺ، والمرادُ بحكمهِ جميعَ مَنْ لزمته فرائضُ الله، يدلُّ على ذلك ابتداؤه الوصيةَ بقولهِ جلَّ ثناؤه: «وقَضَى رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وبالوَالِدَيْن إحْساناً، إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدُهُما» فوجَّهَ الخطابَ بقوله: «وقَضَى رَبُّكَ» إلى نبيِّ الله ﷺ، ثم قال: «ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ» فَرجَعَ بالخطابِ به إلى الجميعِ، ثم صَرَفَ الخطابَ بقوله: «إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ» إلى إفرادِه به. والمعنيُّ بكل ذلك جميع مَنْ لزمته فرائضُ الله عزَّ وجلّ، أفرد بالخطابِ رسولَ الله ﷺ وحده، أو عَمَّ به هُوَ وجميعَ أمتهِ.

وقوله: «والمِسْكِينَ» وهو الذلَّة من أهلِ الحاجة. وقد دَلَّلْنا فيما مضى على معنى المسكين بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «وابْنَ السَّبيلِ»، يعني: المسافر المنقطع به، يقول تعالى: وصِلْ قرابتـك، فأعْطِهِ حَقَّهُ من صِلتكَ إياهُ، والمسكين ذا الحاجة، والمجتاز بك المنقطع به، فأعِنْهُ، وقَوِّهِ على قطعِ سفره.

وقوله: «وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً»، يقول: ولا تُفَرِّقْ يا محمدُ ما أعطاكَ الله من مالٍ في معصيته تفريقاً. وأصلُ التبذير: التفريقُ في السَّرَفِ.

وأما قوله: «إنَّ المُبَذِّرينَ كانُوا إخْوَانَ الشَّياطِينِ»، فإنه يعني: إنَّ المفرِّقينَ أموالَهم في معاصي الله المُنْفِقِيَها في غير طاعتهِ أولياءُ الشياطين، وكذلك تقولُ العرب لكلِّ ملازمٍ سُنَّةَ قومٍ وتابع أثرهم: هو أخوهم. «وكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً»، يقول: وكان الشيطانُ لنعمةِ ربه التي أنعمها عليه جَحُوداً لا يشكره عليها، ولكنه يكفرها بتركِ طاعةِ الله، وركوبهِ معصيتَهُ، فكذلك إخوانُه من بني آدم المُبَذِّرُونَ أموالهم في معاصي الله، لا يشكرونَ اللهَ على نعمهِ عليهم، ولكنهم يخالفونَ أمْرَهُ ويعصُونَهُ، ويَسْتَنُّونَ ـ فيما أنعم الله عليهم به من الأموالِ التي خَوَّلَهُمُوهَا عز وجل ـ سنتَهُ مِنْ تَرْكِ الشكرِ عليها، وتَلَقِّيها بالكفُران.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وإنْ تُعْرِضْ يا محمدُ عن هؤلاءِ الذين أمرتكَ أن تؤتيهم حقوقَهُمْ إذا وجدتَ إليها السبيلَ بوجهك عند مسألتهم إياكَ ما لا تجدُ إليه سبيلاً، حياءً منهم ورحمةً لهم «ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ»، يقول: انتظارَ رزقٍ تنتظرهُ من عندِ ربك، وترجو تيسيرَ اللهِ إياهُ لكَ، فلا تُؤيِسْهُمْ، ولكنْ قُلْ لهم

قولاً ميسوراً: يقول: ولكنْ عِدْهُمْ وعداً جميلاً، بأنْ تقول: سيرزقُ الله فأعطيكم، وما أشبهَ ذلك من القولِ اللينِ غيرِ الغليظ، كما قال جلّ ثناؤه: «وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تبارك وتعالى للممتنعِ من الإنفاقِ في الحقوق التي أوجبها في أموالِ ذوي الأموال، فجعله كالمشدودةِ يَدهُ إلى عُنُقِه، الذي لا يقدرُ على الأخذِ بها والإعطاء.

وإنما معنى الكلام: ولا تمسكْ يا محمدُ يدكَ بُخْلاً عن النفقةِ في حقوقِ الله، فلا تنفق فيها شيئاً إمساكَ المغلولةِ يَدُهُ إلى عنقهِ، الذي لا يستطيعُ بَسْطَها، «وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ»، يقول: ولا تبسطها بالعَطِيَّةِ كُلَّ البسط، فتَبقى لا شيءَ عندك، ولا تجد إذا سُئِلتَ شيئاً تُعطيه سائِلَكَ «فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً»، يقول: فتقعد يَلُومُكَ سائِلُوكَ إذا لم تُعْطِهم حين سألوكَ، وتلومُكَ نَفْسُكَ على الإسراعِ في مالك وذهابه، محسوراً: يقول: مَعِيباً، قد انقُطِعَ بك، لا شيءَ عندك تنفقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ يبسطُ رزقَهُ لمن يشاءُ من عباده، فيوسِّعُ عليه، ويَقْدِرُ على مَنْ يشاء، يقول: ويُقَتِّرُ على مَنْ يشاء منهم، فيضيِّقُ عليه. «إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً»، يقول: إنَّ ربك ذو خبرةٍ بعباده،

ومَنِ الذي تُصْلِحُه السَّعَةُ في الرزق وتُفْسده؛ ومَنِ الذي يُصلحه الإقتارُ والضيق ويهلكُه. «بصيراً»، يقول: هو ذوبَصَرٍ بتدبيرهم وسياستهم، يقول: فانْتَهِ يا محمدُ إلى أمرنا فيما أمرناكَ ونَهيناكَ من بَسْطِ يدكَ فيما تبسطها فيه، وفيمن تبسطها له، ومِنْ كَفِّها عَمَّنْ تَكُفُّها عنه، وتكفها فيه، فنحنُ أعلمُ بمصالحِ العبادِ منك، ومن جميعِ الخلق وأبصرُ بتدبيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقَضَى رَبُّكَ» يا محمدُ «ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وبالوالدينِ إحْساناً»، «وَلا تَقْتُلُواأولادَكُم خَشْيَةَ إمْلاقٍ» فموضع تقتلوا نُصب عطفاً على ألا تعبدوا.

ويعني بقوله: «خَشْيَةَ إمْلاقٍ» خوفَ إقتارٍ وفَقْرٍ. وإنما قال جلّ ثناؤه ذلك للعرب، لأنهم كانوا يقتلونَ الإناثَ من أولادِهم خوفَ العَيْلَةِ على أنفسهم بالإنفاقِ عليهن.

وأما قوله: «إنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبيراً»، فإن معنى ذلك: كان إثماً وخطيئة، لا خطأً من الفِعْلِ، لأنهم إنما كانوا يقتلونهم عَمْداً لا خطأً، وعلى عَمْدهم ذلك عاتَبَهم رَبُّهم، وتَقَدَّمَ إليهم بالنهي عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقضى أيضاً أن «لا تَقْرَبُوا» أيها الناسُ «الزِّنا إنَّهُ كانَ فاحِشَةً»، يقول: إن الزّنا كان فاحشةً «وسَاءَ سَبيلًا»، يقول: وساءَ طريقُ الزنا

طريقاً، لأنه طريقُ أهلِ معصيةِ الله، والمخالفينَ أمْرَهُ، فأسْوِئْ به طريقاً يوردُ صاحِبَهُ نارَ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

يقول جلّ ثناؤه: وقضى أيضاً أنْ «لا تَقْتُلُوا» أيها الناسُ «النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ» قَتْلَها «إلاَّ بالحَقِّ» وحَقُّها أنْ لا تُقْتَلَ إلا بكفرٍ بعدَ إسلامٍ، أو زنا بعدَ إحصانٍ، أو قَودٍ بنفسٍ، وإنْ كانت كافرةً لم يتقدَّمْ كُفْرَها إسلامٌ، فأنْ لا يكونَ تقدم قتلها لها عهدٌ وأمان.

وقوله: «ومَنْ قُتِل مَظْلُوماً»، يقول: ومَنْ قُتِلَ بغير المعاني التي ذكرنا أنه إذا قُتِلَ بها كان قتلاً بحقٍّ «فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلطاناً»، يقول: فقد جعلنا لوليِّ المقتـولِ ظلماً سلطاناً على قاتلِ وَلِيِّهِ، فإن شاء استقادَ منه فقتله بوليه، وإنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء أخذ الدية.

وقـولـه: «فلا يسرف في القتل»، يقول: فلا تقتل بالمقتول ظُلْماً غير قاتله، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك إذا قتل رجل رجلا عمدَ وليُّ القتيلِ إلى الشريف من قبيلة القاتل، فقتله بوليه، وتركَ القاتلَ، فنهىَ اللهُ عزَّ وجـلَّ عن ذلـك عبـادَهُ، وقال لرسوله عليه الصلاة والسلام: قَتْل غير القاتل بالمَقْتول معصيةٌ وسرفٌ، فلا تقتل به غير قاتله، وإن قتلت القاتل بالمقتول فلا تمثِّل به.

وأما قوله: «إنَّهُ كانَ مَنْصُوراً» فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا فيمن عُنِي بالهاء التي في قوله: «إنَّهُ» وعلى ماهي عائدةٌ.

فقال بعضهم: هي عائدة على وليِّ المقتولِ، وهو المعنيُّ بها، وهو المنصورُ على القاتل.

وقال آخرون: بل عُنِي بها المقتول، فعلى هذا القول هي عائدةٌ على «مَن» في قوله: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً».

وقال آخرون: عُنِي بها دمُ المقتولِ، وقالوا: معنى الكلام: إنَّ دَمَ القتيلِ كان منصوراً على القاتل.

وأشبهُ ذلك بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: عُنِي بها الوليُّ، وعليه عادت، لأنه هو المظلومُ، ووليه المقتول، وهي إلى ذِكْرِه أقربُ من ذكرِ المقتولِ، وهو المنصورُ أيضاً، لأنَّ الله جلّ ثناؤه قضى في كتابه المنزل، أنْ سلَّطه على قاتلِ وليه، وحكَّمَهُ فيه، بأنْ جعل إليه قتله إنْ شاء، واستبقاءه على الدية إنْ أحبَّ، والعفو عنه إنْ رأى، وكفى بذلك نُصرةً له من الله جلَّ ثناؤه، فلذلك قلنا: هو المعنيُّ بالهاء التي في قوله: «إنَّهُ كانَ مَنْصُوراً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقضى أيضاً أنْ لا تقربوا مالَ اليتيم بأكلٍ، إسرافاً وبداراً أن يَكْبَروا، ولكن اقْرَبُوه بالفَعْلة التي هي أحسنُ، والخَلَّةِ التي هي أجملُ، وذلك أنْ تتصرَّفُوا فيه له بالتثميرِ والإصلاحِ والحيطةِ.

وقوله: «حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»، يقول: حتى يبلغ وقت اشتدادِه في العقلِ، وتدبيرِ ماله، وصلاح حاله في دينه. «وأَوْفُوا بالعَهْدِ»، يقول: وأوفوا بالعقدِ الذي تعاقدون الناسَ في الصلحِ بين أهلِ الحربِ والإسلام، وفيما بينكم أيضاً، والبيوعِ والأشربةِ والإجاراتِ، وغير ذلك من العقود. «إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولاً»،

يقول: إن الله جلَّ ثناؤه سائلٌ ناقضَ العهدِ عن نقضِه إياهُ، يقول: فلا تنقضُوا العهودَ الجائزةَ بينكم، وبين من عاهدتموه أيها الناسُ فتخفروه، وتغدروا بمن أعطيتُموه ذلك، وإنما عنى بذلك أن العهدَ كان مطلوباً؛ يقال في الكلام: ليسألنَّ فلان عهد فلان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥﴾

يقول تعالى ذكره: «وَ» قضى أنْ «أوْفُوا الكَيْلَ» للناسِ «إذَا كِلْتُمْ» لهم حقوقَهُمْ قِبلَكم، ولا تبخَسُوهم، «وَزِنُوا بالقِسْطاسِ المُسْتَقِيمِ»، يقول: وقَضى أنْ زِنُوا أيضاً إذا وزنتم لهم بالميزانِ المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاجَ فيه، ولا دَغلَ، ولا خديعة.

وقوله: «ذلكَ خَيْرٌ»، يقول: إيفاؤكم أيها الناسُ مَنْ تَكيلُونَ له الكيلَ، ووزنكُم بالعدلِ لمن تُوفونَ له، «خَيْرٌ لَكُمْ» من بَخْسِكم إياهم ذلك، وظُلْمِكُمُوهُمْ فيه، وقوله: «وأحْسَنُ تَأْوِيلًا»، يقول: وأحسنُ مردوداً عليكم وأوْلى إليه فيه فعلكم ذلك، لأنَّ الله تبارك وتعالى يرضى بذلك عليكم، فيُحسن لكم عليه الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ».

فقال بعضهم: معناه: ولا تَقُلْ ما ليسَ لك به عِلْمٌ.

وقال آخرون: بل معناه: ولا ترم.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: لا تَقُلْ للناسِ، وفيهم مالا عِلْمَ لكَ به، فترميهم بالباطلِ، وتشهد عليهم بغير الحقِّ، فذلك هو القَفْو.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى الأقوالِ فيه بالصواب، لأنَّ ذلك هو الغالب من استعمالِ العرب القَفْو فيه.

وأما قوله: «إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»، فإن معناه: إن الله سائلٌ هذه الأعضاءَ عما قالَ صاحِبُهَا، من أنه سمعَ أو أبصرَ أو علمَ، تشهدُ عليه جوارحُه عند ذلك بالحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذكره: ولا تمشِ في الأرضِ مختالاً مستكبراً. «إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ»، يقول: إنك لن تقطعَ الأرضَ باختيالك.

وقوله: «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوها»، فإن القَرَأة اختلفت فيه، فقرأه بعض قرأة المدينة وعامة قَرَأة الكوفة «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ عِند ربك مكروهاً» على الإضافةِ بمعنى: كل هذا الذي ذكرنا من هذه الأمورِ التي عددنا من مبتدأ قولنا: «وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إياهُ»... إلى قولنا: «وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً» «كانَ سَيِّئُهُ»، يقول: سيِىءُ ما عَدَدْنا عليكَ عند رَبِّكَ مكروهاً. وقال قارئُو هذه القراءة: إنما قيل: «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ» بالإضافةِ، لأنَّ فيما عددنا من قوله: «وقَضَى رَبُّكَ الَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ» أموراً، هي أمر

بالجميل، كقوله: «وبَالوَالدَيْنِ إحْساناً»، وقوله: «وآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ» وما أشبه ذلك، قالوا: فليس كلُّ ما فيه نهياً عن سيئةٍ، بل فيه نهيٌ عن سيئة، و أمرٌ بحسنات، فلذلك قرأنا «سَيِّئُهُ»، وقرأ عامة قَرَأة أهلِ المدينة والبصرة وبعض قَرَأة الكوفة «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئَةً»، وقالوا: إنما عَنَى بذلك: كلّ ماعددنا من قولنا: «وَلا تَقْتُلُوا أوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ» ولم يدخل فيه ما قبل ذلك. قالوا: وكُلُّ ما عددنا من ذلك الموضع إلى هذا الموضع سيئةٌ لا حسنةَ فيه، فالصوابُ قراءته بالتنوين. ومن قرأ هذه القراءة، فإنه ينبغي أن يكون من نيته أنْ يكون المكروه مقدماً على السيئة، وأنْ يكون معنى الكلام عنده: كُلُّ ذلك كان مكروهاً سيئة؛ لأنه إنْ جعل قوله: «مكروهاً» من نعت السيئة، لزمه أنْ تكون القراءة: كلُّ ذلك كان سيئة عند ربكَ مكروهة، وذلك خلاف ما في مصاحف المسلمين.

وأوْلى القراءتين عندي في ذلك بالصواب قراءة مَنْ قرأ «كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ» على إضافةِ السيىء إلى الهاء، بمعنى: كلُّ ذلك الذي عددنا من «وقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ. . . كانَ سَيِّئُهُ» لأنَّ في ذلك أموراً منهياً عنها، وأموراً مأموراً بها، وابتداءُ الوصيةِ والعهدِ من ذلك الموضع دونَ قوله: «وَلا تَقْتُلُوا أوْلادكُمْ» إنما هو عطفٌ على ما تقدَّمَ من قوله: «وقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ» فإذا كان ذلك كذلك، فقراءته بإضافة السيىء إلى الهاء أولى وأحقّ من قراءته سيئةً بالتنوين، بمعنى السيئةِ الواحدة. معناه: كُلُّ هذا الذي ذكرنا لكَ من الأمورِ التي عددناها عليكَ كان سَيِّئُهُ مكروهاً عند ربك يا محمدُ، يكرهه وينهى عنه ولا يرضاهُ، فاتقِ مواقعتَهُ والعملَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي بَيَّنا لك يا محمدُ من الأخلاقِ الجميلةِ التي أمـرناكَ بجميلها، ونهيناكَ عن قبيحها «مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ»، يقول: من الحكمةِ التي أوحيناها إليكَ في كتابنا هذا.

«وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً»، يقول: ولا تجعلْ مع الله شريكاً في عبادتك، فتُلْقَى في جهنم ملوماً تلومك نفسك وعارفوك من الناس «مَدْحُوراً»، يقول: مُبْعَداً مقصياً في النار، ولكنْ أخلص العبادةَ لله الواحد القهَّار، فتنجوَ من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه للذين قالوا من مشركي العرب: الملائكة بنات الله «أفأصْفاكُمْ» أيها الناسُ «رَبُّكُمْ بالبَنِينَ»، يقول: أفَخَصَّكُمْ رَبُّكم بالذكورِ من الأولادِ «واتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إناثاً» وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تَئِدُونَهُنَّ، وتقتلونهن، فجعلتم لله ما لا ترضونه لأنفسكم. «إنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركينَ الذين قالوا من الفريةِ على الله ما ذكرنا: إنكم أيها الناسُ لتقولون بقِيلِكُمْ: الملائكة بنات الله، قولاً عظيماً، وتفترون على الله فريةً منكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ صَرَّفْنا» لهؤلاءِ المشركينَ المفترين على الله «فِي هَذَا القُرآنِ» العِبَرَ والآيات والحجج، وضربنا لهم فيه الأمثالَ، وحَذَّرْناهُمْ

فيه وأنذرناهم «لِيَذَّكَّرُوا»، يقول: ليتذكروا تلك الحججَ عليهم، فيعقلوا خطأ ما هُمْ عليه مُقيمونَ، ويعتبروا بالعبر، فيَتّعِظُوا بها، ويُنيبُوا من جهالتهم فما يعتبرون بها، ولا يتذكرون بما يَرِدُ عليهم من الآياتِ والنُّذر، وما يَزِيدُهُمْ تذكيرنا إياهم «إلَّا نُفُورًا»، يقول: إلا ذهاباً عن الحقِّ، وبُعداً منه وهرباً. والنفورُ في هذا الموضع مصدرٌ من قولهم: نَفَرَ فلانٌ من هذا الأمر ينفِرُ منه نَفْراً ونفوراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر لو كان الأمرُ كما تقولون، من أنَّ معه آلهةً، وليس ذلك كما تقولون، إذنْ لابتغتْ تلك الآلهةُ القُربةَ من اللهِ ذي العرشِ العظيم، والتمست الزُّلْفةَ إليه، والمرتبةَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

وهذا تنزيهٌ من الله تعالى ذِكْرُه نَفْسَهُ عَمَّا وصفه به المشركون، الجاعلونَ معه آلهةً غيره، المُضِيفُونَ إليه البنات، فقال: تنزيهاً لله وعلوّاً له عما تقولون أيها القومُ، من الفريةِ والكذبِ، فإنَّ ماتُضيفونَ إليه من هذه الأمور ليس من صفته، ولا ينبغي أنْ يكونَ له صفةً.

وقوله: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ»، يقول: تُنَزِّهُ اللهَ أيها المشركونَ عما وصفتموه به إعظاماً له وإجلالاً، السمواتُ السبعُ والأرضُ،

ومَنْ فيهنَّ من المؤمنينَ به من الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، وأنتم مع إنعامِه عليكم، وجميلِ أياديه عندكم، تَفْتَرُونَ عليه بما تَفْتَرون.

وقوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»، يقول جلّ ثناؤه: وما من شيءٍ من خَلْقِه إلا يسبح بحمده.

وقوله: «وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكن لا تفقهونَ تسبيحَ ماعدا تسبيح مَنْ كان يُسَبِّحُ بمثلِ ألسنتكم. «إنَّهُ كانَ حَلِيماً»، يقول: إن الله كان حليماً لا يعجلُ على خَلْقِه، الذين يخالفون أمره، ويكفرون به، ولولا ذلك لعاجلَ هؤلاء المشركين الذين يَدعون معه الآلهة والأنداد بالعقوبةِ. «غفُوراً»، يقول: ساتراً عليهم ذنوبهم، إذا هم تابوا منها بالعفوِ منه لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قرأتَ يا محمدُ القرآنَ على هؤلاء المشركين الذين لا يُصَدِّقُونَ بالبعثِ، ولا يُقِرُّونَ بالثوابِ والعقابِ، جعلنا بينكَ وبينهم حجاباً، يحجبُ قلوبهم عن أنْ يفهموا ما تقرؤه عليهم، فينتفعوا به، عقوبةً منا لهم على كفرهم. والحجابُ ههنا: هو الساتر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا على قلوبِ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرةِ عند

قراءتكَ عليهم القرآنَ أكِنَّةً، وهي جمع كِنان، وذلك ما يَتَغَشَّاها من خِذلانِ الله إياهم عن فَهْمِ ما يُتلى عليهم. «وفِي آذانِهمْ وَقْراً»، يقول: وجعلنا في آذانهم وقراً عن سماعِهِ، وصَمَماً. والوَقر بالفتح في الأذن: الثِقَلُ. والوِقر بالكسر: الحِمْل.

وقوله: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرآنِ وَحْدَهُ»، يقول: وإذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه «وَلَّوْا على أدْبارِهم نُفُوراً»، يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفوراً من قولك استكباراً له واستعظاماً من أنْ يوحِّدَ الله تعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: نحنُ أعلمُ يا محمدُ بما يستمعُ به هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قومكَ، إذ يستمعون إليكَ وأنتَ تقرأ كتابَ الله «وَإِذْ هُمْ نَجْوَى». وكان بعضُ أهلِ العربية من أهلِ البصرة يقول: النجوى: فعلهم، فجعلهم هم النجوى، كما يقول: هم قومٌ رِضا، وإنما رضا: فعلهم.

وقوله: «إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً»، يقول: حين يقولُ المشركون بالله: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، وعنى فيما ذُكِر بالنجوى: الذين تشاوروا في أمرِ رسولِ الله ﷺ في دار النَّدوة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: انظُرْ يا محمدُ بعينِ قلبكَ فاعتبرْ كيف مَثَّلُوا لكَ الأمثال، وشَبَّهُوا لكَ الأشباه، بقولهم: هو مسحورٌ، وهو شاعر، وهو مجنون. «فَضَلُّوا»، يقـول: فجـاروا عن قصـدِ السبيل بقِيلهم ما قالوا «فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً»، يقول: فلا يهتدون لطريقِ الحقِّ لضلالهم عنه وبُعْدِهم منه، وأنَّ الله قد خذلهم عنْ إصابته، فهم لا يقدرونَ على المَخْرَجِ مما هُمْ فيه من كُفْرِهم بتوفُّقهم إلى الإيمانِ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاء الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ من مشـركي قريش، وقالوا بعَنَتِهم: «أئِذَا كُنَّا عِظاماً» لم نَتَحَطَّمْ ولم نتكسَّرْ بعد مماتِنا وبِلاَنَا «وَرُفاتاً»، يعني تراباً في قبورنا.

وقـولـه: «أئِنَّا لَمَبْعُـوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً» قالوا: إنكاراً منهم للبعثِ بعد المـوتِ، إنـا لمبعـوثـون بعد مصيرنا في القبورِ عظاماً غيرَ منحطمةٍ، ورفاتاً منحطمةً، وقد بَلِينا فصرنا فيها تراباً، خلقاً مُنْشَأً كما كنا قبل المماتِ جديداً، نُعَادُ كما بُدِئْنَا، فأجابهم جَلَّ جلالُه يُعَرِّفُهم قُدْرَتَهُ على بعثِهِ إياهم بعد مماتهم، وإنشـائـه لهم كما كانوا قبل بلاهُم خلقاً جديداً، على أيِّ حالٍ كانوا من الأحوالِ، عظاماً أو رُفاتاً، أو حجارة أو حديداً، أو غير ذلك مما يعظُمُ عندهم أنْ يحدثَ مِثْله خَلْقاً أمثالهم أحياء، قُلْ يا محمدُ كونُوا حجارةً أو حديداً، أو خَلْقاً مما يَكْبُر في صدوركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا

يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للمكذِّبينَ بالبعثِ بعد المماتِ من قومكَ القائلينَ «أئِذَا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقا جَدِيداً» كونوا إنْ عجبتم من إنشاءِ الله إياكم، وإعادتهِ أجسامَكُمْ، خلقاً جديداً بعد بِلاكم في التراب، ومصيركم رُفاتاً، وأنكرتم ذلك من قُدرته حجارة أو حديداً، أو خلقاً مما يكبرُ في صدوركم إنْ قدرتم على ذلك، فإني أُحْيِيكُمْ وأبعثُكم خَلْقاً جديداً بعد مصيركم كذلك كما بدأتُكُمْ أوَّلَ مرّة.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ» فقال بعضهم: عُنِي به الموت، وأُريدَ به: أو كونوا الموت، فإنكم إنْ كُنْتُمُوه أمَتُّكُمْ ثم بعثتُكم بعد ذلك يوم البعث.

وقال آخرون: عنى بذلك السماء والأرض والجبال.

وقال آخرون: بل أُريدَ بذلك: كونوا ما شئتم.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ أن يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال: «أوْ خَلْقاً ممَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ»، وجائزٌ أنْ يكونَ عنى به الموت، لأنه عظيمٌ في صدور بني آدم؛ وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ به السماءَ والأرضَ؛ وجائزٌ أنْ يكون أرادَ به غير ذلك، ولا بيانَ في ذلك أبين مما بَيَّنَ جَلَّ ثناؤه، وهو كُلُّ ما كَبُرَ في صدورِ بني آدم من خَلْقِه، لأنه لم يخصص منه شيئاً دون شيء.

وأما قوله: «فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا» فإنه يقول: فسيقولُ لك يا محمدُ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة «مَنْ يُعِيدُنا» خلقاً جديداً، إنْ كنا حجارةً أو حديداً أو خلقاً مما يكبرُ في صدورنا، فقل لهم: يعيدكم «الَّذِي فَطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ»،

يقول: يُعِيدُكُم كما كنتم قبلَ أنْ تصيروا حجارةً أو حديداً إنساً أحياء، الذي خلقكم إنساً من غير شيءٍ أوّلَ مرّة.

وقوله: «وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ»، يقول جلّ ثناؤه: ويقولون متى البعثُ، وفي أيِّ حالٍ ووقتٍ يُعيدُنا خلقاً جديداً، كما كنا أوّلَ مرّة، قال الله عزّ وجلّ لنبيه: قُلْ لهم يا محمدُ إذْ قالوا لكَ: متى هو؟ متى هذا البعثُ الذي تِعِدُنَا، عسى أنْ يكونَ قريباً؟ وإنما معناه: هو قريبٌ، لأنَّ عسى من الله واجبٌ، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «بُعِثْتُ أنـا والسَّاعَةُ كهَاتَيْن، وأشار بالسَّبابة والوسْطَى»[1]، لأنَّ الله تعالى كان قد أعلمه أنه قريبٌ مجيب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ عسى أنْ يكونَ بَعْثُكم أيها المشركون قريباً، ذلك يومَ يَدْعُوكم رَبُّكم بالخروجِ من قبوركم إلى موقفِ القيامة، فتستجيبون بحمده،

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «فَتَسْتَجِيبُونَ بحَمْده» فقال بعضهم: فتستجيبون بأمره.

---

(١) حديث صحيح في الغاية من الصحة، أخرجه من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري: مسلم (٨٦٧)، وأحمد: ٣/ ٣١٠ و٣٣٨ و٣٧١، وابن ماجة (٤٥)، والنسائي: ٣/ ١٨٨، والبغوي (٤٢٩٥)، وابن حبان (١٠). وأخرجه من حديث أنس: البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١) وغيرهما. وأخرجه من حديث أبي هريرة البخاري: (٦٥٠٥) وابن ماجة (٤٠٤٠)، وابن حبان (٦٦٤١)، ومن حديث سهل بن سعد الساعدي: البخاري (٤٩٣٦) و(٥٣٠١) و(٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) وغيرهما.

وقال آخرون: معنى ذلك: فتستجيبون بمعرفته وطاعته.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: معناه: فتستجيبونَ للهِ من قبورِكم بقدرتهِ، ودعائه إياكم، ولله الحمد في كلِّ حال، كما يقولُ القائلُ: فعلتُ ذلك الفعل بحمدِ الله، يعني: لله الحمدُ على كلِّ ما فعلته.

وقـولـه: «وَتَظُنُّونَ إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا قَلِيلًا»، يقول: وتحسِبُونَ عند موافاتِكم القيامةَ من هولِ ما تُعايِنُونَ فيها ما لبثتم في الأرض إلا قليلًا، كما قال جَلَّ ثناؤه: «قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْض عَدَدَ سِنِينَ، قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسألِ العادِّينَ».

وقـوله: «وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا التي هِيَ أَحْسَنُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد لعبادي يَقُلْ بعضُهم لبعضٍ التي هي أحسنُ من المحاورةِ والمخاطبة.

وقـولـه: «إنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ»، يقول: إنَّ الشيطانَ يسوء محاورة بعضهم بعضـاً «يَنْزَغُ بينهم»، يقـول: يُفْسِدُ بينهم، يُهيج بينهم الشرَّ. «إنَّ الشَّيْطانَ كانَ للإنْسانِ عَدُوّاً مُبِيناً»، يقول: إنَّ الشيطان كان لآدمَ وذرِّيتهِ عدوّاً، قد أبانَ لهم عداوتَهُ بما أظهرَ لآدمَ من الحسدِ، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين من قريش الذين قالوا: «أئِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيدًا ـ رَبُّكُمْ» أيها القومُ «أعْلَمُ بِكُمْ إنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ» فيتوب عليكم برحمته، حتى تُنيبُوا عما أنتم عليه من الكفرِ به وباليومِ

الآخر «وَإِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ» بأنْ يخذلكم عن الإيمانِ، فتموتُوا على شِرْكِكُمْ، فيعذِّبكم يومَ القيامة بكفركم به.

وقوله: «وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وكَيلاً»، يقول لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناكَ يا محمدُ على مَنْ أرسلناكَ إليه لتدعوهُ إلى طاعتنا رباً ولا رقيباً، إنما أرسلناكَ إليهم لِتُبَلِّغَهُمْ رسالاتنا، وبأيدينا صرفهم وتدبيرهم، فإن شِئْنا رَحِمْناهُمْ، وإنْ شِئْنَا عَذَّبناهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: ورَبُّكَ يا محمدُ أعلمُ بمن في السمواتِ والأرض وما يُصْلِحُهم فإنه هو خالقهم ورازقهم ومدبرهم، وهو أعلمُ بمن هو أهلٌ للتوبةِ والرحمة، ومَنْ هو أهلٌ للعذاب، أَهْدي للحقِّ مَنْ سبق له مني الرحمة والسعادة، وأُضِلُّ مَنْ سبق له مني الشقاءُ والخذلان، يقول: فلا يكبرنَّ ذلـك عليكَ، فإن ذلك من فِعْلي بهم لتفضيلي بعضَ النبيين على بعضٍ، بإرسالِ بعضِهم إلى بعضِ الخَلْقِ، وبعضهم إلى الجميع، ورفعي بعضَهم على بعضٍ درجات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ الذين يعبدونَ من دونِ الله مِنْ خَلْقِه، ادعوا أيها القومُ الذين زعمتم أنهم أربابٌ وآلهةٌ من دونهِ عند ضُرٍّ ينزلُ بكم، فانظروا هل يقدرونَ على دفعِ ذلك عنكم، أو

تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهةً، فإنهم لا يقدرونَ على ذلك، ولا يملكونَهُ، وإنما يملكُه ويقدرُ عليه خالِقُكم وخالِقُهم. وقيل: إنَّ الذين أمرَ النبيّ ﷺ أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدونَ الملائكةَ وعزيراً والمسيحَ، وبعضهم كانوا يعبدون نفراً من الجنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين يَدْعُوهم هؤلاء المشركونَ أرباباً «يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ»، يقول: يبتغي المَدْعُوُّنَ أرباباً إلى رَبِّهم القُربةَ والزُّلفة، لأنهم أهلُ إيمانٍ به، والمشركون بالله يعبدونهم من دونِ الله «أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» أيهم بصالحِ عمله واجتهادِه في عبادته أقربُ عنده زُلْفةً «وَيَرْجُونَ» بأفعالهم تلك «رَحْمَتَهُ. ويَخافُونَ» بخلافِهم أمْرَهُ «عَذَابَه، إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ» يا محمدُ «كانَ مَحْذوراً» مُتَّقىً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما من قرية من القرى، إلا نحنُ مُهْلِكُو أهلها بالفناء، فَمُبِيدُوهم استئصالاً قبل يومِ القيامة، أو مُعَذِّبُوهَا، إما ببلاءٍ من قتلٍ بالسيف، أو غير ذلك من صنوفِ العذابِ عذاباً شديداً.

وقوله: «كانَ ذلكَ فِي الكِتابِ مَسْطُوراً»، يعني في الكتابِ الذي كتب فيه كلّ ماهو كائنٌ، وذلك اللوح المحفوظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمدُ أنْ نرسلَ بالآياتِ التي سألها قومُكَ، إلا أنْ كان من قبلهم من الأمم المكذِّبة، سألوا ذلك مِثْلَ سؤالهم؛ فلما أتاهم ما سألوا منه كَذَّبوا رُسُلَهم، فلم يُصَدِّقُوا مع مجيءِ الآياتِ، فَعُوجِلُوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنَّا لو أرسلنا بها إليهم، فكذّبوا بها، سلكنا في تعجيل العذابِ لهم مَسْلَكَ الأممِ قبلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقد سأل الآياتِ يا محمدُ من قبلِ قومِكَ ثمودُ، فآتيناها ما سألَتْ، وجعلنا تلك الآيةَ ناقةً مبصرةً، جعلَ الإبصارَ للناقةِ، كما تقولُ للشجة: موضحة، وهذه حُجَّةٌ مبينة. وإنما عَنَى بالمبصرة: المضيئة البَيِّنة التي مَنْ يراها كانوا أهلَ بَصَرٍ بها، أنها لله حُجَّةٌ، كما قيل: «والنهارَ مُبْصِرًا».

وقوله: «فَظَلَمُوا بِها»، يقول عزَّ وجلَّ: فكان بها ظُلْمُهم، وذلك أنهم قتلوها وعقروها، فكان ظلمهم بعقرها وقتلها، وقد قيل: معنى ذلك: فكفروا بها، ولا وجهَ لذلك إلا أنْ يقول قائله أراد: فكفروا بالله بقتلها، فيكون ذلك وجهاً.

وأما قوله: وَمَا نُرْسِلُ بالآياتِ إلاَّ تَخْوِيفاً»، فإنه يقول: وما نرسلُ بالعِبَرِ والذِّكْرِ إلا تخويفاً للعباد.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

وهذا حَضٌّ من الله تعالى ذِكْرُه نبيه محمداً ﷺ، على تبليغِ رسالته، وإعـلامٌ منـه أنه قد تقدَّمَ منه إليه القولُ بأنه سيمنعهُ من كلِّ مَنْ بَغَاهُ سوءاً وهلاكاً، يقول جلّ ثناؤه: واذكُرْ يا محمدُ إذْ قلنا لك إنَّ ربكَ أحاط بالناسِ قُدرة، فهم في قبضتِـه لا يقدرونَ على الخروجِ من مشيئتهِ، ونحنُ مانعوكَ منهم، فلا تتهيَّبْ منهم أحداً، وامضِ لما أمرناكَ به من تبليغِ رسالتنا.

وقـولـه: «وَمَا جَعَلْنا الرُّؤْيا التي أرَيْناكَ إلاَّ فِتْنَةً للنَّاسِ»، اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضهم: هي رؤيا عينٍ، وهي ما رأى النبيُّ ﷺ لما أُسري به من مكةَ إلى بيتِ المقدس.

وقال آخرون: هي رؤياه التي رأى أنه يدخلُ مكة.

وقال آخرون ممن قال: هي رؤيا منامٍ: إنما كان رسولُ الله ﷺ رأى في منامه قوماً يَعْلُونَ منبره.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بها رؤيا رسولِ الله ﷺ ما رأى من الآياتِ والعبرِ في طريقهِ إلى بيتِ المقدس، وببيتِ المقدس ليلةَ أُسريَ به، وقد ذكرنا بعضَ ذلك في أوّل هذه السورة.

وإنما قُلنا ذلك أولى بالصوابِ، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويل على

أنَّ هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإياه عَنَى الله عزَّ وجلَّ بها، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويلُ الكلام: وما جعلنا رؤياكَ التي أريناكَ ليلةَ أسرينا بكَ من مكةَ إلى بيتِ المقدس، إلا فتنةً للناس: يقول: إلا بَلاءً للناسِ الذين ارتدُّوا عن الإسلامِ، لمَّا أُخْبِرُوا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاةُ والسلام، وللمشركينَ من أهلِ مكة الذين ازدادوا بسماعِهم ذلك من رسولِ الله ﷺ تمادياً في غيِّهم، وكفراً إلى كفرهم.

وقال آخرون: هي الكَشُوث[1].

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب عندنا قولُ مَنْ قال: عَنَى بها شجرةَ الزقُّوم، لإجماعِ الحجةِ من أهلِ التأويل على ذلك، ونُصِبَت الشجرةُ الملعونةُ عطفاً بها على الرؤيا. فتأويل الكلام إذن: وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ، والشجرةَ الملعونةَ في القرآن إلا فتنةً للناس، فكانت فتنتهم في الرؤيا ماذكرت من ارتدادِ مَنِ ارتدَّ، وتمادِي أهلِ الشركِ في شِرْكِهم، حين أخبرهم رسولُ الله ﷺ بما أراهُ الله في مسيره إلى بيتِ المقدس ليلة أُسريَ به، وكانت فتنتهم في الشجرةِ الملعونة ما ذكرنا من قولِ أبي جهل والمشركينَ معه: يخبرنا محمدٌ أنَّ في النارِ شجرةً نابتةً، والنارُ تأكلُ الشجرَ فكيف تنبتُ فيها؟

وقوله: «ونُخَوِّفُهُم فَمَا يَزِيدُهُمْ إلَّا طُغْيانا كَبِيراً»، يقول: ونُخَوِّفُ هؤلاء المشركين بما نَتَوَعَّدُهُمْ من العقوباتِ والنكالِ، فما يزيدهم تخويفنا إلا طغياناً كبيراً، يقول: إلا تمادياً وغياً كبيراً في كفرهم وذلك أنهم لما خُوِّفُوا بالنارِ التي طعامهم فيها الزقومُ دعوا بالتمر والزبد، وقالوا: تَزَقَّمُوا من هذا.

---

(١) الكشوث، والكشوثا، والكشوثاء: نبتٌ يتعلق بالأغصان، ولا عِرْقَ له في الأرض. وهي لفظة سوادية (انظر اللسان والتاج).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ تمادي هؤلاء المشركينَ في غيِّهم وارتدادِهم عُتُوّاً على رَبِّهم بتخويفهِ إياهم تحقيقهم قول عدوِّهم وعدوِّ والدِهم، حين أمره رَبُّهُ بالسجودِ له فعصاهُ وأبى السجودَ له، حَسَداً واستكباراً «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَه إلَّا قَلِيلًا» وكيف صَدَّقُوا ظَنَّهُ فيهم، وخالفوا أمرَ رَبِّهم وطاعته، واتبعوا أمرَ عدوِّهم وعدوِّ والدهم.

ويعني بقوله: «وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ»: واذكُرْ إذْ قلنا للملائكةِ «اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا، إلَّا إبْلِيسَ» فإنه استكبرَ وقال: «أأسْجُد لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً»، يقول: لِمَنْ خلقتَهُ من طينٍ؛ فلما حذفت «مِنْ» تعلَّقَ به قوله «خَلَقْتَ» فنصب، يفتخرُ عليه الجاهلُ بأنه خُلِقَ من نارٍ، وخلق آدم من طين.

وقوله: «أرَأَيْتَكَ هَذا الَّذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» يقول تعالى ذِكْرُه: أرأيتَ هذا الذي كَرَّمْتَهُ عليَّ. فأمرتني بالسجودِ له، ويعني بذلك آدمَ «لئِنْ أخرتنِ» أقسمَ عَدُوُّ الله، فقال لربه: لئِنْ أخرتَ إهلاكي إلى يومِ القيامة «لَأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلَّا قَليلًا»، يقول: لأستولِيَنَّ عليهم، ولأستأصِلَنَّهُمْ، ولأسْتَمِيلَنَّهُمْ. يقال منه: احتنكَ فلانٌ ما عند فلانٍ من مالٍ أو علمٍ أو غير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال اللهُ لإبليسَ إذْ قالَ له: «لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ

القِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلَّا قَلِيلاً» اذهبْ فقد أَخَّرْتُك، فمن تبعكَ منهم، يعني من ذرِّيةِ آدم عليه السلام فأطاعكَ، فإنَّ جهنم جزاؤُكَ وجزاؤهم، يقول: ثوابُكَ على دعائِكَ إياهم على معصيتي، وثوابُهم على اتباعِهم إياكَ وخلافهم أمري «جزاءً موْفوْراً»، يقول: ثواباً مكثوراً مُكمَّلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَاسْتَفزِزْ» واستخْفِفْ واستجهلْ، من قولهم: استفزَّ فلاناً كذا وكذا فهو يستفزُّه. «مَن اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوتِكَ»، اختلف أهلُ التأويل في الصوت الذي عناه جلَّ ثناؤه بقوله: «وَاسْتَفْزِز مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوتِك» فقال بعضهم: عَنَى به: صوتَ الغناءِ واللعب.

وقال آخرون: عَنَى به «واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ» بدعائِكَ إياهُ إلى طاعتك ومعصية الله.

وأوْلى الأقـوالِ في ذلـك بالصحة أنْ يُقالَ: إنَّ الله تبارك وتعالى قال لإبليسَ: واستفزز من ذُرِّيةِ آدمَ مَنِ استطعتَ أنْ تستفزَّهُ بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتاً دونَ صوتٍ، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافاً للدعاء إلى طاعةِ الله، فهو داخلٌ في معنى صوتهِ الذي قال الله تبارك وتعالى اسمه له: «وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ».

وقوله: «وأجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ ورَجِلكَ» يقول: وأَجْمِعْ عليهم من رُكبانِ جُنْدِكَ ومُشَاتِهم من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي، يقال منه: أَجْلَبَ فلانٌ على فلانٍ إجلاباً: إذا صاحَ عليه. والجَلَبَة: الصوتُ،

وربما قيل: ما هذا الجَلَب، كما يقال: الغَلَبة والغَلَب، والشَّفَقَة والشَّفَق.

وأما قوله: «وشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في المشاركة التي عُنيتْ بقوله: «وشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ» فقال بعضُهم: هو أمره إياهم بإنفاقِ أموالهم في غيرِ طاعةِ الله واكْتِسَابِهِمُوهَا من غير حِلِّهَا.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك كلُّ ما كانَ من تحريمِ المشركينَ ما كانوا يُحَرِّمُونَ من الأنعامِ كالبحائرِ والسوائبِ ونحو ذلك.

وقال آخرون: بل عُنِي به ما كان المشركون يَذْبحونَهُ لآلهتم.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك كلُّ مالٍ عُصِيَ الله فيه بإنفاقٍ في حرامٍ أو اكتسابٍ من حرام، أو ذَبْحٍ للآلهةِ، أو تسييبٍ، أو بحرٍ للشيطان، وغير ذلك مما كان معصياً به أو فيه، وذلك أن الله قال: «وشَارِكْهُمْ في الأمْوَالِ» فكلّ ما أُطيعَ الشيطانُ فيه من مال وعُصِيَ الله فيه، فقد شاركَ فاعلُ ذلك فيه إبليسَ، فلا وجهَ لخصوصِ بعضِ ذلك دونَ بعض.

وقوله: «والأوْلادِ»، اختلف أهلُ التأويل في صفة شَرِكَتِه بني آدمَ في أولادِهم، فقال بعضهم: شركته إياهم فيهم بزناهم بأمهاتهم.

وقال آخرون: عنى بذلك: وأْدُهُمْ أولادَهُم وقَتْلُهُمُوهم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: صبغَهم إياهم في الكُفْر.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك تَسْمِيتُهُمْ أولادهم عبدَ الحَرْثِ وعبدَ شَمْسٍ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: كُلُّ ولدٍ ولدته أنثى عَصَى الله بتسميته ما يكرهُه الله، أو بإدخالِه في غيرِ الدينِ الذي ارتضاهُ الله، أو بالزنا

بأمه، أو قَتْلِه ووأدِه، أو غيرِ ذلك من الأمورِ التي يَعْصِي الله بها بفعله به أو فيه، فقد دخلَ في مشاركةِ إبليسَ فيه من وُلِدَ ذلك المولودُ له أو منه، لأنَّ الله لم يخصص بقوله: «وشَارِكْهُم في الأَمْوَالِ والأولادِ» معنى الشركةِ فيه بمعنى دونَ معنى، فكلُّ ما عُصِيَ اللهُ فيه أو به، وأُطِيعَ به الشيطانُ أو فيه، فهو مشاركةُ مَنْ عَصَى الله فيه أو به إبليسَ فيه.

وقوله: «وَعِدْهُم وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلَّا غُرُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لإبليسَ: وعِدْ أتباعكَ من ذرِّيةِ آدمَ، النُّصْرَةَ على مَنْ أرادهم بسوء، يقول الله: «ومَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلَّا غُرُوراً» لأنه لا يغني عنهم من عقابِ الله إذا نزل بهم شيئاً، فهم من عِدَاتهِ في باطلٍ وخديعة، كما قال لهم عدوُّ اللهِ حين حَصْحَصَ الحقُّ: «إنَّ الله وَعَدَكُمْ وعْدَ الحَقِّ، وَوَعدتُكم فَأَخْلَفْتُكُم، ومَا كانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إلَّا أنْ دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لي فَلا تَلُومُوني وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أنا بِمُصْرِخِكُمْ ومَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لإبليسَ: إنَّ عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعَصوكَ يا إبليسُ، ليسَ لك عليهم حجة.

وقوله: «وكَفَى برَبِّكَ وَكيلًا»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: وكفاكَ يا محمدُ ربك حفيظاً، وقَيِّماً بأمرك، فانْقَدْ لأمرِه، وبَلِّغْ رسالاته هؤلاء المشركين، ولا تَخَفْ أحداً، فإنه قد توكَّلَ بحفظكَ ونُصْرَتِك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه للمشركين به: ربكم أيها القومُ هو الذي يُسَيِّرُ لكمُ السفنَ في البحر، فيحملكم فيها «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه» لتوصلوا بالركوب فيها إلى أمـاكن تجـاراتِكم ومـطالبكم ومعـايشكم، وتلتمسونَ من رزقهِ «إنَّه كانَ بِكُمْ رَحِيماً»، يقول: إنَّ الله كان بكم رحيماً حين أجرى لكم الفلكَ في البحر، تسهيلاً منه بذلك عليكم التصرُّفَ في طلبِ فَضْلِه في البلاد النائية التي لولا تسهيلهُ ذلك لكم لصعبَ عليكم الوصولُ إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا نالتكم الشدَّةُ والجَهْدُ في البحر ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ: يقول: فَقَدْ تُم مَنْ تدعون من دونِ الله من الأندادِ والآلهةِ، وجارَ عن طريقِكم فلم يُغِثْكُمْ، ولم تجدوا غيرَ الله مغيثاً يغيثكم دَعَوْتُموه، فلما دَعَوْتُموهُ وأغاثكم، وأجابَ دُعاءَكم ونَجَّاكم من هولِ ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه رَبُّكم من خلعِ الأنداد، والبراءةِ من الآلهةِ، وإفرادِه بالألوهةِ كفراً منكم بنعمته «و كانَ الإنْسانُ كَفُوراً»، يقول: و كان الإنسانُ ذا جَحْدٍ لنعم رَبِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

يقـول تعالى ذكره: «أفَأمِنْتِم» أيها الناسُ من ربِّكم، وقد كفرتُمْ نِعمتَهُ بتنجِيَتِهِ إياكم من هولِ ما كنتم فيه في البحر، وعظيمِ ما كنتم قد أشرفتم عليه من الهلاكِ، فلما نَجَّاكُمْ وصرتم إلى البرِّ كفرتم، وأشركتم في عبادته غيره «أنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ البَرِّ»، يعني ناحية البرِّ، «أوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصباً»، يقول: أو يُمْطِرَكُمْ حجارةً من السماء تقتلكم، كما فعلَ بقومِ لوطٍ «ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكيلاً»، يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقومُ بالمدافعةِ عنكم من عذابِهِ وما يمنعكم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم أمنتم أيها القومُ من ربكم، وقد كفرتم به بعد إنعامهِ عليكم، النعمة التي قد علمتم أنْ يعيدكم في البحرِ تارةً أخرى: يقول: مرّةً أخرى، والهاء التي في قوله: «فيه» من ذِكْرِ البحر.

أما قوله: «فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ» وهي التي تقصفُ ما مرتْ به فتحطمه، وتَدقُّهُ، من قولهم: قصفَ فلانٌ ظهرَ فلان: إذا كسره. «فَيُغْرِقَكُمْ بمـا كفَرَتُم»، يقول: فيغرقكم الله بهذه الريحِ القاصفِ بما كفرتم، يقول: بكفركم به، «ثُمَّ لاتَجِدوا لكم علَيْنا به تَبيعاً»، يقول: ثم لاتجدوا لكم علينا تابعاً يتبعنا بما فَعَلْنا بكم، ولا ثائراً يثأرنا بإهلاكنا اياكم. وقيل: تبيعاً في موضعِ التابع، كما قيل: عليمٌ في موضعِ عالم، والعربُ تقولُ لكلِّ طالبٍ بدمٍ أو دَيْنٍ أو غيره: تَبيعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾



يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخَلْقِ، وتسخيرنا سائرَ الخلقِ لهم «وحَمَلْناهُمْ فِي البَرِّ» على ظهور الدوابّ والمراكب وفي «البَحْرِ» في الفلك التي سخرناها لهم «وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ»، يقول: من طيباتِ المطاعمِ والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها «وَفَضَّلْناهم عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً» ذكر لنا أَنَّ ذلك تمكنهم من العملِ بأيديهم، وأخذ الأطعمةِ والأشربةِ بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير مُتَيَسِّرٍ لغيرهم من الخَلْقِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الإمام الذي ذكر الله جلّ ثناؤه أنه يدعو كُلَّ أناسٍ به، فقال بعضهم: هو نبيُّهُ، ومَنْ يَقْتَدِي به في الدُّنيا ويأتمُّ به.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يدعوهُمْ بكُتُبِ أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا.

وقال آخرون: بل معناه: يوم ندعو كُلَّ أُناسٍ بكتابهم الذي أنزلتُ عليهم فيه أمري ونهيي.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندنا بالصواب، قولُ من قال: معنى ذلك: يوم ندعو كلَّ أناسٍ بإمامهم الذي كانوا يقتدونَ به، ويأتمونَ به في الدنيا، لأنَّ الأغلبَ

من استعمالِ العربِ الإمام فيما ائتُمَّ واقْتُدِيَ به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهرِ أوْلى ما لم تَثْبُتْ حجةٌ بخلافِهِ يجبُ التسليمُ لها.

وقوله: «فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ»، يقول: فمن أعطي كتاب عمله بيمينه «فَأُولَئِكَ يَقرَءُونَ كِتابَهُمْ» ذلك حتى يعرفوا جميع ما فيه «وَلا يُظلَمُونَ فَتِيلاً»، يقول تعالى ذكره: ولا يظلمهم الله من جزاء أعمالهم فتيلاً، وهو المنفتل الذي في شقّ بطن النواة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٧٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي أشير إليه بقوله: «هذه»، فقال بعضهم: أُشيرَ بذلك إلى النعمِ التي عَدَّدَهَا تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وحَمَلناهُمْ فِي البَرِّ والبَحرِ، وَرَزَقناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ، وفَضَلْناهُمْ على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفضِيلاً» فقال: «وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أعمىَ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعمَى وأضَلُّ سَبِيلاً».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ومَنْ كان في هذه الدنيا أعمى عن قدرةِ الله فيها وحججه، فهو في الآخرةِ أعمى.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: ومَنْ كان في هذه الدنيا أعمى عن حججِ الله على أنه المنفردُ بخلقِها وتدبيرِها، وتصريفِ ما فيها، فهو في أمرِ الآخرةِ التي لم يَرَهَا ولم يُعَاينها، وفيما هو كائنٌ فيها أعمى وأضلُّ سبيلاً: يقول: وأضلُّ طريقاً منه في أمر الدنيا التي قد عاينها ورآها.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى تأويلاتِهِ بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم

يخصص في قولـه: «وَمَنْ كانَ فِي هَذِهِ» الدنيا «أعْمَى» عَمَى الكافرِ به عن بعضِ حججه عليه فيها دونَ بعضٍ ، فيوجِّه ذلك إلى عَمَاهُ عن نعمه بما أنعمَ به عليه من تكريمهِ بني آدم، وحَمْلهِ إياهم في البرِّ والبحرِ، وما عَدَّدَ في الآية التي ذكر فيها نِعَمَهُ عليهم، بل عَمَّ بالخبرِ عن عماه في الدنيا، فهم كما عَمَّ تعالى ذِكْرُه.

واختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعْمَى» فكسرت القَرَأةُ جميعاً أعني الحرفَ الأوّلَ قولَهُ: «وَمَنْ كانَ فِي هَذِهِ أعْمى». وأما قوله: «فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعْمَى» فإنَّ عامة قرّاء الكوفيين أمالت أيضاً قوله: «فهوَ فِي الآخِرَةِ أعْمَى». وأما بعض قرّاء البصرة فإنه فتحه، وتأوَّلَهُ بمعنى: فهو في الآخرة أشدُّ عَمَى. واستشهد لصحةِ قراءته بقوله: «وأضَلُّ سَبِيلاً».

وهذه القراءةُ هي أَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ للشاهدِ الذي ذكرنا عن قارئه كذلك، وإنما كره مَنْ كره قراءته كذلك ظناً منه أنَّ ذلك مقصودٌ به قصد عمى العينين الذي لا يُوصَفُ أحدٌ بأنه أعمى من آخر أعمى، إذْ كان عمى البصر لا يتفاوتُ، فيكون أحدهما أزيدَ عَمَىً من الآخرِ، إلا بإدخالِ أشدَّ أو أبين، فليس الأمرُ في ذلك كذلك.

وإنما قلنا: ذلك من عمى القلب الذي يقعُ فيه التفاوتُ، فإنما عُنِي به عمى قلوبِ الكفارِ، عن حججِ الله التي قد عاينتها أبصارُهم، فلذلك جازَ ذلك وحَسُنَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في الفتنة التي كاد المشركون أنْ يفتنوا رسولَ الله

ﷺ بها عن الذي أوحى اللهُ إليه إلى غيره؛ فقال بعضهم: ذلك الإلمامُ بالآلهة، لأنَّ المشركين دَعوه إلى ذلك، فَهَمَّ به رسولُ الله ﷺ.

وقال آخرون: إنما كان ذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ هَمَّ أن يُنْظِرَ قوماً بإسلامِهم إلى مدةٍ سألوه الانظارَ إليها.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر عن نبيهِ ﷺ. أنَّ المشركينَ كادوا أنْ يفتنوه عما أوحاهُ الله إليه ليعملَ بغيرِه، وذلك هو الافتراءُ على الله؛ وجائزٌ أن يكونَ ذلك كان ماذكر عنهم من ذكر أنهم دَعَوْهُ أنْ يَمَسَّ آلهتهم، ويُلِمَّ بها، وجائزٌ أن يكون غير ذلك، ولا بيانَ في الكتابِ ولا في خبرٍ يقطعُ العُذْرَ أيَّ ذلك كان، والاختلافُ فيه موجود على ما ذكرنا، فلا شيءَ فيه أصوب من الإيمانِ بظاهرِهِ، حتى يأتي خبرٌ يجبُ التسليمُ له ببيان ماعُنِي بذلك منه.

وقوله: «﴿وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولو فعلتَ ما دَعَوْكَ إليه من الفتنةِ عن الذي أوحينا إليكَ لاتَّخذوك إذاً لأنفسهم خليلاً، وكنتَ لهم و كانوا لكَ أولياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنْ ثَبَّتناكَ يا محمدُ بعِصْمَتِنَا إياكَ عما دعاكَ إليه هؤلاء المشركون من الفتنةِ. «﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾»، يقول: لقد كدت تميلُ إليهم وتطمئنُّ شيئاً قليلاً، وذلك ما كان ﷺ هَمَّ به من أن يفعلَ بعضَ الذي كانوا سألوه فِعْلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو ركنتَ إلى هؤلاء المشركينَ يا محمدُ شيئاً قليلاً فيما سألوكَ إذنْ لأذقناكَ ضِعْفَ عذابِ الحياة، وضِعْفَ عذابِ الممات.

وقوله: «ثُمَّ لاتَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً»، يقول: ثم لا تجدُ لكَ يا محمدُ ـ إنْ نحن أذقناكَ لِرُكُونِكَ إلى هؤلاء المشركين لو ركنتَ إليهم ـ عذابَ الحياةِ وعذابَ الممات «علينا نصيراً»: ينصركَ علينا، ويمنعكَ من عذابك، وينقذكَ مما نالكَ منا من عقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾

يقول عزَّ وجلَّ: وإنْ كاد هؤلاء القوم ليستفزونكَ من الأرض: يقول: ليستخفونك من الأرض التي أنتَ بها لِيُخرجوكَ منها. «وَإذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قَلِيلاً»، يقول: ولو أخرجوكَ منها لم يلبثوا بعدكَ فيها إلا قليلاً، حتى أُهْلِكَهُمْ بعذابٍ عاجل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو أخرجوكَ لم يلبثوا خِلافكَ إلا قليلاً، ولأهلكناهم بعذابٍ من عندنا، سُنَّتَنَا فيمن قد أرسلنا قبلكَ مِنْ رُسُلِنَا، فإنَّا كذلك كنا نفعلُ بالأممِ إذا أخرجتْ رُسُلَها من بين أظهرهم، ونصبت السنة على الخروجِ من

معنى قوله: «لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قَليلاً» لأنَّ معنى ذلك: لعذَّبناهم بعد قليلٍ كَسُنَّتنا في أممِ مَنْ أرسلنا قبلكَ من رسلنا، ولا تجدُ لسنتنا تحويلاً عما جرت به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَقِمِ الصَّلاةَ» يا محمدُ «لِدُلُوكِ الشَّمْسِ».

واختلف أهلُ التأويل في الوقتِ الذي عَنَاهُ الله بدلوكِ الشمس، فقال بعضهم: هو وقتُ غروبها، والصلاة التي أمر بإقامتها حينئذٍ: صلاة المغرب.

وقال آخرون: دلوكُ الشمس: مَيْلُها للزوالِ، والصلاةُ التي أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بإقامتها عند دلوكها: الظهر.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عنى بقوله: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ»: صلاةَ الظهر، وذلك أنَّ الدلوكَ في كلامِ العربِ: الميلُ، يقال منه: دلك فلان إلى كذا: إذا مالَ إليه.

فإذا كان صحيحاً ما قلنا بالذي به استشهدنا، فَبَيِّنٌ إذن أنَّ معنى قوله جلَّ ثناؤه: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ» أنَّ صلاةَ الظهرِ والعصرِ بحدودهما مما أوجبَ اللهُ عليكَ فيهما لأنهما الصلاتانِ اللتانِ فرضهما اللهُ على نبيه من وقتِ دلوكِ الشمسِ إلى غَسَقِ الليل؛ وغَسَقُ الليل: هو إقبالُه ودُنُوُّه بظلامهِ.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهلُ التأويلِ على اختلافٍ منهم في الصلاة التي أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بإقامتها عنده.

فقال بعضهم: الصلاةُ التي أُمِرَ بإقامتها عنده صلاة المغرب.

وقال آخرون: هي صلاة العصر.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: الصلاةُ التي أُمِرَ النبيُّ ﷺ بإقامتها عند غَسَقِ الليل، هي صلاةُ المغرب دونَ غيرها، لأنَّ غسقَ الليل هو ما وصفنا من إقبالِ الليلِ وظلامه، وذلك لا يكونُ إلا بعد مغيبِ الشمس. فأما صلاةُ العصر، فإنها مما تُقامُ بين ابتداء دلوكِ الشمس إلى غسقِ الليل، لا عند غسقِ الليل.

وأما قوله: «وقُرآنَ الفَجْرِ» فإنَّ معناه: وأقِمْ قرآنَ الفجر: أي ما تقرأ به صلاةَ الفجر من القرآنِ، والقرآن معطوف على الصلاة في قوله: «أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْس».

و كان بعضُ نحويي البصرة يقول: نصب قوله: «وَقُرآنَ الفَجْرِ» على الإغراء، كأنه قال: وعليك قرآن الفجر. «إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً»، يقول: إنَّ ما تقرأ به في صلاةِ الفجرِ من القرآنِ كان مشهوداً، يشهدُه فيما ذُكِرَ ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ومن الليلِ فاسهرْ بعد نومةٍ يا محمدُ بالقرآن، نافلةً لكَ خالصةً دونَ أمتك. والتهجدُ: التيقظُ والسهرُ بعد نومة من الليل. وأما الهجودُ نفسه: فالنومُ.

وأما قوله: «نافِلَةَ لَكَ» فإنه يقولُ: نفلاً لكَ عن فرائضك التي فرضتها عليك.

واختلف في المعنَى الذي من أجله خُصَّ بذلك رسولُ الله ﷺ، مع كونِ صلاةِ كلِّ مصلٍّ بعد هجوده، إذا كان قبل هجودِه قد كانَ أدَّى فرائضَهُ نافلة نفلاً، إذ كانت غير واجبةٍ عليه.

فقال بعضهم: معنى خُصوصِه بذلك: هو أنها كانت فريضةً عليه، وهي لغيره تطوُّعٌ، وقيل له: أقمها نافلةً لك: أي فضلاً لك من الفرائضِ التي فرضتُها عليكَ عما فرضت على غيرك. وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل قِيلَ ذلك له عليه الصلاة والسلام لأنه لم يكن فعله ذلك يكفِّر عنه شيئاً من الذنوبِ، لأنَّ الله تعالى كان قد غفر له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر، فكان له نافلةَ فَضْلٍ، فأما غيره فهو له كفارة، وليس هو له نافلة، وهو قول مجاهد.

وأوْلى القولين بالصوابِ في ذلك، القولُ الذي ذكرنا عن ابنِ عباس، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ كان الله تعالى قد خَصَّهُ بما فرضَ عليه من قيامِ الليل، دونَ سائرِ أمته: فأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك، فقولٌ لا معنى له، لأنَّ رسولَ الله ﷺ فيما ذُكِر عنه أكثر ما كان استغفاراً لذنوبه بعد نزولِ قولِ الله عزّ وجلّ عليه: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد مُنْصَرَفِهِ من الحديبية، وأنزل عليه «إِذَا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ» عام قُبِضَ. وقيل له فيها: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» فكان يُعدُّ له ﷺ في المجلس الواحد استغفار مئة مرّة، ومعلومٌ أنَّ الله لم يأمره أنْ يستغفرَ إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك، فَبَيِّنٌ إذن وجهُ فسادِ ما قاله مجاهد.

وقوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُودًا» وعسى من الله واجبةٌ، وإنما وجهُ قولِ أهلِ العلم: عسى من الله واجبةٌ، لعلمِ المؤمنين أنَّ الله لا يدعُ أنْ يفعلَ بعبادِه ما أطمعهم فيه من الجزاءِ على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياهُ ليس من صفته الغرور، ولا شكَّ أنه قد أطمع مَنْ قال ذلك له في نفعه،

إذا هو تعـاهده ولزمه، فإنْ لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سببَ يحولُ بينـه وبين نفعـهِ إياه مع الأطمـاعِ الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزومه، فإنه لصاحبهِ غارٌّ بما كان من إخلافِه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قالَ له. وإذْ كان ذلك كذلك، و كان غير جائزٍ أنْ يكونَ جلّ ثناؤه من صِفَتِهِ الغرور لعبادِه صحَّ ووجبَ أنَّ كُلَّ ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمرٍ أو نهي أمرهم به، أوْ نهاهم عنه، فإنه مُوفٍ لهم به، وإنه منه كالعِدَةِ التي لا يُخْلَفُ الوفاءُ بها، قالوا: عسى ولعلَّ من الله واجبة.

وتأويلُ الكلام: أقمِ الصلاةَ المفروضةَ يا محمدُ في هذه الأوقاتِ التي أمرتُكَ بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجَّدْ فرضاً فرضتُه عليك، لعلَّ رَبَّكَ أنْ يبعثكَ يومَ القيامةِ مقاماً تقومُ فيه محموداً تحمده، وتغبط فيه.

ومعنى ذلك المقام المحمود: هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يومَ القيامةِ للشفاعةِ للناسِ ليريحهم رَبُّهم من عظيمِ ماهُمْ فيه من شدَّةِ ذلك اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وقُلْ يا محمدُ يا ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صِدْق.

واختلف أهلُ التأويل في معنى مُدْخل الصدق الذي أمر الله نبيه ﷺ أنْ يرغب إليه في أنْ يُدْخِلَهُ إياه، وفي مخرج الصدق الذي أمره أنْ يرغبَ إليه في أن يخـرجـه إياه، وأشبهُ الأقوالِ بالصوابِ أنه عنى بمُدْخل الصدق: مُدْخلَ رسولِ الله ﷺ المدينةَ، حين هاجرَ إليها، ومُخْرَجَ الصدق: مُخْرَجَهُ من مكةَ، حين خرجَ منها مهاجراً إلى المدينة.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بتأويلِ الآية، لأنَّ ذلك عقيبَ قوله: «وَإنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِن الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها، وإذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قَلِيلًا». وقد دَلَّلْنا فيما مضى، على أنه عَنَى بذلك أهلَ مكة؛ فإذْ كان ذلك عقيبَ خبر الله عَمَّا كان المشركون أرادوا من استفزازِهم رسولَ الله ﷺ، ليخرجوه عن مكةَ، كان بَيِّناً، إذْ كان اللهُ قد أخرجَهُ منها، أنَّ قوله: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ» أمرٌ منه له بالرغبةِ إليه في أنْ يُخرجه من البلدةِ التي هَمَّ المشركونَ بإخراجه منها مخرجَ صدق، وأنْ يُدخله البلدةَ التي نقله الله إليها مُدْخَلَ صدق.

وقوله: «وَاجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطانا نَصِيراً» اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: واجعلْ لي ملكاً ناصراً ينصرني على من نَاوَأني، وعِزّاً أُقيمُ به دِينكَ، وأدفعُ به عنه مَنْ أراده بسوءٍ.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك حجةً بَيِّنَةً.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: ذلك أمرٌ من الله تعالى نبيهُ بالرغبةِ إليه في أن يؤتيه سلطاناً نصيراً له على مَنْ بَغَاهُ وكادَهُ، وحاولَ مَنْعَهُ من إقامتِهِ فرائضَ اللهِ في نفسِه وعبادِه.

وإنما قلتُ ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ ذلك عقيبَ خبرِ الله عما كان المشركون هَمُّوا به من إخراجِهِ من مكة، فأعلمه الله عزَّ وجلَّ أنهم لو فعلوا ذلك عُوجِلُوا بالعذابِ عن قريبٍ، ثم أَمَرَهُ بالرغبةِ إليه في إخراجه من بين أظهُرِهم إخراجَ صدقٍ يحاوله عليهم، ويدخله بلدةً غيرها، بمدخل صدق يحاوله عليهم ولأهلها في دخوله إليها، وأنْ يجعل له سلطاناً نصيراً على أهلِ البلدة التي أخرجه أهلها منها، وعلى كلِّ مَنْ كان لهم شبيهاً، وإذا أُوتيَ ذلك، فقد أوتيَ لا شكَّ حجةً بينة.

القَوْلُ فِي تأْويل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين كادوا أنْ يستفزُّوكَ من الأرضِ ليخرجوكَ منها «جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الحقِّ الذي أمر اللهُ نبيه ﷺ أن يُعْلِمَ المشركينَ أنه قد جاء، والباطل الذي أمره أنْ يعلمهم أنه قد زَهَق.

فقال بعضهم: الحقُّ: هو القرآن في هذا الموضع، والباطل: هو الشيطان.

وقال آخرون: بل عُنِي بالحقِّ جهاد المشركين وبالباطل الشرك.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمرَ اللهُ تبارك وتعالى نبيَّهُ عليه الصلاةُ والسلام أنْ يخبرَ المشركين أنَّ الحقَّ قد جاء، وهو كلُّ ما كان للهِ فيه رضا وطاعة، وأنَّ الباطلَ قد زهق: يقول: وذهب كلُّ ما كانَ لا رِضَا للهِ فيه ولا طاعةَ مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وذلك أنَّ الحقَّ هو كلُّ ما خالفَ طاعةَ إبليس، وأن الباطل: هو كلُّ ما وافقَ طاعته، ولم يخصص الله عزَّ ذِكْرُه بالخبرِ عن بعضِ طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه، بل عَمَّ الخبر عن مجيءِ جميع الحقِّ، وذهابِ جميعِ الباطل، وبذلك جاء القرآنُ والتنزيلُ، وعلى ذلك قاتلَ رسولُ الله ﷺ أهلَ الشرك بالله، أعني على إقامةِ جميع الحقِّ، وإبطال جميع الباطل.

وأما قوله عزّ وجلّ: «وَزَهَقَ الباطِلُ» فإنَّ معناه: ذهبَ الباطلُ، من قولهم: زَهَقتْ نَفْسُه: إذا خرجت وأزهقتها أنا؛ ومن قولهم: أزهق السهمُ: إذا

جاوزَ الغرضَ فاستمرَّ على جهته، يقال منه: زهق الباطل، يزهَق زُهوقاً، وأزهقه الله: أي أذهبه.

وقوله عزّ وجلّ: «وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وننزِّلُ عليكَ يا محمدُ من القرآنِ ماهو شفاءٌ يُسْتشفَى به من الجهلِ من الضلالة، ويُبَصَّرُ به من العَمَى للمؤمنين ورحمة لهم دونَ الكافرين به، لأنَّ المؤمنينَ يعملون بما فيه من فرائضِ الله، ويُحِلُّونَ حلالَهُ، ويحرِّمُونَ حرامه فيدخلهم بذلك الجنةَ، ويُنجيهم من عذابِهِ، فهو لهم رحمةٌ ونعمةٌ من الله، أنعم بها عليهم. «وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلَّا خَساراً»، يقول: ولا يَزيدُ هذا الذي ننزلُ عليكَ من القرآنِ الكافرينَ به إلا خساراً، يقول: إهلاكاً، لأنهم كلما نزلَ فيه أمرٌ من الله بشيءٍ أو نهيٌ عن شيءٍ كفروا به، فلم يأتمروا لأمرِه، ولم ينتهوا عَمَّا نهاهم عنه، فزادهم ذلك خساراً إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسارِ، ورجساً إلى رِجْسهم قبلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

يقول تبارك وتعالى: وإذا أنعمنا على الإنسانِ، فنجيَّناهُ من كَرْبِ ماهو فيه في البحرِ، وهو ما قد أشرفَ فيه عليه من الهلاكِ بعصوفِ الريحِ عليه إلى البرِّ، وغير ذلك من نِعَمِنَا، أعرضَ عن ذِكْرِنَا، وقد كان بنا مُستغيثاً دونَ كلِّ أحدٍ سوانا في حال الشدّةِ التي كان فيها. «ونَأَى بجانِبِهِ»، يقول: وبَعُدَ منا بجانبه، يعني بنفسه، «كأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إلَى ضُرٍّ مَسَّهُ» قبل ذلك.

وقوله عزّ وجلّ: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَئُوساً»، يقول: وإذا مَسَّهُ الشرُّ والشدَّةُ كان قَنُوطاً من الفَرَجِ والرَوْح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ٨٤﴾

يقول عَزَّ وجلَّ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قل يامحمدُ للناس: كلكم يعملُ على شاكلته: على ناحيتِهِ وطريقتهِ «فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ» هو منكم «أَهْدَى سَبِيلاً»، يقول: رَبُّكم أعلمُ بمن هو منكم أهدى طريقاً إلى الحقِّ من غيرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ويسألك الكفارُ بالله من أهلِ الكتابِ عن الروحِ ماهيَ؟ قُلْ لهم: الروحُ من أمرِ ربي، وما أُوتيتم أنتم وجميع الناس من العلمِ إلا قليلاً، وذُكِرَ أنَّ الذين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الروحِ، فنزلت هذه الآيةُ بمسألتهم إياهُ عنها، كانوا قوماً من اليهود.

وأما قوله: «مِنْ أَمْرِ رَبِّي» فإنه يعني: أنه من الأمرِ الذي يعلمه الله عزَّ وجلَّ دونَكُم، فلا تعلمونَهُ ويعلمُ ما هوَ.

وأما قوله: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً»، فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في المعنيِّ بقولـه: «وَمَـا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً»، فقال بعضهم: عَنَى بذلك: الذين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الروحِ وجميع الناس غيرهم، ولكن لما ضَمَّ غيرَ المخاطبِ إلى المخاطب، خرجَ الكلامُ على المخاطبة، لأنَّ العربَ كذلك تفعلُ إذا اجتمع في الكلام مُخْبَرٌ عنه غائبٌ ومخاطب، أخرجوا الكلام خطاباً للجمع.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: الذين سألوا رسولَ الله ﷺ عن الروحِ خاصةً دونَ غيرهم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب: أن يقال: خرجَ الكلامُ خطاباً لمن خُوطِبَ به، والمرادُ به جميعُ الخَلْقِ، لأنَّ عِلْمَ كلِّ أحدٍ سوى الله، وإنْ كَثُرَ في عِلْمِ الله قليلٌ. وإنما معنى الكلام: وما أُوتيتم أيها الناسُ من العلمِ إلا قليلاً من كثيرٍ مما يعلمُ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي آتيناكَ من العلمِ الذي أوحينا إليكَ من هذا القرآنِ لنذهبنَّ به، فلا تعلمه، ثم لا تجدُ لنفسكَ بما نفعلُ بك من ذلك وكيلاً، يعني: قيِّماً يقومُ لكَ، فيمنعنا من فعلِ ذلكَ بكَ، ولا ناصراً ينصركَ، فيحول بيننا وبين ما نريدُ بك، قال: و كان عبدالله بن مسعود يتأوّل معنى ذهابِ الله عزّ وجلّ به رَفْعهُ من صدورِ قارِئيهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

يقول عزّ وجلّ: «ولئنْ شِئْنا لنذهبنَّ» يا محمدُ «بالَّذِي أوْحيْنا إليْكَ» ولكنه لا يشاءُ ذلك، رحمةً من ربك وتَفَضُّلاً منه عليكَ، «إنَّ فضْلهُ كانَ عليكَ كبيراً» باصطفائهِ إياكَ لرسالتهِ، وإنزالهِ عليكَ كتابَهُ، وسائر نعمهِ عليكَ التي لا تُحصى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

يقول جل ثناؤه: قُلْ يا محمدُ للذين قالوا لك: إنا نأتي بمثلِ هذا القرآنِ: لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله، لا يأتونَ أبداً بمثله، ولو كان بعضُهم لبعضٍ عوناً وظهيراً. وذُكِر أنَّ هذه الآيةَ نزلت على رسولِ الله ﷺ بسببِ قومٍ من اليهودِ جادلوه في القرآن، وسألوه أنْ يأتيهم بآيةٍ غيرِه شاهدة له على نبوّته، لأنَّ مِثلَ هذا القرآن بهم قدرةٌ على أنْ يأتُوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ، احتجاجاً بذلك كله عليهم، وتذكيراً لهم، وتنبيهاً على الحقِّ ليتبعوهُ ويعملوا به «فَأبى أكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً»، يقول: فأبى أكثرُ الناسِ إلا جُحوداً للحقِّ، وإنكاراً لحجج الله وأدلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالَ يا محمدُ، المشركونَ باللهِ من قومِكَ لكَ: لن نُصدِّقَك، حتى تُفَجِّرَ لنا من أرضنا هذه عيناً تنبعُ لنا بالماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وقال لك يا محمدُ مشركو قومِكَ: لن نصدِّقَكَ حتى تستنبطَ لنا عيناً من أرضنا، تَدفَّقُ بالماء أو تفور، أو يكونَ لكَ بستانٌ، وهو الجنةُ، من نخيلٍ وعنب، فتفجِّرَ الأنهارَ خلالها تفجيراً بأرضنا هذهِ التي نحنُ بها خلالها، يعني: خلالَ النخيلِ والكروم، ويعني بقوله: «خِلالها تَفجِيراً» بينها في أصولها تفجيراً بسببِ أبنيتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «كِسَفاً» فقرأته عامَّة قَرأةِ الكوفة والبصرة بسكون السين، بمعنى: أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسْفاً، وذلك أن الكِسْفَ في كلام العرب: جمع كِسْفة، وهو جمع الكثير من العدد للجنس، كما تجمع السِّدْرة بسِدْر، والتمرة بتمر، فحُكيَ عن العرب سماعاً: أعطني كِسْفةً من هذا الثوبِ: أي قطعةً منه، يقال منه: جاءنا بثريد كِسْف: أي قطع خبز، وقد يحتمل إذا قرىء كذلك «كِسْفاً» بسكون السين أن يكون مراداً به المصدر من كسف. فأما الكِسفَ بفتح السين، فإنه جمع ما بين الثلاثِ إلى العشر، يقال: كِسَفَةٌ واحدة، وثلاث كِسَف، وكذلك إلى العشر، وقرأ ذلك عامة قَرَأة أهل المدينة وبعضِ الكوفيين «كِسَفاً» بفتح السين بمعنى: جمع الكِسْفة الواحدة من الثلاث إلى العشر، يعني بذلك قِطَعاً: ما بين الثلاث إلى العشر.

وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي قراءةُ من قرأهُ بسكونِ السين، لأنَّ الذين سألوا رسولَ الله ﷺ ذلك، لم يقصدوا في مسألتهم إياه ذلك أنْ

يكون بحدٍّ معلوم من القطع، إنما سألوا أنْ يُسْقطَ عليهم السماء قِطَعاً، وبذلك جاء التأويلُ أيضاً عن أهلِ التأويل.

وقوله، تعالى: «أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلًا»: يقول تعالى ذِكْرُه عن قِيلِ المشركينَ لنبيِّ الله ﷺ: أو تأتي بالله يا محمدُ والملائكة قبيلاً.

واختلف أهل التأويل في معنى القبيلِ في هذا الموضع.

فقال بعضهم: معناه: حتى يأتيَ اللهُ والملائكةُ كُلَّ قبيلةٍ منا قبيلةً قبيلةً، فَيُعَايِنُونَهُمْ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أَوْ تأتي بالله والملائكة عياناً نقابلهم مقابلةً، فنعاينهم معاينةً.

وأشبهُ الأقوالِ في ذلك بالصواب، القولُ الذي قِيلَ: إنه بمعنى المعاينة، من قولهم: قابلتُ فلاناً مقابلةً، وفلانٌ قبيل فلانٍ، بمعنى قبالته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن المشركين الذين ذكرنا أَمْرَهُمْ في هذه الآياتِ: أو يكونَ لكَ يا محمدُ بيتٌ من ذهبٍ؟ وهو الزخرف.

وقوله: «أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ»، يعني: أو تصعد في درجٍ إلى السماء، وإنما قيل في السماء، وإنما يرقى إليها لا فيها، لأنَّ القومَ قالوا: أو ترقى في سلم إلى السماء، فأدخلت «في» في الكلامِ ليدلَّ على معنى الكلام.

وقوله: «وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرقيِّكَ»، يقول: ولن نُصدِّقكَ من أجلِ رُقِيِّكَ إلى

السماء «حتى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً» منشوراً نَقْرَؤُهُ فيه أمْرُنا باتِّباعِكَ والإيمانِ بكَ.

وقوله: «قُلْ سُبْحانَ رَبّي» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين من قومِكَ، القائلينَ لك هذه الأقوال، تنزيهاً لله عما يَصِفُونَهُ به، وتعظيماً له من أن يؤتى به وملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيءٍ مما تَسْألُونيه. «هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَراً رَسُولاً»، يقول: هل أنا إلا عبدٌ من عبيده من بني آدم، فكيف أقدرُ أنْ أفعلَ ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدرُ عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسولُ أُبَلِّغكُم ما أُرسلتُ به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيدٌ له، لا يقدرُ على ذلك غيرُه.

وهذا الكلامُ الذي أخبرَ اللهُ أنه كلَّم به رسولَ الله ﷺ فيما ذكر كان من ملأٍ من قريش اجتمعوا لمناظرةِ رسولِ الله ﷺ ومحاجَّتهِ، فكلَّمُوه بما أخبرَ اللهُ عنهم في هذه الآيات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وما مَنَعَ يا محمدُ مشركي قومِكَ الإيمانَ بالله، وبما جِئْتَهُمْ به من الحقِّ «إذْ جاءَهُمُ الهُدَى»، يقول: إذ جاءهم البيانُ من عند الله بحقيقةِ ما تدعوهم وصحة ما جئتهم به، إلا قولُهم جهلاً منهم «أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً» فأنْ الأولى في موضع نصب بوقوع منع عليها، والثانية في موضع رفع، لأنَّ الفعلَ لها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء الذين أبوا الإيمانَ بكَ وتصديقكَ فيما جئتهم به من عندي، استنكاراً لأن يبعثَ اللهُ رسولاً من البشر: لو كان أيها الناسُ في الأرض ملائكةٌ يمشونَ مطمئنين، لَنَزَّلْنا عليهم من السماء مَلكاً رسولاً، لأنَّ الملائكةَ إنما تراهم أمثالُهم من الملائكة، ومَنْ خَصَّهُ اللهُ من بني آدم برؤيتها؛ فأما غيرهم فلا يقدرونَ على رؤيتها فكيف يبعثُ إليهم من الملائكةِ الرُّسُلَ، وهم لا يقدرونَ على رؤيتهم وهم بهيآتهم التي خلقهم اللهُ بها، وإنما يرسلُ إلى البشر الرسولَ منهم، كما لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يمشون مطمئنينَ، ثم أرسلنا إليهم رسولاً أرسلناهُ منهم مَلكاً مثلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمدُ للقائلينَ لك: «أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً» «كَفَى باللهِ شَهيداً بَيْني وَبَيْنَكُمْ» فإنه نِعْمَ الكافي والحاكم «إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبيراً»، يقول: إنَّ الله بعباده ذو خبرةٍ وعلمٍ بأمورهم وأفعالهم، والمحقّ منهم والمُبطل، والمهديّ والضالّ «بَصِيراً» بتدبيرهم وسياستهم وتصريفهم فيما شاء، وكيف شاء وأحبَّ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أمورِهم، وهو مُجازٍ جميعَهم بما قدَّمَ عند ورودهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يَهْدِ الله يا محمدُ للإيمانِ به، ولتصديقِكَ وتصديقِ ما جئتَ به من عند رَبِّكَ، فوفَّقه لذلك، فهوالمهتديالرشيد المصيب الحقّ، لا مَنْ هداهُ غيره، فإنَّ الهدايةَ بيده. ومَنْ يُضْلِلْ: يقول ومَنْ يُضلله الله عن الحقِّ، فيخذله عن إصابته، ولم يوفِّقه للإيمانِ بالله وتصديقِ رسوله، فلن تجد لهم يا محمدُ أولياءَ ينصرونهم من دونِ الله، إذا أراد الله عقوبتهم والاستنقاذ منهم، «ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ»، يقول: ونجمعهم بموقفِ القيامة من بعد تَفَرُّقِهم في القبور عند قيامِ الساعة «على وجوههم عُمْياً وَبُكْماً» وهو جمعُ أبكم، ويعني بالبُكْم: الخُرْس.

فإنْ قال قائل: وكيف وصفَ الله هؤلاء بأنهم يحشرون عمياً وبكماً وصماً، وقد قال: «ورأى المُجْرِمون النّارَ فَظَنّوا أنَّهُمْ مُوَاقِعُوها» فأخبر أنهم يرون، وقال: «إذَا رأتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وزَفِيراً. وإذَا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالكَ ثُبُورًا» فأخبر أنهم يسمعونَ وينطقون. قيل: جائزٌ أنْ يكونَ ما وصفهم الله به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حَشْرِهم إلى موقفِ القيامة، ثم يُجْعَلُ لهم أسماعٌ وأبصارٌ ومنطقٌ في أحوالٍ أُخر غيرِ حالِ الحشر، ويجوز أن يكون ذلك.

وقوله: «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ومصيرهم إلى جهنم، وفيها مساكِنُهم، وهم وَقُودُهَا.

وقوله: «كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً»، يعني بقوله: خبت: لانَتْ وسكنت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وصفنا من فعلنا يومَ القيامةِ بهؤلاءِ

المشـركينَ، ما ذكرتُ أنَّا نفعلُ بهم من حَشْرِهم على وجوهِهم عُمْياً وبكماً وصماً، وإصلائِنَا إياهم النارَ على ما بَيَّنا من حالتهم فيها ثوابَهم بكفرهم في الـدنيا بآياتنـا، يعني بأدلتـهِ وحججِهِ، وهم رُسُله الذين دعوهم إلى عبادتهِ، وإفـرادِهم إياهُ بالألـوهـةِ دونَ الأوثـانِ والأصنـام، وبقولهم إذا أُمِرُوا بالإيمانِ بالميعادِ، وبثواب الله وعقابهِ في الآخرة «أئِذَا كُنَّا عِظاماً» باليةً «وَرُفاتاً» قد صرنا تراباً «أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً»، يقول: نُبعثُ بعد ذلك خلقاً جديداً. كما ابتدأناه أوّلَ مرّةٍ في الدنيا استنكاراً منهم لذلك، واستعظاماً وتعجباً من أنْ يكون ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: أَوَ لَمْ ينظر هؤلاء القائلونَ من المشركين «أئِذَا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً» بعيونِ قلوبهم، فيعلمونَ أنَّ الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ، فابتدعها من غير شيءٍ، وأقامها بقُدرته، قادر بتلك القُدرةِ على أنْ يخلقَ مثلهم أشكالَهم، وأمثالَهم من الخَلْق بعد فنائهم، وقبلَ ذلك، وأنَّ مَنْ قدرَ على ذلك فلا يمتنعُ عليه إعادتهم خلقاً جديداً، بعد أن يصيروا عظاماً ورُفاتاً.

وقوله: «وَجَعَلَ لَهُمْ أجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ الله لهؤلاء المشركين أجلاً لهلاكِهم، ووقتاً لعذابهم لا ريبَ فيه: يقول: لا شكَّ فيه أنه آتيهم ذلكَ الأجلُ «فَأَبَى الظَّالِمُونَ إلاَّ كُفُوراً»، يقول: فأبى الكافرون إلا جحوداً بحقيقةِ وعيدِهِ الذي أوعدهم، وتكذيباً به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناسُ تملكونَ خزائنَ أملاكِ ربي من الأموال، وعَنَى بالرحمةِ في هذا الموضع: المالَ «إذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفاقِ»، يقول: إذن لَبَخِلْتُمْ بِهِ، فَلم تجودُوا بها على غيرِكم، خشيةً من الإنفاقِ والإقتار.

وقوله: «وكانَ الإِنْسانُ قَتُوراً»، يقول: وكان الإنسانُ بخيلاً مُمْسِكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد آتينا موسى بن عمران تسعَ آياتٍ بيناتٍ تُبَيِّنُ لمن رآها أنها حججٌ لموسى شاهدةٌ على صِدْقِه وحقيقةِ نبوّته.

وأما قوله: «فاسأَلْ بَنِي إسْرَائِيلَ إذْ جاءَهُمْ»، فإن عامَّة قرَأةِ الإسلامِ على قراءته على وجهِ الأمر بمعنى: فاسأَلْ يا محمدُ بني إسرائيلَ إذ جاءهم موسى.

وقوله: «فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إنّي لأَظُنُّكَ يا مُوسَى مَسْحُوراً»، يقول: فقال لموسى فرعونُ: إني لأظنك يا موسى تتعاطى عِلْمَ السحر، فهذه العجائبُ التي تفعلها من سحركَ، وقد يجوزُ أنْ يكونَ مُراداً به إني لأظنك يا موسى ساحراً، فوضعِ مفعول موضعَ فاعل، كما قيل: إنك مشئومٌ علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن. وقد تأوَّلَ بعضُهم حجاباً مستوراً، بمعنى: حجاباً ساتراً، والعربُ قد تخرج فاعلاً بلفظ مفعول كثيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢﴾

إنَّ الله تعالى ذكره قد أخبر عن فرعونَ وقومِهِ أنهم جحدوا ما جاءهم به موسى من الآياتِ التسع، مع علمهم بأنها من عندِ الله بقوله: «وأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ. فَلَمَّا جاءَتَهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ، وَجَحَدُوا بِها، وَاسْتَيْقَنَتْهـا أنْفُسُهُمْ ظُلْما وَعُلُوّاً» فأخبر جلَّ ثناؤه أنهم قالوا: هي سحر، مع علمهم واستيقانِ أنفسهم بأنها من عند الله، فكذلك قولُه: «لَقَدْ عَلِمْتَ» إنما هو خبرٌ من موسى لفرعونَ بأنه عالمٌ بأنها آيات من عند الله.

وقـوله: «وإنِّي لأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً»، يقول: إني لأظنك يا فرعونُ ملعوناً ممنوعاً من الخير. والعربُ تقول: ما ثَبرَكَ عن هذا الأمرِ: أي ما منعكَ منه، وما صَدَّكَ عنه؟ وثبره الله فهو يُثْبره ويُثَبِّرُهُ لغتان، ورجلٌ مثبور: محبوسٌ عن الخيراتِ هالك.

القَـوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝١٠٣ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤﴾

يقـول تعـالى ذكـره: فأراد فرعـون أنْ يستفزَّ موسى وبني إسرائيل من الأرض، «فَأَغْرَقْنَاهُ» في البحر، «وَمَن مَعَهُ» من جُنْدِه «جَمِيعاً»، ونجيَّنا موسى وبني إسرائيل، وقلنا لهم «مِنْ بَعْدِ» هلاكِ فرعون «اسْكُنُوا الأرْضَ» أرضَ الشام «فإِذَا جاءَ وَعْدُ الآخرَةِ جِئْنا بكُمْ لَفيفاً»، يقول: فإذا جاءت الساعة، وهي وعدُ

الآخرة، جئنا بكم لفيفاً: يقول: حشرناكم من قبورِكم إلى موقفِ القيامة لفيفاً: أي مختلطين قد التفَّ بعضكم على بعض، لا تتعارفونَ، ولا ينحازُ أحدٌ منكم إلى قبيلته وحَيِّه، من قولك: لففتُ الجيوشَ: إذا ضربتُ بعضَها ببعضٍ، فاختلط الجميعُ، وكذلك كلُّ شيءٍ خُلط بشيءٍ فقد لُفَّ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وبالحقِّ أنزلنا هذا القرآن: يقول: أنزلناهُ نأمرُ فيه بالعدلِ والإنصافِ والأخلاقِ الجميلةِ، والأمورِ المُسْتحسنةِ الحميدةِ، ونَنْهَى فيه عن الظلمِ والأمورِ القبيحة، والأخلاقِ الردية، والأفعالِ الذّميمة «وبالحَقّ نَزَلَ»، يقول: وبذلك نزل من عند الله على نبيه محمد ﷺ.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمدُ إلى مَنْ أرسلناكَ إليه من عبادنا، إلا مبشراً بالجنَّة مَنْ أطاعنا، فانتهى إلى أمرنا ونَهْينا، ومنذراً لمن عَصَانا وخالفَ أمرنا ونَهْيَنا. «وَقُرآناً فَرَقْناهُ لتَقْرأَهُ»، يعني: أحكمناهُ وفصّلناه وبيَّناه.

فتأويل الكلام: وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً، وفصلناه قرآناً، وبيَّناهُ وأحكمناه، لتقرأه على الناسِ على مُكْثٍ.

وقوله: «وَنَزَّلْناهُ تَنْزيلاً» يقول تعالى ذِكْرُه: فَرَّقْنَا تنزيله، وأنزلناه شيئاً بعد شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء القائلينَ لك: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تُفَجِّرَ لَنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً»: آمنوا بهذا القرآنِ الذي لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله، لم يأتوا به ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً، أو لا تؤمنوا به، فإنَّ إيمانَكُمْ به لن يزيدَ في خزائنِ رحمةِ الله ولا ترككم الإيمانَ به ينقصُ ذلك، وإنْ تكفروا به، فإن الذين أُوتوا العلمَ بالله وآياته من قبلِ نزولِهِ من مؤمني أهلِ الكتابين، إذا يُتْلَى عليهم هذا القرآنُ يَخِرُّونَ تعظيماً له وتكريماً، وعلماً منهم بأنه من عندِ الله لأذقانِهم سُجَّداً بالأرض.

وقوله: «سُبْحانَ رَبِّنا إنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً»، يقول جلّ ثناؤه: ويقول هؤلاء الذين أُوتوا العلم من قبلِ نزولِ هذا القرآن، إذْ خَرُّوا للأذقانِ سجوداً عند سماعهم القرآنَ يُتْلى عليهم، تنزيهاً لربنا وتبرئةً له مما يضيفُ إليه المشركون به، ما كان وَعْدُ رَبِّنا من ثوابٍ وعقاب، إلا مفعولاً حقاً يقيناً. إيمان بالقرآنِ وتصديق به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويخرُّ هؤلاء الذين أُوتُوا العلمَ من مؤمني أهلِ الكتابين من قبلِ نزولِ الفرقان، إذا يُتْلَى عليهم القرآنُ لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآنِ من المواعظِ والعبرِ خشوعاً، يعني خضوعاً لأمرِ الله وطاعته، واستكانةً له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ

﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمدُ لمشركي قومكَ المُنْكِرينَ دُعاءَ الرحمن: «ادْعُوا اللهَ» أيها القوم «أوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ، أيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْماءُ الحُسْنَى» بأيِّ أسمائِهِ جَلَّ جلالُه تدعونَ ربكم، فإنما تدعون واحداً، وله الأسماءُ الحُسنى. وإنما قيلَ ذلك له ﷺ، لأنَّ المشركينَ فيما ذُكِرَ سمعوا النبيَّ ﷺ يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزلَ الله على نبيه عليه الصلاة. والسلام هذه الآيةَ احتجاجاً لنبيه عليهم.

(ثم قال): ولا تجهرْ يا محمدُ بقراءتك في صلاتكَ ودُعائكَ فيها ربَّكَ ومسألتَكَ إياهُ، وذِكْركَ فيها، فيؤذيك بجهركَ بذلك المشركونَ، ولا تخافِتْ بها فلا يسمعها أصحابُكَ «وابْتَغِ بينَ ذلكَ سَبيلاً» ولكن التمسْ بين الجهرِ والمخافتةِ طريقاً إلى أنْ تسمع أصحابك، ولا يسمعه المشركون فيؤذوك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَقُلْ» يا محمدُ «الحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً» فيكون مربوباً لا رباً، لأنَّ ربَّ الأربابِ لا ينبغي أنْ يكون له ولد. «ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَريك فِي المُلْكِ» فيكون عاجزاً ذا حاجةٍ إلى معونةِ غيره ضعيفاً، ولا يكونُ إلهاً مَنْ يكونُ محتاجاً إلى معينٍ على ما حاول، ولم يكن منفرداً بالمُلكِ والسلطان. «ولَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ»، يقول: ولم يكن له حليفٌ حالفه من الذلِّ الذي به، لأنَّ مَنْ كان ذا حاجةٍ إلى نُصْرَةِ غيره، فذليلٌ مَهينٌ، ولا يكونُ مَنْ كان ذليلاً مهيناً يحتاجُ إلى ناصرٍ إلهاً يُطاع «وكَبِّرْهُ تَكْبيراً»، يقول: وعَظِّمْ رَبَّكَ يا محمدُ بما أمرناكَ أنْ تعظمه به من قولٍ وفعل، وأطِعْهُ فيما أمركَ ونهاكَ.





القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا ﴾

يقول تعالى ذكره: الحمدُ لله الذي خَصَّ برسالته محمداً وانتخبه لبلاغها عنه، فابتعثه إلى خَلْقه نبياً مرسلاً، وأنزل عليه كتابه قيماً، ولم يجعلْ له عِوَجاً.

وعُني بقوله عزّ ذِكْرُه «قَيِّماً»: معتدلاً مستقيماً.

وقيل: إنمـا افتتـح جَلَّ ثناؤه هذه السورةَ بذكرِ نفسِه بما هو له أهلٌ، وبالخبرِ عن إنزالِ كتابه على رسولِهِ إخباراً منه للمشركينَ من أهلِ مكةَ، بأنَّ محمداً رسولُه ﷺ، وذلك أنَّ المشركينَ كانوا سألوا رسولَ الله ﷺ عن أشياء عَلَّمَهُمُـوهَا اليهودُ من قريظةَ والنضير، وأمروهم بمسألَتِهُمُوهُ عنها، وقالوا: إنْ أخبركم بها فهو نبيٌّ، وإنْ لم يخبركم بها فهو متقوِّلٌ، فوعدهم رسولُ الله ﷺ للجوابِ عنها موعداً، فأبطأ الوحيُ عنه بعضَ الإبطاء، وتأخَّر مجيءُ جبرائيلَ عليه السلام عنه عن ميعادِهِ القوم، فتحدَّثَ المشركون بأنه أخلفهم موعدَهُ، وأنه متقـوِّلٌ، فأنـزلَ اللهُ هذه السـورةَ جوابـاً عن مسائِلهم، وافتتحَ أوَّلَها بذكره، وتكذيبِ المشركين في أُحدوثَتِهم التي تَحَدَّثُوها بينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أنزلَ على عبده القرآنَ معتدلاً مستقيماً لا عِوَجَ فيه لينذركم أيها الناسُ بأساً من الله شديداً، وعنى بالبأسِ العذابَ العاجلَ، والنكالَ الحاضرَ والسطوةَ.

وقوله: «مِنْ لَدُنْهُ»، يعني: من عند الله.

وقوله: «وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ»، يقول: ويبشر المصدقين الله ورسوله «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ» وهو العمل بما أمرَ اللهُ بالعملِ به، والانتهاء عما نهى الله عنه «أنَّ لَهُمْ أجْراً حَسَناً»، يقول: ثواباً جزيلاً لهم من الله على إيمانهم بالله ورسوله، وعملهم في الدنيا الصالحات من الأعمال، وذلك الثواب: هو الجنة التي وعدها المتقون.

وقوله: «ماكِثِينَ فِيهِ أبَداً» خالدين، لا ينتقلونَ عنه، ولا يُنْقَلون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويحذرُ أيضاً محمدُ القومَ «الَّذِين قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً» من مشركي قومه وغيرهم، بأسَ الله وعاجلَ نقمته. وآجلَ عذابه، على قِيلهم ذلك.

وقوله: «ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ»، يقول: ما لقائلي هذا القول، يعني قولهم: «اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً» «بِهِ»: يعني بالله من علمٍ، والهاء في قوله: «بِهِ» من ذكرِ الله،

وإنما معنى الكلام: ما لهؤلاء القائلينَ هذا القولَ بالله، إنه لا يجوز أنْ يكون له ولد من علم، فلجهلهم بالله وعظمته قالوا ذلك.

وقوله: «وَلا لآبائِهِمْ»، يقول: ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مِثْلِ الذي هُمْ عليه اليوم، كان لهم بالله وبعظمته علم.

وقوله: «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ»، يقول: عَظُمتِ الكلمةُ كلمةً تخرجُ من أفواهِ هؤلاء القومِ الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، والملائكة بنات الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بذلك: فلعلك يا محمدُ قاتلُ نفسك ومُهْلكُهَا على آثارِ قومكَ الذين قالوا لك: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تُفَجِّرَ لَنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً» تمرّداً منهم على رَبِّهم، إنْ هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليكَ فيُصَدِّقُوا بأنه من عندِ الله حزناً وتلهفاً ووجداً، بإدبارهم عنك، وإعراضِهم عماأتيتهم به وتركهم الإيمان بك، يقال منه: بخعَ فلانٌ نفسه يبخعها بَخْعاً وبخوعاً.

وهذه معاتبةٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه على وَجْدِه بمباعدةِ قومهِ إياهُ فيما دَعَاهم إليه من الإيمانِ بالله، والبراءةِ من الآلهةِ والأندادِ، وكان بهم رحيماً.

وقوله: «إنَّا جَعَلْنا ما عَلى الأرْضِ زِينَةً لَهَا»، يقول عزّ ذِكْرُه: إنَّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً للأرضِ. «لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً»، يقول: لنختبر عبادنا أيُّهُمْ أتركُ لها وأتبعُ لأمرنا ونهينا وأعملُ فيها بطاعتنا.

وقوله: «وَإنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً»، يقول عزّ ذِكْرُه: وإنا

لمخرِّبُوها بعد عَمَارتِنَاهَا بما جعلنا عليها من الزينةِ، فَمُصَيِّرُوهَا صعيداً جُرُزاً لا نبـاتَ عليهـا ولا زرعَ ولا غرسَ. وقـد قيل: إنـه أُريدَ بالصعيدِ في هذا الموضع: المستوي بوجهِ الأرضِ، وذلك هو شبيهٌ بمعنى قولنا في ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلـِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أمْ حسبتَ يا محمدُ أنَّ أصحابَ الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عَجَباً، فإنَّ ما خلقتُ من السموات والأرض، وما فيهنَّ من العجائبِ أعجب من أمرِ أصحابِ الكهف، وحجتي بكلِّ ذلك ثابتةٌ على هؤلاء المشركين من قومك، وغيرهم من سائر عبادي.

وأما الكهف، فإنه كهفُ الجبلِ الذي أوى إليه القومُ الذين قَصَّ اللهُ شأنَهم في هذه السورة.

وأما الرقيم، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في المعنيِّ به، فقال بعضهم: هو اسم قرية، أو وادٍ على اختلافٍ بينهم في ذلك.

وقال آخرون: الرقيم: الكتاب.

وقال آخرون: بل هو اسم جبل أصحاب الكهف.

وأوْلى هذه الأقوال بالصواب في الرقيم أن يكون معنياً به: لوح، أو حجر، أو شيء كُتب فيه كتابٌ وقد قال أهلُ الأخبار: إنَّ ذلك لوح كُتب فيه أسماءُ أصحابِ الكهف وخبرهم حين أوَوْا إلى الكهف، ثم قال بعضهم: رُفع ذلك اللوح في خزانـةِ الملك. وقـال بعضهم: بل جُعلَ على بابِ كهفهم. وقال بعضهم: بل كان ذلك محفوظاً عند بعض أهل بلدهم، وإنما الرقيم: فعيل،

أصله: مرقوم، ثم صُرف إلى فعيل، كما قيل للمجروح: جريح، وللمقتول: قتيل: ، يقال منه: رقمت كذا وكذا: إذا كتبته، ومنه قيل للرَّقْمِ في الثوب رقم، لأنه الخطُّ الذي يعرف به ثمنه. ومن ذلك قيل للحيَّة: أرقم، لما فيه من الآثار؛ والعربُ تقولُ: عليك بالرقمة، ودَعِ الضِفَّةَ: بمعنى عليك برقمة الوادي حيثُ الماء، ودع الضفة الجانبة. والضفتان: جانبا الوادي. وأحسبُ أنَّ الذي قال الرقيم: الوادي، ذهبَ به إلى هذا، أعني به إلى رقمة الوادي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصحَابَ الكَهْفِ والـرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً» حين أوى الفتيةُ أصحابُ الكهف إلى كهفِ الجبل، هَرَباً بدينهم إلى الله، فقالوا إذ أَوَوْهُ: «رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» رغبةً منهم إلى رَبِّهم، في أنْ يرزقهم من عنده رحمةً.

وقوله: «وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أمْرِنا رَشَداً»، يقول: وقالوا: يَسِّرْ لنا بما نبتغي وما نلتمس من رِضاكَ والهرب من الكُفْر بك، ومن عبادةِ الأوثان التي يَدْعُونَا إليها قومُنا، رَشَداً: يقول: سَداداً إلى العمل بالذي تُحِبُّ.

وقد اختلف أهلُ العلم في سبب مصيرِ هؤلاء الفِتيةِ إلى الكهفِ الذي ذكره اللهُ في كتابه، فقال بعضهم: كان سبب ذلك، أنهم كانوا مسلمينَ على دِينِ عيسى، وكـان لهم ملكٌ عابـدُ وَثَن، دعاهم إلى عبادةِ الأصنامِ فهربوا بدينهم منه خشيةَ أنْ يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاسْتَخْفَوْا منه في الكهف.

وقال آخرون: بل كان مصيرهم إلى الكهف هرباً من طلب سلطانٍ كان طلبهم بسببِ دَعوى جناية ادّعى على صاحبٍ لهم أنه جَنَاها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «فَضَرَبْنا على آذانِهِمْ فِي الكَهْفِ»، فضربنا على آذانهم بالنـوم في الكهف: أي ألقينـا عليهمُ النومَ، كما يقول القائلُ لآخرَ: ضربكَ اللهُ بالفالج، بمعنى ابتلاه الله به، وأرسله عليه.

وقوله: «سِنِينَ عَدَداً»، يعني: سِنينَ معدودة، ونصب العدد بقوله: «فضَرَبْنا».

وقوله: «ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَيْنِ أحْصَى»، يقول: ثم بعثنا هؤلاء الفتيةَ الذين أوَوْا إلى الكهف بعد ما ضربنا على آذانِهم فيه سنين عدداً من رَقْدتهم، لينظر عبادي فيعلموا بالبحث، أيُّ الطائفتين اللتين اختلفتا في قَدْرِ مبلغِ مُكْثِ الفتيةِ في كهفهم رقوداً. «أحْصَى لِمَا لَبِثُوا أمَداً»، يقول: أصوبُ لِقَدْرِ لُبْثِهم فيه أمداً؛ ويعني بالأمد: الغاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: نحنُ يا محمدُ نقصُّ عليكَ خبرَ هؤلاء الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف بالحقِّ، يعني: بالصدق واليقين الذي لا شكَّ فيه. «إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِمْ»، يقول: إنَّ الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف الذين

سألك عن نبئهم الملأُ من مشركي قومك، فتيةٌ آمنوا بربهم، «وَزِدْناهُمْ هُدًى»، يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً، وبصيرةً بدينهم، حتى صبروا على هجران دارِ قومِهم، والهربِ من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراقِ ما كانوا فيه من خفضِ العيشِ ولِيْنِه، إلى خشونةِ المُكْثِ في كهف الجبل.

وقوله: «وَرَبَطْنا على قُلُوبِهِمْ»، يقول عزّ ذِكْرُه: وألهمناهم الصبرَ، وشَدَدْنا قلوبَهم بنورِ الإيمانِ حتى عَزَفَتْ أنفسُهم عما كانوا عليه من خفضِ العيش.

وقوله: «إِذْ قامُوا فقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول: حين قاموا بين يدي الجبار دقينوس، فقالوا له إذ عاتبهم على تركهم عبادةَ آلهته: «رَبُّنا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول: قالوا رَبُّنَا ملكُ السموات والأرض وما فيهما من شيء، وآلهتك مربوبةٌ، وغيرُ جائزٍ لنا أن نتركَ عبادةَ الربِّ ونعبدَ المربوبَ. «لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً»، يقول: لن نَدْعُوَ من دونِ ربِّ السمواتِ والأرض إلهاً، لأنه لا إلهَ غيرُه، وإنَّ كُلَّ ما دونَهُ فهو خَلْقُه. «لَقَدْ قُلْنا إِذًا شَطَطاً»، يقول جلّ ثناؤه: لئن دعونا إلهاً غير إلهِ السمواتِ والأرض، لقد قلنا إذن بدعائِنا غيرَهُ إلهاً، شططاً من القولِ: يعني غالياً من الكذبِ، مجاوزاً مقداره في البُطُولِ والغُلُوِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الفتيةِ من أصحابِ الكهف: هؤلاء قومُنَا اتَّخذُوا من دونِ الله آلهةً يعبدونها من دونه. «لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بسُلْطانٍ بَيِّنٍ»، يقول: هَلَّا يأتون على عبادتهم إياها بحجةٍ بينةٍ.

وفي الكلام محذوفٌ اجْتُزِئَ بما ظهر عما حذف، وذلك في قوله: «لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بسُلْطانٍ بَيِّنٍ» فالهاء والميم في عليهم من ذِكْرِ الآلهة، والآلهةُ لا

يُؤْتَى عليها بسلطان، ولا يُسألُ السلطان عليها، وإنما يُسألُ عَابِدُوهَا السلطانَ على عِبَادَتِهِمُوهَا، فمعلومٌ إذْ كان الأمرُ كذلك، أنَّ معنى الكلام: لولا يأتون على عبادتهمُوها، واتِّخَاذِهِمُوها آلهةً من دونِ الله بسلطانٍ بَيِّنٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ بعضِ الفتية لبعض: وإذ اعتزلتم أيها الفتيةُ قومَكم الذين اتخذوا من دون الله آلهة «ومَا يَعْبُدُونَ إلَّا الله»، يقول: وإذ اعتزلتم قومَكم الذين يعبدون من الآلهةِ سوى الله، إذْ كان ذلك معناه في موضع نصب عطفاً لها على الهاء، والميم التي في قوله: «وإذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ».

وأما قوله: «فَأْوُوا إلى الكَهْفِ» فإنه يعني به: فَصِيرُوا إلى غارِ الجبلِ الذي يُسَمَّى بنجلوس، «يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»، يقول: يبسط لكم رَبُّكم من رحمتِهِ بتيسيرِه لكم المخرجَ من الأمر الذي قد رُمِيتم به من الكافر دقينوس وطلبه إياكم لعرضِكُمْ على الفتنة.

وقوله: «فَأْوُوا إلى الكَهْفِ» جوابٌ لإذْ، كأنَّ معنى الكلام: وإذ اعتزلتم أيها القومُ قومَكم، فأْوُوا إلى الكهفِ؛ كما يقال: إذ أذنبتَ فاستغفرِ الله وتُبْ إليه.

وقوله: «ويُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ امْرِكُمْ مِرْفَقاً»، يقول: ويُيَسِّرْ لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغَمِّ والكربِ خوفاً منكم على أنفسِكم ودينكم مرفقاً، ويعني بالمرفق: ما ترفقونَ به من شيْء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾



يقول تعالى ذِكْره: «وَتَرَى الشَّمْسَ» يا محمدُ «إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ»، يعني بقوله: «تَزَاوَرُ»: تَعْدِلُ وتميلُ، من الزَّوَرِ: وهو العِوَجُ والميلُ؛ يقال منه: في هذه الأرض زَوَرٌ: إذا كان فيها اعوجاج، وفي فلان عن فلان ازْوِرَارٌ، إذا كان فيه عنه إعراضٌ.

وقوله: «وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمالِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا غربت الشمسُ تتركهم من ذاتِ شمالهم. وإنما معنى الكلام: وترى الشمسَ إذا طلعت تعدلُ عن كهفهم، فتطلعُ عليه من ذاتِ اليمينِ، لئلا تُصيبَ الفتيةَ، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذاتِ الشمال، فلا تصيبهم؛ يقال منه: قرضتُ موضعَ كذا: إذا قطعته فجاوزته.

وقوله: «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ»، يقول: والفتيةُ الذين أَوَوْا إليه في مُتَّسَعٍ منه.

وقوله: «ذلكَ مِنْ آياتِ اللهِ»، يقول عزَّ ذِكْرُهُ: فِعْلُنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء الفتيةِ ـ الذين قَصَصْنَا عليكم أمرهم من تَصْيِيرِنَاهُمْ، إذْ أردنا أنْ نضربَ على آذانهم بحيث تَزاورُ الشمسُ عن مضاجِعهم ذاتَ اليمين إذا هيَ طلعت، وتقرضهم ذاتَ الشمالِ إذا هي غَرَبت، مع كونِهم في المتسع من المكان، بحيث لا تُحرِقُهم الشمسُ فَتُشْحِبُهم، ولا تُبْلي على طول رقدتهم ثيابَهم، فتعفنَ على إجسادِهم، ـ من حجج الله وأدلته على خَلْقِه، والأدلة التي يستدلُّ

بها أولو الألبابِ على عظيمِ قُدْرتِهِ وسلطانه، وأنه لا يُعجزه شيءٌ أراده.

وقوله: «مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ»، يقول عزّ وجلّ: مَنْ يوفّقه اللهُ للاهتداء بآياتهِ وحججه إلى الحق التي جعلها أدلةً عليه، فهو المهتدي: يقول: فهو الذي قد أصابَ سبيلَ الحقِّ. «وَمَنْ يُضْلِلْ»، يقول: ومَنْ أضَلَّهُ اللهُ عن آياته وأدلته، فلم يوفقه للاستدلالِ بها على سبيلِ الرشاد، «فَلَنْ تَجِد لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً»، يقول: فلن تجد له يا محمدُ خليلاً وحليفاً يرشده لإصابتها، لأنَّ التوفيقَ والخِذْلانَ بيد الله، يوفق مَنْ يشاء من عبادِه، ويخذل مَنْ أراد؛ يقول: فلا يَحْزُنكَ إدبارُ مَنْ أدبرَ عنك من قومك وتكذيبهم إياك، فإني لو شئتُ هَدَيْتُهم فآمنوا، وبيدي الهدايةُ والضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: وتحسبُ يا محمدُ هؤلاء الفتيةَ الذين قَصَصْنَا عليكَ قصتهم، لو رأيتهم في حال ضَرْبِنَا على آذانهم في كهفهم الذي أَوَوْا إليه أيقاظاً. والأيقاظُ: جمع يَقِظ.

وقوله: «وَهُمْ رُقُودٌ»، يقول: وهم نيامٌ. والرقودُ: جمع راقدٍ، كالجلوس: جمع جالس، والقعود: جمع قاعد.

وقوله: «وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشّمالِ»، يقول جلّ ثناؤه: ونقلِّبُ هؤلاء الفتية في رقدتهم مرّةً للجنبِ الأيمن، ومرّة للجنبِ الأيسر.

وقوله: «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد»، الوصيد: الباب، أو فناء الباب حيث يغلق الباب، وذلك أن الباب يوصَدُ، وإيصادهُ: إطباقهُ وإغلاقهُ من قول

الله عزّ وجلّ: «إنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ»، وفيه لغتان: الأصيد، وهي لغةُ أهل نجد، والوصيد: وهي لغة أهل تهامة، وذُكِر عن أبي عمرو بن العلاء، قال: إنها لغةُ أهل اليمن، وذلك نظير قولهم ورَّختُ الكتابَ وأرَّخْتُه، ووكَّدْتُ الأمرَ وأكَّدتُه، فمن قال الوصيد، قال: أوصدت الباب فأنا أُوصِده، وهو مُوصَدٌ؛ ومن قال الأصيد، قال: آصدتُ البابَ فهو مُؤْصَدٌ، فكان معنى الكلام: وكلبهم باسط ذراعيه بفناء كهفهم عند الباب، يحفظُ عليهم بابه.

وقوله: «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً»، يقول: لو اطلعتَ عليهم في رقدتهم التي رَقَدُوهَا في كهفهم، لأدبرتَ عنهم هارباً منهم فارّاً، «ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً»، يقول: ولملئتْ نفسُكَ من اطلاعكَ عليهم فَزَعاً، لما كان الله ألبسهم من الهيبةِ، كي لا يصلَ إليهم واصلٌ، ولا تلمِسهم يَدُ لامسٍ حتى يبلغ الكتابُ فيهم أجلَهُ، وتُوقِظَهُمْ من رقدتهم قُدْرَتُه وسلطانُه في الوقتِ الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء من خلقه، وآيةً لمن أراد الاحتجاجَ بهم عليه من عباده، ليعلموا أنَّ وعدَ الله حقٌّ، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما أرقدنا هؤلاء الفتيةَ في الكهف، فحفظناهم من وصولِ واصلٍ إليهم، وعينِ ناظرٍ أنْ ينظرَ إليهم، وحَفِظْنَا أجسامَهم من البلاءِ

على طولِ الزمان، وثيابَهم من العفنِ على مَرِّ الأيام بقدرتنا؛ فكذلك بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم، لنعرِّفَهُمْ عظيمَ سلطاننا، وعجيبَ فِعْلِنَا في خَلْقِنا، وليزدادوا بصيرةً في أمرهم الذي هُمْ عليه من براءتهم من عبادةِ الآلهة، وإخلاصهم لعبادةِ الله وحده لا شريكَ له، إذا تبيَّنوا طولَ الزمانِ عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا.

وقوله: «لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ»، يقول: ليسأل بعضُهم بعضاً. «قالَ قائلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ»، يقول عزَّ ذكره: فتساءلوا فقالَ قائلٌ منهم لأصحابه: «كَمْ لبِثْتمْ» وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طولَ رقدتهم. «قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ»، يقـول: فأجابه الآخرون فقالوا: لَبِثْنا يوماً أو بعضَ يومٍ، ظناً منهم أنَّ ذلك كذلك كان، فقال الآخرون: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» فسلِّموا العلمَ إلى الله.

وقـوله: «فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلى المَدِينَةِ» يعني مدينتهم التي خرجوا منها هِرَاباً، التي تسمى أفسوس. «فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعاماً فَلْيأْتِكُمْ برزقٍ مِنْهُ» ذكر أنهم هَبُّوا من رقدتهم جِياعاً، فلذلك طلبوا الطعام.

وأمـا قولـه: «فَلْيَنْـظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعاماً»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله؛ فقال بعضهم: معناه فلينظر أيّ أهل المدينة أكثر طعاماً.

وقال آخرون: بل معناه أيها أحلّ طعاماً.

وقال آخرون: بل معناه: أيها خير طعاماً.

وأوْلى الأقوال عندي في ذلك بالصواب: قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: أحلُّ وأطهرُ، وذلك أنه لا معنى في اختيار الأكثر طعاماً للشراء منه إلا بمعنى إذا كان أكثرهم طعاماً، كان خليقاً أن يكون الأفضل منه عنده أوجد، وإذا شرط على المـأمـور الشـراء من صاحبِ الأفضلِ، فقد أمر بشراءِ الجَيِّدِ، كانَ ما عند المشتري ذلك منه قليلاً الجيد أو كثيراً.

وقوله: «فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ»، يقول: فليأتكم بقوتٍ منه تَقْتَاتُونَهُ، وطعام تأكلونه.

وقوله: «وَلْيَتَلَطَّفْ»، يقول: وليترفَّقْ في شرائهِ ما يشتري، وفي طريقهِ ودخولهِ المدينةَ. «وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً»، يقول: ولا يُعْلِمَنَّ بكم أحداً من الناس.

وقوله: «إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ»، يعنون بذلك: دقينوس وأصحابه؛ قالوا: إن دقينوس وأصحابه إنْ يَظْهَرُوا عليكم، فيعلموا مكانَكم، يرجموكم شتماً بالقول.

وقوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ»، يقول: أو يردُّوكُمْ في دينهم، فتصيروا كفاراً بعبادةِ الأوثانِ. «وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَداً»، يقول: ولن تُدْرِكُوا الفلاحَ، وهو البقاءُ الدائمُ والخلودُ في الجِنان، إذن: أي إن أنتم عُدْتم في ملتهم أبداً: أيامَ حياتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكما بعثناهم بعد طول رَقْدَتِهم كهيئتهم ساعةَ رَقَدُوا، ليتساءلوا بينهم، فيزدادوا بعظيمِ سلطانِ الله بصيرةً، وبحسنِ دفاعِ اللهِ عن أوليائه معرفةً. «كَذلكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ»، يقول: كذلك أطلعنا عليهم الفريقَ الآخرَ الذين كانوا في شكٍّ من قُدرةِ الله على إحياءِ الموتى، وفي مِرْيةٍ من إنشاءِ أجسامِ خَلْقِه، كهيئتهم يومَ قبضهم بعد البِلَى، فيعلموا أنَّ وَعْدَ الله حقٌّ،

ويُوقنوا أنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها.

وقوله: «إِذْ يَتَنازَعُون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ»، يعني: الذين أعثروا على الفتية يقول تعالى: وكذلك أعثرنا هؤلاء المختلفينَ في قيامِ الساعة، وإحياءِ اللهِ الموتى بعد مماتهم منْ قوم تيذوسيس، حين يتنازعونَ بينهم أمرهم فيما الله فاعلٌ بمن أفناهُ من عبادِه، فأبلاهُ في قبره بعد مماتِهِ، أَمُنْشِئُهم هو أم غير منشئهم.

وقـولـه: «فقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً»، يقول: فقال الذين أعثرناهم على أصحـابِ الكهف: ابنوا عليهم بنياناً. «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ»، يقول: ربُّ الفتيةِ أعلمُ بالفتيةِ وشأنهم.

وقوله: «قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا على أَمْرِهِمْ»، يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمرِ أصحابِ الكهف: «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سيقولُ بعض الخائضين في أمرِ الفِتْية من أصحابِ الكهف، هُمْ ثلاثـة رابعهم كلبهم، ويقـول بعضهم: هم خمسـة سادسهم كلبهم. «رجْماً بَالغَيْبِ»، يقول: قذفاً بالظنِّ غيرَ يقينِ علمٍ.

وقـولـه: «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ»، يقول: ويقول بعضهم: هم سبعـة وثامنهم كلبهم. «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ»، يقول عزَّ ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لقائلي هذه الأقوالِ في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجماً

منهم بالغيب: «رَبي أعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ»، يقول: ما يعلم عَدَدَهُمْ «إلاَّ قَلِيلٌ» من خَلْقِه.

وقوله: «فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إلاَّ مِرَاءً ظاهِراً»، يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا تُمَارِ يا محمدُ: يقول: لا تجادلْ أهلَ الكتابِ فيهم، يعني في عِدَّةِ أهلِ الكهف، وحُذِفت العِدَّةُ اكتفاءً بذكرهم فيها لمعرفةِ السامعين بالمراد.

وقوله: «إلاَّ مِرَاءً ظاهراً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى المِراء الظاهرِ الذي استثناهُ الله، ورَخَّصَ فيه لنبيه ﷺ، فقال بعضهم: هو ما قَصَّ اللهُ في كتابه أُبيحَ له أن يتلوه عليهم، ولا يماريهم بغير ذلك.

وقال آخرون: المِراء الظاهر: هو أنْ يقولَ: ليس كما تقولون، ونحو هذا من القول.

وقوله: «وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أحَداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تستفتِ في عدّةِ الفتية من أصحابِ الكهف منهم، يعني من أهلِ الكتاب أحداً، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

وهـذا تأديبٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ عَهِدَ إليه أنْ لا يجزمَ على ما يحدثُ من الأمورِ أنه كائنٌ لا محالةَ، إلا أنْ يَصِلَهُ بمشيئةِ الله، لأنه لا يكونُ شيءٌ إلا بمشيئة الله.

وإنمـا قيل له ذلك فيما بلغنا من أجلِ أنه وعدَ سائليهِ عن المسائلِ

الثلاثِ اللواتي قد ذكرناها فيما مضى اللواتي، إحداهُنَّ المسألة عن أمرِ الفتيةِ من أصحابِ الكهف أنْ يجيبهم عنهنَّ غَدَ يومِهم، ولم يستثنِ، فاحتبسَ الوحيُ عنه فيما قيل من أجلِ ذلك خمسَ عشرة، حتى حَزَنَهُ إبطاؤه، ثم أنزلَ الله عليه الجوابَ عنهنّ، وعَرَّفَ نبيَّهُ سببَ احتباسِ الوحي عنه، وعلَّمَهُ ما الذي ينبغي أنْ يستعملَ في عِدَاتِه وخبرِه عما يحدثُ من الأمور التي لم يأتِهِ من الله بها تنزيلٌ، فقال: «وَلَا تَقُولَنَّ» يا محمدُ «لِشَيْءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غَداً» كما قلتَ لهؤلاء الذين سألوكَ عن أمرِ أصحاب الكهف، والمسائل التي سألوك عنها، سأخبركم عنها غداً. «إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ». ومعنى الكلام: إلا أنْ تقولَ معه: إنْ شاء الله، فترك ذكر تقول اكتفاءً بما ذكر منه.

وقوله: «وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: واستثنِ في يمينكَ إذا ذكرتَ أنك نسيتَ ذلك في حالِ اليمين.

وقال آخرون: معناه: واذْكُرْ رَبَّكَ إذا عصيتَ.

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: واذكُرْ ربك إذا تركتَ ذِكْرَهُ، لأنَّ أحدَ معاني النسيانِ في كلام العرب الترك، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى قبل.

فإنْ قال قائلٌ: أفجائزٌ للرجلِ أن يستثنيَ في يمينه إذ كان معنى الكلام ماذكرت بعد مدةٍ من حالِ حَلْفِه؟ قيل: بل الصوابُ أن يستثنيَ ولو بعد حنْثِه في يمينه، فيقول: إنْ شاء الله ليخرجَ بقِيلِه ذلك مما ألزمه الله في ذلك بهذه الآية، فيسقط عنه الحرج بتركه ما أَمَرَهُ بقِيله من ذلك، فأما الكفارةُ فلا تسقطُ عنه بحال، إلا أنْ يكونَ استثناؤه موصولاً بيمينه.

فإنْ قال: فما وجهُ قولِ مَنْ قال له: ثُنْياه ولو بعد سنة، ومن قال له ذلك ولو بعد شهر، وقول من قال: مادام في مجلسه؟ قيل: إن معناهم في ذلك

نحو معنانا في أنَّ ذلك له، ولو بعدَ عشرِ سنين، وأنه باستثنائه وقيله إنْ شاء الله بعد حينٍ من حالِ حلفه، يسقطُ عنه الحرج الذي لو لم يَقُلْهُ كان له لازماً؛ فأما الكفارةُ فله لازمة بالحِنْثِ بكلِّ حالٍ، إلا أنْ يكونَ استثناؤه كان موصولاً بالحلف، وذلك أنًا لا نعلمُ قائلاً قال ممن قال له الثُّنْيا بعد حينٍ يزعمُ أنَّ ذلك يضعُ عنه الكفارةَ إذا حَنِثَ، ففي ذلك أوضحُ الدليلِ على صحةِ ما قلنا في ذلك، وأنَّ معنى القولِ فيه، كان نحو معنانا فيه.

وقوله: «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِينِ رَبّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً»، يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه ﷺ: قُلْ ولعلَّ الله أنْ يهديني فيسدّدني لأسدَّ مما وعدتُكم وأخبرتُكم أنه سيكونُ، إنْ هو شاء.

وقد قيل: إن ذلك مما أُمِرَ النبيُّ ﷺ أنْ يقولَهُ إذا نسيَ الاستثناء في كلامه، الذي هو عنده في أمرٍ مستقبل مع قوله: إنْ شاء الله، إذا ذكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً»، فقال بعضهم: ذلك خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن أهلِ الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك، واستشهدوا على صحةِ قولهم ذلك بقوله: «قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا»، وقالوا: لو كان ذلك خبراً من الله عن قَدرِ لَبْثِهم في الكهفِ، لم يكن لقوله: «قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» وجهٌ مفهوم، وقد أعلم الله خَلْقَهُ مبلغ لبثهم فيه وقدره.

وقال آخرون: بل ذلك خبرٌ من الله عن مبلغِ ما لبثوا في كهفهم.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقالَ كما قال الله عَزَّ ذكره: ولبثَ أصحابُ الكهف في كهفهم رقوداً إلى أنْ بعثهمُ الله، ليتساءلوا بينهم، وإلى أنْ أعثرَ عليهم مَنْ أعثر، ثلاثَ مئةٍ سنينَ وتسعَ سنين، وذلك أنَّ الله بذلك أخبرَ في كتابه. وأما الذي ذُكِرَ عن ابن مسعود أنه قرأ: «وقَالُوا: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» وقول مَنْ قال ذلك من قولِ أهلِ الكتاب، وقد رَدَّ الله ذلك عليهم، فإنَّ معناه في ذلك: إنْ شاء الله كان أنَّ أهلَ الكتاب قالوا فيما ذُكِرَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ أنَّ للفتيةِ من لَدُنْ دَخَلُوا الكهفَ إلى يومنا ثلاث مئة سنين وتسع سنين، فَرَدَّ الله ذلك عليهم، وأخبر نَبِيَّهُ أنَّ ذلك قدر لبثهم في الكهف من لدن أوَوْا إليه إلى أنْ بعثهم ليتساءلوا بينهم؛ ثم قال جلّ ثناؤه لنبيه ﷺ: قل يا محمدُ: اللهُ أعلمُ بما لبثوا بعد أنْ قبضَ أرواحهم، من بعد أن بعثهم من رقدتهم إلى يومهم هذا، لا يعلمُ بذلك غيرُ الله، وغير مَنْ أعلمه الله ذلك.

فإنْ قال قائل: وما يدلُّ على أنَّ ذلك كذلك؟ قيل: الدالُّ على ذلك أنه جلَّ ثناؤه ابتدأ الخبرَ عن قدر لُبْثِهم في كهفهم ابتداء، فقال: «وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً»، ولم يضع دليلاً على أن ذلك خبر منه عن قولِ قومٍ قالوه، وغير جائزٍ أنْ يُضافَ خبرُه عن شيءٍ إلى أنه خبرٌ عن غيرهِ بغيرِ برهانٍ، لأنَّ ذلك لو جازَ جازَ في كلِّ أخبارِه، وإذا جاز ذلك في أخباره جاز في أخبارِ غيره أنْ يُضافَ إليه أنها أخباره، وذلك قلبُ أعيانِ الحقائقِ وما لا يخيلُ فساده[1].

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أن قوله: «قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» دليل على أنَّ قوله: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» خبرٌ منه عن قومٍ قالوه، فإنَّ ذلك كان يجب أنْ يكونَ كذلك لو كان لا يحتمـلُ من التأويلِ غيره؛ فأما وهو محتملٌ ما قلنا من أن يكون معناه: قُلِ اللهُ أعلمُ بما لبثوا إلى يومِ أنزلنا هذه السورةَ، وما أشبه ذلك من

(١) أي: مالا يخفى فساده.

المعاني فغيرُ واجبٍ أن يكون ذلك دليلاً على أن قوله: «وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ» خبر من الله عن قومٍ قالوه، وإذا لم يكن دليلاً على ذلك، ولم يأتِ خبرٌ بأنَّ قوله: «وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ» خبر من الله عن قومٍ قالوه، ولا قامتْ بصحةِ ذلك حُجَّةٌ يجبُ التسليمُ لها، صَحَّ ما قلنا، وفَسَدَ ما خالفه.

وقوله: «لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لله عِلْمُ غيبِ السموات والأرض، لا يعزبُ عنه علمُ شيءٍ منه، ولا يَخْفَى عليه شيء، يقول: فَسَلِّمُوا له عِلْمَ مبلغ ما لبثتِ الفتيةُ في الكهف إلى يومِكم هذا، فإنَّ ذلك لا يَعْلَمهُ سوى الذي يعلمُ غيبَ السمواتِ والأرض، وليس ذلك إلا اللهُ الواحدُ القهار.

وقوله: «أَبْصِرْ بِهِ وأَسمِعْ»، يقول: أبصرْ بالله وأسمع، وذلك بمعنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه.

وتأويل الكلام: ما أبصَرَ اللهَ لكلِّ موجودٍ، وأسمعَهُ لكلِّ مسموعٍ، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيء.

وقوله: «ما لَهُمْ منْ دُونِهِ منْ وَلِيّ»، يقول جلّ ثناؤه: ما لخلْقِه دونَ ربِّهم الذي خلقهم وليٌّ، يلي أمرَهُمْ وتدبيرهم، وصَرْفَهُمْ فيما هم فيه مصرفون، «وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً»، يقول: ولا يجعل الله في قضائه، وحكمه في خلقه أحداً سواه شريكاً، بل هو المنفردُ بالحكمِ والقضاءِ فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحبَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واتَّبِعْ يا محمدُ ما أُنزلَ إليكَ من كتابِ

ربك هذا، ولا تتركنَّ تلاوته، واتباع ما فيه من أمرِ الله ونهيه، والعمل بحلالهِ وحرامهِ، فتكون من الهالكين، وذلك أنَّ مصير مَنْ خالفه، وترك اتباعه، يوم القيامة إلى جهنم. «لا مُبَدِّلَ لِكَلماتِهِ»، يقول: لا مُغَيِّرَ لما أوعدَ بكلماتِهِ التي أنزلها عليكَ أهلَ معاصيه، والعاملينَ بخلافِ هذا الكتابِ الذي أوحيناهُ إليك.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا»، يقول: وإنْ أنتَ يا محمدُ لم تَتْلُ ما أوحيَ إليكَ من كتابِ ربك فتتبعه وتأتمَّ به، فنالك وعيدُ الله الذي أوعدَ فيه المخالفينَ حدوده، لن تجدَ من دونِ الله موئلاً تَئِلُ إليه ومعدلاً تعدلُ عنه إليه، لأنَّ قدرةَ الله محيطةٌ بكَ وبجميع خلقه، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَاصْبِرْ» يا محمدُ «نَفْسَكَ مَعَ» أصحابكَ «الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ» بذكرهم إياه بالتسبيحِ والتحميدِ والتهليلِ والدعاءِ والأعمالِ الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها «يُرِيدُونَ» بفعلهم ذلك «وَجْهَهُ» لا يريدون عَرَضاً من عرض الدنيا.

وقوله: «وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه ﷺ: ولا تصرفْ عيناكَ عن هؤلاء الذين أمرتُكَ يا محمد أنْ تصبرَ نفسكَ معهم إلى غيرِهم من الكفار، ولا تُجاوِزْهُمْ إليه، وأصله من قولهم: عدوتُ ذلك، فأنا أعدُوه: إذا جاوزته.

وقوله: «تريدُ زِينَةَ الحَياة الدُّنْيا»، يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: لا تَعْدُ

عيناكَ عن هؤلاء المؤمنين الذين يدعونَ ربهم إلى أشرافِ المشركين، تبغي بمجالستهم الشرفَ والفخرَ، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ أتاه فيما ذُكِرَ قومٌ من عظماء أهلِ الشرك، وقال بعضهم: بَلْ من عظماء قبائلِ العرب ممن لا بصيرةَ لهم بالإسلام، فرأوه جالساً مع خباب وصهيب وبلال، فسألوه أنْ يُقيمَهُمْ عنه إذا حضروا، قالوا: فَهَمَّ رسولُ الله ﷺ، فأنزلَ اللهُ عليه: «وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»، ثم كان يقوم إذا أراد القيام، ويتركهم قعوداً، فأنزلَ اللهُ عليه: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ... الآية» «وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَياةِ الدُّنْيا»، يريد زينةَ الحياة الدنيا: مجالسةَ أولئك العظماءِ الأشرافِ.

وقوله: «وَلا تُطعْ مَنْ أغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: ولا تُطِعْ يا محمدُ مَنْ شَغَلْنَا قلبه من الكفارِ الذين سألوكَ طردَ الرهطِ الذين يَدْعُونَ ربهم بالغَداةِ والعشيِّ عنك، عن ذِكْرِنَا، بالكفرِ وغَلَبةِ الشقاءِ عليه، واتبع هواه، وتركَ اتباعَ أمرِ الله ونهيه، وآثرَ هوى نفسه على طاعةِ ربه، وهم فيما ذُكِرَ: عيينةُ بن حصن، والأقرعُ بن حابس وذووهم.

وقوله: «وكانَ أمْرُهُ فُرُطاً»، معناه: وكان أمرُ هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنَا في الرياء والكبر، واحتقار أهلِ الإيمان، سرفاً قد تجاوز حَدَّهُ، فَضَيَّعَ بذلك الحقَّ وهلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وقل يا محمدُ لهؤلاء الذين أغفلنا

قلوبهم عن ذكرنا، واتبعوا أهواءهم، الحقُّ أيها الناسُ من عندِ رَبِّكم، وإليه التوفيقُ والخذلان، وبيده الهدى والضلالُ يهدي مَنْ يشاء منكم للرشادِ، فيؤمن، ويضلُّ مَنْ يشاء عن الهدى فيكفر، ليس إليَّ من ذلك شيءٌ، ولستُ بطاردٍ لهواكم مَنْ كان للحقِّ متبعاً، وبالله وبما أنزلَ عليَّ مؤمناً، فإنْ شئتم فآمنوا، وإنْ شئتم فاكفروا، فانكم إنْ كفرتم فقد أعدَّ لكم رَبُّكم على كُفْرِكُمْ به ناراً أحاطَ بكم سرادقها، وإنْ آمنتم به وعملتم بطاعته، فإن لكم ما وصفَ اللهُ لأهلِ طاعته.

وقوله: «أحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُها»، يقول: أحاطَ سرادقُ النارِ التي أعَدَّها الله للكافرين بربهم، وذلك فيما قيل: حائطٌ من نارٍ يطيفُ بهم كسرادقِ الفسطاط، وهي الحجرةُ التي تطيف بالفسطاط.

وقوله: «وَإن يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِمَاءٍ كالمُهْلِ»، يقول تعالى ذكره: وإنْ يَسْتَغِثْ هؤلاء الظالمونَ يومَ القيامةِ في النار من شدّةِ ما بهم من العطشِ، فيطلبونَ الماء يُغاثوا بماءِ المُهْلِ.

واختلف أهلُ التأويل في المهل، فقال بعضهم: هو كلُّ شيءٍ أُذِيبَ وانماع.

وقال آخرون: هو القيحُ والدمُ الأسود.

وقال آخرون: هو الشيء الذي قد انتهى حَرُّه.

وهذه الأقوالُ وإن اختلفتْ بها ألفاظُ قائليها، فمتقارباتُ المعنى، وذلك أنَّ كُلَّ ما أُذيبَ من رصاص أو ذهب أو فضة فقد انتهى حَرُّهُ، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه من ذلك النارُ حتى صار كدرديِّ الزيتِ، فقد انتهى أيضاً حرّه.

وقوله: «يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ»، يقول: جلّ ثناؤه: يشوي ذلك الماءُ الذي يُغَاثُونَ به وجوههم.

وقوله: «بِئْسَ الشَّرابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بئسَ الشرابُ، هذا الماءُ الذي يغاثُ به هؤلاء الظالمون في جهنم الذي صفته ما وصفَ في هذه الآية.

وقوله: «وسَاءَتْ مُرْتَفَقاً»، يقول تعالى ذكره: وساءت هذه النارُ التي أعتدناها لهؤلاء الظالمين مرتفقاً، والمرتفَقُ في كلام العرب: المُتَّكَأُ، يقال منه: ارتفقتُ إذا اتَّكَأْتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وانتهوا إلى أمره ونهيه، إنا لا نُضِيعُ ثوابَ مَنْ أحسنَ عملاً، فأطاعَ الله، واتبع أمره ونهيه، بل نُجازيه بطاعتِهِ وعمله الحسن جناتِ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتُ عدنٍ، يعني بساتينُ إقامةٍ في الآخرة، «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأنهَارُ»، يقول: تجري من دونهم ومن بين أيديهم الأنهار، وقال جلّ ثناؤه: «من تحتهم»، ومعناه: من دونهم وبين أيديهم، «يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أساوِرَ»، يقول: يلبسون فيها من الحليِّ أساورَ من ذهب، والأساورُ: جمع إسوار.

وقولـه: «يَلْبَسُـونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ» والسندسُ: جمع واحدها سندسة، وهي مارَقَّ من الديباج. والإستبرق: ما غَلُظَ منه وثَخُنَ؛ وقيل: إنَّ الإستبرق: هو الحرير.

وقوله: «مُتّكِئينَ فِيها على الأرَائِكِ»، يقول: متكئين في جناتِ عدنٍ على الأرائك، وهي السُّرُرُ في الحِجال، واحدتها: أريكة.

وقوله: «نِعْمَ الثَّوَابُ»، يقول: نعم الثوابُ جناتُ عَدْنٍ، وما وصفَ جلَّ ثناؤه أنه جعلَ لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. «وَحَسُنَتْ مُرْتَفقاً»، يقول: وحَسُنَتْ هذه الأرائكُ في هذه الجِنانِ التي وصفَ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية متكأً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: واضربْ يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ بالله، الذين سألوكَ أنْ تطرُدَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهم بالغداةِ والعشيِّ يريدون وجهه، «مَثلًا» مثل «رَجُلَين جَعَلْنا لأحدِهِما جَنَّتَيْن» أي جعلنا له بساتين من كروم. «وحَفَفْناهُما بنَخْلٍ»، يقول: وأطَفْنَا هَذيْنِ البُستانين بنخلٍ.

وقوله: «وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً»، يقول: وجعلنا وسط هذين البستانين زرعاً.

وقوله: «كِلْتا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها»، يقول: كِلَا البُستانين أطعمَ ثَمرَهُ وما فيه من الغروسِ من النخلِ والكرم وصنوف الزرع.

وقوله: «ولَمْ تظلم مِنْهُ شَيْئاً»، يقول: ولم تنقص من الأكل شيئاً، بل آتت ذلك تاماً كاملاً ومنه قولهم: ظلم فلانٌ فلاناً حقَّهُ: إذا بخَسَهُ ونقصه.

وقوله: «وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَسيَّلنا خلالَ هذين البستانين نهراً، يعني بينهما وبين أشجارهما نهراً. وقيل: «وَفجّرنا» فثقَّلَ الجيمَ منه، لأنَّ التفجيرَ في النهر كله، وذلك أنه يميد ماء فيُسيل بعضه بعضاً.

ومعنى الكلام «وَفَجَّرْنا خِلالهما نَهَراً وكانَ لَهُ» منهما «ثمرٌ» بمعنى من جَنَّتَيْهِ أنواعٌ من الثمار وقد بين ذلك لمن وُفِّقَ لفهمه، قوله: «جَعَلْنا لأحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنابٍ وحَفَفْناهُما بنَخْلٍ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً»، ثم قال: وكان له من هذه الكرومِ والنخلِ والزرع ثمر.

وقوله: «فَقالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ»، يقول عزّ وجلّ: فقال هذا الذي جعلنا له جنتين من أعنابٍ، لصاحبه الذي لا مالَ له وهو يخاطبه: «أنا أكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وأعَزُّ نَفَراً»، يقول: واعزُّ عشيرةً ورَهْطاً، كما قال عُيينة والأقرعُ لرسولِ الله ﷺ: نحنُ ساداتُ العرب، وأربابُ الأموال، فَنَحِّ عنا سلمانَ وَخَّباباً وصُهيباً احتقاراً لهم، وتكبراً عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعنابٍ «دَخَلَ جَنَّتَهُ» وهي بستانه «وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ» وظلمه نفسه: كُفْرُه بالبعثِ، وشَكُّه في قيامِ الساعة، ونسيانهُ المعادَ إلى الله تعالى، فأوجبَ لها بذلك سخطَ الله وأليمَ عقابِهِ.

وقوله: «قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً»، يقول جلّ ثناؤه: قال لما عاينَ جنته، ورآها وما فيها من الأشجارِ والثمار والزروع والأنهارِ المطردة شكاً في المعادِ إلى الله: ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه الجنةُ أبداً، ولا تفنى ولا تَخْرب، وما أظنُّ الساعةَ التي وعدَ الله خَلْقَهُ الحشرَ فيها تقومُ فتحدث، ثم تمنى أمنيةً أخرى على شكٍّ منه، فقال: «وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبّي» فرجعتُ إليه، وهو غير موقنٍ أنه راجعٌ إليه: «لأجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقلباً»، يقول: لأجدنَّ خيراً من جنتي هذه عند الله إنْ رُددتُ إليه مرجعاً ومردّاً، يقول: لم يُعْطِني هذه الجنةَ في الدنيا إلا ولي عندَهُ أفضل منها في المعادِ إنْ رُددتُ إليه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال لصاحبِ الجنتين صاحبهُ الذي هو أقلّ منه مالاً وولداً، «وهُوَ يُحاوِرُهُ»: يقول: وهو يخاطبهُ ويكلمه: «أكَفَرْتَ بالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ»، يعني خلقَ أباكَ آدم من ترابٍ «ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ»، يقول: ثم أنشأكَ من نطفةِ الرجلِ والمرأة، «ثم سوّاك رَجُلاً»، يقول: ثم عَدَّلَك بشراً سوياً رجلاً، ذكراً لا أنثى. يقول: أكفرتَ بمن فعلَ بك هذا أنْ يُعيدكَ خَلْقاً جديداً بعد ماتصير رفاتاً. «لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبّي»، يقول: أما أنا فلا أكفرُ بربي، ولكن أنا[1]، هو الله ربي، معناه أنه يقول: ولكن أنا أقولُ: هو الله ربي «وَلا أُشْرِكُ بِرَبّي أَحَداً».

---

(١) هذا أصل: «لكنّا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه: وهلَّا إذْ دخلتَ بستانَك، فأعجبكَ ما رأيتَ منه، قلتَ ما شاء الله كان، وفي الكلامِ محذوفٌ استغني بدلالةِ ما ظهرَ عليهِ منه، وهو جوابُ الجزاء، وذلك كان.

وقوله: «إنْ تَرَنِ أنا أقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً» وهو قولُ المؤمنِ الذي لا مالَ له، ولا عشيرةَ، مثلَ صاحبِ الجنتين وعشيرتـه، وهـو مثل سَلْمان وصُهَيب وخَباب، يقول: قال المؤمنُ للكافر: إنْ تَرَنِ أيها الرجلُ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ الموقنِ للمعادِ إلى الله للكافرِ المرتابِ في قيام الساعة: إنْ تَرَنِ أيها الرجلُ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً في الدنيا، فعسى ربي أنْ يرزقني خيراً من بستانك هذا «وَيُرْسِلَ عَلَيْها»، يعني على جنةِ الكافرِ التي قالَ لها: ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذهِ أبداً، «حُسْباناً مِنَ السَّماءِ»، يقول: عذاباً من السماء تُرمَى به رمياً، وتقذف. والحُسْبان: جمع حُسْبانة، وهي المرامي.

وقوله: «فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً»، يقول عزَّ ذِكْرُه: فتصبح جنتك هذه أيها الرجلُ أرضاً ملساء لا شيءَ فيها قد ذهب كلُّ ما فيها من غَرْسٍ ونَبْتٍ، وعادت

خراباً بلاقعَ، زَلَقاً، لا يثبتُ في أرضها قَدَمٌ لامْلِسَاسِهَا، ودروسِ ما كانَ نابتاً فيها.

وقوله: «أوْ يُصْبِحَ ماؤُها غوْراً»، يقول: أو يُصبحَ ماؤها غائراً.

وقوله: «فلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً»، يقول: فلن تُطِيقَ أنْ تدركَ الماءَ الذي كان في جنتك بعد غَوْرِه، بطلبك إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأحاطَ الهلاكُ والجوائحُ بثمره، وهي صنوف ثمار جنته التي كان يقول لها: «ماأظُنُّ أنْ تَبِيدَ هَذِهِ أبَداً» فأصبح هذا الكافرُ صاحبُ هاتين الجنتين، يُقَلِّبُ كفَّيه ظهراً لبطن، تلهفاً وأسفاً على ذهابِ نفقته التي أنفق في جنته «وَهِيَ خاوِيَةٌ على عُرُوشِها»، يقول: وهي خالية على نباتها وبيوتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يكن لصاحبِ هاتين الجنتين فِئَةٌ، وهم الجماعة.

وقوله: «يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقول: يمنعونَهُ من عقابِ الله وعذاب الله إذا عاقبه وعذَّبَهُ.

وقوله: «ومَا كانَ مُنْتَصِراً»، يقول: ولم يكن ممتنعاً من عذابِ الله إذا عذّبه.

وقوله: «هُنالكَ الوَلايَةُ للهِ الحَقِّ»، يقول عزّ ذِكْرُه: ثم وذلك حين حلَّ عذابُ الله بصاحب الجنتين في القيامة.

واختلفت القرأةُ في قراءة قوله: الولاية، فقرأ بعض أهل المدينة والبصرة والكوفة: «هُنالكَ الوَلايَةُ» بفتح الواو من الولاية، يعنون بذلك هنالك المُوالاة لله، كقولِ الله: «اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا»، وكقوله: «ذلكَ بأنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» يذهبون بها إلى الوَلاية في الدين.

وقرأ ذلك عامّة قرّاء الكوفة «هُنالِكَ الوِلايَةُ» بكسر الواو: من المُلْك والسلطان، من قول القائل: وَلِيتُ عملَ كذا، أو بلدة كذا ألِيه وِلايةً.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب، قراءة من قرأ بكسرِ الواو، وذلك أنَّ الله عَقَّبَ ذلك خبرَهُ عن مُلكِه وسلطانه، وأنَّ مَنْ أحلَّ به نقمته يومَ القيامة فلا ناصرَ له يومئذٍ، فإتباعُ ذلك الخبر عن انفراده بالمملكة والسلطان أَوْلى من الخبر عن الموالاةِ التي لم يجرِ لها ذِكْرٌ ولا معنى، لقول من قال: لا يُسَمَّى سلطانُ الله ولاية، وإنما يُسَمَّى ذلك سلطانُ البشر، لأنَّ الوِلاية معناها أنه يلي أمرَ خَلْقِه منفرداً به دونَ جميع خلقه، لا أنه يكون أميراً عليهم.

وقوله: «هُوَ خَيْرٌ ثَواباً»، يقول عز ذكره: خير للمنيبيّن في العاجل والآجل ثواباً. «وخَيْرٌ عُقْباً»، يقول: وخيرُهم عاقبةً في الآجلِ إذا صار إليه المطيعُ له، العاملُ بما أمره الله، والمنتهي عما نهاه الله عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

يقـول عزّ ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: واضْرِبْ لحياةِ هؤلاء المستكبرينَ[1] - الذين قالوا لك: اطرد عنكَ هؤلاء الذين يَدْعُونَ ربهم بالغداةِ والعشيِّ، إذا نحن جئناكَ - الدُّنيا منهم «مثلًا»، يقول: شبهاً. «كمَاءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ»، يقول: كمطر أنزلناه من السماء. «فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ»، يقول: فاختلط بالماء نباتُ الأرضِ. «فأصْبَحَ هَشِيماً»، يقول: فأصبح نباتُ الأرضِ يابساً متفتتاً. «تَذْرُوهُ الرِّياحُ»، يقول: تطيره الرياح وتُفَرِّقُه.

وقوله: «وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً»، يقول: وكان الله على تخريب جنةِ هذا القائلِ حين دخل جنته: «ما أظُنُّ أنْ تَبيدَ هَذِهِ أبَداً، ومَا أظُنُّ السَّاعَةَ قائمَـةً»، وإهـلاك أمـوالِ ذي الأمْوالِ الباخلينَ بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاءُ قادرٌ، لا يعجزهُ شيءٌ أراده. ولا يُعْييه أمرٌ أراده. يقول: فلا يَفْخَرْ ذُو الأموالِ بكثرةِ أمواله، ولا يستكبرْ على غيرِه بها، ولا يغترنَّ أهلُ الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النباتِ الذي حَسُنَ استواؤُه بالمطر، فلم يكنْ إلا رَيْثَ أن انقطعَ عنه الماءُ، فتناهى نهايته، عاد يابساً تَذْرُوه الرياحُ، فاسداً، تَنْبُو عنه أعينُ الناظرين، ولكن ليعملْ للباقي الذي لا يفنى، والدائمِ الذي لا يَبيد ولا يتغير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ﴿٤٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: المـالُ والبنون أيها الناسُ، التي يَفْخَرُ بها عيينة والأقرع، ويتكبرانِ بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يُتَزَيَّنُ به في الحياة

---

(١) سياق العبارة: اضرب لحياة هؤلاء المستكبرين مثلًا: الدنيا، يعني حال الدنيا.

الدنيا، وليسا من عِدَادِ الآخرة. «والباقياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً»، يقول: وما يعملُ سلمان وخباب وصهيب من طاعة الله، ودعائهم رَبَّهم بالغَداةِ والعشيِّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمالِ الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خيرٌ يا محمدُ عند ربك ثواباً من المالِ والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تفنى، فلا تبقى لأهلها. «وخَيْرٌ أملاً»، يقول: وما يُؤمِّلُ من ذلك سلمان وصهيب وخباب، خيرٌ مما يؤملُ عيينة والأقرع من أموالهما وأولادهما. وهذه الآياتُ من لَدُنْ قوله: «وَاتْلُ ما أُوحيَ إلَيْكَ منْ كتابِ رَبِّكَ» إلى هذا الموضع، ذُكِرَ أنها نزلتْ في عيينة والأقرع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبالَ» عن الأرضِ، فَنبسُّها بَسًّا، ونجعلها هباءً مُنْبَثًّا. «وَتَرَى الأرْضَ بارِزَةً» ظاهرةً، وظهورها لرأي أعينِ الناظرينَ من غير شيءٍ يسترها من جبلٍ ولا شجرٍ هو بُروزُهَا.

وقوله: «وَحَشَرْناهُمْ»، يقول: جمعناهم إلى موقف الحساب. «فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً»، يقول: فلم نترك، ولم نُبْقِ منهم تحتَ الأرض أحداً.

وقوله: «وَعُرِضُوا على رَبِّكَ صَفًّا»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: وعُرِضَ الخَلْقُ على ربك يا محمدُ صفاً. «لَقَدْ جِئْتُمُونا كَمَا خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول عزّ ذِكْرُه: يقال لهم إذ عُرِضُوا على الله: لقد جئتمونا أيها الناسُ أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أوّلَ مرَّةٍ، وحذف (يقالُ) من الكلام لمعرفةِ السامعينَ بأنه مُرَادٌ في الكلام.

وقوله: «بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً»، وهذا الكلامُ خرجَ مخرجَ الخبرِ عن خطابِ الله به الجميعَ، والمرادُ منه الخصوص، وذلك أنه قد يَرِدُ القيامةَ خَلْقٌ من الأنبياء والرسل، والمؤمنينَ بالله ورسله وبالبعث. ومعلوم أنه لا يُقال يومئذٍ لمن وردها من أهلِ التصديقِ بوعدِ الله في الدنيا، وأهلِ اليقين فيها بقيامِ الساعة، بَلْ زعمتم أن لن نجعلَ لكم البعثَ بعد المماتِ، والحشر إلى القيامة موعداً، وأنَّ ذلك إنما يُقالُ لمن كان في الدنيا مُكَذِّباً بالبعثِ وقيامِ الساعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

يقول عزّ ذِكْرُه: ووضع الله يومئذٍ كتابَ أعمالِ عبادِه في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحد بشماله. «فَتَرى المُجْرِمينَ مُشْفقينَ مِمَّا فيهِ»، يقول عزّ ذكره: فترى المجرمينَ المشركينَ بالله مشفقين: يقول: خائفينَ وَجِلينَ مما فيه مكتوبٌ من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يُؤاخَذُوا بها. «وَيَقُولُونَ ياوَيْلَتَنا ما لِهَذَا الكتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إلَّا أحْصَاها»، يعني أنهم يقـولـون إذا قرءوا كتـابهم، ورأوا ما قد كُتبَ عليهم فيه من صغـائرِ ذنوبهم وكبائرها، نادوا بالويلِ حين أيقنوا بعذابِ الله، وضَجُّوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها.

ويعني بقوله: «ما لِهَذَا الكتابِ»، ما شأنُ هذا الكتاب «لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً»، يقـول: لا يبقي صغيرةً من ذنـوبنا وأعمالنا ولا كبيرةً منها. «إلَّا أحْصَـاهـا»، يقـول: إلا حفـظهـا، «وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا» في الدنيا من عملٍ

«حاضِرًا» في كتابهم ذلك مكتوباً مثبتاً، فَجُوزُوا بالسيئة مثلها، والحسنة ما اللهُ جازيهم بها. «وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً»، يقول: ولا يجازي ربك أحداً يا محمدُ بغيرِ ماهو أهلُه، لا يجازي بالإحسانِ إلا أهلَ الإحسانِ، ولا بالسيئةِ إلا أهلَ السيئةِ، وذلك هو العدلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُذَكِّراً هؤلاء المشركينَ حَسَدَ إبليسَ أباهم ومُعَلِّمَهُمْ ما كانَ منه من كِبْرِه واستكبارِه عليه حين أمره بالسجودِ له، وأنه من العداوةِ والحسد لهم على مِثْلِ الذي كان عليه لأبيهم: «وَ» اذكُرْ يا محمدُ «إذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ» الذي يطيعه هؤلاء المشركون، ويتبعون أمره، ويخالفونَ أمرَ الله، فإنه لم يسجد له استكباراً على الله، وحَسَداً لآدم «كانَ مِنَ الجِنّ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «كانَ مِنَ الجِنّ»، فقال بعضهم: إنه كان من قبيلة يقال لهم الجنّ.

وقال آخرون: بل كان من خُزَّانِ الجنة، فنُسب إلى الجنة.

وقال آخرون: بل قيل من الجنّ، لأنه من الجنّ الذين استجنوا عن أعينِ بني آدم.

وقال آخرون: هم سبطٌ من الملائكة قبيلة، وكان اسم قبيلته الجن.

وقال آخرون: كان اسم قبيلة إبليس الجن.

وقوله: «ففسق عن أمرِ رَبِّهِ»، يقول: فخرج عن أمرِ ربه، وعَدَل عنه ومال.

وقوله: «أفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ»، يقول تعالى ذكره: أَفَتُوالُونَ يا بني آدمَ مَنِ اسْتكبرَ على أبيكم وحسده، وكَفَرَ نعمتي عليه، وغَرَّهُ حتى أخرجه من الجنةِ ونعيمِ عَيْشِه فيها إلى الأرض وضيقِ العيش فيها، وتطيعونه وذرِّيَتَهُ من دونِ الله مع عداوتِهِ لكم قديماً وحديثاً، وتتركون طاعةَ ربكم الـذي أنعم عليكم وأكـرمكم، بأنْ أَسْجدَ لوالدكم ملائكتَهُ، وأسكنَهُ جناته، وآتاكم من فواضلِ نعمِه ما لا يُحصى عَدَدُه، وذرّيةُ إبليس: الشياطينُ الذين يغرّون بني آدم.

وقوله: «بِئْسَ للظَّالِمِينَ بَدَلاً»، يقول عزَّ ذِكْرُه: بئسَ البدلُ للكافرين باللهِ اتخاذَ إبليس وذرِّيته أولياءَ من دونِ الله، وهُمْ لكم عدوٌّ من تركهم اتخاذَ اللهِ ولياً باتبـاعهم أمـره ونهيه، وهـو المنعمُ عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم، المتفضِّلُ عليهم من الفواضلِ مالا يُحْصَى بدلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

يقول عزّ ذكره: ما أشهدتُ إبليسَ وذرّيته «خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقـول: ما أحضـرتهم ذلك فأستعين بهم على خلقها. «وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ»، يقول: ولا أشهدتُ بعضَهم أيضاً خَلْقَ بعضٍ منهم، فأستعين به على خلقه، بل تفرّدتُ بخلقِ جميع ذلك بغيرِ مُعينٍ ولا ظهير، يقول: فكيف اتخذوا عدوَّهم أولياءَ من دوني، وهم خَلْقٌ من خَلْقِ أمثالهم، وتركوا عبادتي وأنا المنعمُ عليهم وعلى أسلافِهم، وخالقهم وخالقُ مَنْ يُوالُونَهُ من دوني منفرداً بذلك من غير معين ولا ظهير.

وقوله: «وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً»، يقول: وما كنتُ مُتَّخِذَ مَنْ لا يهدي إلى الحقّ، ولكنه يُضِلُّ، فمن تَبِعَهُ يجورُ به عن قصدِ السبيلِ أعواناً وأنصاراً، وهو من قولهم: فلانٌ يعضدُ فلاناً إذا كان يقوِّيه ويعينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

يقول عزّ ذكره: «وَيَوْمَ يَقُولُ» الله عزَّ ذِكْرُه للمشركينَ به الآلهة والأندادَ «نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ»، يقول لهم: ادعوا الذين كنتم تزعمونَ أنهم شركائي في العبادة لينصروكم ويمنعوكم مني. «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ»، يقول: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم.

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً»؛ فاختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: وجعلنا بين هؤلاء المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء في الدنيا يومئذ عداوةً.

وقال آخرون: معناه: وجعلنا فعلهم ذلك لهم مَهْلِكاً.

وقال آخرون: هو اسم وادٍ في جهنم.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، القولُ الذي قيل في تأويل الموبق: أنه المهلك، وذلك أن العرب تقولُ في كلامها: قد أوبقتُ فلاناً: إذا أهلكته. ومنه قول الله عزّ وجلّ: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا»، بمعنى: يُهْلِكْهُنَّ. ويقالُ للمهلك نفسه: قد وبق فلان فهو يوبق وبقاً.

وقوله: «ورَأَى المُجْرِمُونَ النَّارَ»، يقول: وعاينَ المشركون النارَ يومئذٍ

«فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوها»، يقول: فعلموا أنهم داخلوها.

وقوله: «ولَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً»، يقول: ولم يجدوا عن النارِ التي رأوا معدلاً يعدلونَ عنها إليه، يقول: لم يجدوا من مُواقَعتها بُدّاً، لأنَّ الله قد حتم عليهم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول عزّ ذكره: ولقد مَثَّلْنا في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ مَثَلٍ، ووعظناهم فيه من كلِّ عِظةٍ، واحتججنا عليهم فيه بكلِّ حجةٍ ليتذكَّروا فينيبوا، ويعتبروا فَيَتَّعِظُوا، وينزجروا عما هم عليه مُقيمونَ من الشركِ باللهِ وعبادةِ الأوثانِ. «وكانَ الإنْسانُ أكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً»، يقول: وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ مِراء وخُصومةً، لا ينيب لحقٍّ، ولا ينزجر لموعظة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول عزّ ذِكْرُه: وما مَنَعَ هؤلاء المشركينَ يا محمدُ الإيمانَ بالله إذ جاءهم الهدى بيان الله، وعلموا صحةَ ما تَدْعُوهم إليه وحقيقته، والاستغفارَ مما هُمْ عليه مقيمونَ من شِرْكهم، إلا مجيئهم سُنَّتنا في أمثالهم من الأممِ المكذبة رُسُلَها قبلهم، أو إتيانهم العذابَ قُبُلاً.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أو يأتيهم العذابُ فجأة.

وقال آخرون: معناه: أو يأتيهم العذاب عياناً.

وقد اختلف القرأةُ في قراءة ذلك، فقرأته جماعة ذات عدد: أو يأتيهم العذاب قُبُلًا، بضمِّ القاف والباء، بمعنى أنه يأتيهم من العذاب ألوانٌ وضروبٌ، ووجهوا القبل إلى جمع قبيل، كما يجمع القتيل القُتُل، والجديد الجُدُد. وقرأته جماعة أخرى: أو يأتيهم العذاب قِبَلًا بكسر القاف وفتح الباء، بمعنى: أو يأتيهم العذاب عياناً من قولهم: كلمته قبلاً، وقد بينتُ القول في ذلك في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ۝٥٦﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه: وما نرسلُ رُسُلَنَا إلا ليبشروا أهلَ الإيمانِ والتصديقِ بالله بجزيلِ ثوابـهِ في الآخرة، ولينذروا أهلَ الكفرِ به والتكذيب، عظيمَ عقابهِ، وأليم عذابـهِ، فينتهـوا عن الشـركِ بالله، وينـزجروا عن الكفرِ به ومعاصيه. «ويُجـادلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقّ»، يقول: ويخاصم الذين كَذَّبُوا باللهِ ورسوله بالباطلِ، ذلك كقولهم للنبيِّ ﷺ: أخبرنا عن حديثِ فتيةٍ ذهبوا في أوّل الدهر لم يدر ما شأنهم، وعن الرجل الذي بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربها، وعن الروحِ وما أشبه ذلك مما كانوا يخاصِمُونَهُ به، يبتغون إسقاطه، تعنيتاً له ﷺ، فقال الله لهم: إنا لسنا نبعث إليكم رسلنا للجدال والخصومات، وإنما نبعثهم مُبَشِّرينَ أهلَ الإيمانِ بالجنة، ومنذرينَ أهلَ الكفرِ بالنار، وأنتم تجادلونهم بالباطلِ طلباً منكم بذلك أنْ تُبْطِلُوا الحقَّ الذي جاءكم به رسولي، وعَنَى بقوله: «لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ» ليبطلوا به الحقَّ ويُزيلوه ويذهبوا به، يقال

منه: دحض الشيء: إذا زال وذهب، ويقال: هذا مكان دَحْضٌ: أي مُزِل مُزْلِق لا يثبتُ فيه خفٌّ ولا حافرٌ ولا قدم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

وقوله: (واتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً) يقول: واتخذ الكافرون بالله حججه التي احتجَّ بها عليهم، وكتابه الذي أنزله إليهم. والنذر التي أنذرهم بها سخرياً يسخرون بها، يقولون: «إنْ هَذَا إلَّا أساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبها، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً» و«لَوْ شِئْنَا لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا».

القول فِي تأويلِ قولِهِ تعالى: ونسى ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً(٥٧)

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: وأيّ الناس أوضع للإعراض والصدّ في غير موضعهما ممن ذكره بآياته وحججه، فدله بها على سبيل الرشاد، وهداه بها إلى طريق النجاة، فأعرض عن آياته وأدلته التي في استدلاله بها الوصول إلى الخلاص من الهلاك «وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ». يقول: ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب، ولم ينب.

وقوله: «إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً» يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الذين يعرضون عن آيات الله إذا ذكروا بها أغطية لئلا يفقهوه: لأن المعنى أن يفقهوا ما ذكروا به. وقوله: «وفي آذانِهِمْ وَقْراً) يقول: في آذانهم ثقلاً لئلا يسمعوه (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدَى) يقول عزَّ

ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: وَإنْ تَدْعُ يا مُحَمَّدُ هؤلاء المعرضين عن آيات الله عند التذكير بها إلى الاستقامة على محجة الحقّ والإيمان بالله، وما جئتهم به من عند ربك «فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أبَداً» يقول: فلن يستقيموا إذاً أبداً على الحقّ، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وسمعهم وأبصارهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: ﷺ ورَبُّكَ الساترُ يا محمدُ على ذنوبِ عباده بعفوه عنهم إذا تابوا منهم. «ذُو الرَّحمَةِ» بِهِمْ، «لَوْ يُؤاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا» هؤلاء المعرضينَ عن آياتِهِ إذا ذكروا بها بما كسبوا من الذنوبِ والآثامِ، «لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ»، ولكنه لرحمته بخلقه غير فاعلٍ ذلك بهم إلى ميقاتهم وآجالهم، «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ»، يقول: لكنْ لهم موعدٌ، وذلك ميقات محلِّ عذابهم، وهو يوم بدر. «لَنْ يَجِـدُوا مِنْ دُونِـهِ مَوْئِـلاً»، يقول تعالى ذكره: لن يجدَ هؤلاء المشركون، وإنْ لم يُعجلْ لهم العذاب في الدنيا من دونِ الموعدِ الذي جعلته ميقاتاً لعذابهم، ملجـأً يلجئونَ إليه، ومنجى ينجون معه، يعني أنهم لا يجدون معقلاً يعتقلونَ به من عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتلك القُرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكةِ أهلكنا

أهلها لما ظَلَمُوا، فكفروا بالله وآياته، «وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً»، يعني ميقاتاً وأجلاً، حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركينَ من قومكَ يا محمدُ الذين لا يؤمنون بك أبداً موعداً، إذا جاءهم ذلك الموعدُ أهلكناهم سُنَّتَنا في الذين خَلَوْا من قَبْلِهم من ضربائهم.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «لِمَهْلِكِهِمْ» فقرأ ذلك عامَّة قَرَأةِ الحجاز والعراق: «لِمُهْلَكِهِمْ» بضمِّ الميمِ وفتحِ اللام على توجيهِ ذلك إلى أنه مصدرٌ مِنْ أهلكوا إهلاكاً. وقرأه عاصم: «لِمَهْلَكِهِمْ» بفتح الميم واللام على توجيهه إلى المصدر من هلكوا هلاكاً ومهلكاً.

وأَوْلى القراءتين بالصواب عندي في ذلك قراءةِ من قرأه «لمُهْلَكِهِمْ» بضمّ الميم وفتح اللام لإجماعِ الحجةِ من القرّاء عليه، واستدلالاً بقوله: «وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْناهُمْ» فأَنْ يكونَ المصدر من أهلكنا، إذ كان قد تقدَّمَ قبله أولى. وقيل: أهلكناهم، وقد قال قبل: «وتَلكَ القُرَى»، لأنَّ الهلاك إنما حَلَّ بأهلِ القرى، فعاد إلى المعنى، وأجرى الكلام عليه دون اللفظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾

يقول عزّ ذكره لنبيه ﷺ: واذكر يا محمدُ إذْ قال موسى بن عمران لفتاهُ يوشع: «لا أَبْرَحُ» يقول: لا أزالُ أسير «حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ».

وقيل: عَنَى بقوله: «مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ» اجتماعَ بحرِ فارس والروم، والمجمع: مصدر من قولهم: جمع يجمع.

وقوله: «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً»، يقول: أو أسير زماناً ودهراً وهو واحد، ويجمع كثيره وقليله: أحقاب، وقد تقول العرب: كنت عنده حقبةً من الدهر،

ويجمعونها حُقباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

يعني تعالى ذكره: فلما بلغ موسى وفتاه مجمعَ البحرين.

وقوله: «نَسيا حُوتَهُما» يعني بقوله: نسيا: تركا.

وأما قوله: «يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ»، فإنَّ القولَ في ذلك عندنا بخلافِ ما قال فيه، وسنبينه إنْ شاء الله تعالى إذا انتهينا إليه.

وأما قوله: «فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً»، فإنه يعني أن الحوت اتخذ طريقه الذي سلكه في البحر سرباً. ويعني بالسرب: المسلك والمذهب، يسرب فيه: يذهب فيه ويسلكه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «فلما جاوز» موسى وفتاه مجمعَ البحرين، «قال» موسى «لفتاه» يوشع «آتِنا غَدَاءَنا»، يقول: جئنا بغدائنا وأعْطِنَاهُ، وقال: آتنا غداءنا، كما يقال: أتى الغداء وأتيته، مثل ذهب وأذهبته، «لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هَذَا نَصَبا»، يقول: لقد لقينا من سفرنا هذا عناء وتعباً، وقال ذلك موسى، فيما ذُكر، بعد ما جاوز الصخرةَ، حين ألقى عليه الجوع ليتذكر الحوتَ، ويرجع إلى موضع مطلبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى

نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: قال فتى موسى لموسى حين قالَ له: آتنا غداءنا لنطعمَ: أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرةِ فإني نسيتُ الحوتَ هنالك. «ومَا أنْسانيهُ إلَّا الشَّيْطانُ»، يقـول: ومـا أنساني الحوتَ إلا الشيطانُ «أنْ أذْكُرَهُ» فأنْ في موضعِ نصب ردّاً على الحوتِ، لأن معنى الكلام: وما أنساني أنْ أذكرَ الحوتَ إلا الشيطان سبق الحوت إلى الفعل، وردَّ عليه قوله: «أنْ أذْكُرَهُ»، وقد ذكر أن ذلك في مصحف عبدالله: وما أنسانيه أنْ أذكرَهُ إلا الشيطانُ.

وقوله: «واتَّخَذَ سَبيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَباً»، يعني: كان سَرَبُ الحوتِ في البحر لموسى عَجَباً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

يقـول تعالى ذكره: فـ «قال» موسى لفتاه «ذلكَ» يعني بذلك: نسيانك الحوت «ما كُنَّا نَبْغِ»، يقول: الذي كنا نلتمسُ ونطلبُ، لأنَّ موسى كان قيل له: صاحبك الذي تريده حيث تنسى الحوت.

وقوله: «فارْتَدَّا على آثارِهما قَصَصاً»، يقول: فرجعا في الطريق الذي كانا قطعاه ناكصين على أدبارهما يقصَّان آثارهما التي كانا سلكاها.

وقوله: «فَوَجَدَا عَبْداً منْ عبادِنا آتَيْناه رحْمَةً مِنْ عِنْدِنا»، يقول: وهبنا له رحمةً من عندنا. «وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً»، يقول: وعَلَّمناه من عندنا أيضاً

علماً.

وكان سببُ سفر موسى ﷺ وفتاه، ولقائه هذا العالِمَ الذي ذَكَرَهُ اللهُ في هذا المـوضع فيما ذُكِرَ، أنَّ موسى سُئِلَ، هل في الأرض أحدٌ أعلمُ منك؟ فقال: لا، أو حدَّثَتْهُ نفسُه بذلك، فكره ذلكَ له، فأرادَ اللهُ تعريفَهُ أنَّ مِنْ عبادِهِ في الأرضِ مَنْ هو أعلم منه، وأنه لم يكن له أن يحتم على مالا عِلْمَ له به، ولكن كان ينبغي له أن يَكِلَ ذلك إلى عالِمِهِ.

وقال آخرون: بل كان سبب ذلك أنه سألَ الله جلّ ثناؤه أنْ يدله على عالمٍ يزدادُ مِنْ عِلْمِه إلى علمِ نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للعالم: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أنْ تَعَلِّمَن» من العلم الذي علمك الله ماهو رشادٌ إلى الحقِّ، ودليلٌ على هدى؟ «قالَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعَي صَبْراً»، يقول تعالى ذكره: قال العالم: إنك لن تطيق الصبر معي، وذلك أني أعملُ بباطنِ علمٍ عَلَّمَنِيه اللهُ، ولا عِلْمَ لك إلا بالظاهرِ من الأمورِ، فلا تصبر على ماترى من الأفعال.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول عزّ ذِكْرُه مخبراً عن قولِ العالمِ لموسى: وكيف تصبر يا موسى على ما تَرَى مني من الأفعالِ التي لا علمَ لكَ بوجوهِ صوابها، وتقيم معي عليها، وأنتَ إنما تحكمُ على صوابِ المصيب وخطأ المخطىءِ بالظاهرِ الذي عندكَ،

وبمبلغِ عِلْمكَ وأفعالي تقعُ بغير دليلٍ ظاهرٍ لرأي عينك على صوابها، لأنها تُبتدأ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علمَ لك بالحادث عنها، لأنها غيبٌ، ولا تحيط بعلم الغيب خبراً يقول علماً، قال: «سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ صَابِراً» على ما أرى منكَ وإنْ كان خلافاً لما هو عندي صوابٌ. «وَلا أعْصِي لَكَ أمْراً»، يقول: وأنتهي إلى ما تأمرني، وإنْ لم يكن موافقاً هوايَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

يقول تبارك وتعالى: قال العالم لموسى: فإن اتبعتني الآن فلا تسألني عن شيءٍ أعمله مما تستنكرهُ، فإني قد أعلمتكَ أني أعملُ العملَ على الغيبِ الذي لا تحيطُ به علماً. «حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً»، يقول: حتى أحدث أنا لكَ مما ترى من الأفعالِ التي أفعلها التي تستنكرها أذكرها لكَ وأُبيِّن لك شأنها، وأبتدئكَ الخبرَ عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فانطلق موسى والعالمُ يسيران يطلبان سفينةً يركبانها، حتى إذا أصاباها ركبا في السفينة، فلما ركباها، خرقَ العالمُ السفينةَ، قال له موسى: أخرقتها بعد مالَججنا في البحر. «لِتُغْرِقَ أهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئا إمْراً»، يقول: لقد جئتَ شيئاً عظيماً، وفعلتَ فعلاً مُنكراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢﴾

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾

يقول عزّ ذِكْرُه: «قَالَ» العالمُ لموسى إذ قالَ له ما قالَ: «أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً» على ماترى من أفعالي، لأنك ترى ما لم تُحِطْ به خبراً، قال له موسى: «لا تُؤاخِذْني بِمَا نَسِيتُ»، فاختلفَ أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: كان هذا الكلام من موسى عليه السلام للعالِم معارضةً، لا أنه كان نسيَ عهده، وما كان تقدَّمَ فيه حين استصحبه بقوله: «فإنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسألْني عَنْ شَيْءٍ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تؤاخذني بتركي عهدكَ، ووجه أنَّ معنى النسيان: الترك.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ موسى سأل صاحبه أنْ لا يؤاخذَهُ بما نسِيَ فيه عَهْدَهُ من سؤالِه إياهُ على وجهِ ما فعلَ وسببِهِ لا بما سألَهُ عنه، وهو لعهده ذاكرٌ، للصحيحِ عن رسولِ الله ﷺ، بأنَّ ذلك معناه من الخبر، عن أبيِّ بن كعب، عن رسولِ الله ﷺ: «لا تُؤاخِذْني بِمَا نَسِيتُ» قال: كانَتِ الأُولى مِنْ مُوسَى نِسْياناً.

وقوله: «ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِي عُسْراً» يقول: لا تُغْشِني من أمري عسراً، يقول: لا تُضيِّقْ عليَّ أمري معكَ، وصحبتي إياك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله» العالِمُ، فـ «قال» له موسى: «أقتلتَ نفساً زكية».

واختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأةِ الحجاز والبصرة: «أقَتَلْتَ نَفْسا زَاكِيَةً» وقالوا معنى ذلك: المطهرة التي لا ذنبَ لها، ولم تذنبْ قَطُّ لصغرها. وقرأ ذلك عامة قَرَأةِ أهلِ الكوفة «نَفْساً زَكِيَّةً» بمعنى: التائبة المغفور لها ذنوبها.

وكان بعضُ أهل العلم بكلامِ العربِ من أهلِ الكوفة يقول: معنى الزكية والزاكية واحدٌ، كالقاسية والقسية: ويقول: هي التي لم تجن شيئاً وذلك هو الصواب عندي لأني لم أجدْ فرقاً بينهما في شيء من كلام العرب.

فإذا كان ذلك كذلك، فبأيِّ القراءتين قرأ ذلك القارئُ فمصيبٌ، لأنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار بمعنى واحد.

وقوله: «بِغَيْرِ نَفْسٍ»، يقول: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قوداً بها.

وقوله: «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً»، يقول: لقد جئت بشيء منكرٍ، وفعلتَ فعلاً غير معروف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال العالم لموسى: «أَلَمْ أقُلْ لكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبْراً» على ماترى من أفعالي التي لم تُحط بها خبراً، قال موسى له: «إنْ سألْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها»، يقول: بعد هذه المرّةِ «فَلا تُصاحِبْنِي»، يقول: ففارقني، فلا تكنْ لي مُصاحباً. «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنّي عُذْراً»، يقول: قد بلغتَ العذرَ في شأني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فانطلق موسى والعالمُ «حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا» من الطعام فلم يطعموهما واستضافاهم، «فَأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُما، فَوَجَدَا فِيهـا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ»، يقول: وجدا في القرية حائطاً يريد أنْ يسقطَ ويقعَ؛ يقال منه: انقضّتِ الدار: إذا انهدمت وسقطت.

وقوله: «فَأَقامَهُ» ذكر عن ابن عباس أنه قال: هدمه ثم قعدَ يَبْنِيه.

وقال آخرون: رفع الجدار بيده فاستقام.

والصوابُ من القول في ذلك أن يُقال: إنَّ الله عزّ ذكره أخبرَ أنَّ صاحبَ موسى وموسى وَجَدا جداراً يريدُ أنْ ينقضَّ فأقامه صاحبُ موسى، بمعنى: عَدَل مَيلَهُ حتى عاد مستوياً. وجائزٌ أنْ يكون كان ذلك بإصلاحٍ بعدَ هدمٍ. وجائزٌ أن يكون كان برفعٍ منه له بيده، فاستوى بقدرةِ الله، وزالَ عنه مَيْلُه بلطفه، ولا دلالةَ من كتابِ الله ولا خبر للعذر قاطع بأيِّ ذلك كانَ من أيٍّ.

وقوله: «قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجراً»، يقول: قال موسى لصاحبه: لو شئتَ لم تقم لهؤلاء القوم جدارَهُمْ حتى يُعْطُوكَ على إقامتكَ أجراً، فقال بعضهم: إنما عَنَى موسى بالأجرِ الذي قال له: «لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً» القِرَى: أي حتى يَقْرُونا، فإنهم قد أبوا أن يُضَيِّفونا.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك العِوَض والجزاء على إقامتهِ الحائطَ المائلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ

﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال صاحبُ موسى لموسى: هذا الذي قلته وهو قوله: «لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً». «فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ»، يقول: فرقةُ ما بيني وبينك: أي مفرق بيني وبينك. «سأُنَبِّئُكَ»، يقول: سأخبرك. «بِتَأْوِيلِ مالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»، يقول: بما يئول إليه عاقبة أفعالي التي فعلتها، فلم تستطع على ترك المسألة عنها، وعن النكيرِ عليَّ فيها صبراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾

يقول: أما فِعْلي ما فعلتُ بالسفينةِ، فلأنها كانت لقومٍ مساكين «يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدْتُ أنْ أعِيبَها» بالخَرق الذي خرقتها.

وقوله: «وكانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً» وكان أمامهم وقُدَّامهم ملك.

وقـوله: «يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً»، فيقول القائل: فما أغنى خَرْقُ هذا العالمِ السفينةَ التي ركبها عن أهلها، إذ كان من أجلِ خرقها يأخذُ السفن كلها، مَعِيبها وغير معيبها، وما كان وجه اعتلاله في خرقها بأنه خرقها، لأنَّ وراءهم ملك يأخذ كلَّ سفينةٍ غَصْباً؟ قيل: إنَّ معنى ذلك، أنه يأخذُ كل سفينةٍ صحيحـةٍ غصباً، ويَدَعُ منهـا كلَّ معيبـة، لا أنـه كان يأخذ صِحَاحَها وغيرَ صحاحها. فإن قال: وما الدليلُ على أن ذلك كذلك؟ قيل: قوله: «فأرَدْتُ أنْ أعيبَها» فأبانَ بذلك أنه إنما عابها، لأنَّ المعيبة منها لا يعرض لها، فاكتفى بذلك من أن يقال: وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينةٍ صحيحة غصباً، على

أن ذلك في بعض القراءات كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الغلامُ، فإنه كان كافراً، وكان أبواه مؤمنين، فعلمنا أنه يرهقهما: يقول يغشيهما طغياناً، وهو الاستكبارُ على الله، وكفراً به.

وقوله: «فَأَرَدنا أنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُمَا» اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأه جماعة من قَرَأةِ المكيين والمدنيين والبصريين: «فأرَدنا أنْ يُبَدِّلَهُما رَبُّهُما». وكان بعضهم يعتلُّ لصحةِ ذلك بأنه وجد ذلك مشدداً في عامَّة القرآن، كقول الله عزّ وجلَّ: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، وقوله: «وَإِذَا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ»، فألحق قوله: «فأرَدنا أنْ يُبَدِّلَهُما بِهِ». وقرأ ذلك عامَّة قَرَأةِ الكوفة: «فأردنا أنْ يُبْدِلَهُما» بتخفيف الدال. وكان بعض مَنْ قرأ ذلك كذلك من أهل العربية يقول: أبدلَ يُبْدِل بالتخفيف وبدَّلَ يُبَدِّل بالتشديد بمعنى واحد.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكلِّ واحدةٍ منهما جماعةٌ من القَرَأة، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقوله: «خَيْراً مِنْهُ زَكاةً» يقول: خيراً من الغلامِ الذي قتله صلاحاً وديناً.

وقوله: «وأقْرَبَ رُحْماً»، يعني بذلك: وأقرب رحمة بوالديه وأبرّ بهما من المقتول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

﴿الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قولِ صاحبِ موسى: وأما الحائطُ الذي أقمته، فإنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما.

وقوله: «أبوهُما صَالِحاً، فأرَادَ رَبُّكَ أنْ يَبْلُغا أشُدَّهُما»، يقول: فأراد ربك أنْ يُدْرِكَـا ويبلغـا قُوَّتَهما وشِدَّتهما، ويستخرجا حينئذٍ كنزهما المكنوز تحتَ الجدارِ الذي أقمته رحمةً من ربك بهما، يقول: فعلت فعل هذا بالجدار رحمةً من ربكَ لليتيمين.

وقوله: «ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أمْرِي»، يقول: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلتُه عن رأيي ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلتُه عن أمرِ الله إياي به.

وقوله: «ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً»، يقول: هذا الذي ذكرتُ لك من الأسباب التي من أجلها فعلتُ الأفعالَ التي استنكرتَها مني، تأويل: يقول: ما تئول إليه وترجع، الأفعال التي لم تسطع على ترك مسألتك إيايَ عنها، وإنكارِكَ لها صبراً.

وهذه القصص التي أخبر الله عزَّ وجلّ نبيه محمداً ﷺ بها عن موسى وصاحبه، تأديبٌ منه له، وتقدُّمٌ إليه بتركِ الاستعجالِ بعقوبةِ المشركينَ الذين كَذَّبُوه واستهزءوا به وبكتابهِ، وإعلامٌ منه له أنَّ أفعاله بهم وإنْ جَرَتْ فيما ترى الأعينُ بمـا قد يجري مثله أحياناً لأوليائه، فإنَّ تأويله صائرٌ بهم إلى أحوال أعدائهِ فيها، كما كانت أفعالُ صاحبِ موسى واقعة بخلافِ الصحةِ في الظاهر عند موسى إذْ لم يكن عالماً بعواقبها، وهي ماضيةُ على الصحة في الحقيقة

وآئلةٌ إلى الصوابِ في العاقبة، ينبئُ عن صحة ذلك قولُه: «وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُم العَذَابَ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً». ثم عَقَّبَ ذلك بقصة موسى وصاحبه، يُعْلِمُ نبيَّهُ أنَّ تَرْكَهُ جلّ جلاله تعجيلَ العذابِ لهؤلاء المشركين بغير نظرٍ منه لهم، وإنْ كان ذلك فيما يَحْسِب مَنْ لا عِلْمَ له بما الله مُدَبِّرٌ فيهم نظراً منه لهم، لأنَّ تأويلَ ذلك صائرٌ إلى هلاكهم وبوارهم بالسيفِ في الدنيا واستحقاقهم من الله في الآخرة الخِزْيَ الدائم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ويسألك يا محمدُ هؤلاء المشركون عن ذِي القرنين ما كان شأنُه، وما كانت قصتُه، فقل لهم: سأتلو عليكم من خبره ذكراً: يقول: سأقصُّ عليكم منه خبراً.

وقوله: «إنَّا مَكَّنا لَهُ فِي الأَرْضِ وآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً»، يقول: إنا وَطَّأْنَا له في الأرض. «وآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً»، يقول: وآتيناه من كلّ شيء، يعني ما يتسبب إليه وهو العلم به.

وقـولـه: «فَأَتْبَعَ سَبَباً» اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة، فاتَّبَعَ بوصل الألف و تشديد التاء بمعنى: سَلَكَ وسارَ من قولِ القائل: اتَّبعت أثرَ فلان: إذا قَفَوْته؛ وسرت وراءه. وقرأ ذلك عامة قَرَأةِ الكوفة «فَأَتْبَعَ» بهمز الألف وتخفيف التاء، بمعنى لحق.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب، قراءة من قرأه «فاتَّبَعَ» بوصل الألف

وتشديد التاء، لأنَّ ذلك خبر من الله تعالى ذِكْرُه عن مسيرِ ذي القرنين في الأرض التي مكن له فيها، لا عن لحاقه السبب، وبذلك جاء تأويلُ أهل التأويل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «حتى إذَا بَلَغَ» ذو القرنين «مَغْرِبَ الشَّمْسِ وجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ»، فاختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعض قَرَأة المدينة والبصرة: «فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» بمعنى: أنها تغربُ في عينِ ماءٍ ذاتِ حمأة، وقرأته جماعة من قرأةِ المدينة، وعامَّة قَرَأَةِ الكوفة: «فِي عَيْنٍ حامِيَةٍ» يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنْ يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار، ولكلٍّ واحدةٍ منهما وجهٌ صحيح ومعنى مفهوم، وكلا وجهيه غير مفسدٍ أحدهما صاحبَهُ، وذلك أنه جائزٌ أن تكونَ الشمسُ تغربُ في عين حارّة ذاتِ حمأة وطين، فيكون القارىء في عين حامية بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارىء في عين حمئة واصفها بصفتها التي هي بها وهي أنها ذات حمأة وطين.

وقوله: «وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً» ذكر أنَّ أولئك القوم يقال لهم: ناسك. وقوله: «قُلْنا ياذَا القَرْنَيْنِ إمَّا أنْ تُعَذِّبَ»، يقول: إما أنْ تقتلهم إنْ هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيدِ الله، ويُذْعِنُوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم. «وإمَّا أنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً»، يقول: وإما أنْ تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم

الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾

يقول جلّ ثناؤه: «قالَ أمّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذّبُهُ»، يقول: أما مَنْ كفر فسوف نقتله.

وقوله: «ثُمّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذّبُهُ عَذاباً نكْراً»، يقول: ثم يرجع إلى الله تعالى بعد قتله، فيعذِّبهُ عذاباً عظيماً، وهو النكرُ، وذلك عذابُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

يقـول: وأما مَنْ صَدَّقَ الله منهم ووحَّده، وعملَ بطاعتهِ، فله عند الله الحسنى، وهي الجنة، جزاء يعني ثواباً على إيمانه، وطاعته ربه.

وقـوله: «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أمْرِنا يُسْراً»، يقول: وسنعلمه نحنُ في الدنيا ماتيسر لنا تعليمه مما يُقرِّبُهُ إلى الله ويلينُ له من القول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم سارَ وسلكَ ذُو القرنين طرقاً ومنازلَ. «حتى إذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً» يقول

تعالى ذِكْرُه: ووجد ذُو القرنين الشمسَ تطلعُ على قومٍ لم تجعلْ لهم من دونها ستراً، وذلك أنَّ أرضهم لا جبلَ فيها ولا شجرَ، ولا تحتملُ بناء فيسكنوا البيوتَ، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب.

وأما قوله: «كَذَلِكَ» فإن معناه: ثم أتبعَ سبباً كذلك حتى إذا بلغ مطلعَ الشمسِ؛ وكذلك من صلة أتبع. وإنما معنى الكلام: ثم أتبع سبباً حتى بلغَ مطلعَ الشمس، كما أتبع سبباً حتى بلغ مغربها.

وقوله: «وَقَدْ أَحَطْنا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً»، يقول: وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علماً لا يخفى علينا مما هنالك من الخلقِ وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم سار طرقاً ومنازلَ، وسلكَ سبلاً «حَتَى إِذَا بَلَغَ بينَ السَّدَّيْنِ».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرأةِ المدينة وبعض الكوفيين: «حتَّى إِذَا بلَغ بينَ السُّدَّيْنِ»، بضمّ السين وكذلك جميع ما في القرآن من ذلك بضم السين. وكان بعض قرأةِ المكيين يقرؤه بفتح ذلك كله. وكان أبو عمرو ابن العلاء يفتح السين في هذه السورة، ويضمُّ السين في يسّ، ويقول: السَّد بالفتح: هو الحاجز بينك وبين الشيء؛ والسُّد بالضم: ما كان من غشاوة في العين. وأما الكوفيون فإن قراءَة عامتهم في جميع القرآن بفتح السين غير قوله: «حتى إِذَا بَلَغَ بينَ السَّدَّيْنِ» فإنهم ضموا السين في ذلك خاصة.

ورُوي عن عكرمة في ذلك، أنه قال: ما كان من صنعة بني آدم فهو السَّدّ، يعني بالفتح، وما كان من صنع الله فهو السدّ. وكان الكسائي يقول: هما لغتان بمعنى واحد.

والصواب من القولِ في ذلك عندي أنْ يقالَ: إنهما قراءتان مستفيضتان في قرأةِ الأمصار، ولغتان متفقتا المعنى غير مختلفة، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ، ولا معنى للفرق الذي ذكر عن أبي عمرو بن العلاء، وعكرمة بين السُّد والسَّد، لأنا لم نجد لذلك شاهداً يبين عن فرقانٍ ما بين ذلك على ماحكي عنهما. ومما يبين ذلك أنَّ جميعَ أهلِ التأويلِ الذي رُوي لنا عنهم في ذلك قولٌ، لم يُحْكَ لنا عن أحدٍ منهم تفصيل بين فتحِ ذلك وضَمِّه، ولو كانا مختلفي المعنى لنقل الفصل مع التأويل إنْ شاء الله، ولكن معنى ذلك كان عندهم غير مفترق، فيفسر الحرف بغير تفصيل منهم بين ذلك. وأما ما ذُكر عن عكرمةَ في ذلك. (فلا يثبت عنه). والسَّد والسُّد جميعاً: الحاجز بين الشيئين، وهما ههنا فيما ذُكر جبلان سُدَّ ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع مادَّ غوائِلهم وعيثهم عنهم.

وقوله: «وَجَدَ مِنْ دُونِهما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهونَ قَوْلاً»، يقول عزّ ذكره: وجد من دون السدّينِ قوماً لا يكادون يفقهون قولَ قائلٍ سوى كلامهم.

وقوله: «إنَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ» اختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «إنَّ يَأْجُوجَ ومأْجُوجَ»، فقرأت القَرَأة من أهلِ الحجازِ والعراق وغيرهم: «إنَّ ياجُوجَ وماجُوجَ» بغير همز على فاعول من يججت ومججت، وجعلوا الألفين فيهما زائدتين، غير عاصم بن أبي النجود والأعرج، فإنه ذكر أنهما قرآ ذلك بالهمز فيهما جميعاً، وجعلا الهمزَ فيهما من أصلِ الكلام، وكأنهما جعلا يأجوج: يفعول من أججت، ومأجوج: مفعول.

والقراءة التي هي القراءةُ الصحيحة عندنا، أن «ياجُوجَ وماجُوجَ» بألف بغير همز لإجماع الحجة من القرّاء عليه، وأنه الكلام المعروف على ألسن العرب.

وقوله: «مُفْسِدونَ في الأرض»، يعني بذلك: إنَّ يأجوجَ ومأجوج سيفسدونَ في الأرضِ، لا أنهم كانوا يومئذٍ يفسدون.

وقوله: «فَهَل نَجْعَل لَكَ خَرْجاً»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قَرَأة المدينةِ والبصرة وبعض أهل الكوفة: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً» كأنهم نَحْوَا به نَحو المصدرِ مِنْ خَرْجِ الرأس، وذلك جعله. وقرأته عامَّة قَرَأة الكوفيين: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجاً» بالألف، وكأنهم نحوا به نحو الاسم، وعنوا به أجرة على بنائكَ لنا سدّاً بيننا وبين هؤلاء القوم.

وأوْلى القراءتين في ذلك عندنا بالصوابِ قراءةُ من قرأه: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجاً» بالألف، لأن القومَ فيما ذُكر عنهم، إنما عَرَضُوا على ذي القرنين أنْ يُعطوه من أموالهم ما يستعينُ به على بناء السدِّ، وقد بين ذلك بقوله: «فَأَعِينُونِي بقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً»، ولم يعرضوا عليه جزيةَ رؤوسهم. والخراجُ عند العرب: هو الغلة.

وقوله: «عَلى أنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً» يقول: قالوا له: هل نجعل لك خراجاً على أن تجعلَ بيننا وبين يأجوج ومأجوج حاجزاً يحجزُ بيننا وبينهم، ويمنعهم من الخروج إلينا، وهو السدّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾

يقول تعالى ذكره: قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني

من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطَّأَهُ لي، وقوّاني عليه، خيرٌ من جُعْلِكم، والأجرة التي تعرضونها عليَّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوّةٍ، أعينوني بفَعَلة وصناع يُحسنون البناءَ والعمل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: قال ذُو القرنين للذين سألوه أنْ يجعلَ بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدّاً «آتُونِي»: أي جِيئُوني بِزُبَر الحديد، وهي جمع زُبْرة، والزُّبْرة: القطعة من الحديد.

وقولـه: «حتى إِذَا ساوَى بينَ الصَّـدفَيْنِ»، يقـول عزّ ذكره: فآتَوه زُبَر الحديد، فجعلها بين الصدفين حتى إذا ساوى بين الجبلين بما جعلَ بينهما من زُبرِ الحديدِ، ويقال: سوّى. والصدفان: ما بين ناحيتي الجبلين ورؤوسهما.

وقوله: «قالَ انْفُخُوا»، يقول عَزَّ ذِكْرُه. قال للفَعَلةِ: انفخوا النارَ على هذه الزُّبر من الحديد.

وقوله: «حتى إِذَا جَعَلَهُ ناراً» وفي الكلامِ متروكٌ، وهو: فنفخوا حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً.

وقوله: «أفرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً» يقول: أصبَّ عليه قِطراً، والقِطْر: النُّحاس.

وقوله: «فَمَا اسْطاعُوا أنْ يَظْهَرُوهُ»، يقول عزّ ذكره: فما اسطاع يأجوجُ ومأجوج أنْ يَعْلوا الردمَ الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم

من الناس، فيصيروا فوقَهُ وينزلوا منه إلى الناس، يقال منه: ظهر فلانٌ فوقَ البيت: إذا عَلاَهُ؛ ومنه قول الناس: ظهر فلان على فلان: إذا قهره وعلاه.
«ومَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً» يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: فلما رأى ذُو القرنين أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لا يستطيعونَ أنْ يظهروا ما بنى من الردم، ولا يقدرون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته وسوَّيته حاجزاً بين هذه الأمة، ومن دون الردم رحمة من ربي رحمَ بها من دون الردم من الناس، فأعانني برحمته لهم حتى بنيتُه وسوَّيتهُ ليكفَّ بذلك غائلةَ هذه الأمةِ عنهم.

وقوله: «فإذَا جاءَ وَعْدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكاءَ» يقول: فإذا جاء وعدُ ربي الذي جعله ميقاتاً لظهور هذه الأمةِ وخروجها من وراءِ هذا الردم لهم، جعله دكاء، يقول: سَوَّاهُ بالأرضِ، فألزقه بها من قولهم: ناقة دكاء: مستويةُ الظهر لا سنامَ لها. وإنما معنى الكلام: جعله مدكوكاً، فقيل: دكاء.

«وكانَ وَعْدُ رَبّي حَقًّا»، يقول: وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دكِّ هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقاً، لأنه لا يخلفُ الميعادَ فلا يقعُ غير ماوعد أنه كائن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتركنا عبادنا يوم يأتيهم وَعْدُنَا الذي وعدناهم، بأنا

نَدُكُّ الجبالَ ونَنْسِفُهَا عن الأرضِ نسفاً، فنذرها قاعاً صَفْصَفاً، بعضهم يموجُ في بعض، يقول: يختلط جِنُّهم بإنسِهم.

وقوله: «فجَمَعْناهُمْ جَمْعاً»، يقول: فجمعنا جميعَ الخَلْقِ حينئذٍ لموقفِ الحساب جميعاً.

وقوله: «وَعَرَضنا جَهَنَّمَ يَوْمَئذٍ للكافِرينَ عَرْضاً»، يقول: وأبرزنا جهنَمَ يومَ يُنْفَخُ في الصور، فأظهرناها للكافرينَ بالله، حتى يروها ويعاينوها كهيئةِ السراب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾

يقول تعالى: وعرضنا جهنمَ يومئذٍ للكافرينَ الذين كانوا لا ينظرون في آياتِ الله، فيتفكَّرونَ فيها ولا يتأمَّلون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون ويُنيبُونَ إلى توحيدِ الله، وينقادون لأمره ونهيِه، وكانوا لا يستطيعون سمعاً، يقول: وكانوا لا يُطيقونَ أنْ يسمعوا ذِكْرَ الله الذي ذكَّرهم به، وبيانه الذي بيَّنه لهم في آيِ كتابه، بخذلانِ الله إياهم، وغَلَبةِ الشقاءِ عليهم، وشُغْلِهم بالكفرِ باللهِ وطاعةِ الشيطانِ، فيتعظون به، ويتدبَّرونه، فيعرفونَ الهدى من الضلالة، والكفرَ من الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢﴾

يقول عزَّ ذكره: أَفظنَّ الذين كفروا بالله من عَبَدَةِ الملائكةِ والمسيحِ، أنْ يتخذوا عبادي الذين عبدوهم من دونِ الله أولياء، يقول: كلا بَلْ هُمْ لهم

أعداء.

وقوله: «إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا»، يقول: أعددنا لمن كفرَ بالله جهنم منزلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لهؤلاء الذين يبغون عَنَتَك ويجادلونك بالباطلِ، ويحاورونك بالمسائلِ من أهل الكتابين: اليهود، والنصارى. «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ» أيها القومُ «بالأَخْسَرِينَ أعمالاً» يعني بالذين أتعبوا أنفسهم في عملٍ يبغون به ربحاً وفضلاً، فنالوا به عَطَباً وهلاكاً ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعةً يرجو بها فضلاً وربحاً، فخابَ رجاؤُه، وخسر بَيْعُه، ووكس في الذي رجا فضله.

وقوله: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول: هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هدى واستقامة، بل كان على جَوْرٍ وضلالة، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به بل على كفرٍ منهم به، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً: يقول: وهم يظنون أنهم بفعلهم ذلك لله مطيعون، وفيما نَدَبَ عبادَهُ إليه مجتهدون، وهذا من أدلِّ الدلائلِ على خطأ قولِ مَنْ زعم أنه لا يكفرُ بالله أحدٌ إلا من حيثُ يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أنَّ سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهبَ ضلالاً، وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآياتِ ربهم، ولو كان القولُ كما قال الذين زعموا أنه لا يكفرُ بالله أحدٌ إلا من حيثُ

يعلم، لوجَبَ أنْ يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه، كانوا مثابينَ مأجورينَ عليها، ولكن القولَ بخلافِ ما قالوا، فأخبر جلَّ ثناؤه عنهم أنهم بالله كَفَرَةٌ، وأنَّ أعمالهم حابطةٌ. وعنى بقوله: «أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» عملاً، والصُّنع: والصَّنعة والصنيع واحد، يقال: فرس صنيع بمعنى مصنوع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، الأخسرونَ أعمالاً، الذين كفروا بحُججِ ربهم وأدلته، وأنكروا لقاءه. «فَحَبِطَتْ أعمالُهُمْ»، يقول: فبطلت أعمالهم، فلم يكن لها ثوابٌ ينفعُ أصحابَها في الآخرة، بل لهم منها عذابٌ وخزيٌ طويل. «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً»، يقول تعالى ذكره: فلا نجعل لهم ثقلاً. وإنما عنى بذلك: أنهم لا تَثْقُلُ بهم موازينهم، لأنَّ الموازينَ إنما تثقلُ بالأعمال الصالحة، وليس لهؤلاء شيءٌ من الأعمالِ الصالحة، فتثقل به موازينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أولئكَ ثوابُهم جهنمُ بكفرِهم بالله، واتخاذِهم آياتِ كتابه، وحججِ رسله سُخْرياً، واستهزائهم برسله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقرُّوا بتوحيدِ الله وما أنزلَ من كتبه وعملوا بطاعته، كانتْ لهم بساتينُ الفردوس، والفردوسُ: معظم الجنة.

وقوله: «نُزُلًا»، يقول: منازل ومساكن، والمنزل: من النزول، وهو من نزولِ بعضِ الناس على بعضٍ، وأما النزل: فهو الريع، يقال: ما لطعامِكم هذا نزلٌ يُرادُ به الريع وما وجدنا عندكم نزلاً: أي نزولاً.

وقوله: «خالِدِينَ»، يقول: لابثينَ. «فِيها أبَداً لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً»، يقول: لا يريدون عنها تحوّلاً، وهو مصدر تحوّلت أخرج إلى أصله، كما يقال: صغر يصغر صغراً، وعاج يعوج عوجاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمد: «لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَاداً» للقلم الذي يُكتب به «كَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ» ماءُ «البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مدداً»، يقول: ولو مددنا البحرَ بمثلِ مافيه من الماء مدداً، من قولِ القائل: جئتك مدداً لك، وذلك من معنى الزيادة. وقد ذُكر عن بعضِهم: ولو جئنا بمثله مدداً، كأن قارىء ذلك كذلك أراد: لنفدَ البحرُ قبل أنْ تنفدَ كلماتُ ربي، ولو زدنا بمثلِ مافيه من المدادِ الذي يكتب به مداداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قل لهؤلاء المشركينَ يا محمدُ: إنما أنا بشرٌ مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإنَّ الله يوحي إليَّ أنَّ معبودكم الذي يجبُ عليكم أنْ تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، معبودٌ واحدٌ لا ثانيَ له، ولا شريك. «فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ»، يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته «فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً»، يقول: فَلْيُخْلِصْ له العبادةَ، وليفردْ له الربوبية.

وقوله: «وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»، يقول: ولا يجعل له شريكاً في عبادته إياه، وإنما يكون جاعلاً له شريكاً بعبادته إذا راءى بعمله الذي ظاهِرُه أنه لله وهو مريدٌ به غيرَهُ.



بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله تعالى ذِكْرُه: كاف من «كهيعصٓ» فقال بعضهم: تأويل ذلك أنها حرفٌ من اسمِهِ الذي هو كبير، دلَّ به عليه، واستغنى بذكره عن ذكرِ باقي الاسم.

وقال آخرون: بل الكافُ من ذلك حرف من حروف اسمه الذي هو كاف.

وقال آخرون: بل هو حرفٌ من حروف اسمه الذي هو كريم.

وقال الذين فَسَّرُوا ذلك هذا التفسير الهاء من كهيعص: حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو هاد.

واختلفوا في تأويل الياء من ذلك، فقال بعضهم: هو حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو يمين.

وقال آخرون: بل هو حرفٌ من حروف اسمه الذي هو حكيم.

وقال آخرون: بل هي حرف من قول القائل: يامن يجير.

واختلف متأوِّلو ذلك كذلك في معنى العين، فقال بعضهم: هي حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو عالم.

وقال آخرون: بل هي حرف من حروف اسمه الذي هو عزيز.

وقال آخرون: بل هي حرف من حروف اسمه الذي هو عدل.

وقال الذين تأوَّلُوا ذلك هذا التأويل: الصاد من قوله: «كهيعصٓ»: حرفٌ من حروفِ اسمه الذي هو صادق.

وقال آخرون: بل هذه الكلمة كلها اسم من أسماء الله تعالى.

وقال آخرون: كلُّ حرفٍ من ذلك اسمٌ من أسماء الله عزّ وجلّ.

وقال آخرون: هذه الكلمةُ اسمٌ من أسماء القرآن.

قال أبو جعفر:

والقول في ذلك عندنا نظير القولِ في «الٓمٓ» وسائر فواتحِ سورِ القرآن التي افتتحت أوائلها بحروفِ المعجم، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى قبل، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾

فتأويل الكلام: هذا ذِكْرُ رحمةِ ربك عبدَهُ زكريا.

وقوله: «إِذْ نادَى رَبَّهُ نِداءً خَفِياً»، يقول حين دعا رَبَّهُ، وسأله بنداء خفيٍّ، يعني: وهو مستسرٌّ بدعائِه ومسألته إياه ما سألَ كراهته منه للرياء.

وقوله: «قالَ رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي»، يقول تعالى ذكره، فكان نداؤه

(١) انظر أولَ تفسير سورة البقرة.

الخفيُّ الذي نادى به ربه أنْ قال: «رَبِّ إني وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي»، يعني بقوله: «وَهَنَ» ضَعف ورَقَّ من الكبر.

وقوله: «ولَمْ أكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِياً» يقول: ولم أشْقَ يا ربِّ بدعائك، لأنك لم تُخَيِّبْ دعائي قبل إذْ كنت أدعوك في حاجتي إليك، بل كنتَ تجيبُ وتقضي حاجتي قِبَلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

يقول: وإني خفت بني عمي وعصبتي من ورائي: يقول: من بعدي أنْ يرثوني، وقيل: عنى بقوله «مِنْ وَرائي» من قُدّامي ومن بين يديّ؛ وقد بيَّنتُ جوازَ ذلك فيما مضى قَبْلُ.

وقوله: «وكانَتِ امْرأتي عاقِراً»، يقول: وكانت زوجتي لا تَلِدُ، يقال منه: رجلٌ عاقر، وامرأة عاقر بلفظٍ واحد.

وقوله: «فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً»، يقول: فارزقني من عندك ولداً وإرثاً ومعيناً.

وقوله: «يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»، يقول: يرثني من بعد وفاتي مالي، ويرثُ من آلِ يعقوب النبوّة، وذلك أن زكريا كان من ولد يعقوب.

وقوله: «وَاْجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً» يقول: واجعل ياربِّ الوليَّ الذي تَهبهُ لي مَرْضِياً ترضاهُ أنتَ ويرضاه عبادك ديناً وخُلُقاً وخَلْقاً. والرضي: فعيل صرف من مفعول إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستجابَ له ربه، فقال له: يا زكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاماً اسمه يحيى، لم يُسَم باسمِهِ أحدٌ قَبْلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال زكريا لما بشره الله بيحيى: «ربِّ أنَّى يكونُ لي غُلام»، ومن أيِّ وجهٍ يكون لي ذلك، وامرأتي عاقر لا تحبلُ، وقد ضَعُفْتُ من الكبرِ عن مباضعةِ النساء أبأن تقوِّيني على ماضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجتي ولوداً، فإنك القادرُ على ذلك وعلى ما تشاء، أمْ بأنْ أنكحَ زوجةً غيرَ زوجتي العاقر، يستثبتُ رَبَّهُ الخبرَ، عن الوجهِ الذي يكونُ من قِبَلِه له الولدُ، الذي بَشَّرَهُ اللهُ به، لا إنكاراً منه ﷺ حقيقةَ كونِ ما وعدَهُ الله من الولدِ، وكيف يكونُ ذلك منه إنكاراً لأنْ يرزقه الولد الذي بشَّره به، وهو المبتدىء مسألة ربه ذلك بقوله: «فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» بعد قوله: «إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِني وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً».

وقوله: «وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا»، يقول: وقد عتوتُ من الكبرِ فصرتُ نحلَ العظامِ يابِسَهَا، يقال منه للعود اليابس: عُودٌ عاتٍ وعاسٍ، وقد عتا يعتو عِتيًّا وعُتُوّاً، وعسى يعسو عِسِياً وعسوّاً، وكلُّ مُتَنَاهٍ إلى غايته في كبرٍ أو فساد، أو كفرٍ، فهو عاتٍ وعاس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال الله لزكريا مجيباً له: «قالَ كَذلكَ»، يقول: هكذا الأمرُ كما تقولُ من أنَّ امرأتك عاقر، وأنك قد بلغتَ من الكبر العتيَّ، ولكنَّ ربَّكَ يقولُ: خَلْقُ ما بَشَّرْتُكَ به من الغلامِ الذي ذكرتُ لكَ أنَّ اسمه يحيى عليَّ هَيِّنٌ، فهو إذن من قوله: «قالَ رَبُّكَ هُوَ عَليَّ هَيِّنٌ» كناية عن الخلق.

وقوله: «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ولَمْ تَك شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليس خَلْقُ ما وعدتُكَ أنْ أَهَبَهُ لكَ من الغلامِ الذي ذكرتُ لكَ أمرَهُ منكَ مع كبرِ سِنِّكَ، وعُقْمِ زوجتك بأعجبَ من خَلْقِيكَ، فإني قد خلقتكَ، فأنشأتكَ بشراً سوياً من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهبهُ لكَ من الولدِ، ولم تَكُ شيئاً، فكذلك أخلقُ لكَ الولدَ الذي بشرتك به من زوجتكَ العاقرِ، مع عِتِيِّكَ ووَهَنِ عظامكَ، واشتعالِ شيبِ رأسك.

وقوله: «قالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آية»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال زكريا: ياربِّ اجعلْ لي علماً ودليلاً على ما بشَّرتني به ملائكتُكَ من هذا الغلامِ عن أمركَ ورسالتكَ، ليطمئنَّ إلى ذلك قلبي.

«قال» الله: «آيَتُكَ» لذلك «ألاّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا»، يقول جلَّ ثناؤه: علامتُكَ لذلك، ودليلُكَ عليه أنْ لا تكلم الناسَ ثلاثَ ليالٍ وأنتَ سويٌّ صحيح، لا عِلَّةَ بكَ من خرسٍ ولا مرضٍ يمنعكَ من الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخرج زكريا على قومه من مُصَلَّاهُ حين حُبِسَ لسانهُ عن كلامِ الناس، آيةً من الله له على حقيقةِ وَعْدِه إياهُ ما وَعَدَ.

وقوله: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ»، يقول: أشار إليهم، وقد تكون تلك الإشارةُ باليدِ وبالكتابِ وبغير ذلك مما يُفْهَمُ به عنه ما يريد.

وقـولـه: «أَنْ سَبِّحُـوا بُكْـرَةً وَعَشِيًّا»، قد بيَّنتُ فيما مضى الوجوهَ التي ينصرفُ فيها التسبيح، وقد يجوزُ في هذا الموضع أنْ يكون عَنَى به التسبيحَ الذي هو ذِكْرُ الله، فيكون أمرهم بالفراغِ لذكرِ الله في طرفي النهارِ بالتسبيحِ، ويجوز أن يكون عَنَى به الصلاةَ، فيكون أمرهم بالصلاةِ في هذين الوقتين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فولد لزكريا يحيى، فلما ولد، قالَ اللهُ له يا يحيى: خُذْ هذا الكتابَ بقوّةٍ، يعني كتابَ الله الذي أنزله على موسى، وهو التوراةُ بقوّةٍ، يقول: بجدٍّ.

وقوله: «وآتَيْناهُ الحُكْمَ صبيًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطيناهُ الفهْمَ لكتابِ الله في حال صباه قبل بلوغه أسنانَ الرجال.

وقوله: «وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورحمة منا ومحبة له آتيناه الحكم صبياً.

وقوله: «وزَكاةً»، يقول تعالى ذكره: وآتينا يحيى الحكم صبياً، وزكاة: وهو الطهارةُ من الذنوب، واستعمال بدنهِ في طاعةِ ربه، فالزكاةُ عطف على الحكم من قوله: «وآتَيْناهُ الحُكْمَ».

وقوله: «وكانَ تَقِيًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان لله خائفاً مؤدّياً فرائضَهُ، مجتنباً محارمه مسارعاً في طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكان بَرًّا بوالديه، مسارعاً في طاعتهما ومحبتهما، غير عاقٍّ بهما. «ولَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا»، يقول جلَّ ثناؤه: ولم يكن مستكبراً عن طاعةِ ربهِ وطاعةِ والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً متذللاً يأتمرُ لما أُمِرَ به، وينتهي عما نُهي عنه، لا يَعْصِي رَبَّهُ ولا والديه.

وقوله: «سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: وأمانٌ من الله يومَ وُلِدَ من أنْ يناله الشيطانُ من السوء، بما ينالُ به بني آدمَ، وذلك أنه رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ إلَّا ما كانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيًّا»[1].

وقوله: «ويَوْمَ يَمُوتُ»، يقول: وأمانٌ من الله تعالى ذكره له من فَتَّانَي القبرِ، ومن هَوْلِ المطلع. «ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: وأمانٌ له من عذابِ الله يومَ القيامةِ، يومَ الفزعِ الأكبرِ من أنْ يروعه شيءٌ، أو أن يفزعه ما يفزعُ الخلق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر يا محمدُ في كتابِ الله الذي

أنزلهُ عليكَ بالحقِّ مريمَ ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها، وانفردتْ عنهم، وهو افتعل من النَّبذ، والنَّبذ: الطَّرح.

وقوله: «مَكاناً شَرْقِيًّا»، يقول: فَتَنَحَّتْ واعتزلتْ من أهلها في موضعٍ قِبَلَ مَشرقِ الشمس دونَ مَغربها.

وقوله: «فاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً»، يقول: فاتخذت من دونِ أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس.

وقـولـه: «فأرْسَلْنا إلَيْها رُوحَنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسلنا إليها حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً واتخذت من دونهم حجاباً: جبريلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخافت مريمُ رسولَنا، إذ تمثَّلَ لها بشراً سوياً، وظنته رجلاً يريدها على نفسها، فلما رأته فَزِعَتْ منه وقالت: «إنِّي أعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّاً»، فقالت: إني أعوذ أيها الرجلُ بالرحمنِ منكَ، تقول: أستجيرُ بالرحمن منكَ أنْ تنالَ مني ما حرَّمَهُ عليكَ إنْ كنتَ ذا تقوى له تتقي محارمه، وتجتنب معاصِيه؛ لأنَّ مَنْ كان لله تقياً، فإنه يجتنبُ ذلك. ولو وجه ذلك إلى أنها عَنَت: إني أعوذُ بالرحمن منك إنْ كنت تتقي الله في استجارتي واستعاذتي به منكَ كان وجهاً.

وقوله: «قالَ إنَّمَا أنا رَسُولُ رَبِّكِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقال لها روحنا: إنما أنا رسولُ رَبِّكِ يا مريمُ أرسلني إليكِ: «لأهَبَ لكِ غُلاماً زكياً»، يعني: غلاماً طاهراً من الذنوب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت مريمُ لجبريلَ «أنى يَكُونُ لي غُلامٌ» من أيِّ وجهٍ يكونُ لي غلام؟ أمن قِبلَ زوج أتزوَّجُ، فأرزقه منه، أم يبتدىء الله فيَّ خَلْقَهُ ابتداء «ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ» من ولدِ آدمَ بنكاحٍ حلالٍ «ولَمْ أَكُ» إذْ لم يَمسسني منهم أحدٌ على وجهِ الحلالِ «بَغِيًّا» بغيتُ ففعلتُ ذلك من الوجهِ الحرام، فحملته من زنا.

«قال كَذلكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَليَّ هَيِّنٌ» يقول تعالى ذِكْرُه: قال لها جبريلُ: هكذا الأمرُ كما تصفين، من أنك لم يَمْسَسْكِ بشرٌ ولم تكوني بغياً، ولكن ربك قال: هو عليَّ هينٌ: أي خَلْقُ الغلامِ الذي قلت أن أهبه لكِ عليَّ هينٌ لا يتعذَّرُ عليَّ خَلْقُه وهبته لكِ من غيرِ فحلٍ يفتحلك.

«وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً للنَّاسِ»، يقول: وكي نجعلَ الغلامَ الذي نهبهُ لكِ علامةً وحجةً على خلقي أهبه لك.

«وَرَحْمَةً مِنَّا»، يقول: ورحمةً منا لكِ، ولمن آمن به وصدَّقَهُ أخلقه منكِ.

«وكانَ أمْراً مَقْضِيًّا»، يقول: وكان خَلْقُه منكِ أمراً قد قضاهُ الله، ومضى في حكمه وسابقِ عِلْمِه أنه كائنٌ منكِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ تُرِكَ ذِكْرُه استغناءً بدلالة ماذكر منه عنه. «فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا» بغلام «فحَمَلَتْهُ فانْتَبَذَتْ بِهِ مَكانا قَصيًّا».

وقوله: «فانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا»، يقول: فاعتزلت بالذي حملته، وهو عيسى، وتَنَحَّت به عن الناس مكاناً قصياً: يقول: مكاناً نائياً قاصياً عن الناس، يقال: هو بمكانٍ قاص، وقصيٍّ بمعنى واحد.

وقوله: «فأجاءهَا المَخاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة، ثم قيل: لما أسقطت الباء منه أجاءها، كما يقال: أتيتكَ بزيدٍ، فإذا حذفت الباء قيل آتيتك زيداً كما قال جلّ ثناؤه: «آتُونِي زُبُـرَ الحَدِيدِ» والمعنى: ائتوني بزُبر الحديد، ولكن الألف مُدَّتْ لما حذفت الباء، وكما قالوا: خرجت به وأخرجته، وذهبت به وأذهبته، وإنما هو أفعل من المجيء، كمـا يقـال: جاء هو، وأجـأته أنا: أي جئتُ به، ومثل من أمثال العـرب: «شـرّ ما أجـاءني إلى مُخَّة عرقوب»، وأشاء ويقال: شرّ ما يُجيئك ويُشيئك إلى ذلك.

وقوله: «ياليْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا» ذكر أنها قالت ذلك في حال الطلق استحياءً من الناس.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأةِ الحجازِ والعراق: «فَنَاداها مِنْ تَحْتِهـا» بمعنى: فنـاداها جبرائيلُ من بين يديها على اختلافٍ منهم في تأويله؛ فمن متأوِّلٍ منهم إذا قرأه «مِنْ تحْتِها» كذلك؛ ومن متأوِّلٍ منهم أنه

عيسى، وأنه ناداها من تحتها بعد ما ولَدَتْهُ. وقرأ ذلك بعض قَرَأة أهلِ الكوفةِ والبصـرة «فَنادَاها مَنْ تَحْتَها» بفتح التاءين من تحت، بمعنى: فناداها الذي تحتها، على أنَّ الذي تحتها عيسى، وأنه الذي نادى أمه.

وأَوْلى القولين في ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: الذي ناداها ابنها عيسى، وذلك أنه من كناية ذكرهِ أقربُ منه من ذكرِ جبرائيل، فردُّهُ على الذي هو أقربُ إليه أَوْلى من ردِّهِ على الذي هو أبعد منه. ألا ترى في سياق قوله: «فحَمَلَتْهُ فانْتَبَـذَتْ بِهِ مَكـاناً قَصِيًّا»، يعني به: فحملت عيسى فانتبذتْ به، ثم قيل: فناداها نَسَقاً على ذلك من ذِكْرِ عيسى والخبرِ عنه. ولعلةٍ أخرى، وهي قوله: «فأشارَتْ إلَيْهِ»، ولم تشر إليه إنْ شاء الله إلا وقد علمتْ أنه ناطقٌ فى حاله تلك، وللذي كانتْ قد عرفتْ ووثقتْ به منـه بمخـاطبته إياها بقوله لها: «أنْ لا تَحْزَني قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا»، وما أخبرَ اللهُ عنه أنه قال لها أشيري للقومِ إليه، ولو كان ذلك قولاً من جبرائيل، لكان خليقاً أنْ يكون في ظاهر الخبر، مبيناً أن عيسى سينطقُ، ويحتجُّ عنها للقوم، وأمر منه لها بأن تشيرَ إليه للقومِ إذا سألوها عن حالها وحالهِ.

فإذا كان ذلـك هو الصـوابُ من التـأويلِ الـذي بيَّنـا، فَبَيِّنٌ أنَّ كلتـا القراءتين، أعني «مِنْ تَحْتِها» بالكسر، و«مَنْ تَحْتها» بالفتح صوابٌ. وذلك أنه إذا قرىء بالكسـرِ كان في قوله: «فَنادَاها» ذكر من عيسى. وإذا قرىء «مَنْ تَحْتَها» بالفتح كان الفعل لمن وهو عيسى. فتأويلُ الكلام إذن: فناداها المولودُ من تحتها أن لا تحزني ياأمه: «قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا».

واختلف أهـلُ التـأويل في المعنيِّ بالسـريِّ في هذا المـوضع، فقال بعضهم: عنى به: النهرَ الصغير.

وقال آخرون: عنى به عيسى.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال: عَنَى به الجدول، وذلك أنه أعلمها ما قد أعطاها الله من الماء الذي جعله عندها، وقال لها: «وَهُزِّي إلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَبا جَنِيًّا فَكُلِي» من هذا الرطب «وَاشْرَبِي» من هذا الماء «وَقَرِّي عَيْناً» بولدكِ، والسريُّ معروفٌ من كلام العرب أنه النهر الصغير.

وقوله: «وَهُزِّي إلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ» ذكر أنَّ الجذعَ كان جذعاً يابساً، وأمرها أنْ تهزَّهُ، وذلك في أيام الشتاء، وهزّه إياه كان تحريكه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فكلي من الرطب الذي يتساقط عليك، واشربي من ماء السريّ الذي جعله ربك تحتك ولا تخشي جوعاً ولا عطشاً. «وقَرِّي عيناً»، يقول: وطيبي نفساً وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني.

وقوله: «فإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أحداً»، يقول: فإنْ رأيتِ من بني آدم أحداً يكلمكِ أو يسائلكِ عن شيء من أمركِ وأمرِ ولدكِ وسببِ ولادتكهِ «فقُولي إنّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْماً»، يقول: فقولي: إني أوجبتُ على نفسي لله صمتاً ألاّ أُكلِّمَ أحداً من بني آدمَ اليوم. «فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إنْسِيًّا».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما قالَ ذلك عيسى لأمهِ أطمأنتْ نَفْسُها، وسلَّمتْ لأمرِ الله، وحملته حتى أتت به قومها.

وقوله: «﴿قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا﴾»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلما رأوا مريم، ورأوا معها الولد الذي ولدته، قالوا لها: يا مريم لقد جئت بأمرٍ عجيب، وأحدثتِ حدثاً عظيماً، وكلّ عامل عملاً أجاده وأحسنه فقد فَرَاهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في السببِ الذي من أجله قِيلَ لها: يا أختَ هارون، ومَنْ كان هارون هذا الذي ذكرهُ الله، وأخبرَ أنهم نسبوا مريمَ إلى أنها أختُه، فقال بعضهم: قيل لها: «يا أُخْتَ هارُونَ» نسبة منهم لها إلى الصلاحِ، لأنَّ أهلَ الصلاحِ فيهم كانوا يسمون هارون، وليس بهارون أخي موسى.

وقال بعضهم: عُني به هارون أخو موسى، ونُسبت مريمُ إلى أنها أخته لأنها من ولدِه، يقال للتميميِّ: يا أخا تميمٍ، وللمُضَريِّ: يا أخا مُضَر.

والصوابُ من القول في ذلك ما جاء به الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ الذي ذكرناه، وأنها نُسِبَتْ إلى رجلٍ من قومها.

وقوله: «﴿ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾»، يقول: ما كان أبوكِ رجلَ سوءٍ يأتي الفواحشَ. «﴿وَمَا كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾»، يقول: وما كانت أمكِ زانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذكره: فلما قال قومها ذلك لها قالت لهم ما أمرها عيسى بقِيلِهِ لهم، ثم أشارتْ لهم إلى عيسى أنْ كَلِّمُوه.

وقوله: « قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا»، يقولُ تعالى ذكره، قال قومها لها: كيف نُكَلِّمُ مَنْ وُجدَ في المهد؟ وكان في قوله: «مَنْ كانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا» معناها التمام، لا التي تقتضي الخبر، وذلك شبيه المعنى بكان التي في قوله: «هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَرًا رَسُولاً»، وإنما معنى ذلك: هل أنا إلا بَشَرٌ رسولٌ؟ وهل وجدت أو بعثت وقيل: إنه عنى بالمهد في هذا الموضع: حجر أمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما قال قوم مريم لها: «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ فِي المَهْدِ صَبِيًّا»، وظنوا أنَّ ذلك منها استهزاءٌ بهم، قال عيسى لهم متكلماً عن أمه: «إنّي عَبْدُ اللهِ آتانيَ الكِتاب» وكانوا حين أشارت لهم إلى عيسى فيما ذُكر عنهم غَضِبُوا.

وقوله: «وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»، وقد بيَّنتُ معنى النبيِّ واختلاف المختلفين فيه، والصحيح من القولِ فيه عندنا فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

وقـوله: «وَجَعَلَنِي مُباركاً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: وجعلني نفاعاً.

وقال آخرون: كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال آخرون: معنى ذلك: جعلني مُعَلِّمَ الخيرِ.

وقوله: «وأوْصَانِي بالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ»، يقول: وقضى أنْ يوصيني بالصلاةِ والزكاة، يعني المحافظة على حدودِ الصلاةِ وإقامتها على ما فرضها عليَّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أنْ يؤدِّيها. والآخر: تطهير الجسدِ من دَنَسِ الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بتركِ الذنوبِ واجتنابِ المعاصي.

وقوله: «مادُمْتُ حَيًّا»، يقول: ما كنتُ حياً في الدنيا موجوداً، وهذا يبينُ عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب، لأنَّ الذي يوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يَدَّخِرُ شيئاً لغدٍ، فتجبُ عليه زكاةُ المال، إلا أنْ تكونَ الزكاةُ التي كانت فرضت عليه الصدقة بكلِّ ما فضلَ عن قوتِهِ، فيكون ذلك وجهاً صحيحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذكره: مخبراً عن قِيلِ عيسى للقوم: وجعلني مباركاً وبرّاً: أي جعلني برّاً بوالدتي. والبَرُّ هو البارُّ، يقال: هو بَرٌّ بوالده، وبارٌّ به.

وقوله: «ولَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا»، يقول: ولم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به، ونهاني عنه شقياً، ولكن ذَلَّلني لطاعتِهِ، وجعلني متواضعاً.

وقوله: «والسَّلامُ عَليَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أمُوتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»، يقول: والأَمَنَةُ من الله عليَّ من الشيطانِ وجُنْدِه يومَ وُلِدْتُ أنْ ينالوا مني ما ينالون ممن يولدُ عند الولادةِ من الطعنِ فيه، ويومَ أموتُ من هولِ المطلع، ويوم أُبعثُ حياً يومَ القيامة أن ينالني الفزعُ الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوالَ ذلك اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي بيَّنتُ لكم صفته، وأخبرتكم خبره من أمرِ الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفةُ صِفَتُه، وهذا الخبرُ خبره، وهو «قَوْلَ الحَق» يعني أنَّ هذا الخبرَ الذي قَصَصْتُه عليكم قول الحقِّ[1]، والكلام الذي تلوتُه عليكم قول الله وخبره، لا خبر غيره الذي يقعُ فيه الوهمُ والشكُّ والزيادة والنقصان على ما كان يقول الله تعالى ذكره: فقولوا في عيسى أيها الناسُ، هذا القول الذي أخبركم اللهُ به عنه لا ما قالته اليهودُ الذين زعموا أنه لغير رِشْدَة، وأنه كان ساحراً كذّاباً، ولا ما قالته النصارى، من أنه كان للهِ ولداً، وأنَّ الله لم يتخذ ولداً، ولا ينبغي ذلك له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد كفر الذين قالوا: إنَّ عيسى ابن الله، وأعظموا الفِرْيةَ عليه، فما ينبغي لله أنْ يتخذ ولداً، ولا يصلح ذلك له ولا يكون، بل كلُّ شيء دونه فَخَلْقُه.

وقوله: «سُبْحانَهُ» يقول: تنزيهاً لله وتبرئةً له أنْ يكون له ما أضاف إليه الكافرون القائلونَ: عيسى ابن الله.

---

(١) إنما قال المؤلف ذلك لأن القراءة التي اختارها: «قولُ الحق» بالرفع، وهو مرفوع عنده بمضمر، وهو: هذا قولُ الحق، على الابتداء.

وقوله: «إِذَا قَضَى أَمْراً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»، يقول جل ثناؤه: إنما ابتدأ الله خَلْقَ عيسى ابتداء، وأنشأه إنشاءً، من غير فحلٍ افتحلَ أُمَّهُ، ولكنه قال له: «كُنْ فَيَكُونُ»، لأنه كذلك يبتدعُ الأشياءَ ويخترعها، إنما يقول: إذا قضى خَلْقَ شيءٍ أو إنشاءه: كُنْ فيكونُ موجوداً حادثاً، لا يَعْظُمُ عليه خَلْقُه، لأنه لا يخلقه بمعاناةٍ وكلفةٍ، ولا ينشئه بمعالجة وشدّة.

وقـوله: «وإنَّ اللهَ ربي وربُّكم فاعبدوه»، يقول: وإني وأنتم أيها القومُ جميعاً لله عبيدٌ، فإياه فاعبدوا دونَ غيره.

وقوله: «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقول: هذا الذي أوصيتُكُمْ به، وأخبرتكم أنَّ الله أمرني به هو الطريقُ المستقيم، الذي مَنْ سلكه نجا، ومَنْ ركبه اهتدى، لأنه دينُ الله الذي أمرَ به أنبياءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: فاختلف المختلفـونَ في عيسى، فصاروا أحزاباً متفرِّقينَ من بين قومه.

وقوله: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول: فوادي جهنم الذي يُدْعَى ويلاً للذين كفروا بالله، من الزاعمينَ أنَّ عيسى للهِ ولدٌ، وغيرهم من أهلِ الكفرِ به من شهودهم يوماً عظيماً شأنه، وذلك يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن حالِ الكافرين به، الجاعلينَ له أنداداً، والزاعمينَ أنَّ له ولداً يومَ ورُودِهم عليه في الآخرة، لئن كانوا في الدنيا عمياً عن إبصارِ الحقِّ، والنظرِ إلى حججِ الله التي تدلُّ على وحدانيته صُمّاً عن سماعِ آيِ كتابه، وما دعتهم إليه رسلُ الله فيها من الإقرارِ بتوحيده، وما بعث به أنبياءه، فما أَسْمَعَهُمْ يومَ قدومهم على رَبِّهم في الآخرة، وأَبْصَرَهُمْ يومئذٍ حين لا ينفعهمُ الإبصارُ والسماع.

وقوله: «لَكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» يقول تعالى ذِكْرُه: لكن الكافرون الذين أضافوا إليه ما ليسَ من صفته، وافتروا عليه الكذبَ اليومَ في الدنيا في ضلالٍ مبين: يقول: في ذهابٍ عن سبيل الحقِّ، وأخذٍ على غيرِ استقامة، مبين أنه جائر عن طريقِ الرشدِ والهدى لمن تأمله وفكَّرَ فيه فهدي لرشده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وأنذِرْ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ بالله يوم حسرتهم وندمهم، على مافرَّطُوا في جنبِ الله، وأورثت مساكنهم من الجنة أهلَ الإيمانِ بالله والطاعةِ له، وأدخلوا هم مساكن أهل الإيمان بالله من النار[1]،

(١) هذا التأويل مستند الى رواية عن عبدالله بن مسعود في قصة ذكرها يقول: ما من نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار، وهو يوم الحسرة، فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعده الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتم صالحاً كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة، فتأخذهم الحسرة، ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار، فيقال: لولا أن مَنّ الله عليكم.

وأيقن الفريقانِ بالخلودِ الدائم، والحياةِ التي لا موتَ بعدها، فيالها حسرةً وندامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: لا يَحْزُنْكَ تكذيبُ هؤلاء المشركين لك يا محمدُ فيما أتيتهم به من الحقِّ، فإنَّ إلينا مرجِعهم ومصيرهم ومصير جميعِ الخَلْقِ غيرهم، ونحن وارِثُو الأرض ومَنْ عليها من الناسِ بفنائِهم منها، وبقائِها لا مالكَ لها غيرنا، ثم علينا جزاءُ كُلِّ عاملٍ منهم بعمله، عند مرجعهِ إلينا، المحسن منهم بإحسانهِ، والمسيء بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: «وَاذْكُرْ» يا محمدُ في كتاب الله «إِبْرَاهِيمَ» خليل الـرحمن، فاقْصُصْ على هؤلاء المشـركين قَصَصَـهُ وقَصَصَ أبيه. «إِنَّـه كَانَ صِدِّيقاً»، يقول: كان من أهلِ الصدقِ في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب. «نَبِيًّا»، يقول: كان الله قد نَبَّأَهُ وأَوْحَى إليه.

وقوله: «إِذْ قالَ لأَبِيهِ»، يقول: اذكره حين قال لأبيه: «ياأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ»، يقول: ماتصنعُ بعبادةِ الوَثَنِ الذي لا يسمعُ «وَلا يُبْصِرُ» شيئاً «وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً»، يقول: ولا يدفعُ عنكَ ضُرَّ شيءٍ، إنما هو صورةٌ مصوَّرةٌ لا

تَضُرُّ ولا تنفعُ. يقول: ما تصنعُ بعبادةِ ماهذه صِفَتُه، اعبد الذي إذا دَعَوْتَهُ سمعَ دعاءَكَ، وإذا أُحِيطَ بك أبصرَكَ فنصرَكَ، وإذا نزلَ بك ضُرٌّ دفعَ عنك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لأبيه: ياأبتِ إني قد آتانيَ اللهُ من العلمِ ما لم يُؤْتِكَ فاتبعني: يقول: فاقبلْ مني نصيحتي. «أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا»، يقول: أبصرك هدى الطريقِ المستوي الذي لا تضلُّ فيه إنْ لزمته، وهو دينُ الله الذي لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان لله عاصياً، والعصيُّ هو ذو العصيان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾

يقول: ياأبتِ إني أعلمُ أنك إنْ متَّ على عبادةِ الشيطانِ أنه يمسك عذابٌ من عذابِ الله «فَتَكُونَ للشَّيْطانِ وَلِيًّا»، يقول: تكون له ولياً دونَ الله، ويتبرأ اللهُ منكَ، فتهلكَ، والخوفُ في هذا الموضع بمعنى العلم، كما الخشيةُ بمعنى العلم، في قوله: «فَخَشِينا أنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْرًا».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «قال» أبو إبراهيمَ لإبراهيمَ حين دعاهُ إبراهيمُ إلى عبادةِ الله وتركِ عبادةِ االشيطان، والبراءة من الأوثان والأصنام «أرَاغِبٌ أنْتَ» يا إبراهيم «عن» عبادة «آلهتِي ـ لَئِن» أنتَ «لَمْ تَنتَهِ» عن ذِكْرِهَا بسوءٍ «لأَرْجُمَنَّك»، يقول: لأرجمنكَ بالكلامِ وذلك السبّ، والقول القبيح.

وأما قوله: «وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: واهجرني حيناً طويلاً ودهراً. ووجَّهوا معنى المليِّ إلى المُلاوةِ من الزمان، وهو الطويلُ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لأبيه حين تَوَعَّدَهُ على نصيحتهِ إياهُ ودعائهِ إلى اللهِ بالقولِ السيىء والعقوبةِ: سلامٌ عليكَ ياأبتِ، يقول: أمنةً مني لكَ أنْ أُعـاودكَ فيمـا كرهتَ، ولـدعـائـك إليَّ ماتوعدتني عليه بالعقوبةِ، ولكني «سأسْتَغْفِرُ لَكَ رَبي»، يقول: ولكني سأسألُ ربي أنْ يسترَ عليكَ ذنوبكَ بعفوهِ إياكَ عن عقوبتكَ عليها. «إنَّهُ كانَ بي حَفِيًّا»، يقول: إنَّ ربي عَهِدْتُه بي لطيفاً يجيبُ دعائي إذا دعوته.

وقوله: «وأعْتَزِلُكُمْ ومَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقول: وأَجْتَنِبُكُمْ وما تَدْعُونَ من دون الله من الأوثانِ والأصنام «وأدْعُو رَبّي»، يقول: وأدعو ربي بإخلاصِ

العبادةِ له، وإفرادِه بالربوبية «عَسَى أنْ لا أكُونَ بِدُعاءِ رَبّي شَقِيًّا»، يقول: عسى أنْ لا أشقى بدعاءِ ربي، ولكنْ يجيبُ دعائي ويعطيني ما أسأله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما اعتزلَ إبراهيمُ قومه وعبادةَ ما كانوا يعبدونَ من دونِ الله من الأوثانِ آنسنا وَحْشَتَهُ من فراقهم، وأبدلناهُ منهم بمن هو خيرٌ منهم وأكرمُ على الله منهم، فوهبنا له ابنه إسحاقَ، وابنَ ابنهِ يعقوب بن إسحاق. «وكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا» يقول: وجعلناهم كلهم، يعني بالكلِّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أنبياء، وقال تعالى ذكره: «وكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا» فَوَحَّدَ ولم يقل أنبياءَ لتوحيدِ لفظِ كلٍّ. «وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رحمَتِنا»، يقول جلَّ ثناؤه: ورزقنا جميعَهم، يعني إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ من رحمتنا، وكان الذي وَهَبَ لهم من رحمته، ما بَسَطَ لهم في عاجل الدنيا من سَعَةِ رزقه، وأغناهم بفضله.

وقوله: «وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورزقناهم الثناءَ الحَسَنَ، والذِكْرَ الجميلَ من الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ في كتابنا الذي أنزلناهُ إليكَ موسى بن عمران واقصصْ على قومكَ أنه كان مخلصاً.

«وكانَ رَسُولاً»، يقول: وكان لله رسولاً إلى قومِهِ بني إسرائيل، ومن أرسله إليه نبياً.

القَوْلُ في تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذكره: وناديناه موسى من ناحيةِ الجبلِ، ويعني بالأيمنِ: يمينَ موسى، لأنَّ الجبلَ لا يمينَ له ولا شمال، وإنما ذلك كما يقال: قامَ عن يمينِ القبلةِ وعن شمالها.

وقوله: «وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا»، يقول تعالى ذكره: وأدنيناه مناجياً، كما يقال: فلانٌ نديمُ فلان ومنادِمُه وجليسُ فلان ومجالسه، وذُكر أنَّ الله جلّ ثناؤه أدناهُ حتى سمعَ صريفَ القلم.

وقوله: «وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أخاهُ هارُونَ»، يقول: ووهبنا لموسى رحمةً منا أخاهُ هارون «نَبِيًّا»، يقول: أيَّدناه بنبوَّتِهِ، وأعَنَّاهُ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ في هذا الكتاب إسماعيلَ بنَ إبراهيم، فاقصُص خبرَهُ إنه كان لا يكذبُ وعده ولا يخلف، ولكنه كان إذا وَعَدَ ربه، أو عبداً من عباده وعداً وفَّى به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ

﴿عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وكانَ يأْمُرُ أهْلَهُ بـ» إقامة «الصَّلاةِ و» إيتاء «الزَّكاةِ وكانَ عِنْدَ رَبهِ مَرْضِيًّا» عَمَلُه، محموداً فيما كَلَّفَهُ رَبُّه غيرَ مقصرٍ في طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكر يا محمدُ في كتابنا هذا إدريس «إنَّهُ كانَ صِدّيقاً» لا يقولُ الكذبَ، «نَبِيًّا» نُوحي إليه من أمرنا ما نشاءُ «وَرَفَعْناهُ مَكانا عَلِيًّا» ذكر أنَّ الله رفعه وهو حيٌّ إلى السماء الرابعةِ، فذلك معنى قوله: «وَرَفَعْناهُ مَكانا عَلِيًّا» يعني به إلى مكانٍ ذي علوٍ وارتفاع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ ۞

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: هؤلاء الذين اقتصصتُ عليكَ أنباءهم في هذه السورة يا محمدُ، الذينَ أنعمَ الله عليهم بتوفيقهِ، فهداهم لطريقِ الرشدِ من الأنبياءِ من ذريَّةِ آدمَ، ومن ذرِّيةِ مَنْ حملنـا مع نوحٍ في الفُلك، ومن ذرّيةِ إبراهيمَ خليلِ الرحمن، ومن ذرّيةِ إسرائيلَ، ومِمَّنْ هدينا للإيمانِ بالله والعملِ بطاعته واجتبينا: يقول: ومِمَّن اصطفينا واخترنا لرسالَتِنا ووَحْيِنا، فالذي عَنَى به من ذريةِ آدمَ إدريسَ، والذي عَنَى به من ذريةِ مَنْ حملنا مع نوحٍ إبراهيم،

والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرّية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه مريم، ولذلك فرق تعالى ذِكْرُه أنسابَهم وإنْ كان يجمعُ جميعَهُمْ آدمُ لأنَّ فيهم مَنْ ليس من ولدِ مَنْ كان مع نوحٍ في السفينة، وهو إدريسُ، وإدريس جَدُّ نوح.

وقوله تعالى ذِكْرُه: «إذَا تُتلى عَلَيهِمْ آياتُ الرَّحمنِ»، يقول: إذا تُتْلَى على هؤلاء الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيين أدلةُ الله وحججُهُ التي أنزلها عليهم في كتبه، خَرُّوا لله سُجَّداً، استكانةً له وتذللاً وخضوعاً لأمرِه وانقياداً، «وَبُكِيًّا»، يقول: خَرُّوا سُجَّداً وهم باكون، والبُكِيُّ: جمع بَاكٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فحدث من بعد هؤلاء الذين ذكرتُ من الأنبياءِ الذين أنعمتُ عليهم، ووصفتُ صِفَتَهُم في هذه السورة، خَلْفُ سُوءٍ خلفوهم في الأرض أضاعُوا الصلاةَ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في صفة إضاعتِهم الصلاةَ، فقال بعضهم: كانت إضاعَتَهُمُوها تأخيرهم إيَّاها عن مواقيتها، وتضييعهم أوقاتها.

وقال آخرون: بل كانت إضاعتهُمُوهَا: تركها.

وأولى التأويلين في ذلك عندي بتأويلِ الآية، قولُ مَنْ قال: إضاعتهموها تركهم إياها لدلالةِ قولِ الله تعالى ذِكْرُه بعده على أنَّ ذلك كذلك، وذلك قولُه جلَّ ثناؤه: «إلاَّ مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً» فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضَيَّعُوها مؤمنينَ لم يستثنِ منهم مَنْ آمنَ، وهم مؤمنون ولكنهم كانوا كفاراً لا يصلون لله، ولا يؤدُّونَ له فريضةً، فَسَقَةٌ قد آثروا شهواتِ أنفسِهم على طاعةِ

الله، وقد قيل: إنَّ الذين وصفهم اللهُ بهذه الصفةِ قومٌ من هذه الأمةِ يكونونَ في آخرِ الزمان.

وأما قوله: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا»، فإنه يعني أنَّ هؤلاء الخَلْفَ الذين خلفوا بعد أولئك الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيين سيدخلون غياً، وهم اسمُ وادٍ من أوديةِ جهنم، أو اسمُ بئرٍ من آبارها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: فسوف يَلْقى هؤلاءِ الخلفُ السوءُ الذين وَصَفَ صفتهم غياً، إلاَّ الذين تابوا فراجعوا أمرَ الله، والإيمانَ به وبرسوله. «وعَمِلَ صَالِحاً»، يقول: وأطاعَ اللهَ فيما أمرَهُ ونهاهُ عنه، وأدَّى فرائِضَهُ، واجتنبَ محارمه «فأُولَئِك يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ»، يقول: فإنَّ أولئكَ منهم خاصةً يدخلونَ الجنةَ دونَ مَنْ هلكَ منهم على كُفْرِهِ، وإضاعته الصلاةَ واتباعِهِ الشهوات.

وقوله: «وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً»، يقول: ولا يُبْخَسُونَ من جزاءِ أعمالهم شيئاً، ولا يجمع بينهم وبين الذين هلكوا من الخلف السوء منهم قبلَ توبتِهم من ضلالهم، وقبلَ إنابتهم إلى طاعةِ رَبِّهم في جهنمَ، ولكنهم يدخلون مدخلَ أهلِ الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأولئك يدخلون الجنةَ «جَنَّاتِ عَدْنٍ».

وقوله: «جَنَّاتِ عَدْنٍ» نصب ترجمة عن الجنة. ويعني بقوله: «جَنَّاتِ

عَدْنٍ»: بساتين إقامة.

وقوله: «التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبادَهُ بالغَيْبِ»، يقول: هذه الجناتُ هي الجناتُ التي وَعَدَ الرحمنُ عباده المؤمنينَ أنْ يدخلوها بالغيبِ، لأنهم لم يَرَوْهَا ولم يعاينوها، فهي غيبٌ لهم.

وقوله: «إنَّهُ كانَ وَعْدهُ مأتِيًّا»، يقول تعالى ذكره: إنَّ الله كان وَعْدُه، ووَعْدُهُ في هذا الموضع مَوْعُودُهُ، وهو الجنة مأتياً يأتيه أولياؤه وأهل طاعته الذين يُدْخِلُهُمُوها الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يسمع هؤلاء الذين يدخلون الجنةَ فيها لغواً، وهو الهَذْي والباطلُ من القولِ والكلام «إلَّا سَلَاماً» وهذا من الاستثناء المنقطع، ومعناه: ولكن يسمعون سلاماً، وهو تحيةُ الملائكةِ إياهم.

وقوله: «ولَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، يقول: ولهم طعامُهم وما يشتهونَ من المطاعمِ والمشاربِ في قدر وقتِ البُكرةِ ووقتِ العشيِّ من نهارِ أيامِ الدنيا، وإنما يعني أنَّ الذي بين غدائهم وعشائهم في الجنة قَدْر ما بينَ غداءِ أَحَدِنَا في الدنيا وعشائِهِ، وكذلك ما بينَ العشاء والغداء وذلك لأنه لا ليلَ في الجنة ولا نهار، وذلك كقوله: «خَلَقَ الأرْضَ في يومَيْنِ وخَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيَّام»، يعني به: من أيامِ الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذه الجنةُ التي وصفتُ لكم أيها الناسُ صِفَتَها، هي الجنةُ التي نورثها، يقول: نورث مساكن أهل النار فيها «مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا»، يقول: مَنْ كان ذا اتقاء عذابِ الله بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

ذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ من أجلِ استبطاءِ رسولِ الله ﷺ جبرائيلَ بالوحي.

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لَهُ ما بينَ أَيْدِينا ومَا خَلْفَنا ومَا بينَ ذلكَ»، فقال بعضهم: يعني بقوله: «ما بينَ أَيْدِينا» من الدنيا، وبقوله: «ومَا خَلْفَنا» الآخرة «ومَا بينَ ذلكَ» النفختين.

وقال آخرون: «ما بينَ أَيْدِينا» الآخرة «ومَا خَلْفَنا» الدنيا «ومَا بينَ ذلكَ» ما بين الدنيا والآخرة.

وقال آخرون: «ما بينَ أَيْدِينا» ما مضى أمامَنَا من الدنيا «ومَا خَلْفَنا» ما يكونُ بعدَنَا من الدنيا والآخرة «ومَا بينَ ذلكَ» قال: ما بينَ ما مَضَى أمامَهم، وبين ما يكونُ بعدَهم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: له ما بينَ أيدينا من أمرِ الآخرةِ، لأنَّ ذلك لم يجيْ وهو جاءٍ، فهو بينَ أيديهم، فإنَّ الأغلبَ في استعمالِ الناسِ إذا قالوا هذا الأمر بين يديك، أنهم يعنون به ما لم يجيء وأنه جاءٍ، فلذلك قلنا: ذلك أوْلى بالصواب: وما خَلْفَنا من أمر الدنيا، وذلك ما قد خلفوه فمضى، فصار خلفهم بتخليفهم إياه، وكذلك تقولُ العربُ لما قد

جاوزه المرء وخلفه هو خلفه، ووراءه وما بين ذلك: ما بين مالم يمضِ من أمرِ الدنيا إلى الآخرة، لأنَّ ذلك هو الذي بين ذينك الوقتين.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى التأويلاتِ به، لأنَّ ذلك هو الظاهر الأغلب، وإنما يُحْمَلُ تأويلُ القرآن على الأغلبِ معانيه، مالم يمنعْ من ذلك ما يجبُ التسليمُ له. فتأويل الكلام إذن: فلا تَسْتَبْطِئْنَا يا محمدُ في تَخَلُّفِنَا عنكَ، فإنا لا نتنزَّلُ من السماء إلى الأرض إلا بأمرِ ربكَ لنا بالنزولِ إليها، لله ماهو حادثٌ من أمورِ الآخرة التي لم تأتِ وهي آتيةٌ، وما قد مضى فخلفناه من أمرِ الدنيا، وما بينَ وقتنا هذا إلى قيامِ الساعة، بيدِهِ ذلكَ كُلُّه، وهو مالكُه ومصرِّفُه، لا يملك ذلك غيرُه، فليسَ لنا أنْ نحدث في سلطانه أمراً إلا بأمرِه إيانا به.

«وَمَا كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا»، يقول: ولم يكن رَبُّكَ ذا نسيانٍ، فيتأخر نزولي إليكَ بنسيانِه إياكَ بَلْ هو الذي لا يعزُبُ عنه شيءٌ في السماء ولا في الأرضِ تباركَ وتعالى، ولكنه أعلمُ بما يُدَبِّرُ ويقضي في خلقه. جلّ ثناؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: لم يَكُنْ رَبُّكَ يا محمدُ ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما نسياً، لأنه لو كان نسياً لم يستقمْ ذلك، ولهلكَ لولا حفظه إياه.

وقـولـه: «فـاعْبُـدْه»، يقول: فالزمْ طاعتَهُ، وذلَّ لأمرِه ونهيه: «وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ»، يقول: واصبرْ نفسك على النفوذِ لأمره ونهيه، والعملِ بطاعته، تَفُزْ برضـاهُ عنكَ، فإنه الإلهُ الذي لا مِثْلَ له ولا عدلَ ولا شبيهَ في جُودِه وكرمه وفضله. «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا»، يقول: هل تعلمُ يا محمدُ لربكَ هذا الذي أمرناكَ

بعبادته، والصبر على طاعته مثلاً في كرمه وجوده، فتعبده رجاءَ فَضْلِهِ وطَوْله دونه كَلَّا، ما ذلكَ بموجودٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: «ويقولُ الإنسانُ» الكافرُ الذي لا يصدقُ بالبعثِ بعد الموتِ أُخْرَجُ حياً، فأُبعث بعد المماتِ وبعد البلاءِ والفناءِ إنكاراً منه ذلك، يقول الله تعالى ذكره: «أوْ لا يذكرُ الإنسانُ» المُتَعَجِّبُ من ذلك المنكر قدرةَ الله على إحيائهِ بعد فنائهِ، وإيجادهِ بعد عَدَمِه في خَلْقِ نفسه، أنَّ الله خلقه من قبل مماته، فأنشأه بشراً سوياً من غير شيء «ولمْ يكُ» من قبلِ إنشائهِ إياه «شَيئاً» فيعتبر بذلك ويعلم أنَّ مَنْ أنشأه من غيرِ شيء لا يعجزُ عن إحيائهِ بعد مماتهِ، وإيجادِه بعد فنائه.

وقد اختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «أوَلا يَذْكُرُ الإنْسانُ» فقرأه بعض قَرَأةِ المدينة والكوفة: «أوَلا يَذْكُرُ» بتخفيفِ الذال، وقد قرأ ذلك عامةُ قَرَأةِ الكوفة والبصـرة والحجـاز «أوَلا يَذَّكَّرُ» بتشديد الذال والكاف، بمعنى: أولا يتذكر، والتشديدُ أعجبُ إليَّ، وإنْ كانتِ الأخرى جائزة، لأن معنى ذلك: أَوَ لا يتفكَّر فيعتبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فورَبِّكَ يا محمدُ لنحشرنَّ هؤلاء

القائلين: أئِذَا متنا لسوف نُخْرَجُ أحياء يومَ القيامة من قبورهم، مقرنينَ بأوليائِهم من الشياطين. «ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» والجثي: جمع الجاثي[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره، ثم لنأخذنّ من كلّ جماعة منهم أشدّهم على الله عتوّاً، وتمرّداً فلنبدأنّ بهم.

والشيعة هم الجماعةُ المتعاونون على الأمرِ من الأمورِ، يقال من ذلك: تشايعَ القومُ: إذا تعاونوا؛ ومنه قولُهم للرجلِ الشجاع: إنه لمشيع: أي مُعَانٌ، فمعنى الكلام: ثم لننزعنَّ من كلِّ جماعةٍ تشايعتْ على الكفرِ بالله، أشدّهم على الله عتوّاً، فلنبدأنَّ بإصلائـهِ جهنمَ، والتشايعُ في غير هذا الموضع: التفرُّقُ؛ ومنه قولُ الله عَزَّ ذِكْرُه: «وكانُوا شيَعاً»، يعني: فرقاً؛ ومنه قول ابن مسعود أو سعد؛ إني أكره أن آتي رسولَ الله ﷺ، فيقول: شيَّعتَ بين أمتي، بمعنى: فَرَّقْتَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم لنحنُ أعلمُ من هؤلاء الذين ننزعهم من كلِّ شيعةٍ أَوْلاهم بشدَّةِ العذاب، وأَحَقَّهُمْ بعظيمِ العقوبة.

---

(١) يعني: القعود، وهو مثل قوله: «وترى كل أمة جاثية»، أي: قاعدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإن منكم أيها الناسُ إلا واردُ جهنمَ، كان على رَبِّكَ يا محمدُ إيرادهُمُوها قضاءً مقضياً، قد قضى ذلك وأوجبه في أمِّ الكتاب.

واختلف أهلُ العلم في معنى الورود الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: الدخول.

وقال آخرون: بل هو المَرُّ عليها.

وقال آخرون: بل الورودُ: هو الدخولُ، ولكنه عَنَى الكفارَ دونَ المؤمنين.

وقال آخرون: بل الورودُ عامٌّ لكلِّ مؤمنٍ وكافر، غيرَ أنَّ ورودَ المؤمنِ المرورُ، وورودَ الكافر الدخولُ.

وقال آخرون: ورودُ المؤمنِ ما يصيبُه في الدنيا من حُمَّى ومرض.

وقال آخرون: يَرِدُها الجميعُ، ثم يصدرُ عنها المؤمنونَ بأعمالِهم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: يردها الجميعُ ثم يصدرُ عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفارُ. ووُرُودهُمُوها هُوَ ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ من مرورِهم على الصراطِ المنصوبِ على متنِ جهنمَ، فناجٍ مُسْلِمٌ ومُكَدَّسٌ فيها[1].

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد: ٢٦/٣، وابن حبان (٧٣٧٩) وإسناده صحيح. وحديث عائشة عند مسلم (٢٧٩١)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجة (٤٢٧٩)، وابن حبان (٧٣٨٠)، وغيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثمَّ نُنَجِّي» من النارِ بعد ورودِ جميعِهم إياها «الذينَ اتَّقَوْا» فخافوه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه «وَنَذَرُ الظَّالِمينَ فِيها جِثِيًّا»، يقول جلّ ثناؤه: ونَدَعُ الذين ظلموا أنفسهم فعبدوا غيرَ الله وعَصَوْا ربَّهم، وخالفوا أمره ونهيه في النار جثياً، يقول: بُرُوكاً على رُكَبِهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإذَا تتلى» على الناسِ «آياتُنا» التي أنزلناها على رسولنا محمدٍ «بيِّناتٍ» يعني واضحاتٍ لمن تأمَّلها وفكَّرَ فيها أنها أدلة على ما جعلها اللهُ أدلةً عليه لعباده «قال الذينَ كفروا» بالله وبكتابه وبآياته وهم قريش «للذينَ آمنُوا» فصدَّقُوا به وهم أصحابُ محمد «أيُّ الفريقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً» يَعْني بالمقام: موضع إقامتهم، وهي مساكنهم ومنازلهم «وأحْسَنُ نَدِيًّا» وهو المجلسُ، يقال منه: ندوتُ القومَ أَنْدُوهُمْ ندواً: إذا جمعتهم في مجلس، ويقال: هو في نديِّ قومه وفي ناديهم بمعنى واحد.

وتأويلُ الكلام: وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّناتٍ، قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقين مِنَّا ومنكم أوسعُ عيشاً، وأنعم بالاً، وأفضلُ مسكناً وأحسن مجلساً وأجمع عدداً، وغاشيةً في المجلس، نحنُ أم أنتم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكم أهلكنا يا محمدُ قبل هؤلاء القائلينَ من أهلِ الكفرِ للمؤمنينَ، إذا تُتلى عليهم آياتُ الرحمن، أيّ الفريقين خيرٌ مقاماً، وأحسنُ نَدِيّاً، مجالس من قَرْنٍ هُمْ أكثر متاع منازل من هؤلاء، وأحسنُ منهم منظراً وأجملُ صوراً، فأهلكنا أموالَهم، وغَيَّرْنَا صُوَرَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربهم، القائلينَ: إذا تُتْلَى عليهم آياتُنا، أيُّ الفريقين منا ومنكم خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً، مَنْ كان منا ومنكم في الضلالة جائراً عن طريق الحقِّ، سالكاً غيرَ سبيلِ الهدى، فليمدُدْ له الرحمنُ مَدّاً: يقول: فليطوِّلْ له الله في ضلالته، وليمله فيها إملاء.

وقوله: «حتى إذَا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إمَّا العَذَابَ وإمَّا السَّاعَةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ لهم: من كان منا ومنكم في الضلالةِ، فليمدُدْ له الرحمنُ في ضلالته إلى أنْ يأتيهم أمرُ الله، إما عذاب عاجلٌ، أو يلقوا ربهم عند قيامِ الساعةِ التي وعد الله خَلْقَهُ أنْ يجمعهم لها، فإنهم إذا أتاهم وَعْدُ الله بأحدِ هذين الأمرين «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً» ومسكناً منكم ومنهم «وأضْعَفُ جُنْداً» أَهُمْ أم أنتم؟ ويتبينون حينئذٍ أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً، وأحسنُ ندياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويَزِيدُ اللهُ مَنْ سلكَ قصدَ المحجةِ، واهتدى لسبيلِ الرشد، فآمنَ بربه، وصدَّقَ بآياتهِ، فعملَ بما أَمَرَهُ به، وانتهى عما نَهاهُ عنه هدى بما يتجدَّدُ له من الإيمانِ بالفرائضِ التي يفرضها عليه، ويقرّ بلزومِ فرضها إياه، ويعمل بها، فذلك زيادةٌ من الله في اهتدائه بآياته هُدىً على هُداهُ، وذلك نظيرُ قوله: «وإذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيماناً، فأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمَانا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

«وَالباقِياتُ الصّالحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً» يقول تعالى ذِكْرُه: والأعمالُ التي أمرَ الله بها عباده ورَضِيَها منهم، الباقياتُ لهم غيرُ الفانياتِ الصالحات، خيرٌ عند ربكَ جزاءً لأهلها «وَخَيْرٌ مَرَدًّا» عليهم من مقاماتِ هؤلاء المشركينَ بالله، وأنديتهم التي يفتخرونَ بها على أهلِ الإيمان في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «أفرأيْتَ» يا محمدُ «الَّذي كَفَرَ بآياتِنا» حججنا فلم يصدِّقْ بها، وأنكرَ وعيدَنا من أهلِ الكفر «وقَالَ» وهو بالله كافرٌ وبرسولِهِ «لأُوتَينَّ» في الآخرة «مالاً وَوَلَداً»، وذُكر أنَّ هذه الآيات أنزلتْ في العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص.

وقوله: «أطَّلَعَ الغَيْبَ»، يقول عزَّ ذِكْرُه: أَعَلِمَ هذا القائلُ هذا القولَ عِلْمَ الغيبِ، فعلم أنَّ له في الآخرةِ مالاً وولداً باطلاعه على علمِ ما غابَ عنه.

«أم اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً»، يقول: أم آمن بالله وعملَ بما أمرَ به، وانتهى عما نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهداً أن يؤتيه ما يقولُ من المالِ والولد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: كلا ليسَ الأمرُ كذلك، ما اطلعَ الغيبَ، فَعَلِمَ صِدْقَ ما يقولُ، وحقيقة ما يذكر، ولا اتَّخَذَ عند الرحمنِ عهداً بالإيمانِ بالله ورسوله، والعمل بطاعته، بل كَذَّبَ وكفر، ثم قال تعالى ذكره: «سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ»: أي سنكتبُ ما يقولُ هذا الكافرُ بربه، القائلُ: «لَأُوتَيَنَّ» في الآخرة «مالاً وَوَلَداً ونَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مِدّاً»، يقول: ونزيدُهُ من العذابِ في جهنم بقيلِهِ الكذبَ والباطلَ في الدنيا، زيادةً على عذابِهِ بكفرِه بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واتَّخَذَ، يا محمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومِكَ آلهةً يعبدونها من دونِ الله لتكونَ هؤلاء الآلهةُ لهم عِزّاً، يمنعونهم من عذابِ الله، ويتخذون عبادَتَهُمُوها عند الله زُلْفى.

وقوله: «كَلّا»، يقول عز ذكره: ليس الأمرُ كما ظَنُّوا وأمَّلُوا من هذه الآلهةِ التي يعبدونها من دونِ الله في أنها تنقذهم من عذابِ الله، وتُنَجِّيهم منه، ومن سوءٍ إنْ أراده بهم رَبُّهم.

وقوله: «سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ»، يقول عَزَّ ذكره: ولكن سيكفرُ الآلهةُ في الآخـرةِ بعبادةِ هؤلاء المشركينَ يومَ القيامةِ إيَّاها، وكفرهم بها قِيلهم لربِّهم:

تَبَرَّأْنَا إليكَ ما كانُوا إيَّانا يعبدون، فَجَحَدُوا أنْ يكونوا عَبَدُوهم أو أمروهم بذلك، وتبرّءُوا منهم، وذلك كفرهم بعبادتهم.

وأما قوله: «وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّا» فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: وتكون آلهتُهم عليهم عوناً، وقالوا: الضدُّ: العونُ.

وقال آخرون: بل عنى بالضدِّ في هذا الموضع: القُرَناء.

وقال آخرون: معنى الضدّ ههنا: العدوُّ.

وقال آخرون: معنى الضدّ في هذا الموضع: البلاء.

والضدّ في كلام العرب: هو الخلافُ، يقال: فلان يضادُّ فلاناً في كذا، إذا كان يخالفُه في صنيعه، فيفسد ما أصلحه، ويصلح ما أفسده، وإذْ كان ذلك معناه، وكانت آلهةُ هؤلاءِ المشركينَ الذين ذكرهم اللهُ في هذا الموضع يتبرَءونَ منهم، وينتفون يومئذٍ، صاروا لهم أضداداً، فوُصِفُوا بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمدُ أنَّا أرسلنا الشياطينَ على أهلِ الكفرِ بالله «تَؤُزُّهُمْ»، يقول: تُحَرِّكُهم بالإغواءِ والإضلالَ، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتُغريهم بها حتى يواقعوها «أَزّاً» إزعاجاً وإغواء.

وقوله: «فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: فلا تعجلْ على هؤلاء الكافرينَ بطلبِ العذابِ لهم والهلاك، يا محمدُ «إنما نَعُدُّ لهم عَدّاً»، يقول: فإنما نُؤَخِّرُ إهلاكَهم ليزدادوا إثماً، ونحن نعدُّ أعمالَهم كلها ونحصيها حتى أنفاسهم لنجازِيهم على جميعِهَا، ولم نتركْ تعجيلَ هلاكهم لخيرٍ أردناه بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يومَ نجمعُ الذين اتقوا في الدنيا فخافوا عقابه، فاجتنبوا لذلك معاصيه، وأدَّوا فرائضه إلى ربهم «وفْداً»، يعني بالوفد: الرُّكْبَان، يقال: وفدتُ على فلان: إذا قدمت عليه، وأوفد القومُ وفداً على أميرهم، إذا بعثوا من قبلهم بعثاً. والوفدُ في هذا الموضع بمعنى الجمع، ولكنه وحّد، لأنه مصدر واحدهم وافد، وقد يجمع الوفد: الوفود.

وقوله: «وَنَسُوقُ المُجْرِمينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ونسوقُ الكافرينَ باللهِ الذين أجرموا إلى جهنمَ عِطاشاً. والوِرْدُ: مصدرٌ من قولِ القائلِ: وردت كذا أرِده ورداً، ولذلك لم يجمع، وقد وصف به الجمع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يملكُ هؤلاء الكافرونَ بربهم يا محمدُ، يومَ يحشرُ اللهُ المتقينَ إليه وفداً، الشفاعةَ حين يشفعُ أهلُ الإيمان بعضهم لبعضٍ عندَ اللهِ، فيشفعُ بعضُهم لبعضٍ «إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ» منهم «عِنْدَ الرَّحْمَنِ» في الدنيا «عَهْداً» بالإيمانِ به، وتصديقِ رسولِه، والإقرارِ بما جاء به، والعملِ بما أمرَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء الكافرون بالله: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدّاً» يقول تعالى ذِكْرُه للقائلينَ ذلك من خَلْقِه: لقد جئتم أيها الناسُ شيئاً عظيماً من القولِ مُنْكراً.

وقوله: «تَكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تكادُ السمواتُ يتشقَّقْنَ قطعاً من قِيلهم: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً»، ومنه قيل: فَطَرَ نَابُه: إذا انشقَّ.

وقوله: «وَتَنْشَقُّ الأرْضُ»، يقول: وتكادُ الأرضُ تنشقُّ، فتنصدعُ من ذلك: «وتَخِرُّ الجِبالُ هَدّاً»، يقول: وتكادُ الجبالُ يسقطُ بعضُها على بعضٍ سقوطاً، والهدُّ: السقوط، وهو مصدر هددت، فأنا أهدُّ هدّاً.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتكادُ الجبالُ أنْ تخرَّ انقضاضاً، لأنْ دَعَوْا للرحمنِ ولداً.

وقوله: «ومَا يَنْبَغِي للرَّحْمَنِ أنْ يَتخِذَ وَلَداً»، يقول: وما يصلح لله أنْ يَتَّخِذَ ولداً، لأنه ليس كالخلقِ الذين تغلبهم الشهواتُ، وتضطرُّهُم اللذّاتُ إلى جماعِ الإناثِ، ولا وَلَدَ يحدثُ إلا من أنثى، والله يتعالى عن أنْ يكونَ كخلْقِهِ.

«إنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأرْضِ إلاَّ آتي الرَّحْمَنِ عَبْدًا»، يقول: ما جميع من في السموات من الملائكة، وفي الأرض من البشرِ والإنسِ والجنِّ «إلاَّ آتي الرَّحْمَنِ عَبْدًا»، يقول: إلا يأتي رَبَّهُ يومَ القيامة عبداً له، ذليلاً خاضعاً، مُقِرّاً له بالعبوديةِ، لا نسبَ بينه وبينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد أحصى الرحمنُ خَلْقَهُ كلهم، وعَدَّهُمْ عَدّاً، فلا يَخْفَى عليه مبلغُ جميعِهم، وعرف عددهم، فلا يعزبُ عنه منهم أحد «وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْدًا»، يقول: وجميع خلقه سوف يَرِدُ عليه يومَ تقومُ الساعةُ وحيداً لا ناصرَ له من الله، ولا دافعَ عنه، فيقضي الله فيه ماهو قاضٍ، ويصنعُ به ماهو صانع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين آمنوا بالله ورسله، وصَدَّقُوا بما جاءهم من عند رَبِّهم، فَعَمِلُوا به، فأَحَلُّوا حلاله، وحَرَّمُوا حرامه «سيجعلُ لهمُ الرحمنُ وِدًا» في الدنيا، في صدور عباده المؤمنين.

وقوله: «فإنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذكره: فإنما يسَّرنا يا محمدُ هذا القرآنَ بلسانكَ، تَقْرَؤُهُ لتبشِّرَ به المتقينَ الذين اتقوا عقابَ الله بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه بالجنةِ. «وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْما لُدّاً»، يقول: ولتنذرَ بهذا القرآنِ عذابَ الله قومكَ من قريش، فإنهم أهلُ لَدَدٍ وجَدَلٍ بالباطلِ، لا يقبلونَ الحقَّ، واللدّ: شِدَّةُ الخصومة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ

﴿مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكثيراً أهلكنا يا محمدُ قبلَ قومكَ من مشركي قريش من قَرْنٍ، يعني من جماعةٍ من الناسِ، إذْ سلكوا في خلافي وركوب معاصي مَسْلَكهُمْ، «هَلْ تُحِسُّ منهم من أحدٍ»، يقول: فهل تحسُّ أنتَ منهم أحداً يا محمد، فتراه وتعاينه «أوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا»، يقول: أو تسمع لهم صوتاً، بل بادوا وهلكوا، وخَلَتْ منهم دُورُهُم وأوحشتْ منهم منازلهم، وصاروا إلى دارٍ لا ينفعهم فيها إلا صالحٌ من عملٍ قَدَّمُوه، فكذلك قومُكَ هؤلاء، صائرونَ إلى ما صار إليه أولئك، إنْ لم يُعاجِلُوا التوبةَ قبل الهلاك.



بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «طَهَ» فقال بعضهم: معناه يارجل.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماء الله، وقَسَمٌ أقسمَ اللهُ به.

وقال آخرون: هو حروف هجاء.

وقال آخرون: هو حروفٌ مقطعة يدلُّ كُلُّ حرفٍ منها على معنى، واختلفوا في ذلك اختلافهم في الٓمٓ، وقد ذكرنا ذلك في مواضعه.

والذي هو أَوْلى بالصوابِ عندي من الأقوالِ فيه قولُ مَنْ قال: معناه: يارجل، لأنها كلمةٌ معروفة في عكٍّ[1] فيما بلغني، وأنَّ معناها فيهم: يارجل.

فتأويلُ الكلام إذن: يا رجل ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتشقى، ما أنزلناهُ فنكلفك ما لا طاقة لك به من العمل، وذُكر أنه قيل له ذلك بسبب ما من النَّصَب والعناء والسهر في قيام الليل.

«إلّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما أنزلنا عليكَ هذا

القرآنَ إلا تذكرةً لمن يخشى عقابَ الله، فيتقيه بأداءِ فرائضِ رَبِّه واجتنابِ محارمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: هذا القرآنُ تنزيلٌ من الربِّ الذي خلق الأرضَ والسموات العُلَى. والعُلَى: جمع عليا.

وقوله: «الرَّحْمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: الرحمنُ على عرشِهِ ارتفعَ وعَلاَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لله ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما، وما تحتَ الثرى، ملكاً له، وهو مُدَبِّرُ ذلك كله، ومصرِّفُ جميعه. ويعني بالثرى: الندى، يقالُ للترابِ الرطبِ المبتلِّ: ثرى منقوص، يقال منه: ثريت الأرض تثرى، ثرى منقوص، والثرى: مصدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ تجهرْ يا محمدُ بالقولِ، أو تخفِ به، فسواءٌ عند ربك الذي له ما في السموات وما في الأرض. «فإنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ»، يقول: فإنه

لا يَخْفَى عليه ما استسررتَهُ في نفسك، فلم تُبْدِه بجوارحك ولم تتكلم بلسانك، ولم تنطق به «وأخفى».

ثم اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: «وأخْفَى» فقال بعضهم: معناه: وأَخْفَى من السرِّ، قال: والذي هو أخفى من السرِّ ما حدَّث به المرءُ نفسَهُ ولم يعمله.

وقال آخرون: بل معناه: وأخفى من السرِّ ما لم تُحدِّثْ به نفسَكَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنه يعلم سرَّ العبادِ، وأَخْفَى سِرَّ نفسِه، فلم يطلعْ عليه أحداً.

والصوابُ من القول في معنى أخفى من السرِّ أنْ يقال: هو ما عَلِمَ اللهُ مما أخْفَى عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائنٌ ولما يكن، لأنَّ ما ظهرَ وكان فغيرُ سرٍ، وأنَّ ما لم يكن وهو غيرُ كائنٍ فلا شيء، وأنَّ ما لم يكن وهو كائنٌ فهو أخفى من السرِّ، لأن ذلك لا يعلمهُ إلا الله، ثم مَنْ أعلمَهُ ذلكَ من عبادِه.

وأما قوله تعالى ذِكْرُه: «اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ» فإنه يعني به: المعبود الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، يقول: فإياهُ فاعبدوا أيها الناسُ دونَ ماسواه من الآلهةِ والأوثانِ. «لَهُ الأسْماءُ الحُسْنَى»، يقول جلّ ثناؤه: لمعبودكم أيها الناسُ الأسماء الحُسْنَى، فقال: الحسنى، فوحَّدَ، وهو نَعْتٌ للأسماء، ولم يقل الأحاسن، لأنَّ الأسماءَ تقعُ عليها هذه، فيقال: هذه أسماء، وهذه في لفظة واحدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ مُسَلِّيه عما يَلْقى من الشدَّةِ من مشركي قومه، ومُعَرِّفُه ما إليه صائرٌ أمرُه وأمرهم، وأنه مُعَلِّيه عليهم، ومُوهِنُ كيدِ الكافرين، ويحثه على الجدِّ في أمره، والصبر على عبادته، وأنْ يتذكر فيما ينوبهُ فيه من أعدائهِ من مُشركي قومه وغيرهم، وفيما يزاولُ من الاجتهادِ في طاعته ما نابَ أخاهُ موسى صلواتُ الله عليه من عدوِّهِ، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل وما لقي فيه من البلاءِ والشدَّةِ طفلاً صغيراً، ثم يافعاً مترعرعاً، ثم رجلاً كاملاً. «وَهَل أتاكَ» يا محمدُ «حَدِيثُ مُوسَى» ابن عمران «إذْ رأى ناراً» ذكر أنَّ ذلك كان في الشتاء ليلاً، وأنَّ موسى كان أضلَّ الطريقَ؛ فلما رأى ضوء النارِ «قالَ لأهْلِهِ» ما قالَ.

وقوله: «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بقبسٍ» يقول: لعلي أجيئُكُمْ من النار التي آنستُ بشُعْلةٍ. والقَبَس: هو النار في طَرَف العود أو القصبة، يقول القائل لصاحبه: أقبسني ناراً، فيعطيه إياها في طرف عودٍ أو قصبة. وإنما أرادَ موسى بقوله لأهله «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بقَبَسٍ» لعلِّي آتيكم بذلك لتصطَلُوا به.

وقوله: «أوْ أجِدُ عَلى النَّارِ هُدًى» دلالة تدلُّ على الطريقِ الذي أضللناه، إما من خبرٍ هادٍ يهدينا إليه، وإما من بيانٍ وعلمٍ نَتَبَيَّنُهُ به ونعرفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أتى النارَ موسى ناداه رَبُّه: «يا مُوسَى إنِّي أنا رَبُّك فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ».

واختلف أهلُ العلم في السبب الذي من أجله أمرَ الله موسى بخلعِ نعليه، فقال بعضهم: أمره بذلك، لأنهما كانتا من جلدِ حمارٍ ميت، فكره أنْ

يَطَأَ بهما الوادي المقدّس، وأرادَ أنْ يمسه من بركةِ الوادي.

وقال آخرون: كانتا من جلدِ بقرٍ، ولكن الله أراد أن يطأ موسى الأرضَ بقدميه، ليصلَ إليه بركتها.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ من قال: أمره الله تعالى ذكره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدساً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالصوابِ، لأنه لا دلالةَ في ظاهر التنزيلِ على أنه أُمِرَ بخلعهما من أجل أنهما من جلدِ حمار ولا لنجاستهما، ولا خبرَ بذلك عَمَّنْ يلزمُ بقولِه الحجة، وإن في قوله: «إنَّكَ بالوَادِ المُقَدَّسِ» بعقبه دليلاً واضحاً، على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا.

و«طُوىً»، هو عندي اسمُ الوادي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ١٤﴾

اختلفت القَـرَأة في قراءة ذلـك، فقـرأته عامة القَرَأة الذين قرءوا «وأنَّا» بتشـديد النون، و«أنا» بفتح الألف من «أنا» ردّاً على: نودي يا موسى، كأن معنى الكلام عندهم: نودي يا موسى إني أنا ربك، وأنا اخترتك، وبهذه القراءة قرأ ذلك عامَّةُ قرأة الكوفة. وأما عامة قرأة المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة فقرءوه: «وأنا اخْتَرْتُكَ» بتخفيفِ النون على وجه الخبرِ من اللهِ عن نفسهِ أنه اختاره.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما قرأةُ أهلِ العلم بالقرآن، مع اتفاق معنييهما، فبأيتهما قرأ القارئ

فمصيبٌ الصوابَ فيه. وتأويلُ الكلام: نودي أَنَّا اخترناكَ، فاجتبيناكَ لرسالتنا إلى مَنْ نرسلك إليه. «فاسْتَمِعْ إلى ما يُوحَى»، يقول: فاستمع لوحينا الذي نوحيه إليك وَعِهِ[1]، واعملْ به «إنَّنِي أنا اللهُ» يقول تعالى ذِكْرُه: إنني أنا المعبودُ الذي لا تصلح العبادةُ إلا له، لا إلَهَ إلاَّ أنا فلا تعبد غيري، فإنه لا معبودَ تجوزُ أو تصلحُ له العبادةُ سوايَ. «فاعْبُدْنِي» يقول: فأخلص العبادةَ لي دونَ كلِّ ما عُبِدَ من دوني.

«وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي». واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك: أقمِ الصلاةَ لي فإنك إذا أقمتها ذكرتني. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأقم الصلاة حين تذكرها.

وأولى التأويلين في ذلك بالصوابِ تأويل مَنْ قال: معناه: أقم الصلاة لتذكرني فيها، لأنَّ ذلك أظهر مَعْنَيَيْهِ؛ ولو كان معناه: حين تذكرها، لكان التنزيل: أقمِ الصلاةَ لِذِكْرِهَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الساعةَ التي يبعثُ الله فيها الخلائقَ من قبورهم لموقفِ القيامة جائية. «أكادُ أُخْفِيها» فعلى ضمِّ الألف من أخفيها قراءة جميع قرّاء أمصارِ الإسلام، بمعنى: أكادُ أُخفيها من نفسي، لئلا يطلعَ عليها أحدٌ، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم.

---

(١) من الوعي.

فإن قال قائل: ولم وجهتَ تأويلَ قوله: «أكادُ أُخْفِيها» بضم الألف إلى معنى: أكـادُ أُخفيها من نفسي، دون توجيهه إلى معنى: أكادُ أُظهرها، وقد علمتَ أنَّ للإخفاء في كلام العرب وجهين: أحدهما الإظهار، والآخر الكتمان؛ وأنَّ الإظهارَ في هذا الموضع أشبه بمعنى الكلام، إذ كان الإخفاء من نفسه يكاد عند السامعين أن يستحيلَ معناه، إذْ كان محالاً أنْ يخفيَ أحدٌ عن نفسه شيئاً هو به عالم، والله تعالى ذكره لا يخفى عليه خافيةٌ؟ قيل: الأمرُ في ذلك بخلافِ ماظننتَ، وإنما وجَّهنا معنى «أُخْفِيها» بضمِّ الألف إلى معنى: أسترها من نفسي، لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب: الستر، يقال: قد أخفيت الشيء: إذا سترته.

وأما وجه صحةِ القولِ في ذلك، فهو أن الله تعالى ذِكْرُه خاطبَ بالقرآنِ العربَ على ما يعرفونَهُ من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم؛ فلما كان معروفاً في كلامهم أنْ يقولَ أحدهم إذا أراد المبالغةَ في الخبر عن إخفائه شيئاً هو له مُسِرٌّ: قد كدت أنْ أُخفي هذاالأمرَ عن نفسي من شدّة استسراري به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيتُه، خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك من الكلامِ بينهم، وما قد عرفوه في منطقهم، وقد قيل في ذلك أقوال غير ما قلنا. وإنما اخترنا هذا القولَ على غيرِهِ من الأقوالِ لموافقةِ أقوالِ أهلِ العلم من الصحابةِ والتابعين، إذْ كنا لا نستجيزُ الخلافَ عليهم، فيما استفاضَ القولُ به منهم، وجاء عنهم مجيئاً يقطعُ العذر.

وقوله: «لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الساعةَ آتيةٌ لتُجزى كلُّ نفس: يقول: لتثابَ كلُّ نفسٍ امتحنها رَبُّها بالعبادةِ في الدنيا بما تسعى: يقول: بما تعملُ من خيرٍ وشرٍّ، وطاعة ومعصية.

وقوله: «فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْها»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا يَرُدَّنكَ يا موسى عن التأهُّبِ للساعةِ، مَنْ لا يؤمنُ بها، يعني: مَنْ لا يقرُّ بقيامِ الساعة، ولا يصدِّقُ

بالبعثِ بعد الممات، ولا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً.

وقوله: «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»، يقول: اتبع هوى نفسه، وخالفَ أمرَ الله ونهيه. «فَتَرْدَى»، يقول: فتهلك إنْ أنتَ انصددتَ عن التأهُّبِ للساعةِ، وعن الإيمانِ بها، وبأنَّ الله باعثُ الخلقِ لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدِّ مَنْ كفر بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما هذه التي في يمينك يا موسى؟

ولعلّ قائلاً أنْ يقول: وما وجهُ استخبارِ الله موسى عما في يده؟ ألم يكن عالماً بأنَّ الذي في يده عصا؟ قيل له: إنَّ ذلك على غيرِ الذي ذهبتَ إليه، وإنما قال ذلك عزَّ ذِكْرُه له إذا أراد أنْ يُحَوِّلَها حيةً تسعى، وهي خشبة، فَنَبَّهَهُ عليها، وقَرَّرَهُ بأنها خشبة يتوكأُ عليها، ويهشُّ بها على غنمه، ليعرِّفَهُ قُدْرَتَهُ على ما يشاء، وعِظَمَ سُلطانهِ، ونفاذَ أمرهِ فيما أحبَّ بتحويله إياها حيَّةً تسعى، إذا أراد ذلك به ليجعل ذلك لموسى آيةً مع سائرِ آياتهِ إلى فرعون وقومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن موسى: قال موسى مجيباً لربه: «هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْها وأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي»، يقول أضربُ بها الشجرَ اليابسَ فيسقط ورقها وترعاهُ غنمي. يقال منه: هَشَّ فلانٌ الشجر يهشُّ هشاً: إذا اختبط ورقَ أغصانها فسقط ورقها.

وقوله: «ولي فيها مآرِبُ أُخْرَى»، يقول: ولي في عصايَ هذه حوائجُ

أخرى، وهي جمع مأربة، وفيها للعربِ لغاتٌ ثلاث: مأرُبة بضم الراء، ومأرَبة بفتحها، ومأرِبة بكسرها، وهي مفعلة من قولهم: لا أرب لي في هذا الأمر: أي لا حاجة لي فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لموسى: ألقِ عصاكَ التي بيمينك يا موسى، يقولُ الله جل جلاله: فألقاها موسى، فجعلها اللهُ حيةً تسعى، وكانت قبل ذلك خشبةً يابسة، وعصاً يتوكأُ عليها ويهشُّ بها على غنمه، فصارت حيةً بأمر الله.

وقوله: «قالَ خُذْها وَلا تَخفْ»، يقول تعالى ذِكْرُه قال الله لموسى: خُذِ الحيةَ، والهاء والألف من ذكر الحية. «وَلَا تَخَفْ»، يقول: ولا تخف من هذه الحيةِ. «سَنُعِيدُهـا سِيرَتهـا الأُولى»، يقول: فإنَّا سنعيدها لهيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أنْ نُصَيِّرَهَا حية، ونردَّها عصاً كما كانت. يقال لكل مَنْ كان على أمرٍ فتركه، وتحوَّلَ عنه ثم راجعه: عاد فلانٌ سيرتَهُ الأولى، وعاد لسيرتهِ الأولى، وعاد إلى سيرته الأولى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: واضمُمْ يا موسى يدكَ، فضعهـا تحتَ عَضُـدِكَ، والجناحانِ هما اليدان.

وقوله: «تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ» ذكر أنَّ موسى عليه السلام كان رجلاً آدم، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاءَ من غيرِ سوءٍ، من غير بَرَصٍ، مثل الثلجِ، ثم ردَّها، فخرجتْ كما كانت على لونه.

وقوله: «آيَةً أُخْرَى» يقول: وهذه علامةٌ ودلالةٌ أخرى غير الآية التي أريناكَ قبلها من تحويلِ العصا حيةً تسعى على حقيقةِ ما بعثناكَ به من الرسالةِ لمن بعثناكَ إليه.

وقوله: «لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنا الكُبْرَى»، يقول تعالى ذكره: واضمم يدك يا موسى إلى جناحك، تخرج بيضاءَ من غير سوءٍ، كي نريكَ من أدلتنا الكبرى على عظيمِ سلطاننا وقُدرتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه موسى صلوات الله عليه: «اذْهَبْ» يا موسى «إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى»، يقول: إنه تجاوزَ قَدْرَهُ، وتمرَّدَ على ربه: وقد بيَّنا معنى الطغيان فيما مضى بما أغنى عن إعادته، في هذا الموضع، وفي الكلام محذوف استغنى بفهمِ السامع بما ذكر منه، وهو قوله: «اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى» فادْعُهُ إلى توحيدِ الله وطاعته، وإرسالِ بني إسرائيل معكَ. «قالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْرِي»، يقول: ربِّ اشرحْ لي صدري، لأَعِي عنكَ ماتُودِعُه من وحيكَ، وأجترىء به على خطابِ فرعون. «وَيَسِّرْ لي أمْرِي»، يقول: وسَهِّلْ عليَّ القيامَ بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة.

وقوله: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي»، يقول: وأطلقْ لساني بالمنطق، وكانت فيه فيما ذكر عُجْمةٌ عن الكلامِ الذي كان من إلقائهِ الجمرةَ إلى فيهِ يومَ هَمَّ فرعونُ بقتله.

وقوله: «يَفْقَهُوا قَوْلي»، يقول: يفقهوا عني ما أخاطبهم وأراجعهم به من الكلام. «وَاجْعَلْ لي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي»، يقول: واجعلْ لي عوناً من أهل بيتي «هارُونَ أخِي».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن موسى أنه سألَ رَبَّهُ أنْ يشدد أزره بأخيهِ هارون، وإنما يعني بقوله: «اشْدُدْ بِهِ أزْرِي» قَوِّ ظهري، وأَعِني به، يقال منه: قد أزر فلان فلاناً: إذا أعانه وشدَّ ظهره.

وقوله: «وأشْرِكْهُ فِي أمْرِي»، يقول: واجعله نبياً مثل ما جعلتني نبياً، وأرسله معي إلى فرعون. «كَيْ نُسَبِّحكَ كَثِيراً»، يقول: كي نُعَظِّمَكَ بالتسبيحِ لكَ كثيراً. «ونَذْكُرَكَ كَثِيراً» فنحمدَكَ. «إنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً» يقول: إنك كنت ذا بَصَرٍ بنا لا يخفَى عليكَ من أفعالنا شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لموسى ﷺ: قد أُعطيتَ ماسألتَ يا موسى

رَبُّكَ من شرحهِ صدرَكَ وتيسيرِه لكَ أمركَ، وحلّ عقدةِ لسانك، وتصيير أخيكَ هارون وزيراً لك، وشدِّ أزركَ به، وإشراكه في الرسالة معك. «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرَى»، يقول تعالى ذكره: ولقد تَطوَّلْنا عليك يا موسى قبلَ هذه المرّةِ مرّةً أخرى، وذلك حين أوحينا إلى أمكَ، إذْ ولدتكَ في العام الذي كان فرعون يقتلُ كلَّ مولودٍ ذكر من قومكَ ما أوحينا إليها؛ ثم فسَّر تعالى ذِكْرُه ما أوحى إلى أُمِّه، فقال: هو أن اقذفيهِ في التابوت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد مَنَنَّا عليكَ يا موسى مرّةً أخرى حين أوحينا إلى أمك، أن اقذفي ابنكِ موسى حين ولدتكَ في التابوت. «فاقْذِفيهِ فِي اليَمّ» يعني باليم: النيل. «فَلْيُلْقِـهِ اليَمُّ بالسـاحِلِ»، يقول: فاقذفيه في اليم، يُلْقِه اليَمُّ بالساحلِ، وهو جزاء أُخرجَ مخرجَ الأمر، كأنَّ اليم هو المأمور، كما قال جلَّ ثناؤه: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، ولْنَحْمِلْ خَطَاياكُمْ»، يعني: اتبعوا سبيلنا نحملْ عنكم خطاياكم، ففعلت ذلك أمه به فألقاهُ اليم بمَشْرَعةِ آل فرعون.

وعنى جَلَّ ثناؤه بقوله: «يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لَهُ» فرعون هو العدوُّ، كان لله ولموسى.

واختلف أهلُ التأويل في معنى المحبة التي قال الله جلّ ثناؤه: «وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»، فقال بعضهم: عنى بذلك أنه حَبَّبَهُ إلى عباده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أي حسنتُ خلقك.

والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله ألقى محبته

على موسى، كما قال جلّ ثناؤه: «وأَلْقَيْتَ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي» فحببه إلى آسيةَ امرأةِ فرعون، حتى تَبَنَّتْهُ وغَذَّتْهُ وربَّته، وإلى فرعون، حتى كَفَّ عنه عاديته وشرَّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾

وقوله: «وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي»، معناه: ولتغذَى وتُرَبَّى على محبتي وإرادتي.

وقوله: «إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَنْ يَكْفُلُهُ»، يقول تعالى ذكره: حين تمشي أختكَ تتبعُكَ حتى وجدتك، ثم تأتي مَنْ يطلب المراضعَ لكَ، فتقول: هل أدلكم على مَنْ يكفُله؟

«فَرَجُعْناكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَن»، يقول تعالى ذكره: فردَدْناكَ إلى أمك بعد ما صرت في أيدي آلِ فرعون، كيما تقرَّ عينها بسلامتكَ ونجاتكَ من القتلِ والغرقِ في اليم، وكيلا تحزنَ عليك من الخوفِ من فرعون عليك أنْ يقتلك.

وقوله: «وَقَتَلْتَ نَفْسا»، يعني جلّ ثناؤه بذلك: قتله القبطي الذي قتله حين استغاثَهُ عليه الإسرائيلي، فوكزه موسى.

وقوله: «فَنَجَّيْناكَ مِنَ الغَمّ»، يقول تعالى ذكره: فنجيناكَ من غَمِّكَ بقتلك النفسَ التي قتلتَ، إذْ أرادوا أنْ يقتلوكَ بها فخلَّصناك منهم، حتى هربتَ إلى أهلِ مدين، فلم يصلوا إلى قتلكَ وقودك. وكان قتله إياه فيما ذُكر خطأً.

وقوله: «وفتناك فتوناً»، يعني: ابتليناك ابتلاءً واختبرناك اختباراً.

وقوله: «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ»، وهذا الكلامُ قد حذف منه بعض ما به تمـامـهُ اكتفاءً بدلالةِ ماذكر عما حذف. ومعنى الكلام: وفتناك فتوناً، فخرجتَ خائفاً إلى أهلِ مدين، فلبثتَ سنينَ فيهم.

وقوله: «ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسَى»، يقول جلَّ ثناؤه: ثم جئتَ للوقتِ الذي أردنا إرسالكَ إلى فرعونَ رسولاً ولمقداره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾

يقـول تعـالى ذكره: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» أنعمتُ عليك يا موسى هذه النعم، ومَنَنْتُ عليكَ هذه المنن، اجتباء مني لك، واختياراً لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمـري ونهيي. «اذْهَبْ أنْتَ وأخُوكَ» هارون «بِآياتي»، يقول: بأدلتي وحججي، اذهبـا إلى فرعـونَ بهـا إنه تمرَّدَ في ضلالهِ وغيه، فأبلغاهُ رسالاتي «وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي» يقول: ولا تَضْعُفَا في أنْ تذكراني فيما أمرتُكُما ونهيتكُمـا، فإنَّ ذِكْـرَكُمَا إيَّايَ يقوِّي عزائمكما، ويثبتْ أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما مَنِّي عليكما نِعَماً جَمَّة، ومِنَناً لا تُحصى كثرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذكره لموسى وهارون: فقولا لفرعونَ قولاً ليِّناً، ذُكر أنَّ القولَ الليِّنَ الذي أمرهما الله أنْ يقولاه له، هو أن يكنياه.

وقوله: «لَعَلَّهُ يَتذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى»، اختلف في معنى قوله: «لَعلَّهُ» في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناها ههنا الاستفهام، كأنهم وَجَّهُوا معنى الكلام إلى: فقولا له قولاً ليناً، فانظرا هل يتذكرُ ويراجعُ أو يخشى الله فيرتدع عن طغيانه.

وقال آخرون: معنى لعلَّ ههنا كي. ووجَّهوا معنى الكلام إلى «اذهبَا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى» فادعواه وعِظَاهُ ليتذكرَ أو يخشى، كما يقولُ القائل: اعملْ عملكَ لعلك تأخذ أجركَ، بمعنى: لتأخذَ أجركَ، وافرغ من عملك لعلنا نتغدَّى، بمعنى: لنتغدى، أو حتى نتغدى، ولكلا هذين القولين وجهٌ حَسَنٌ، ومذهبٌ صحيح.

وقوله: «قالا رَبَّنا إنَّنا نَخافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا»، يقول تعالى ذكره: قال موسى وهارون: ربنا إننا نخافُ فرعونَ إنْ نحنُ دَعَوْنَاهُ إلى ما أمرتَنَا أنْ ندعوه إليه، أن يعجلَ علينا بالعقوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾

يقول الله تعالى ذكره: قال الله لموسى وهارون «لا تَخافا» فرعونَ «إنَّنِي مَعَكُما» أُعِينُكما عليه، وأبصر كما «أسمَعُ» ما يجري بينكما وبينه، فأُفهِمُكُما ما تُحاورانِه به «وأرَى» ما تفعلانِ ويفعل، لا يَخْفَى عليَّ من ذلك شيءٌ «فَأْتِياهُ فَقُولا» له «إنَّا رَسُولا رَبِّكَ».

وقوله: «فَأْتِياهُ فَقُولا إنَّا رَسُولا رَبِّكَ» أرسلنا إليكَ يأمركَ أنْ ترسلَ معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذِّبهم بما تكلفهم من الأعمالِ الرديئة. «قَدْ جِئْناكَ

بآيَةٍ» معجزة «مِنْ رَبِّكَ» على أنه أرسلنا إليكَ بذلك، إنْ أنتَ لم تصدِّقنا فيما نقولُ لكَ أَرَيْناكَهَا، «والسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى»، يقول: والسلامةُ لمن اتبع هُدى الله، وهو بيانُه، يقال: السلامُ على مَنِ اتبع الهدى، ولمن اتبع بمعنى واحد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لرسولِه موسى وهارون: قولا لفرعونَ إنَّا قد أوحى إلينا رَبُّكَ أنَّ عذابه الذي لا نفادَ له، ولا انقطاعَ على مَنْ كَذَّبَ بما ندعوه إليه من توحيدِ الله وطاعته، وإجابةِ رسله. «وَتَوَلَّى»، يقول: وأدبرَ مُعْرِضاً عما جئناهُ به من الحقِّ.

وقـوله: «قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسَى» في هذا الكلام متروك، تُرِكَ ذكره استغناءً بدلالةِ ماذكر عليه عنه، وهو قوله: «فَأْتِياهُ» فقالا له ما أمرهما به رَبُّهما وأبلغاهُ رسالته، فقال فرعون لهما: «فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسَى» فخاطبَ موسى وحده بقوله: «يا موسى»،وقد وَجَّهَ الكلامَ قبل ذلك إلى موسى وأخيه. وإنما فعلَ ذلك كذلك، لأنَّ المجاوبةَ إنما تكونُ من الواحدِ وإنْ كان الخطابُ بالجماعة لا من الجميع، وذلك نظير قوله: «نَسِيا حُوتَهُما»، وكان الذي يحملُ الحوتَ واحد، وهـو فتى موسى، يدلُّ على ذلـك قوله: «إنّي نَسِيتُ الحُوتَ ومَا أَنْسانِيهُ إلاَّ الشَّيْطانُ أنْ أَذْكُرَهُ».

وقوله: «قالَ رَبُّنا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»، يقول تعالى ذكره: قال موسى له مجيباً: ربنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ، يعني: نظيرَ

خَلْقه في الصورةِ والهيئةِ كالذكورِ من بني آدم، أعطاهم نظيرَ خَلْقِهم من الإناثِ أزواجاً، وكالذكورِ من البهائم، أعطاها نظير خلقها، وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً، فلم يعط الإنسان خلافَ خَلْقِه، فيزوِّجه بالإناثِ من البهائم، ولا البهائمَ بالإناثِ من الإنسِ، ثم هَدَاهُمْ للمأتى الذي منه النسلُ والنماءُ كيف يأتيه، ولسائرِ منافعهِ من المطاعمِ والمشارب، وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذكره: قال فرعونُ لموسى، إذْ وصف موسىٰ رَبَّهُ جَلَّ جلاله بما وصفه به من عظيم السلطان، وكثرةِ الإنعامِ على خلقه والإفضالِ، فما شأنُ الأممِ الخاليةِ من قبلنا لم تقِرَّ بما تقول، ولم تصدِّقْ بما تدعو إليه، ولم تخلصْ له العبادةَ، ولكنها عبدت الآلهةَ والأوثانَ من دونه، إنْ كان الأمرُ على ماتصفُ من أنَّ الأشياء كلها خَلْقُه، وأنها في نِعمه تتقلَّب، وفي مِنَنه تتصرفُ، فأجابه موسى فقال: علمُ هذه الأممِ التي مضت من قبلنا فيما فعلت من ذلك، عند ربي في كتابٍ: يعني في أمِّ الكتاب، لا علمَ لي بأمرها، وما كان سبب ضلال مَنْ ضلَّ منهم فذهب عن دين الله «لا يَضِلُّ رَبِّي»، يقول: لا يخطىء ربي في تدبيره وأفعاله، فإنْ كان عذَّبَ تلك القرونَ في عاجل، وعَجَّلَ هلاكها، فالصوابُ مافعل، وإنْ كان أخَّرَ عقابها إلى القيامة، فالحقّ مافعل، هو أعلم بما يفعل، لا يخطئُ ربي «وَلا يَنْسَى» فيترك فِعْلَ ما فعْلُه حكمةٌ وصواب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾

اختلف أهل التأويل في قراءة قوله: «مَهْداً» فقرأته عامَّة قَرَأة المدينة والبصرة: «الَّذِي جعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مِهاداً» بكسر المِيم من المِهاد وإلحاق ألف فيه بعد الهاء، وكذلك عملهم ذلك في كلِّ القرآن. وزعم بعضُ مَن اختار قراءة ذلك كذلك، إنه إنما اختاره من أجل أنَّ المِهاد: اسم الموضع، وأن المهد الفعل؛ قال: وهو مثل الفرش والفراش. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفيين: «مَهْداً» بمعنى: الذي مهد لكم الأرض مهداً.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأة الأمصار مشهورتان، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ الصوابَ فيها.

وقوله: «وَسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلاً»، يقول: وأنهجَ لكم في الأرض طرقاً.

وقوله: «وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً»، يقول: وأنزل من السماء مطراً. «فأخرجنا به أزْوَاجا منْ نَباتٍ شَتَّى».

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيثِ الذي ينزله من سمائه إلى أرضه، بعد تناهي خبره عن جوابِ موسى فرعون عما سأله عنه وثنائهِ على ربه بما هو أهلُه، يقولُ جلَّ ثناؤه فأخرجنا نحن أيها الناسُ بما ننزل من السماء من ماء أزواجاً، يعني ألواناً من نباتٍ شتى، يعني مختلفة الطعومِ، والأراييحِ والمنظر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناسُ من طيبِ ما أخرجنا لكم بالغيثِ الذي أنزلناهُ من السماء إلى الأرض من ثمارِ ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاقُ بهائمكم منه، وأقواتها أنعامكم. «إنَّ فِي ذلك

لآياتٍ»، يقول: إنَّ فيما وصفتُ في هذه الآية من قدرةِ ربكم، وعظيمِ سلطانه لآياتٍ: يعني لدلالات وعلامات تدلُّ على وحدانيةِ ربكم، وأن لا إله لكم غيره. «أُولِي النُّهَى»، يعني: أهل الحجى والعقول. والنُّهى: جمع نُهية وخصّ تعالى ذِكْرُه بأن ذلك آيات لأولي النُّهَى، لأنهم أهلُ التفكُّرِ والاعتبارِ، وأهلُ التدبرِ والاتعاظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من الأرضِ خلقناكم أيها الناسُ، فأنشأناكم أجساماً ناطقة. «وفِيها نُعِيدُكُمْ»، يقول: وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم تراباً، كما كنتم قبلَ إنشائِنَاكُم بشراً سوياً. «ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ»، يقول: ومن الأرضِ نخرجكم كما كنتم قبل مَمَاتكم أحياء، فننشئكم منها، كما أنشأناكم أوَّلَ مرّة.

وقوله: «تارةً أُخْرَى» يقول: مرّة أخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد أَرَيْنَا فرعون آياتنا، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقةِ ما أرسلنا به رسولينا، موسى وهارون إليه كلها. «فَكَذَّبَ وأَبَى» أنْ يقبلَ من موسى وهارون ما جاءا به من عند رَبِّهما من الحقِّ استكباراً وعتوّاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا

بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال فرعونُ لما أريناهُ آياتنا كُلَّها لرسولنا موسى، أجئتنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودُورنا بسحركَ هذا الذي جئتنا به. «فَلَنَأْتِيَنَّك بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً» لا نتعدَّاهُ، لنجيْ بسحرٍ مثل الذي جئتَ به، فننظر أيُّنا يغلبُ صاحبه، لا نخلفُ ذلك الموعدَ. «نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكانا سُوًى»، يقول: بمكانٍ عدلٍ بيننا وبينك ونَصَف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون حين سأله أنْ يجعلَ بينه وبينه موعداً للاجتماع «مَوْعِدُكُمْ» للاجتماع «يَوْمُ الزِّينَةِ»، يعني يوم عيد كانَ لهم أو سوق كانوا يتزيَّنون فيه. «وأنْ يُحْشَرَ النَّاسُ»، يقول: وأن يُساقَ الناسُ من كلّ فجّ وناحية «ضُحىً» فذلك موعد مابيني وبينك للاجتماع.

وقوله: «فَتوَلَّى فِرْعَونُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأدبر فرعون معرضاً عما أتاهُ به من الحقِّ. «فجَمَعَ كَيْدَهُ»، يقول: فجمع مَكْرَهُ، وذلك جمعه سحرته بعد أخذِه إياهم بتعلمه «ثمَّ أتَى» يقول، ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرةِ لما جاء بهم فرعون: «وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلى اللهِ كَذِباً» يقول: لا تختلقوا على الله كذباً، ولا تتقوَّلوه. «فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ» فيستأصلكم بهلاكٍ فيبيدكم.

وقوله: «وَقَدْ خابَ مَن افْتَرَى»، يقول: ولم يظفر مَنْ يخلقُ كذباً، ويقوله بكَذِبِهِ ذلكَ بحاجتِهِ التي طَلَبَها به، ورَجَا إدراكَها به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَتَنَازَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذكره: فتنازعَ السحرةُ أمرهم بينهم.

وكان تنازعُهم أمرهم بينهم فيما ذُكِرَ أنْ قال بعضهم لبعض: إنْ كانَ هذا ساحراً فإنا سنغلبه، وإنْ كان من السماء فله أمرٌ.

وقال آخرون: بل هو أنَّ بعضَهم قال لبعضٍ: ماهذا القولُ بقولِ ساحر.

وقوله: «وأسَرُّوا النَّجْوَى»، يقول تعالى ذكره: وأسرُّوا ـ السحرةُ ـ المناجاةَ بينهم.

وقد اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ»، فقرأته عامة قَرَأَةِ الأمصار. «إنَّ هَذَانِ» بتشديد إن وبالألف في هذان، وقالوا: قرأنا ذلك كذلك. وكان بعضُ أهلِ العربية من أهلِ البصرة يقول: «إن» خفيفة في معنى ثقيلة، وهي لغة لقومٍ يرفعون بها، ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى ما.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا «إنّ» بتشديد نونها، وهذان بالألفِ

لإجماعِ الحجة من القرأةِ عليه، وأنه كذلك هو في خطِّ المصحف.

وقوله: «وَيَذْهَبا بطَرِيقَتِكُمُ المُثْلَى»، يقول: ويغلبا على ساداتكم وأشرافكم، يقال: هو طريقةُ قومِهِ ونظورة قومِهِ، ونظيرتهم، إذا كانَ سَيِّدَهُم وشريفَهم والمنظورَ إليه، يقال ذلك للواحد والجمع، وربما جمعوا، فقالوا: هؤلاء طرائقُ قومِهم؛ ومنه قول الله تبارك وتعالى: «كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً» وهؤلاء نظائر قومهم.

وأما قوله: «المُثْلَى» فإنها تأنيث الأمثل، يقال للمؤنث: خذ المثلى منهما. وفي المذكر: خُذِ الأمثلَ منهما، ووحدت المثلى، وهي صفة ونعت للجماعة، كما قيل: «لهُ الأسْماءُ الحُسْنَى»، وقد يحتمل أن يكون المُثلى أنثت لتأنيثِ الطريقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ٦٤﴾

قوله: «فأجْمِعُوا كَيْدكُمْ»، يقول: فأحكموا كيدكم واعزموا عليه.

وقوله: «ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا»، يقول: احضروا وجيئوا صفاً؛ والصفُّ ههنا مصدر، ولذلك وحد، ومعناه: ثم ائتوا صفوفاً، وللصفِّ في كلامِ العربِ موضعٌ آخر، وهو قولُ العرب: أتيت الصفَّ اليوم يعني به المصلى الذي يصلى فيه.

وقوله: «وَقَدْ أَفْلَحَ اليَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى»، يقول: قد ظفر بحاجته اليوم مَنْ عَلَا على صاحبِهِ فقهره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى



يقول تعالى ذِكْرُه: فأجمعت السحرة كيدهم، ثم أتوا صفاً فقالوا لموسى: «يا مُوسَى إمَّا أنْ تُلْقِيَ، وإمَّا أنْ نَكُونَ أوَّلَ مَنْ ألْقَى»، وترك ذكر ذلك من الكلام اكتفاء بدلالةِ الكلام عليه.

ومعنى الكلام: اختر يا موسى أحدَ هذين الأمرين: إما أنْ تُلْقِيَ قَبْلَنَا، وإما أنْ نكونَ أوَّلَ من ألقى.

وقوله: «قالَ بَلْ ألْقُوا» يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرة: بل ألقوا أنتم ما معكم قبلي.

وقوله: «فإذَا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أنَّها تَسْعَى»، وفي هذا الكلام متروك، وهو: فألقوا ما معهم من الحبالِ والعصيِّ، فإذا حبالهم، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام الذي ذكر عليه عنه. وذُكر أنَّ السحرةَ سحروا عينَ موسى وأعينَ النـاسِ قبل أنْ يُلْقُوا حبالهم وعصيهم، فَخُيِّلَ حينئذٍ إلى موسى أنها تسعى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: فأوجسَ في نفسه خوفاً موسى فوجده.

وقوله: «قُلْنا لا تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأعْلَى»، يقول تعالى ذكره: قلنا لموسى إذْ أوجسَ في نفسه خيفةً: «لا تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأعْلَى» على هؤلاءِ السَّحَرةِ، وعلى فرعـونَ وجُنْدِه، والقاهر لهم. «وألْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا»،

يقول: وألقِ عصاك تبتلعْ حبالهم وعصيهم التي سحروها حتى خُيِّلَ إليك أنها تسعى.

وقوله: «إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ ساحرٍ»، اختلفت القرأةُ في قراءة قوله، فقرأته عامة قرأةِ المدينة والبصرة وبعض قرأةِ الكوفة: «إِنَّ ما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ» برفع كيد وبالألف في ساحر بمعنى: إن الذي صنعه هؤلاء السحرةُ كيدٌ من ساحرٍ. وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفة: «إِنَّ ما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ» برفع الكيد وبغير الألف في السحر بمعنى: إنَّ الذي صنعوه كيدُ سحرٍ.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، وذلك أن الكيدَ هو المكرُ والخدعة، فالساحرُ مَكْرُهُ وخدعته من سحرٍ يسحر، ومكرُ السِّحرِ وخدعته: تَخَيُّلُه إلى المَسْحورِ، على خلافِ ماهو به في حقيقته، فالساحرُ كائدٌ بالسحر، والسحر كائدٌ بالتخييلِ، فإلى أَيِّهما أضفتَ الكيدَ فهو صواب.

وقوله: «وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى»، يقول: ولا يظفرُ الساحرُ بسحرِهِ بما طلبَ أينَ كان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ قد استغني بدلالةِ ما ترك عليه وهو: فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا «فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا، قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسَى»، وذكر أنَّ موسى لما ألقى ما في يدِه تحوَّل ثعباناً، فالتقمَ كُلَّ ما كانتِ

السحرةُ ألقته من الحبالِ والعصيِّ.

وقوله: «قالَ آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ»، يقول جلَّ ثناؤه: وقال فرعونُ للسحرة: أصدّقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبلِ أنْ أُطلقَ ذلك لكم. «إنَّهُ لكَبيرِكُم»، يقول: إن موسى لعظيمكم «الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ».

وقـولـه: «فَـلأُقَـطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ وأرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ»، يقول: فلأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين قطعِ ذلك وذلك أنْ يقطع يُمنى اليدين ويُسْرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعاً من خلاف، وكان فيما ذُكر أوَّلَ مَنْ فعلَ ذلك فرعون.

وقـولـه: «وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْـلِ»، يقـول: ولأصلبنكم على جذوعِ النخل.

وقوله: «وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشَدُّ عَذَابا وأبْقَى»، يقول: ولتعلمنَّ أيها السحرةُ أينا أشدُّ عذاباً لكم، وأدومُ، أنا أو موسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قالت السحرةُ لفرعون لما تَوَعَّدَهُمْ بما توعَّدهم به «لَنْ نُؤْثِرَكَ» فنتبعكَ ونكذِّبَ من أجلك موسى «عَلى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ» يعني من الحججِ والأدلةِ على حقيقة مادعاهم إليه موسى. «والَّذِي فَطَرَنا»، يقول: قالوا لن نؤثـرك على الـذي جاءنا من البينات، وعلى الذي فطرنا، ويعني بقوله: «فَطَرَنا» خَلقنا، فالذي من قوله: «والَّذِي فَطَرَنا» خفض على قوله «ما جاءَنا»،

وقد يحتمل أنْ يكون قوله: «وَالَّذِي فَطَرَنا» خفضاً على القسم، فيكون معنى الكلام: لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البيِّنات والله.

وقوله: «فاقْضِ ما أنْتَ قاضٍ»، يقول: فاصنع ما أنتَ صانعٌ، واعملْ بنا مابدا لك. «إنما تَقْضِي هَذِه الحَياةَ الدُّنْيا»، يقول: إنما تقدر أنْ تُعَذِّبنا في هذه الحياةِ الدنيا التي تفنى، ونصبَ الحياة الدنيا على الوقتِ وجعلت إنما حرفاً واحداً.

وقوله: «إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا»، يقول تعالى ذكره: إنا أقررنا بتوحيدِ ربنا، وصَدَّقْنَا بوعدِه ووعيدِه، وأنَّ ما جاء به موسى حقٌّ. «لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا»، يقول: ليعفو لنا عن ذنوبنا فيسترها علينا. «ومَا أكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِن السِّحْرِ»، يقول: ليغفر لنا ذنوبنا، وتَعَلّمنَا ما تعلمناهُ من السحر، وعملنا به الذي أكرهْتَنَا على تعلُّمِه والعملِ به، وذُكر أنَّ فرعونَ كان أخذهم بتعليمِ السحر.

وقوله: «وَاللهُ خَيْرٌ وأبْقَى»، يقول: والله خيرٌ منك يافرعونُ جزاءً لمن أطاعه، وأبقى عذاباً لمن عصاه وخالف أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل السحرة لفرعون: «إنَّهُ مَنْ يأْتِ رَبَّهُ» من خَلْقِه «مُجْرِماً»، يقول: مكتسباً الكفر به. «فإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ»، يقول: فإنَّ له جهنمَ مأوى ومسكناً، جزاءً له على كفره. «لا يَمُوتُ فيها» فتخرجَ نفسُه. «وَلا يَحْيا» فتستقرَّ نفسُه في مقرِّها فتطمئنَّ، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم. «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً» مُوحداً لا يُشركُ به «قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ»، يقول: قد عمل ما أمرهُ به رَبُّه،

وانتهى عما نهاه عنه. «فأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرجاتُ العُلَى»، يقول: فأولئك الذين لهم درجاتُ الجنة العلى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

يقـول تعـالى ذكره: ومَنْ يأتِهِ مؤمناً قد عملَ الصالحاتِ، فأولئك لهم الدرجاتُ العلى. ثم بَيَّنَ تلك الدرجات العلى ماهي، فقال: هُنَّ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» يعني: جنـاتُ إقـامةٍ لا ظعنَ عنها ولا نفادَ لها ولا فناء. «تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهـارُ»، يقـول: تجري من تحتِ أشجارها الأنهارُ «خالِدِينَ فيها»، يقول: ماكثين فيها إلى غيرِ غايةٍ محدودة.

وقوله: «وَذلكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى»، يقول: وهذه الدرجاتُ العُلى التي هي جناتُ عدنٍ على ماوصف جلَّ جلاله ثوابُ مَنْ تزكى، يعني: مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوبِ، فأطاعَ الله فيما أمره، ولم يدنس نفسَهُ بمعصيته فيما نهاه عنه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إلى» نبينا «مُوسَى» إذْ تابعنا له الحجج على فرعون، فأبى أن يستجيبَ لأمرِ ربه، وطغى وتمادى في طغيانه «أنْ أسْرِ» ليلاً «بعِبادِي» يعني بعبادي من بني إسرائيل. «فاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي البَحْرِ يَبَساً»، يقول: فاتخذ لهم في البحر طريقاً يابساً.

وأما قوله: «لا تَخافُ دَركاً وَلا تَخْشَى» فإنه يعني: لا تخافُ من فرعونَ وجنوده أنْ يدركوكَ من ورائك، ولا تخشى غرقاً من بين يديكَ ووَحَلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذكره: فَسَرى موسى ببني إسرائيل إذْ أوحينا إليه أن أَسْرِ بهم، فأتبعهم فرعـونُ بجنوده حين قطعوا البحر، فغشي فرعونَ وجُنْدَهُ من اليَمِّ ما غشيهم، فغـرقـوا جميعاً. «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى»، يقول جلَّ ثناؤه: وجاوزَ فرعونُ بقومِهِ عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غيرِ استقامةٍ، وذلك أنه سلكَ بهم طريقَ أهلِ النار، بأمرهم بالكفرِ بالله، وتكذيب رسله. «وَمَا هَدَى»، يقول: وما سلكَ بهم الطريقَ المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباعِ رسولِ الله موسى، والتصديقِ به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾

يقول تعالى ذكره: فلما نجا موسى بقومِهِ من البحرِ، وغَشي فرعونَ وقومَهُ من اليَمِّ ما غشيهم، قلنا لقومِ موسى: «يابَنِي إسْرَائِيلَ قَدْ أنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ» فرعون «وَواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الأيمَنَ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى»، وقد ذكرنا كيف كانت مواعدةُ اللهِ موسى وقومه جانبَ الطورِ الأيمن. وقد بيَّنا المَنَّ

والسلوى باختلافِ المختلفين فيهما، وذكرنا الصوابَ من القول في ذلك فيما مضى قَبْلُ، بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وقوله: «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهم: كلوا يابني إسرائيلَ من شهياتِ رزقنا الذي رزقناكم، وحلالهِ الذي طَيَّبْنَاهُ لكم. «ولا تَطْغَوْا فِيهِ»، يقول: ولا تعتدوا فيه، ولا يظلم فيه بعضُكم بعضاً.

وقوله: «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي» يقول: فينزل عليكم عقوبتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ومَنْ يجب عليه غضبي فينزلْ به، فقد هوى، يقول فقد تَرَدَّى فَشقي.

وقوله: «وإنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ»، يقول: وإني لذو غفر لمن تابَ من شِرْكِه فرجعَ منه إلى الإيمانِ لي. «وَآمَنَ»، يقول: وأخلَصَ لي الألوهةَ ولم يشرك في عبادته إياي غيري «وعَمِلَ صَالِحاً»، يقول: وأدّى فرائضي التي افترضتها عليه، واجتنبَ معاصيَّ. «ثُمَّ اهْتَدَى»، يقول: ثم لزم ذلك فاستقامَ ولم يضيع شيئاً منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَمَا أعْجَلكَ» وأيّ شيء أعجلك «عَنْ قَوْمِكَ

يا مُوسَى» فَتَقَــدَّمْتَهُمْ وخلفتهم وراءَك ولم تكنْ معهم «قَـالَ: هُمْ أُولاءِ عَلى أثرِي»، يقول: قومي على أثري يلحقونَ بي «وَعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»، يقول: وعجلتُ أنا فسبقتهم ربِّ كيما ترضى عني.

وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلكَ عن قومكَ، لأنه جلَّ ثناؤه فيما بلغنا حين نَجّاهُ وبني إسرائيل من فرعونَ وقومِهِ وقطع بهم البحرَ وَعَدَهُمْ جانبَ الطورِ الأيمن، فتعجَّلَ موسى إلى ربه.

وأقام هارون في بني إسرائيل يسيرُ بهم على أثرِ موسى

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

يقول الله تعالى ذكره قال الله لموسى: فإنَّا يا موسى قد ابتلينا قومكَ من بعدك بعبادةِ العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى. ويعني بقوله: «مِنْ بَعْدِكَ»: من بعد فراقكَ إياهم. يقول الله تبارك وتعالى: «وأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ»، وكان إضلال السامريِّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادةِ العجل.

وقوله: «فَرَجَعَ مُوسَى إلى قومه» يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة. «غَضْبانَ أسِفا» متغيظاً على قومه، حزيناً لما أحدثوه بعده من الكفر بالله.

وقوله: «قالَ ياقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وعَدْاً حَسَناً»، يقول: ألم يعدكم ربكم أنه غفارٌ لمن تابَ وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، ويعدكم جانبَ الطورِ

الأيمن، وينزل عليكم المنَّ والسلوى، فذلك وعدُ الله الحسن بني إسرائيل الذين قال لهم موسى: ألم يَعِدكُمُوه ربكم.

وقوله: «أَفَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ، أَمْ أَرَدْتُم أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ»، يقول: أَفَطالَ عليكم العهدُ بي، وبجميلِ نعمِ الله عندكم، وأياديهِ لديكم، أم أردتم أنْ يحلَّ عليكم غضبٌ من ربكم: أم أردتم أنْ يجبَ عليكم غضبٌ من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجلَ، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي. وكان إخلافُهم موعدَهُ، عكوفهم على العجل، وتركهم السيرَ على أثرِ موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذْ نهاهم عن عبادةِ العجلِ، ودعاهم إلى السيرِ معه في أثر موسى: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسَى».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال قومُ موسى لموسى: ما أخلفنا موعدكَ يعنون بموعده عهدَهُ الذي كان عَهِدَهُ إليهم.

وقوله: «بِمَلْكِنا» يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نُطِقْ حملَ أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة.

وقوله: «وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ»، يقول: ولكنا حُملنا أثقالاً وأحمالاً من زينة القوم يعنون من حليّ آلِ فرعون، وذلك أن بني إسرائيل لما

أراد موسى أن يسير بهم ليلاً من مصر بأمرِ الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعيروا من أمتعةِ آلِ فرعون وحليهم، وقال: إن الله مُغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حليٍّ نسائهم وأمتعتهم، فذلك قولهم لموسى حين قال لهم: «أفَطالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ، أمْ أرَدْتُمْ أنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غضبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا ما أخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا، وَلَكِنَّا حُمِّلْنا أوزاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ».

وقوله: «فَقَذَفْناها»، يقول: فألقينا تلك الأوزارَ من زينةِ القوم في الحفرة «فَكَذلكَ ألْقَى السَّامِرِيّ»، يقول: فكما قذفنا نحن تلك الأثقالَ، فكذلك ألقى السامريّ ما كان معه من تربةِ حافرِ فرسِ جبريلَ.

وقوله: «فَأخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوارٌ»، يقول: فأخرج لهم السامريُّ مما قذفوه ومما ألقاه عجلاً جسداً له خوار، ويعني بالخوار: الصوتُ، وهو صوتُ البقر.

وقوله: «فَقالوا هَذَا إلهُكُمْ وَإلَهُ مُوسَى»، يقول: فقال قومُ موسى الذين عبدوا العجلَ: هذا معبودكم ومعبود موسى.

وقوله: «فَنَسِيَ» يقول: فَضَلَّ وتركَ.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في قوله: «فَنَسِيَ» مَنْ قائلُه ومَن الذي وصف به وما معناه، فقال بعضهم: هذا من الله خبرٌ عن السامريِّ والسامريُّ هو الموصوفُ به، وقالوا: معناه: أنه تركَ الدينَ الذي بعث اللهُ به موسى وهو الإسلامُ.

وقال آخرون: بل هذا خبرٌ من اللهِ عن السامريِّ، أنه قالَ لبني إسرائيل، وأنه وصف موسى بأنه ذهبَ يطلب ربه، فأضلَّ مَوْضِعَهُ، وهو هذا العجلُ.

والذي هو أوْلى بتأويلِ ذلك قولُ من قال: إن ذلك خبرٌ من الله عزَّ ذكره عن السامريِّ أنه وصف موسى بأنه نسيَ ربه، وأنَّ رَبَّهُ الذي ذهبَ يريده هو العجلُ الذي أخرجه السامريُّ لإجماع الحجةِ من أهلِ التأويلِ عليه، وأنه

عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبراً من السامريِّ عنه بذلك أشبه من غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾

يقول تعالى ذكره موبِّخاً عَبَدَةَ العجلِ والقائلينَ له: «هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ» وعابهم بذلك، وسفَّه أحلامَهُمْ بما فعلوا ونالوا منه، أفلا يرون أنَّ العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم، وإنْ كلَّموه لم يردَّ عليهم جواباً، ولا يقدر على ضرٍّ ولا نفع، فكيف يكونُ ما كانت هذه صِفَته إلهاً؟

وقوله: «وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْل»، يقول: ولقد قال لعبدَةِ العجلِ من بني إسرائيل هارون من قبل رجوعِ موسى إليهم، وقِيلِه لهم ما قال مما أخبرَ اللهُ عنه. «إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ»، يقول: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجلِ الذي أحدث فيه الخوار ليعلم به الصحيحَ الإيمانِ منكم من المريضِ القلبِ، الشاكِّ في دينه.

وقوله: ««وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فاتَّبِعُونِي وأطِيعُوا أمْرِي»، يقول: وإن ربكم الرحمن الذي يعمُّ جميعَ الخلق نعمه فاتَّبعوني على ما آمركم به من عبادةِ الله وترك عبادة العجل وأطيعوا أمري فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاصِ العبادة له.

وقوله: «قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ»، يقول: قال عَبَدَةُ العجلِ من قوم موسى: لن نزال على العجلِ مقيمينَ نعبده، حتى يرجع إلينا موسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

يقـول تعالى ذكره: قال موسى لأخيهِ هارون لما فرغَ من خطابِ قومه ومـراجعته إياهم على ما كان من خطأ فِعْلِهم: يا هارون أيّ شيء منعك إذْ رأيتهم ضَلُّوا عن دينهم، فكفروا بالله وعبدوا العجلَ ألا تتبعني.

وقوله: «قالَ يا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرأسِي»، وفي هذا الكلام متروك، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: ثم أخذ موسى بلحيةِ أخيهِ هارون ورأسه يجرُّهُ إليه، فقال هارون: «يا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرأسِي».

وقوله: «إنّي خَشِيتُ أنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بينَ بَنِي إسْرائيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلي»، فاختلف أهـلُ العلم في صفـة التفـريق بينهم، الـذي خشيه هارون، فقـال بعضهم: كان هارون خافَ أنْ يسيرَ بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة العجل، وقد «قالُوا» له: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفينَ حتى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسَى» فيقـول له موسى: «فَرَّقْتَ بينَ بَنِي إسْرائِيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلي» بسيرِكَ بطائفةٍ، وتَرْكِكَ منهم طائفةً وراءك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خشيتُ أن نقتتلَ فيقتل بعضُنا بعضاً.

وأولى القـولين في ذلك بالصواب قولُ من قال: إنَّ موسى عذلَ أخاه هارون على تركهِ اتباعَ أمرِهِ بمن اتبعه من أهلِ الإيمان، فقال له هارون: إني خشيتُ أن تقـولَ، فرّقت بين جمـاعتهم، فتـركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، وذلك بَيِّنٌ في قولِ هارون للقوم: «يا قَوْمِ إنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ، وَإنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فاتَّبِعُونِي وأطِيعُوا أمْري»، وفي جواب القوم له، وقِيلِهم: «لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسَى».

وقوله: «ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي»، يقول: ولم تنظر قولي وتحفظه. من مراقبةِ الرجلِ الشيءَ، وهي مناظرته بحفظه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيّ» قال موسى للسامري: فما شأنك يا سامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته.

وقوله: «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ»، يقول: قال السامريُّ: علمت ما لم يعلموه، وهو فعلت من البصيرة: أي صرت بما عملت بصيراً عالماً.

وقوله: «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ الرَّسُولِ»، يقول: قبضتُ قبضةً من أثرِ حافرِ فرسِ جبرئيلَ.

وقوله: «فَنَبَذْتُها»، يقول: فألقيتها «وكَذَلكَ سَوَّلَتْ لي نَفْسِي»، يقول: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثرِ الفرسِ على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارت عجلاً جسداً له خوار. «سَوَّلَتْ لي نَفْسِي»، يقول: زينت لي نفسي أنه يكون ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ

عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسامريِّ: فاذهبْ فإنَّ لك في إيام حياتك أنْ تقولَ: لا مساسَ: أي لا أمسُّ، ولا أُمَسُّ.. وذُكر أن موسى أمر بني إسرائيل أنْ لا يُؤاكِلُوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إنَّ لك في الحياة أنْ تقولَ لا مساس، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته.

وقوله: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ»، اختلفت القرأة في قراءته، فقرأته عامة قرأةِ أهلِ المدينة والكوفة «لَنْ تُخْلَفَهُ» بضم التاء وفتح اللام بمعنى: وإنَّ لك موعداً لعذابكَ وعقوبتكَ على ما فعلتَ من إضلالكَ قومي حتى عبدوا العجلَ من دون الله، لن يُخْلِفَكَهُ الله، ولكنْ يُذِيقَكَهُ. وقرأ ذلك آخرون: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلِفَهُ» بضمّ التاء وكسر اللام، بمعنى: وإنَّ لك موعداً لن تخلفه أنت يا سامريّ، وتأوَّلُوه بمعنى: لن تغيبَ عنه.

والقولُ في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، لأنه لا شكَّ أن الله مُوفٍ وَعْدَهُ لخلقِه بحشرهم لموقفِ الحساب، وأن الخلق موافون ذلك اليوم، فلا الله مُخْلِفهُمْ ذلك، ولا هُمْ مُخْلِفُوه بالتخلف عنه، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ الصوابَ في ذلك.

وقوله: «وَانْظُرْ إلى إلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً»، يقول: وانظر إلى معبودكَ الذي ظلت عليه مقيماً تعبده.

وقوله: «لَنُحَرِّقَنَّهُ»، يقول: لنحرقنه بالنارِ قطعةً قطعة.

وقوله: «ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً»، يقول: ثم لَنُذَرِّيَنَّهُ في البحر تذريةً، يقال منه: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه فَطَيَّرَ عنه قشوره وترابه باليدِ أو الريح.

وقوله: «إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقول: ما لكم أيها القومُ معبودٌ، إلا الذي له عبادة جميع الخلقِ لا تصلحُ العبادةُ لغيره، ولا تَنبغي أن تكون إلا له. «وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً»، يقول: أحاط بكل شيء علماً فعلمه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيقُ عليه عِلْمُ جميعِ ذلك، يقال منه: فلانٌ يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقويَ عليه، ولا يَسَعُ له: إذا عجزَ عنه فلم يُطِقْهُ ولم يَقْوَ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: كما قَصَصْنَا عليكَ يا محمدُ نبأ موسى وفرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل مع موسى «كَذَلكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ما قَدْ سَبَقَ»، يقول: كذلك نخبرك بأنباء الأشياء التي قد سبقت من قبلك، فلم تشاهدها ولم تعاينها.

وقوله: «وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا»، يقول تعالى ذكره لمحمدٍ ﷺ: وقد آتيناكَ يا محمدُ من عندنا ذكراً يتذَكَّرُ به، ويَتَّعِظُ به أهلُ العقلِ والفهم، وهو هذا القرآنِ الذي أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين.

وقـوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ»، يقول تعالى ذكره: من ولى عنه فأدبرَ فلم يصدِّقْ به ولم يُقِرَّ، «فإنه يَحْمِلُ يَوْمَ القِيامَة وِزْرًا»، يقول: فإنه يأتي ربه يومَ القيامة يحمل حملاً ثقيلاً، وذلك الإثم العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: خالدينَ في وزرهم، فأخرجَ الخبر جلّ ثناؤه عن هؤلاء المعرضينَ عن ذِكْرِه في الدنيا أنهم خالدون في أوزارهم، والمعنى: أنهم خالدون في النار بأوزارهم، ولكن لما كان معلوماً المراد من الكلام اكتفى بما ذكر عما لم يذكر.

وقوله: «وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ حِمْلًا»، يقول تعالى ذكره: وساء ذلك الحملُ والثقلُ من الإثمِ يومَ القيامة حملًا، وحقَّ لهم أن يسوءهم ذلك، وقد أوردهم مَهْلكةً لا مَنْجى منها.

وقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»، يقول تعالى ذكره: وساء لهم يوم القيامة، يومَ ينفخُ في الصور، فقوله: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» ردٌّ على يوم القيامة. وقد بيَّنا معنى النفخ في الصور، وذكرنا اختلاف المختلفين في معنى الصور، والصحيح في ذلك من القول عندي.

وقوله: «ونَحْشُرُ المُجْرِمينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقاً»، يقول تعالى ذكره: ونسوقُ أهلَ الكفر بالله يومئذٍ إلى موقف القيامة زرقاً، فقيل: عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهرُ في أعينهم من شدةِ العطشِ الذي يكون بهم عند الحشرِ لرأي العين من الزرق. وقيل: أُريدَ بذلك أنهم يحشرون عمياً، كالذي قال الله: «ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً».

وقوله: «يَتخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إنْ لَبِثْتُمْ إلّاَ عَشْرًا»، يقول تعالى ذكره: يتهامسون بينهم، ويُسِرُّ بعضُهم إلى بعض: إنْ لبثتم في الدنيا، يعني أنهم يقولُ بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: نحنُ أعلمُ منهم عند إسرارهم وتخافتهم بينهم بقِيلهم: «إنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ عَشْرًا» بما يقولون لا يخفى علينا مما يَتَسَارُّونه بينهم شيءٌ. «إذْ يَقُولُ أمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ يَوْماً»، يقول تعالى ذكره حين يقولُ أوفاهم عقلاً، وأعلمهم فيهم: إنْ لبثتم في الدنيا إلا يوماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ويسألك يا محمدُ قومُك عن الجبالِ، فقل لهم: يُذَرِّيها ربي تذريةً، ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها، ودكِّ بعضها على بعض، وتصييره إياها هباءً منبثاً «فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً»، يقول تعالى ذكره: فيدع أماكنها من الأرضِ إذا نسفها نسفاً، قاعاً: يعني: أرضاً ملساء، صفصفاً: يعني مستوياً لا نباتَ فيه، ولا نشز، ولا ارتفاع.

وقوله: «لا تَرَى فِيها عِوَجاً وَلا أمْتاً» يقول: لا ترى في الأرض عوجاً ولا أمتاً.

واختلف أهلُ التأويل في العوجِ والأمتِ، فقال بعضهم: عنى بالعوج في هذا الموضع: الأوديةَ، وبالأمت: الروابيَ والنشوز.

وقال آخرون: بل عنى بالعوج في هذا الموضع: الصُّدُوعَ، وبالأمتِ: الارتفاعَ من الآكامِ وأشباهها.

وقال آخرون: عنى بالعوج: الميلَ، وبالأمت: الأثرَ.

وقال آخرون: الأمت: المحاني والأحداب.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بالعوج: الميل، وذلك أن ذلك هو المعروف في كلام العرب.

فإن قال قائل: وهل في الأرضِ اليومَ من عوجٍ، فيقال: لا ترى فيها يومئذٍ عوجاً. قيل: إن معنى ذلك: ليس فيها أوديةٌ وموانعُ تمنعُ الناظرَ أو السائرَ فيها عن الأخذِ على الاستقامة، كما يحتاجُ اليوم من أخذ في بعض سُبُلها إلى الأخذِ أحياناً يميناً، وأحياناً شمالاً، لما فيها من الجبال والأودية والبحار. وأما الأمت فإنه عند العرب: الانثناءُ والضعف، مسموع منهم، مدّ حبله حتى ما ترك فيه أمتاً: أي انثناء؛ وملأ سقاءه حتى ما ترك فيه أمتاً؛ فالواجبُ إذا كان ذلك معنى الأمت عندهم أن يكون أصوب الأقوالِ في تأويله ولا ارتفاع ولا انخفاض، لأن الانخفاضَ لم يكن إلا عن ارتفاع. فإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: لا ترى فيها ميلاً عن الاستواء، ولا ارتفاعاً، ولا انخفاضاً، ولكنها مستويةٌ ملساء، كما قال جَلَّ ثناؤه: «قاعاً صَفْصَفاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذكره: يومئذٍ يتبعُ الناسُ صوتَ داعي الله الذي يدعوهم إلى موقفِ القيامة، فيحشرهم إليه. «لا عِوَجَ لَهُ»، يقول: لا عوجَ لهم عنه ولا انحراف، ولكنهم سراعاً إليه ينحشرون. وقيل: لا عوجَ له. والمعنى: لا عوجَ لهم عنه، لأنَّ معنى الكلام ماذكرنا من أنه لا يعوجون له ولا عنه، ولكنهم

يُؤُمُّونَهُ ويأتونه، كما يقال في الكلام: دعاني فلانٌ دعوةً لا عوجَ لي عنها: أي لا اعوجاج عنها.

وقوله: «وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرَّحْمَنِ»، يقول تعالى ذكره: وسكنتْ أصواتُ الخلائقِ للرحمن فوصف الأصواتَ بالخشوعِ، والمعنى لأهلها إنهم خُضَّعٌ جميعهم لربِّهم، فلا تسمعُ لناطقٍ منهم منطقاً إلا من أذِنَ له الرحمنُ.

وقوله: «فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً»، يقول: إنه وطء الأقدام إلى المحشر، وأصله: الصوتُ الخفيُّ، يقال: همس فلانٌ إلى فلانٍ بحديثه إذا أسَرَّهُ إليه وأخفاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلَّا» شفاعة «مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ» أن يشفع «وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً» وأدخل في الكلام له دليلاً على إضافة القول إلى كناية «مَنْ» وذلك كقولِ القائل الآخر: رضيتُ لك عملكَ، ورضيتُه منكَ، وموضع مَن من قوله: «إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ» نصب لأنه خلاف الشفاعة.

وقوله: «يَعْلَمُ ما بينَ أيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ»، يقول تعالى ذكره: يعلمُ ربكَ يا محمدُ ما بين أيدي هؤلاء الذين يتبعون الداعي من أمرِ القيامة، وما الذي يصيرونَ إليه من الثوابِ والعقاب. «ومَا خَلفَهُمْ»، يقول: ويعلم أمرَ ما خلفوه وراءهم من أمر الدنيا.

وقوله: «وَلا يُحيطُونَ بهِ علْماً»، يقول تعالى ذكره: ولا يحيطُ خَلْقُه به علماً. ومعنى الكلام: أنه محيطٌ بعبادِه علماً، ولا يحيطُ عبادُه به علماً. وقد

زعم بعضهم أن قوله ذلك: أنَّ الله يعلمُ ما بين أيدي ملائكته وما خلفهم، وأنَّ ملائكته لا يحيطونَ علماً بما بين أيدي أنفسهم وما خلفهم، وقال: إنما أعلم بذلك الذين كانوا يعبدونَ الملائكة، أنَّ الملائكةَ كذلك لا تعلمُ ما بين أيديها وما خلفَها، مُوَبِّخَهُمْ بذلك ومُقَرِّعَهُمْ بأنَّ مَنْ كان كذلك، فكيف يُعْبَدُ، وأنَّ العبادةَ إنما تصلحُ لمن لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾

يقول تعالى ذكره: استسَرت وجوهُ الخلق، واستسلمت للحيِّ الذي لا يموتُ، القيوم على خَلْقه بتدبيرِه إياهم، وتصريفهم لما شاءوا. وأصلُ العنو الذلّ يقال منه: عَنَا وَجْهُه لربه يَعْنُو عنواً، يعني خَضَعَ له وذلَّ، وكذلك قيل للأسير: عانٍ لذلةِ الأسْرِ.

وقوله: «وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً»، يقول تعالى ذكره: ولم يظفر بحاجته وطلبته مَنْ حملَ إلى موقفِ القيامة شركاً بالله، وكفراً به، وعملاً بمعصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾

يقول تعالى ذكره وتقدَّسَتْ أسماؤه: ومَنْ يعملْ من صالحاتِ الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض الله التي فرضها على عباده. «وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، يقول: وهو مُصَدِّقٌ بالله، وأنه مجازٍ أهلَ طاعتِه وأهلَ معاصيه على معاصيهم. «فَلا يَخافُ ظُلْماً»، يقول: فلا يخافُ من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره،

فيعاقبه عليها. «وَلا هَضْما»، يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: كما رَغَّبْنا أهلَ الإيمان في صالحاتِ الأعمال بِوَعْدِنَاهُمْ ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيدِ أهلَ الكفرِ بالمقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا فأنزلنا هذا القرآن عربياً، إذْ كانوا عَرَباً. «وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ»، فبيناه: يقول: وخَوَّفْنَاهُمْ فيه بضروبٍ من الوعيد. «لعلَّهم يتَّقون»، يقول: كي يَتَّقُونَا بتصريفنا ما صَرَّفْنَا فيه من الوعيد «أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً»، يقول: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرةً فيعتبرونَ ويتعظونَ بفعلنا بالأمم التي كذّبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هُمْ عليه مقيمون من الكفر بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فارتفع الذي له العبادة من جميع خلقه، الملكُ - الذي قهر سلطانه كل ملكٍ وجبار، - الحقُّ عما يَصِفُه به المشركون من خَلْقِه. «وَلا تَعْجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تعجلْ يا محمدُ بالقرآن فَتُقْرِئَهُ أصحابكَ، أو تقرأه عليهم من قبل أنْ يُوحَى إليه بيانُ معانيه، فعوتبَ على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه من كان يكتبه ذلك من قبل أن يبين له معانيه، وقيل: لا تَتْلُه على أحدٍ، ولا تُمْلِهِ عليه حتى نُبَيِّنَهُ لك.

وقوله: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً»، يقول تعالى ذكره: وقُلْ يا محمد: ربِّ زدني علماً إلى ما علمتني أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

يقول تعالى ذكره: وإنْ يضيع يا محمدُ هؤلاء الذين نُصَرِّفُ لهم في هذا القرآنِ من الوعيدِ عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمرَ عدوِّهم إبليس، ويطيعون في خلاف أمري، فقديماً مَّا فعل ذلك أبوهم آدم. «وَلَقَدْ عَهِدْنا»، إليه يقول: ولقد وَصَّيْنا آدمَ وقلنا له: «إنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ»، ووسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وعنى جلّ ثناؤه بقوله: «مِنْ قَبْلُ» هؤلاء الذين أخبر أنه صرَّف لهم الوعيدَ في هذا القرآن.

وقوله: «فَنَسِيَ»، يقول: فترك عهدي.

وقوله: «ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى العزم ههنا، فقال بعضهم: معناه الصبر.

وقال آخرون: بل معناه: الحِفْظُ، قالوا: ومعناه: ولم نجد له حفظاً لما عَهِدْنَا إليه.

وأصل العزم: اعتقادُ القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه؛ ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزعُ جازعٌ إلا من خَوَرِ قلبه وضعفه. فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: «ولَمْ نَجِدْ لَهُ

فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلبٍ على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره معلماً نبيه محمداً ﷺ، ما كان من تضييع آدمَ عهده، ومُعَرِّفَهُ بذلك أنَّ ولده لن يعدوا أنْ يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا مَنْ عصمه الله منهم «و» اذكرْ يا محمد «إذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أبى» أن يسجدَ له «فَقُلْنا يا آدَمُ إنَّ هَذَا عَدُوّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ» ولذلك من شنآنه لم يسجدْ لك، وخالفَ أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به فيخرجكما بمعصيتكما ربَّكُما، وطاعتكما له: «مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقى»، يقول: فيكون عيشك من كدِّ يدكَ، فذلك شقاؤه الذي حذَّرهُ ربه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِيله لآدم حين أسكنه الجنة «إنَّ لَكَ» ياآدم «أنْ لا تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرَى». و«أن» في قوله «أنْ لا تَجُوعَ فِيها» في موضع نصب بإنَّ التي في قوله: «إنَّ لَكَ».

وقوله: «وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيها» اختلفت القرأةُ في قراءتها، فقرأ ذلك بعض قرأة المدينة والكوفة بالكسر، وإنك على العطف على قوله «إنَّ لَكَ». وقرأ ذلك بعض قرأة المدينة وعامة قرأة الكوفة والبصرة وأنك بفتح ألفها عطفاً بها على «أن» التي في قوله: «أنْ لا تَجُوعَ فِيها». ووجَّهوا تأويلَ ذلك إلى أن لك هذا وهذا، فهذه القراءة أعجب القراءتين إليَّ، لأنَّ الله تبارك وتعالى ذِكْرُهُ وَعَدَ ذلك آدمَ حين أسكنه الجنةَ، فكون ذلك بأن يكون عطفاً على أن لا تجوعَ أوْلى من أن يكون خبر مبتدأ، وإنْ كان الآخر غير بعيد من الصواب.

وعنى بقوله: «لا تَظْمَأُ فِيها»، لا تعطش في الجنة مادمتَ فيها. «وَلا تَضْحَى»، يقول: لا تظهر للشمس فيؤذيك حَرُّهَا.

وقوله: «فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشَّيْطانُ»، يقول: فألقى إلى آدمَ الشَّيطانُ وحَدَّثَهُ «فَقالَ يا آدَمُ هَلْ أدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ»، يقول: قال له: هل أدلك على شجرةٍ إنْ أكلتَ منها خلدتَ فلم تمتْ، وملكتَ ملكاً لا ينقضي فيبلى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: فأكل آدمُ وحوّاء من الشجرةِ التي نُهيا عن الأكلِ منها، وأطاعا أمرَ إبليس، وخالفا أمرَ رَبِّهما «فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما»، يقول: فانكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما.

وقوله: «وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما منْ وَرَقِ الجَنَّةِ»، يقول: أقبلا يشدان عليهما من ورق الجنة.

وقوله: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى»، يقول: وخالفَ أمرَ ربه فتعدَّى إلى ما لم يكنْ له أن يتعدّى إليه من الأكلِ من الشجرة التي نهاه عن الأكلِ منها.

وقوله: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فتابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»، يقول: اصطفاه ربه من بعد معصيته إياه فرزقه الرجوعَ إلى ما يرضى عنه، والعمل بطاعته، وذلك هو كانت توبته التي تابها عليه.

وقوله: «وَهَدَى»، يقول: وهداهُ للتوبةِ، فوفَّقه لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾

يقول تعالى ذكره: قال الله تعالى لآدم وحوّاء: «اهْبطا مِنَها جَمِيعاً» إلى الأرض. «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ»، يقـول: أنتما عدوُّ إبليسَ وذرِّيته، وإبليسُ عدوُّكما وعدوُّ ذرِّيتكما.

وقوله: «فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى»، يقول: فإن يأتكم يا آدم وحوّاء وإبليس مني هدى: يقـول: بيان لسبيلي، ومـا أختـاره لخلقي من دين «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ»، يقول: فمن اتبع بياني ذلك وعمل به، ولم يزغ عنه. «فَلا يَضِلُّ»، يقول: فلا يزولُ عن مَحجةِ الحَقِّ، ولكنه يرشد في الدنيا ويهتدي. «وَلا يَشْقَى» في الآخرة بعقاب الله، لأنَّ الله يدخله الجنة، وينجيه من عذابه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾

يقول تعالى ذكره: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي»، الذي أذكره به فتولَّى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عَمَّا عليه مقيمٌ من خلافهِ أمرَ رَبِّه. «فإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً»، يقول: فإن له معيشة ضيقة. والضنكُ من المنازل والأماكن والمعايش: الشديدُ. يقال: هذا منزلُ ضنك: إذا كان ضيقاً، وعيشٌ ضنك: الذكر والأنثى والواحد والاثنان والجمع بلفظ واحد.

واختلف أهلُ التأويل في الموضع الذي جعل الله لهؤلاء المعرضين عن ذِكْرِه العيشة الضنك، والحال التي جعلهم فيها، فقال بعضهم: جعل ذلك لهم في الآخرة في جهنم، وذلك أنه جعل طعامهم فيها الضريع والزقوم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: فإنَّ له معيشةً في الدنيا حراماً قال: ووصف الله جلَّ وعزَّ معيشتهم بالضنك، لأنَّ الحرام وإن اتَّسَعَ فهو ضنك.

وقال آخرون ممن قال عنى أنَّ لهؤلاء القوم المعيشة الضنك في الدنيا، إنما قيل لها ضنك وإن كانت واسعة، لأنهم ينفقونَ ما ينفقونَ من أموالهم على تكذيبٍ منهم بالخلفِ من الله، وإياسٍ من فضلِ الله، وسوءِ ظنٍّ منهم بربهم، فتشتدّ لذلك عليهم معيشتهم وتضيق.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: أن ذلك لهم في البرزخ، وهو عذاب القبر.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: هو عذابُ القبر، فإنَّ الله تبارك وتعالى أتبع ذلك بقوله: «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى» فكان معلوماً بذلك أن المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة، لأن ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى» معنى مفهوم، لأن ذلك إنْ لم يكن تَقَدَّمَهُ عذابٌ لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدّ منه، بطل معنى قوله: «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأَبْقَى»، فإذ كان ذلك كذلك، فلا

تخلو تلك المعيشةُ الضنك التي جعلها الله لهم من أنْ تكون لهم في حياتهم الدنيا، أو في قبورهم قبل البعث، إذْ كان لا وجه لأنْ تكون في الآخرة لما قد بيَّنا، فإنْ كانت لهم في حياتهم الدنيا، فقد يجب أن يكون كلُّ مَنْ أعرضَ عن ذكر الله من الكفار، فإن معيشته فيها ضنك، وفي وجودنا كثيراً منهم أوسع معيشة من كثيرٍ من المقبلين على ذِكْرِ الله تبارك وتعالى، القابلين له المؤمنين في ذلك، ما يدلُّ على أنَّ ذلك ليس كذلك، وإذ خلا القولُ في ذلك من هذين الوجهين صحَّ الوجهُ الثالث، وهو أن ذلك في البرزخ.

وقوله: «وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أعْمَى»، اختلف أهلُ التأويل في صفة العمى الذي ذكر الله في هذه الآية، أنه يبعث هؤلاء الكفار يوم القيامة به، فقال بعضهم: ذلك عمى عن الحجة، لا عمى عن البصر. وقيل: يُحشر أعَمى البصر.

والصواب من القول في ذلك ما قال الله تعالى ذِكْرُه، وهو أنه يحشرُ أعمى عن الحجة ورؤية الشيءِ كما أخبر جَلَّ ثناؤه، فَعَمَّ ولم يخصص.

وقوله: «قالَ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بصِيراً»، يقول: ربِّ لم حشرتني أعمى عن حجتي ورؤية الأشياء، وقد كنت في الدنيا ذا بَصَرٍ بذلك كله.

فإنْ قال قائل: وكيف قال هذا لربه: «لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى» مع معاينته عظيم سلطانه، أجهل في ذلك الموقف أنْ يكون لله أنْ يفعل به ما شاء، أم ما وجه ذلك؟ قيل: إن ذلك منه مسألة لربه يُعَرِّفُه الجرمَ الذي استحقَّ به ذلك، إذ كان قد جهله، وظنَّ أنْ لا جرم له، استحق ذلك به منه، فقال: ربِّ لأيِّ ذنبٍ ولأيِّ جرمٍ حشرتني أعمى، وقد كنت من قبل في الدنيا بصيراً وأنت لا تعاقب أحداً إلا بدون ما يستحق منك من العقاب.

وقولـه: «قالَ كَذَلكَ أَتَتْكَ آياتنا فَنَسِيتَها»، يقول تعالى ذكره، قال الله حينئـذٍ للقـائلِ له: «لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً» فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيَّنه في كتابه، فنسيتَهـا: يقـول: فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمنْ بها، ولم تعمل. وعنى بقوله: «كَذَلكَ أَتَتْكَ» هكذا أتتك.

وقولـه: «وكَـذلكَ اليَوْمَ تُنْسَى»، يقول: فكما نسيتَ آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضتَ عنها، فكذلك اليوم نَنْسَاكَ، فنتركك في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وهكذا نجزي: أي نُثيبُ مَنْ أسرفَ فعصى ربه، ولم يؤمنْ برسله وكتبـه، فنجعـل له معيشـةً ضنكـاً في البرزخ كما قد بينًا قبل. «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأبْقى»، يقول جلّ ثناؤه: ولعذاب في الآخرة أشدُّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى: يقول: وأدومُ منها، لأنه إلى غيرِ أمدٍ ولا نهاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾

يقـول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أفلم يَهْدِ لقومكَ المشركينَ بالله، ومعنى يَهْدِ: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قَبْلَهم من الأمم التي سلكت قبلهـا التي يمشـون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثارَ عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبةِ ما هُمْ عليه مقيمونَ من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم،

ويعتبروا، ويُنِيبُوا إلى الإذعانِ، ويؤمنوا باللهِ ورسوله، خوفاً أنْ يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لَآياتٍ لأُولي النُّهَى»، يقول تعالى ذكره: إنَّ فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثارِ وقائعنا بالأمم المكذِّبةِ رسلها قبلهم، وحلول مثلاتنا بهم لكفـرهم بالله «لَآياتٍ»، يقول: لدلالات وعبراً وعظات «لِأُولي النُّهَى»، يعني: لأهلِ الحِجى والعقول، ومَنْ ينهاه عقلُه وفَهْمُه ودينه عن مواقعةِ مايضره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى ذكره: «وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» يا محمدُ أنَّ كلَّ مَنْ قضى له أجلاً فإنه لا يحترمه قبل بلوغه أجله «وأجلٌ مسمًّى»، يقول: ووقت مسمى عند ربك سماه لهم في أمِّ الكتاب وخطه فيه، هم بالغوه ومستوفوه «لَكَانَ لِزَاماً»، يقول: لَلَازَمَهُم الهلاكُ عاجلاً.

ومعنى الكلام: ولولا كلمةٌ سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً، فاصبر على ما يقولون.

وقوله: «فاصْبِرْ على ما يَقُولُونَ»، يقول جلّ ثناؤه لنبيه: فاصبر يا محمد على ما يقـول هؤلاء المكذّبون بآياتِ الله من قومكَ لك إنك ساحر، وإنك مجنونٌ وشاعر ونحو ذلك من القول. «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: وصل بثنائك على ربك.

وقوله: «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» وذلك صلاة الصبح «وَقَبْلَ غُرُوبِها» وهي العصر «وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ» وهي ساعات الليل، واحدها: إنى.

ويعني بقوله: «وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ» صلاة العشاء الآخرة، لأنها تصلى بعد مضيٍّ آناء من الليل.

وقوله: «وأطْرَافَ النَّهارِ»: يعني صلاة الظهر والمغرب؛ وقيل: أطراف النهار؛ والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا، لأنَّ صلاة الظهر في آخر طرف النهار الأوّل، وفي أوّل طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس، وعند ذلك تصلى المغرب، فلذلك قيل أطراف.

وقوله: «لَعَلَّكَ تَرْضَى»، يقول: كي ترضى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تنظرْ إلى ما جعلنا لضرباءِ هؤلاء المعرضين عن آياتِ ربهم وأشكالهم، متعة في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»، يقول: لنختبرهم فيما مَتَّعناهم به من ذلك ونبتليهم، فإنَّ ذلك فانٍ زائل، وغُرورٌ وخدعٌ تضمحلُّ «وَرِزْقُ رَبِّكَ» الذي وعدَكَ أنْ يرزقَكَهُ في الآخرةِ حتى ترضى، وهو ثوابه إياه «خَيْرٌ» لك مما متعناهم به من زهرةِ الحياة الدنيا. «وأبْقَى»، يقول: وأدوم، لأنه لا انقطاعَ له ولا نفادَ، وذكر أنَّ هذه الآية نزلت على رسولِ الله ﷺ، من أجلِ أنَّ رسولَ الله ﷺ بعث إلى يهوديّ يستسلفُ منه طعاماً، فأبى أن يسلفه إلا برهن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: «وأْمُرْ» يا محمدُ «أهْلَكَ بالصَّلاةِ وَاصْطَبرْ عَلَيْها»، يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت: «لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً»، يقول: لا نسألك مالاً، بل نكلفك عملاً ببدنك، نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً «نَحْنُ نَرْزُقُكَ»، يقول: نحن نعطيك المال ونُكْسِبكَهُ، ولا نسألكَهُ.

وقوله: «والعاقبَةُ للتَّقْوَى»، يقول: والعاقبةُ الصالحة من عمل كلّ عاملٍ لأهل التقوى والخشية من الله دون من لا يخاف له عقاباً، ولا يرجو له ثواباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء المشركون الذين وصف صِفَتهم في الآياتِ قَبْلُ هَلاَّ يأتينا محمدٌ بآيةٍ من ربه، كما أتى قومَهُ صالحٌ بالناقةِ وعيسى باحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، يقول الله جلّ ثناؤه: أو لم يأتهم بيانُ ما في الكتب التي قبل هذا الكتاب من أنباء الأمم من قبلهم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها لما أتتهم كيف عجَّلنا لهم العذاب، وأنزلنا بأسنا بكفرهم بها، يقول: فماذا يؤمنهم إنْ أتتهم الآيةُ أنْ يكونَ حالُهم حالَ أولئك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ولو أنَّا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذِّبُونَ بهذا القرآنِ من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعياً يَدْعُوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذابٍ ننزله بهم بكفرهم بالله، لقالوا يومَ القيامة إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: رَبَّنَا هَلاَّ أرسلتَ إلينا رسولاً يدعونا إلى طاعتك، فنتبع آياتك: يقول: فنتبع حُجَّتَكَ وأدلتك وما تنزله عليه من أمرِكَ ونهيِكَ من قبل أنْ نذلَّ بتعذيبك إيانا ونَخْزى به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ١٣٥﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمدُ كُلُّكُمْ أيها المشركون بالله متربصٌ: يقول: منتظرٌ لمن يكونُ الفلاح، وإلى ما يئولُ أمري وأمركم متوقفٌ ينتظرُ دوائرَ الزمان، فَتَرَبَّصُوا: يقول: فترقَّبُوا وانتظروا، فستعلمونَ مَنْ أهلُ الطريقِ المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاجَ فيه إذا جاء أمرُ الله وقامت القيامة، أنحنُ أم أنتم؟ ومن اهتدى: يقول: وستعلمون حينئذٍ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم.



بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾

يقول تعالى ذكره: دَنَا حسابُ الناسِ على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم، وأجسامهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وملابسهم وغير ذلك من نعمهِ عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوهُ فيها، فانتهوا إلى أمرهِ ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟. «وَهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ»، يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعلٌ بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دُنُوِّ محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم في سهوٍ وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكرَ فيه، والاستعدادَ له، والتأهبَ جهلاً منهم بما هم لاقُوه عند ذلك من عظيمِ البلاء، وشديدِ الأهوال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذكره: ما يحدث الله من تنزيلِ شيء من هذا القرآنِ للناس، ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعُوه، وهم يلعبون لاهيةً قلوبُهُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٣﴾



يقول تعالى ذكره: «لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» غافلة: يقول: ما يستمع هؤلاء القومُ الذين وصف صفتهم هذا القرآن إلا وهم يلعبون غافلة عنه قلوبُهم، لا يتدبرون حُكْمَهُ، ولا يتفكَّرونَ فيما أودعهُ الله من الحججِ عليهم.

وقوله: «وأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول: وأسرَّ هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعةُ منهم وهم في غفلةٍ معرضون، لاهية قلوبهم، النجوى بينهم، يقول: وأظهروا المناجاةَ بينهم فقالوا: هل هذا الذي يزعمُ أنه رسولٌ من الله أرسله إليكم، إلا بَشَرٌ مثلُكم: يقولون: هل هو إلا إنسانٌ مثلكم في صوركم وخلقكم، يعنون بذلك محمداً ﷺ، وقال الذين ظلموا فوصفهم بالظلم بفِعْلِهم وقِيلِهم الذي أخبر به عنهم في هذه الآيات إنهم يفعلون ويقولون من الإعراضِ عن ذكرِ الله، والتكذيبِ برسوله.

وقوله: «أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، يقول: وأظهروا هذا القول بينهم، وهي النجوى التي أسرُّوها بينهم، فقال بعضهم لبعضٍ: أتقبلونَ السحر، وتصدِّقُونَ به وأنتم تعلمون أنه سحر؟ يعنون بذلك القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٤﴾

اختلفت القَرَأَة في قراءةِ قوله: «قالَ رَبِّي»، فقرأ ذلك عامة قَرَأَة أهل المدينة والبصرة وبعض الكوفيين «قُلْ رَبِّي» على وجه الأمرِ، وقرأه بعض قَرَأَةِ

مكة، وعامة قَرَأة الكوفة: «قالَ رَبّي» على وجه الخبر، وكأن الذين قرءوه على وجهِ الأمر أرادوا من تأويله: قُلْ يا محمد للقائلين «أتأْتُونَ السِّحْرَ وأنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، ربي يعلمُ قولَ كلِّ قائلٍ في السماء والأرض، لا يخفَى عليه منه شيءٌ وهو السميعُ لذلك كله، ولما يقولونَ من الكذبِ العليمُ بصِدْقي، وحقيقةِ ما أدعوكُمْ إليه، وباطلِ ما تقولون، وغيرِ ذلك من الأشياء كلها. وكأنَّ الذين قرءوا ذلك «قال» على وجه الخبر أرادوا، قال محمد: «ربي يعلمُ القولَ» خبراً من الله عن جواب نبيه إياهم.

والقول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القرأة، وجاءت بهما مصاحف المسلمين متفقة المعنى، وذلك أن الله إذا أمر محمداً بقِيل ذلك قاله، وإذا قاله فَعَنْ أمرِ الله قاله، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ الصوابَ في قراءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذكره: ما صدَّقُوا بحكمةِ هذا القرآن، ولا أنه من عند الله، ولا أقَرُّوا بأنه وحي أوحَى اللهُ إلى محمدٍ ﷺ، بل قال بعضهم: هو أهاويلُ رؤيا رآها في النوم. وقال بعضهم: هو فِرْيةٌ واختلاق افتراه واختلقه من قِبَل نفسه. وقال بعضهم: بل محمدٌ شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر «فَلْيَأْتِنا» به يقول: «قالوا فليجئنا محمدٌ إنْ كان صادقاً في قوله، إنَّ الله بعثه رسولاً إلينا، وإن هذا الذي يتلوه علينا وحيٌ من الله أوحاه إلينا «بآيةٍ» يقول: بحجةٍ ودلالة على حقيقة ما يقول ويدّعي «كمَا أُرْسِلَ الأوَّلُونَ»، يقول: كما جاءت به الرسلُ الأوَّلونَ من قبْله من إحياءِ الموَتى، وإبراءِ الأكمه والأبرص وكناقةِ صالح، وما

أشبهَ ذلك من المعجزاتِ التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياءُ والرسل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذكره: ما آمنَ من قبل هؤلاء المكذِّبين محمداً من مشركي قومهِ الذين قالوا: فليأتنا محمدٌ بآيةٍ كما جاءت به الرسل قبله من أهلِ قريةٍ عذَّبناهُمْ بالهلاكِ في الدنيا، إذ جاءهم رسولُنا إليهم بآيةٍ معجزة. «أفَهُم يُؤْمِنُونَ»، يقول: أفهؤلاء المكذّبون محمداً السَّائِلُوه الآيةَ يؤمنونَ به إنْ جاءتهم آيةٌ، ولم تؤمن قبلهمْ أسلافهم من الأممِ الخالية التي أهلكناها برسلها مع مجيئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وما أرسلنا يا محمدُ قبلكَ رسولاً إلى أمةٍ من الأممِ التي خلت قبلَ أمتكَ إلا رجالاً مثلهم نُوحي إليهم، ما نريدُ أنْ نُوحيه إليهم من أمرنا ونهينا، لا ملائكةً، فماذا أنكروا من إرسالنا لكَ إليهم، وأنتَ رجلٌ كسائرِ الرسل الذين قبلك إلى أممهم.

وقوله: «فاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»، يقول للقائلينَ لمحمدٍ ﷺ في تناجيهم بينهم: هل هذا إلا بشرٌ مثلكم، فإنْ أنكرتم وجهلتم أمرَ الرسلِ الذين كانوا من قبل محمدٍ، فلم تعلموا أيها القومُ أمرهم إنساً كانوا أم ملائكة، فاسألوا أهلَ الكتبِ من التوراةِ والإنجيلِ ما كانوا يخبروكم عنهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذكره: وما جعلنا الرسلَ الذين أرسلناهم من قبلكَ يا محمدُ إلى الأممِ الماضية قبل أمتك. «جَسَدًا لا يَأْكُلُون الطَّعامَ»، يقول: لم نجعلهم ملائكةً لا يأكلونَ الطعام، ولكن جعلناهم أجساداً مثلك يأكلون الطعام.

وقوله: «ومَا كانُوا خالِدِينَ»، يقول: ولا كانوا أرباباً لا يموتون ولا يفنون، ولكنهم كانوا بشراً أجساداً فماتوا، وذلك أنهم قالوا لرسولِ الله ﷺ، كما قد أخبر الله عنهم: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً»... إلى قوله: «أوْ تَأْتِيَ بالله وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً» قال الله تبارك وتعالى لهم: ما فعلنا ذلك بأحدٍ قبلكم فنفعل بكم، وإنما كنا نرسلُ إليهم رجالاً نُوحي إليهم كما أرسلنا إليكم رسولاً نوحي إليه أمرَنا ونهينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

يقـول تعـالى ذكره: ثم صدقنا رُسُلَنَا الذين كَذَّبتهم أُممهم، وسألتهم الآياتِ، فآتيناهم ما سألوهُ من ذلك، ثم أقاموا على تكذِيبهم إياها، وأصرُّوا على جُحودهم نبوَّتَها بعد الذي أتتهم به من آياتِ ربِّها، وَعَدْنَا الذي وعدناهم من الهلاكِ على إقامتِهم على الكفر بربهم بعد مجيء الآية التي سألوا، وذلك كقوله جلَّ ثناؤه: «فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أحداً مِنَ العالَمِينَ»، وكقوله: «وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ» ونحو ذلك من المواعيد التي وعد الأمم مع مجيء الآيات.

وقوله: «فَأَنْجَيْناهُمْ» يقول تعالى ذكره: فأنجينا الرسلَ عند إصرارِ أممها على تكذيبها بعد الآياتِ «وَمَنْ نَشاءُ» وهم أتباعها الذين صَدَّقُوها وآمنوا بها.

وقوله: «وأهْلَكنا المسْرِفِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، فيه حديثكم.

وقال آخرون: بل عَنَى بالذكر في هذا الموضع: الشرف، وقالوا: معنى الكلام: لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه شَرَفُكم.

وهذا القولُ الثاني أشبه بمعنى الكلمة، وذلك أنه شرفٌ لمن اتبعه وعملَ بما فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذكره: وكثيراً قصمنا من قريةٍ، والقصمُ: أصله الكسرُ، يقال منه: قصمت ظهر فلان إذا كسرته، وانقصمت سِنُّه: إذا انكسرت، وهو ههنا معنيٌّ به: أهلكنا.

وقوله: «مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً» أجرى الكلام على القرية، والمراد بها أهلها لمعرفةِ السامعينَ بمعناه، وكأن ظلمها: كفرها بالله، وتكذيبها رسله.

وقوله: «وأنْشأنْا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمةَ من أهلِ هذه القرية التي قصمناها بظلمها قوماً آخرين سواهم.

وقوله: «فَلَمَّا أحَسُّوا بأْسَنا»، يقول: فلما عاينوا عذابنا قد حَلَّ بهم، ورأوه قد وجدوا مَسَّهُ، يقال منه: قد أحسستُ من فلان ضعفاً، وأحسسته منه. «إذَا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ»، يقول: إذا هم مما أَحَسُّوا بأسنا النازلَ بهم يهربونَ سِراعَاً عَجْلَى، يَعْدُون منهزمين، يقال منه: ركض فلان فرسه: إذا كَدَّه بسياقته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا تهربوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه: يقول: إلى ما أُنعمتم فيه من عيشتكم ومساكنكم.

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ» فقال بعضهم: معناه: لعلكم تفقهون، وتفهمون بالمسألة.

وقال آخرون: بل معناه لعلكم تسألونَ من دنياكم شيئاً على وجه السخريةِ والاستهزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء الذين أحلَّ اللهُ بهم بأسه بظلمهم، لما نزلَ بهم بأسُ الله: ياويلنا إنَّا كنا ظالمين، بكفرنا بربنا، فما زالتْ تلك دَعْوَاهُمْ؛

يقول: فلم تزل دعواهم، حين أتاهم بأسُ الله، بظلمهم أنفسَهُمْ: «ياوَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» حتى قتلهم الله، فحصدَهُمْ بالسيفِ كما يُحْصَدُ الزرعُ ويستأصل قطعاً بالمناجل.

وقوله: «خامِدِينَ» يقول: هالكين قد انطفأتْ شرارتهم، وسكنتْ حركتهم، فصاروا هموداً كما تخمد النار فتطفأ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذكره: «ومَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأرْض ومَا بَيْنَهُما» إلا حجةً عليكم أيها الناسُ، ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أنَّ الذي دَبَّرَهُ وخَلَقَهُ لا يشبههُ شيءٌ، وأنه لا تكونُ الألوهةُ إلا له، ولا تصلحُ العبادةُ لشيءٍ غيره، ولم يَخْلق ذلك عبثاً ولعباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذكره: لو أردنا أنْ نَتَّخِذَ زوجةً وولداً لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكنا لا نفعلُ ذلك، ولا يصلحُ لنا فِعْلُه، ولا ينبغي، لأنه لا ينبغي أنْ يكونَ لله ولدٌ ولا صاحبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذكره: ولكن ننزل الحقَّ من عندنا، وهو كتابُ الله وتنزيله على الكفرِ به وأهله، فيدمغه: يقول: فيهلكه كما يدمغُ الرجلُ الرجلَ بأنْ يشجَّهُ على رأسهِ شجةً تبلغُ الدماغَ، وإذا بلغت الشجةُ ذلك من المشجوجِ لم يكنْ له بعدها حياة.

وقوله: «فإذَا هُوَ زَاهِقٌ» يقول: فإذا هو هالكٌ مُضْمَحِلٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذكره: وكيف يجوزُ أنْ يتخذ الله لهواً، وله مُلكُ جميعِ مَنْ في السموات والأرض، والذين عنده من خَلْقِه، لا يستنكفونَ عن عبادتِهم إياه، ولا يَعْيَوْنَ من طولِ خدمتهم له، وقد علمتم أنه لا يستعبد والدٌ ولده ولا صاحبته، وكُلُّ مَنْ في السموات والأرض عبيدُه، فأنَّى يكونُ له صاحبةٌ وولد: يقول: أولا تتفكرونَ فيما تفترونَ من الكذبِ على ربِّكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسبح هؤلاء الذين عنده من ملائكةِ ربِّهم الليلَ والنهارَ لا يفترونَ من تسبيحِهم إياه.

وقوله: «أمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أَتَّخَذَ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض هم ينشرون: يعني بقوله هم: الآلهة، يقول: هذه الآلهةُ التي اتخذوها تنشرُ الأمواتَ، يقول: يحيون الأمواتَ، وينشرونَ الخَلْقَ، فإنَّ الله هو الذي يحيي ويميت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو كان في السمواتِ والأرض آلهةٌ تَصْلُحُ لهم العبادةُ سوى الله الذي هو خالقُ الأشياء، وله العبادةُ والألوهةُ التي لا تصلح إلا له. «لَفَسَدَتا»، يقول: لفسدَ أهلُ السموات والأرض. «فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: فتنزيهُ لله وتبرئةٌ له مما يفتري به عليه هؤلاء المشركون به من الكذبِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾



يقول تعالى ذكره: لا سائل يسألُ ربَّ العرشِ عن الذي يفعلُ بخلْقِه من تصريفِهم فيما شاءَ من حياةٍ وموتٍ وإعزازٍ وإذلال، وغير ذلك من حُكْمِه فيهم، لأنهم خَلْقُه وعبيده، وجميعُهم في ملكِهِ وسلطانه، والحكمُ حُكْمُه، والقضاءُ قضاؤه، لا شيءَ فوقَهُ، يَسْألُه عما يَفْعل، فيقول له: لِمَ فعلتَ؟ ولِمَ لَمْ تفعلْ؟ «وَهُمْ يُسْأَلُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: وجميعُ مَنْ في السموات والأرض من عبادهِ مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبونَ على أعمالهم، وهو الذي يَسأَلُهم عن ذلك، ويحاسبُهم عليه، لأنه فوقَهم ومالكهم، وهم في سلطانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذكره: أتخذ هؤلاء المشركونَ من دونِ الله آلهةً تنفعُ وتضرُّ، وتَخلق وتُحيي وتُميت؟ قل يا محمدُ لهم: هاتُوا برهانكم، يعني حُجَّتكم، يقول: هاتوا إنْ كنتم تزعمون أنكم مُحِقُّونَ في قِيلكم ذلك حجة ودليلاً على صِدْقِكم.

وقوله: «هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ» يقول: هذا الذي جئتكم به من عند الله من القرآنِ والتنزيل «ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ»، يقول: خبرُ مَنْ معي مما لهم من ثوابِ الله على إيمانهم به، وطاعتهم إياه، وما عليهم من عقابِ الله على معصيتهم إياه وكفرهم به. «وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي» يقول: وخبرُ مَنْ قبلي من الأممِ التي سلفت قبلي، وما فعل الله بهم في الدنيا وهو فاعلٌ بهم في الآخرة.

وقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ»، يقول: بل أكثرُ هؤلاء المشركينَ لا يعلمونَ الصوابَ فيما يقولون، ولا فيما يأتونَ ويَذَرونَ، فهم مُعْرِضُونَ عن الحقِّ جهلاً منهم به، وقلَّةَ فَهْمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذكره: وما أرسلنا يا محمدُ من قبلك من رسولٍ إلى أمةٍ من الأممِ إلا نُوحي إليه أنه لا معبودَ في السمواتِ والأرض، تصلحُ العبادةُ له سواي فاعبدونِ: يقول: فأخلصوا لي العبادةَ، وأفردوا لي الألوهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بربهم: اتخذَ الرحمنُ ولداً من

ملائكته، فقال جلّ ثناؤه استعظاماً مما قالوا وتبرِّياً مما وصفُوه به سبحانه، يقول تنزيهاً له عن ذلك، ما ذلك من صفته. «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ»، يقول: ما الملائكةُ كما وصفهم به هؤلاء الكافرونَ من بني آدم، ولكنهم عبادٌ مكرمون يقول: أكرمهم الله.

وقوله: «لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ»، يقول جلّ ثناؤه: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به رَبُّهم، ولا يعملون عملاً إلا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذكره: يعلمُ ما بين أيدي ملائكتِه ما لم يبلغوه، ما هُوَ، وما هُمْ فيه قائلونَ وعاملونَ، «وما خلفهم»، يقول: وما مضى من قبل اليومِ مما خَلَّفُوه وراءهم من الأزمانِ والدهورِ ما عملوا فيه، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيء.

وقوله: «ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى»، يقول: ولا تشفع الملائكةُ إلا لمن رضيَ الله عنه.

وقوله: «وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»، يقول: وهُمْ من خوفِ اللهِ وحذارِ عقابِهِ أنْ يحلَّ بهم مشفقون: يقول: حَذِرُونَ أنْ يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذكره: ومَنْ يَقُلْ من الملائكةِ: إني إلهٌ من دونِ الله «فَذَلِكَ»

الـذي يقـولُ ذلك منهم «نَجْزيهِ جهنَّمَ»، يقول: نُثيبُه على قِيلِه ذلك جهنمَ «كَذلكَ نَجْزي الظَّالِمينَ»، يقول: كما نجزي مَنْ قال من الملائكة: إني إلهٌ من دونِ الله جهنمَ، كذلك نجزي ذلك كُلَّ مَنْ ظلم نفسه، فكفرَ بالله وعبدَ غيره. وقيل: عنى بهذه الآية إبليسَ. وقال قائلو ذلك: إنما قلنا ذلك، لأنه لا أحدَ من الملائكةِ قال: إني إله من دون الله سواه.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: أو لم ينظُرْ هؤلاء الذين كفروا بالله بأبصارِ قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً: يقول: ليس فيهما ثقبٌ، بل كانتا ملتصقتين.

وقوله: «فَفَتَقْناهُما»، يقول: فصدعناهما وفرجناهما.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصفِ الله السمواتِ والأرضَ بالرتقِ، وكيف كان الرتقُ، وبأيِّ معنى فتق؟ فقال بعضهم: عَنَى بذلك أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا ملتصقتين، ففصلَ اللهُ بينهما بالهواء.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنَّ السموات كانت مرتتقةً طبقةً، ففتقها الله فجعلها سبعَ سمواتٍ، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة، ففتقها، فجعلها سبعَ أرضين.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أنَّ السمواتِ كانت رتقاً لا تُمْطِرُ، والأرض كذلك رتقاً لا تُنْبِتُ، ففتق السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات.

وقال آخرون: إنما قيل: «فَفَتَقْناهُما» لأنَّ الليلَ كان قبل النهار، ففتق النهار.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب قولُ من قال: معنى ذلك: أو لم يَرَ الذين كفروا أن السمواتِ والأرضَ كانتا رتقاً من المطرِ والنباتِ، ففتقنا السماء بالغيثِ، والأرض بالنبات.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى بالصوابِ في ذلك لدلالة قوله: «وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ» على ذلك، وأنه جلّ ثناؤه لم يعقب ذلك بوصفِ الماء بهذه الصفةِ إلا والذي تَقَدَّمَهُ من ذِكْرِ أسبابِهِ.

وقوله: «أفَلا يُؤْمِنُونَ»، يقول: أفلا يصدّقون بذلك، ويُقِرُّونَ بألوهةِ مَنْ فعلَ ذلك ويفردونه بالعبادة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يَرَ هؤلاء الكفار أيضاً من حججنا عليهم وعلى جميعِ خَلقنا، أنَّا جعلنا في الأرض جبالاً راسيةً، والرواسي: جمع راسيةٍ، وهي الثابتة.

وقوله: «أنْ تَمِيدَ بِهِمْ»، يقول: أنْ لا تَتَكَفَّأَ بهم، يقول جَلَّ ثناؤه: فجعلنا في هذه الأرض هذه الرواسي من الجبالِ، فثبتناها لئلا تتكفأ بالناسِ، وليقدروا بالثباتِ على ظهرها.

«وجَعَلْنا فيها فِجاجاً سبلاً»، يعني: مسالك، واحدها فجٌّ

وقوله: «سُبُلًا» أي طرقا، وهي جمع السبيل.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، يقول تعالى ذكره: جعلنا هذه الفِجَاجَ في الأرض ليهتدوا إلى السير فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفاً» للأرض مسموكاً.

وقوله: «مَحْفُوظاً»، يقول: حفظناها من كلِّ شيطانٍ رجيم.

وقوله: «وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ»، يقول: وهؤلاء المشركون عن آياتِ السماء، ويعني بآياتها: شمسَها وقمرَها ونجومَها. «معرضون»، يقول: يُعْرِضُونَ عن التفكُّرِ فيها، وتَدَبُّرِ ما فيها من حججِ الله عليهم، ودلالتها على وحدانيةِ خالقها، وأنه لا ينبغي أنْ تكونَ العبادةُ إلا لمن دَبَّرَهَا وسوَّاها، ولا تصلحُ إلا له.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»، يقول تعالى ذكره: والله الذي خلق لكم أيها الناسُ الليلَ والنهار، نعمةً منه عليكم وحجة، ودلالةً على عظيمِ سلطانه، وأنَّ الأُلوهةَ له دونَ كلِّ ما سواه فهما يختلفان عليكم لصلاحِ معايشكم وأمورِ دنياكم وآخرتكم، وخلق الشمسَ والقمر أيضاً، كلٌّ في فلكٍ يسبحون، يقول: كلُّ ذلك في فلكٍ يسبحون.

وأما قوله: «يَسْبَحُونَ» فإن معناه: يَجْرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: وما خلدنا أحداً من بني آدم يا محمدُ قبلكَ في الدنيا فنخلِّدَكَ فيها، ولابُدَّ لكَ من أن تموتَ كما ماتَ من قبلك رُسُلنَا. «أفإنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدُونَ»، يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدونَ في الدنيا بعدك؟ لا، ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكلِّ حالٍ عشتَ أو متَّ.

وقوله: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَة المَوْتِ»، يقول تعالى ذكره: كُلُّ نفسٍ منفوسةٍ من خَلْقِه، معالجةٌ غصصَ الموتِ، ومتجرّعةٌ كأسها.

وقوله: «وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرّ والخَيْرِ فِتْنَةً»، يقول تعالى ذكره: ونختبركم أيها الناسُ بالشرِّ، وهو الشدَّةُ نبتليكم بها، وبالخيرِ، وهو الرخاءُ والسعة العافية، فنفتنكم به.

وقوله: «وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ»، يقول: وإلينا يُرَدُّونَ فَيُجازونَ بأعمالهم، حَسنها وسَيِّئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَإِذَا رآكَ» يا محمدُ «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً»، يقول: ما يتخذونك إلا سخرياً يقولُ بعضُهم لبعض: «أهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ»، يعني بقوله: يذكرُ آلهتكم بسوءٍ ويَعِيبها، تعجباً منهم من ذلك، يقول الله تعالى ذكره: فيعجبونَ من ذكرك يا محمدُ آلهتَهُمْ التي لا تضرُّ ولا تنفعُ بسوء «وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ» الذي خلقهم وأنعم عليهم، ومنه نفعُهم، وبيده ضرُّهم، وإليه مرجِعُهم بما هو أهلُه منهم أن يذكروه

به كافرون، والعربُ تضعُ الذِّكْرَ موضعَ المدحِ والذمِّ، فيقولون: سمعنا فلانا يذكرُ فلاناً، وهم يريدون سمعناه يذكرهُ بقبيحٍ ويعيبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «خُلِقَ الإنْسانُ»، يعني آدم «مِنْ عَجَلٍ».

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: من عجلٍ في بُنْيَتِه وخِلْقَتِهِ، كانَ من العجلة، وعلى العجلة.

وقال آخرون: معناه: خُلِقَ الإنسانُ من عجل: أي من تعجيلٍ في خلقِ الله إياهُ ومن سرعـةٍ فيه وعلى عجـلٍ، وقالوا: خَلَقَهُ الله في آخرِ النهار يومَ الجمعةِ قبلَ غروبِ الشمس على عجلٍ في خلقه إياه قبل مغيبها.

وقال بعضُ أهلِ العربية من أهلِ البصرة ممن قال نحو هذه المقالة: إنما قال: خُلق الإنسان من عجل، وهو يعني أنه خلقه من تعجيلٍ من الأمر، لأنه قال: «إنَّمَا قَوْلُنا لِشَيْءٍ إذَا أرَدْناهُ أنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» قال: فهذا العجل.

وقـوله: «فَلا تَسْتَعْجِلُونِ» إني «سأُرِيكُمْ آياتِي» وعلى قول صاحب هذه المقالة يجب أنْ يكونَ كُلُّ خَلْقِ الله خُلِقَ على عجلٍ، لأنَّ كُلَّ ذلك خُلِقَ بأنْ قِيلَ له كُنْ فكانَ. فإذا كان ذلك كذلك، فما وجهُ خصوصِ الإنسانِ إذاً بذكرِ أنه خُلق من عجلٍ دونَ الأشياءِ كلها، وكلها مخلوقٌ من عجل، وفي خصوص الله تعالى ذِكْرُه الإنسانَ بذلك الدليلُ الواضحُ على أنَّ القولَ في ذلك غير الذي قاله صاحبُ هذه المقالة.

وقال آخرون: منهم: هذا من المقلوب، وإنما خُلِقَ العَجَلُ من الإنسان، وخُلِقَتِ العَجَلةُ من الإنسانِ، وقالوا ذلك مثل قوله: «ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ» إنما هو لتنوء العصبةُ بها متثاقلةً، وقالوا: هذا وما أشبهه في كلام العرب كثيرٌ مشهور، قالوا: وإنما كلم القوم بما يعقلون، قالوا: وذلك مثل قولهم: عَرضتُ الناقة، وكقولهم إذا طلعت الشعرى واستوت العود على الحِرْباء: أي استوت الحرباء على العود.

والصوابُ من القولِ في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عَمَّنْ قال معناه: خُلِقَ الإنسانُ من عجلٍ في خلقه: أيْ على عجلٍ وسرعةٍ في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه بُودِرَ بخلقهِ مغيبَ الشمسِ في آخرِ ساعةٍ من نهارِ يومِ الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح.

وإنما قلنا أوْلى الأقوالِ التي ذكرناها في ذلك بالصوابِ، لدلالةِ قولهِ تعالى: «سأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ» على ذلك.

فتأويلُ الكلامِ إذا كان الصوابُ في تأويل ذلك ما قُلْنَا: «خُلِقَ الإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ»، ولذلك يستعجلُ رَبَّهُ بالعذابِ. «سأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ»، أيها المستعجلونَ رَبَّهم بالآياتِ القائلونَ لنبينا محمدٍ ﷺ: بل هو شاعرٌ، فليأتِنَا بآيةٍ كما أرسل الأوَّلونَ، آياتي[1]، كما أريتها من قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسلَ، إذ أتتها الآياتُ فلا تستعجلون، يقول: فلا تستعجلوا رَبَّكم، فإنا سنأتيكم بها ونُرِيْكُمُوهَا.

وقوله: «وَيَقُولُونَ مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول تعالى ذكره: ويقول هؤلاء المستعجلون رَبَّهم بالآياتِ والعذاب لمحمدٍ ﷺ: متى هذا

---

(١) السياق سأريكم آياتي فلا تستعجلون... آياتي.

الوعدُ: يقول: متى يجيئنا هذا الذي تَعِدُنَا من العذابِ إنْ كنتم صادقين فيما تعدوننا به من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو يعلمُ هؤلاء الكفار المستعجلونَ عذابَ رَبِّهم ماذا لهم من البلاءِ حين تَلْفَحُ وجوههم النارُ، وهم فيها كالحون، فلا يَكُفُّونَ عن وجوهِهم النارَ التي تلفَحُهَا، ولا عن ظهورِهم فيدفعونها عنها بأنفسهم. «وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ»، يقول: ولا لهم ناصرٌ ينصرهم، فيستنقذهم حينئذٍ من عذابِ الله لما أقاموا على ما هُمْ عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبةِ منه والإيمانِ بالله، ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذكره: لا تأتي هذه النارُ التي تلفحُ وجوه هؤلاء الكفارِ الذين وَصَفَ أمْرَهُمْ في هذه السورة حين تأتيهم عن علمٍ منهم بوقتها، ولكنها تأتيهم مفاجأةً لا يشعرونَ بمجيئها فَتَبْهَتُهُمْ: يقولُ: فتغشَاهُمْ فجأة، وتلفحُ وجوههم معاينةً كالرجلِ يَبْهَتُ الرجلَ في وجههِ بالشيء، حتى يبقى المبهوتُ كالحيرانِ منه، «فلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها»، يقول: فلا يُطِيقونَ حين تَبْغَتُهم، فتبهتهم دَفْعَها عن أنفسهم. «وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ»، يقول: ولا هُمْ وإنْ لم يُطِيقُوا دَفْعَها عن أنفسهم يُؤَخَّرُونَ بالعذابِ بها لتوبةٍ يُحْدِثُونَها، وإنابةٍ ينيبون، لأنها ليست حينَ عملٍ وساعةَ تَوْبةٍ وإنابةٍ، بل هي ساعةُ مجازاةٍ وإثابة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: إنْ يَتَّخِذْكَ يا محمدُ هؤلاء القائلونَ لك: هل هذا إلا بَشَرٌ مثلكم، أفتأتونَ السحرَ وأنتم تبصرون، إذْ رأوك هُزُواً، ويقولون: هذا الذي يذكرُ آلهتكم كفراً منهم بالله، واجتراءً عليه، فلقد استهزىء برسلٍ من رسلنا الذين أرسلناهم من قبلك إلى أممهم، يقول: فوجَبَ ونزلَ بالذين استهزءوا بهم، وسخروا منهم من أممهم ما كانُوا به يستهزءون: يقولُ جلَّ ثناؤه: حَلَّ بهم الذي كانوا به يستهزءونَ من البلاءِ والعذابِ الذي كانت رُسُلهم تُخَوِّفُهم نزولَهُ بهم، يستهزءون: يقول جلّ ثناؤه، فلن يَعْدُو هؤلاء المستهزءون بكَ من هؤلاءِ الكَفَرةِ أنْ يكونوا كأسلافِهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها، فينزل بهم من عذابِ الله وسخطه باستهزائِهم بكَ نظير الذي نزلَ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء المُسْتَعْجِليكَ بالعذابِ، القائلينَ: متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين: مَنْ يَكْلَؤُكُم أيها القومُ: يقول: مَنْ يحفظُكم ويحرسكم بالليلِ إذا نمتم، وبالنهارِ إذا تصرَّفْتُمْ من الرحمن؟ يقول: من أمرِ الرحمنِ إنْ نزلَ بكم، ومن عذابِهِ إنْ حلَّ بكم، وترك ذكر الأمر، وقيل من الرحمن اجتزاءً بمعرفةِ السامعينَ لمعناه من ذِكْرِه.

قوله: «بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ»، وقوله: «بل»: تحقيقٌ لجحدٍ قد عرفَهُ المخاطبونَ بهذا الكلام، وإنْ لم يكن مذكوراً في هذا الموضع ظاهراً، ومعنى الكلام: وما لهم أنْ لا يعلموا أنه لا كالئَ لهم من أمرِ الله إذا هو حلَّ

بهم ليلاً أو نهاراً، بل هُمْ عن ذِكْرِ مواعظِ رَبِّهم وحججه التي احتجَّ بها عليهم معرضون لا يتدبرونَ ذلك، فلا يعتبرونَ به، جهلاً منهم وسفهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ألهؤلاء المُسْتَعْجِلي رَبِّهم بالعذابِ آلهةٌ تمنعُهم، إنْ نحنُ أحللنا بهم عذابَنا، وأنزلنا بهم بأسَنا من دوننا، ومعناه: أم لهم آلهةٌ من دوننا تمنعُهم مِنَّا، ثم وصفَ جلَّ ثناؤه الآلهةَ بالضعفِ والمهانةِ، وما هيَ به من صفتها، فقال: وكيف تستطيعُ آلهتهم التي يَدْعُونَها من دوننا أنْ تمنَعَهُمْ منا وهي لا تستطيعُ نصرَ أنفسها.

وقوله: «وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ»، يقول: ولا هم منا يُجارُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ما لهؤلاء المشركينَ من آلهةٍ تَمْنَعُهم من دوننا، ولا جارٍ يُجيرهُمْ من عذابنا، إذا نحنُ أردنا عذابَهم، فاتَّكَلُوا على ذلك، وعَصَوا رُسُلَنا اتكالاً منهم على ذلك، ولكنا متعناهم بهذه الحياةِ الدنيا وآباءَهُمْ من قَبْلِهم حتى طالَ عليهم العمرُ، وهُمْ على كُفْرِهم مقيمونَ، لا تأتيهم منا واعظةٌ من عذابٍ، ولا زاجرةٌ من عقابٍ على كفرهم وخلافِهم أمرنا، وعبادتهم الأوثانَ والأصنامَ، فنسوا عَهْدَنا وجهلوا موقعَ نعمتنا عليهم، ولم يعرفوا موضعَ الشكر.

وقوله: «أفَلا يَرَوْنَ أنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أطْرَافِها»، يقول تعالى

ذكره: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله السائلُو محمد ﷺ الآياتِ، المستعجلوه بالعذاب، أنَّا نأتي الأرض نُخَرِّبُهَا من نواحيها بقهرنا أهلَها، وغَلَبَتِناهُمْ، وإجلائِهم عنها، وقَتْلِهم بالسيوفِ، فيعتبروا بذلك ويَتَّعِظُوا به، ويَحْذَرُوا منا أنْ نُنَزِّلَ من بأسنا بهم نحوَ الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهلِ الأطراف.

وقوله: «أفَهُمُ الغالِبُونَ»، يقول تبارك وتعالى: أفهؤلاء المشركون المستعجلُو محمد بالعذابِ الغالبونا، وقد رأوا قَهْرَنَا من أحللنا بساحتِهِ بأسَنَا في أطرافِ الأرضينَ، ليس ذلك كذلك، بل نحنُ الغالبون، وإنما هذا تقريعٌ من الله تعالى لهؤلاء المشركين به بجهلهم يقول: أفيظنون أنهم يغلبونَ محمداً ويقهرونه، وقد قهر مَنْ ناوأه من أهلِ أطرافِ الأرضِ غيرِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء القائلينَ فليأتنا بآيةٍ كما أُرسلَ الأولون: إنما أُنذركُمْ أيها القومُ بتنزيلِ الله الذي يُوحِيه إليَّ من عنده، وأُخَوِّفُكُم به بأسَهُ.

وقوله: «وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ» (يعني): ولا يصغي الكافرُ بالله بسمعِ قلبِهِ إلى تَذَكُّرِ ما في وحي الله من المواعظِ والذِّكْرِ، فيتذكر به ويعتبر، فينزجر عَمَّا هُوَ عليه مقيمٌ من ضلالِهِ إذا تُليَ عليه وأُريدَ به، ولكنه يُعْرِضُ عن الاعتبارِ به والتفكر فيه، فِعْلَ الأصمِّ الذي لا يسمعُ ما يُقالُ له فيعمل به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: ولئن مَسَّتْ هؤلاء المستعجلينَ بالعذابِ يا محمدُ نفحةٌ من عذابِ ربك، يعني بالنفحةِ النصيبَ والحظَّ، من قولهم: نفحَ فلانٌ لفلانٍ من عطائهِ: إذا أعطاه قسماً أو نصيباً من المال.

وقوله: «لَيَقُولُنَّ ياوَيْلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ»، يقول: لئن أصابتهم هذه النفحةُ من عقوبةِ رَبِّكَ يا محمدُ بتكذيبهم بكَ وكفرهم، ليعلمُنَّ حينئذٍ غبَّ تكذيبهم بك، وليعترفُنَّ على أنفسِهم بنعمةِ الله وإحسانهِ إليهم، وكفرانهم أياديه عندهم، وليقولُنَّ يا ويلنا إنَّا كنا ظالمينَ في عبادتنا الآلهةَ والأندادَ، وتركنا عبادةَ الله الذي خلقنا وأنعمَ علينا، ووضعنا العبادةَ غيرَ موضعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذكره: «وَنَضَعُ المَوازِينَ» العدل، وهو «القِسْطَ». وجعلَ القِسْط وهو موحد من نعتِ الموازين، وهو جمعٌ لأنه في مذهب عَدْل ورضا ونظر.

وقوله: «لِيَوْمِ القِيامَةِ»، يقول: لأهلِ يومِ القيامةِ، ومَنْ وَرَدَ على الله في ذلك اليوم من خَلْقِه.

وقوله: «فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً»، يقول: فلا يظلم الله نفساً ممن ورد عليه منهم شيئاً بأنْ يعاقبه بذنبٍ لم يعمله أو يبخسه ثوابَ عملٍ عَمِلَهُ، وطاعةٍ أطاعهُ بها، ولكن يجازي المحسنَ بإحسانه، ولا يعاقب مسيئاً إلا بإساءته.

وقوله: «وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها»، يقول: وإنْ كان الذي

له من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وَزْنُ حبةٍ من خردلٍ أتينا بها: يقول: جئنا بها فأحضرناها إياه.

وقوله: «وكَفَى بِنا حاسِبِينَ»، يقول: وحسب مَنْ شهد ذلك الموقفَ بنا حاسبين، لأنه لا أحدَ أعلمُ بأعمالهم، وما سلفَ في الدُّنا من صالحٍ أو سيىءٍ، منا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

يقـول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقانَ، يعني به الكتـابَ الذي يفرقُ بين الحقِّ والباطل، وذلك هو التوراةُ في قول بعضهم. وقال ابن زيد: الفرقان هو الحقُّ آتاهُ الله موسى وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضى بينهم بالحق.

وهـذا القولُ الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبهُ بظاهر التنزيلِ، وذلك لدخولِ الواو في الضياء، ولو كان الفرقانُ هو التوراةُ كما قال مَنْ قال ذلك، لكان التنزيلُ: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء، لأنَّ الضياءَ الذي آتى اللهُ موسى وهـارون هو التـوراة التي أضـاءتْ لهمـا ولمن اتبعهما أمرَ دينهم فبصَّرَهُم الحلالَ والحرام، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياءَ الإبصارِ، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء.

فإنْ قال قائلٌ: وما ينكر أن يكون الضياء من نعتِ الفرقان، وإنْ كانت فيه واو فيكون معناه: وضياء آتيناهُ ذلك، كما قال: «بزِينَةٍ الكَوَاكِبِ وَحِفْظاً»؟ قيل له: إنَّ ذلك وإنْ كان الكلام يحتملُه، فإنَّ الأغلبَ من معانيهِ ما قلنا. والواجب أنْ يوجه معاني كلام الله إلى الأغلبِ الأشهرِ من وجوهها المعروفة عند

العرب ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجبُ التسليمُ له من حجةِ خبرٍ أو عقل.

وقوله: «وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ»، يقول: وتذكيراً لمن اتقى الله بطاعته وأداءِ فرائضه، واجتناب معاصيه، ذكرَّهم بما آتى موسى وهارون من التوراة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: آتينا موسى وهارونَ الفرقان: الذِّكْر الذي آتيناهما للمتقينَ الذينَ يخافونَ رَبَّهم بالغيبِ، يعني في الدنيا أنْ يعاقبهم في الآخرة إذا قَدِمُوا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضِه، فهم من خشيتِه، يحافظونَ على حدودهِ وفرائضِه، وهُمْ من الساعةِ التي تقومُ فيها القيامةُ مشفقونَ، حَذِرُونَ أنْ تقومَ عليهم، فَيرِدُوا على رَبِّهم قد فَرَّطُوا في الواجبِ عليهم لله، فيعاقبهم من العقوبةِ بما لا قِبَلَ لهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول جلَّ ثناؤه: وهذا القرآنُ الذي أنزلناه إلى محمدٍ ﷺ ذِكْرٌ لمن تَذَكَّرَ به، وموعظةٌ لمن اتعظ به. «مباركٌ، أنزلناهُ» كما أنزلنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذكراً للمتقين «أفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ»، يقول تعالى ذكره: أفأنتم أيها القومُ لهذا الكتابِ الذي أنزلناهُ إلى محمدٍ مُنكِرُونَ، وتقولون: «هُوَ أَضْغاثُ أَحْلامٍ، بَلِ افْتَرَاهُ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ، فَلْيَأْتِنا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ»، وإنما الذي آتيناهُ من ذلك ذكرٌ للمتقين، كالذي آتينا موسى وهارون ذكراً للمتقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنا إبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ» موسى وهارون، ووفَّقناه للحقّ، وأنقذناه من بين قومه وأهلِ بيته من عبادةِ الأوثان، كما فعلنا ذلك بمحمدٍ ﷺ، وعلى إبراهيم فأنقذناهُ من قومِهِ وعشيرته من عبادةِ الأوثان، وهديناهُ إلى سبيلِ الرشادِ توفيقاً منا له.

وقوله: «وكُنَّا بِهِ عالِمِينَ»، يقول: وكنا عالمينَ به أنه ذُو يقينٍ وإيمانٍ بالله وتوحيدٍ له، لا يشركُ به شيئاً. «إذْ قَالَ لِأَبيهِ وقَوْمه»، يعني في وقتِ قِيلِه وحينَ قِيله لهم: «ما هذهِ التماثيلُ الَّتِي أنتمُ لَهَا عاكفونَ»، يقول: قال لهم: أيّ شيء هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون، وكانت تلك التماثيلُ أصنامهم التي كانوا يعبدونها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذكره: قال أبو إبراهيم وقومه لإبراهيم: وجدنا آباءنا لهذه الأوثانِ عابدينَ، فنحنُ على ملةِ آبائنا نعبدها كما كانوا يعبدون، «قالَ» إبراهيم: «لَقَدْ كُنْتُمْ» أيها القومُ «أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ» بعبادتكم إياها «فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول: في ذهاب عن سبيل الحقِّ، وجورٍ عن قصدِ السبيل مبين: يقول: بَيِّنٍ لمن تأمَّلَهُ بعقلٍ، إنكم كذلك في جور عن الحقِّ. «قالُوا أجِئْتَنا بالحَقِّ؟»، يقول:

قال أبوه وقومه له: أجئتنا بالحقِّ فيما تقول. «أَمْ أَنْتَ» هازلٌ لاعبٌ «مِنَ اللَّاعِبِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيمُ لهم: بل جئتكم بالحقِّ لا اللعبِ، رَبُّكم ربُّ السمواتِ والأرضِ الذي خلقهنَّ، وأنا على ذلكم من أنَّ ربكم هو ربُّ السموات والأرض الذي فطرهنّ، دونَ التماثيلِ التي أنتم لها عاكفون، ودونَ كلِّ أحدٍ سواه شاهد من الشاهدين، يقول: فإياهُ فاعبدوا لا هذه التماثيلُ التي هي خلقه التي لا تضرُّ ولا تنفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ذُكِرَ أنَّ إبراهيمَ صلواتُ الله عليه حلفَ بهذه اليمين في سرٍّ من قومِهِ وخفاء، وأنه لم يسمع ذلك منه إلا الذي أفشاهُ عليه حين قالوا: مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمينَ، فقالوا: سمعنا فتىً يذكرهم يقالُ له إبراهيم.

وقوله: «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً»، يقول: حطاماً.

وقوله: «إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ»، يقول: إلا عظيماً للآلهةِ، فإنَّ إبراهيم لم يكسره، ولكنه فيما ذكر عَلَّقَ الفأسَ في عنقه.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ»، يقول: فعل ذلك إبراهيمُ بآلهتهم ليعتبروا ويعلموا أنها إذا لم تَدْفَع عن نفسِها ما فعلَ بها إبراهيمُ، فهي من أنْ تدفعَ عن

غيرها مَنْ أرادَهُ بسوءٍ أبعدُ، فيرجعوا عَمَّا هُمْ عليه مقيمونَ من عبادتها إلى ماهو عليه من دينه وتوحيدِ الله، والبراءةِ من الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذكره: قال قومُ إبراهيمَ لما رأوا آلهتهم قد جُذَّتْ، إلا الذي رَبَط به القَأْسَ إبراهيمُ: من فعل هذا بآلهتنا، إنَّ الذي فعلَ هذا بآلهتنا لمن الظالمين: أي لمن الفاعلينَ بها ما لم يكن له فِعْلُه «قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ»، يقول: قال الذين سمعوه يقول: «تاللهِ لأَكِيدَنَّ أصْنامَكُمْ بَعْدَ أنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» سمعنا فتىً يذكرهم بعيب يقال له إبراهيم.

وقوله: «فَأْتُوا بِهِ على أعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ»، يقول تعالى ذكره: قال قومُ إبراهيم بعضُهم لبعضٍ: فَأْتُوا بالذي فعلَ هذا بآلهتنا الذي سمعتموه يذكرها بعيبٍ ويَسُبُّها ويذمها على أعينِ الناس، فقيل: معنى ذلك: على رؤوسِ الناس. وقال بعضهم: معناه: بأعينِ الناسِ ومرأىً منهم، وقالوا: إنما أُريدَ بذلك أَظْهِرُوا الذي فعل ذلك للناسِ كما تقولُ العرب إذا ظهر الأمرُ وشهرَ: كان ذلك على أعينِ الناس، يُرادُ به كان بأيدي الناس.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ»، فقال بعضهم: معناه: لعلَّ الناسَ يشهدون عليه، أنه الذي فعلَ ذلك، فتكون شهادتهم عليه حجةً لنا عليه، وقالوا: إنما فعلوا ذلك لأنهم كرهوا أنْ يأخذوه بغيرِ بَيِّنة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لعلهم يشهدون ما يعاقبونَهُ به، فيعاينونَهُ ويرونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأَتَوْا بابراهيم، فلما أتوا به قالوا له: أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا من الكسر بها يا إبراهيمُ؟ فأجابهم إبراهيم: بَلْ فعله كبيرهم هذا وعظيمهم، فاسألوا الآلهةَ مَنْ فعلَ بها ذلك وكسرها إنْ كانت تنطقُ، أو تعبرُ عن نفسها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾

يقول تعالى ذكره: فذكروا حين قال لهم إبراهيمُ صلواتُ الله عليه. «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسْأَلُوهُمْ إنْ كانُوا يَنطِقُونَ» في أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، ونظرَ بعضُهم إلى بعضٍ، فقالوا: إنكم معشر القوم الظالمونَ، هذاالرجلَ في مسألتِكُمْ إياهُ، وقِيلكُمْ له: مَنْ فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم، وهذه آلهتُكم التي فعل بها ما فعل حَاضِرَتكُمْ فاسألوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لقومه: أفتعبدونَ أيها القومُ مالا ينفعكم شيئاً ولا يضرُّكُمْ، وأنتم قد علمتم أنها لم تمنعْ نفسَها مِمَّنْ أرادَها بسوءٍ، ولا

هي تقدرُ أنْ تنطقَ إنْ سئلت عَمَّنْ يأتيها بسوءٍ فتخبر به، أفلا تستحيون من عبادةِ ما كانَ هكذا.

وقوله: «أُفٍّ لَكُمْ»، يقول: قُبحاً لكم وللآلهةِ التي تعبدونَ من دونِ الله، أفلا تعقلونَ قُبْحَ ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضرُّ ولا ينفعُ، فتتركوا عبادَتَهُ، وتعبدوا اللهَ الذي فطرَ السمواتِ والأرضَ، والذي بيده النفعُ والضرّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذكره: قال بعضُ قومِ إبراهيمَ لبعضٍ: حَرِّقُوا إبراهيمَ بالنار. «وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ»، يقول: إنْ كنتم ناصِريهَا، ولم تُريدوا تركَ عبادتها.

وقوله: «قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْدًا وسلاماً عَلى إبْراهيمَ» في الكلام متروك اجتزىء بدلالةِ ماذُكِرَ عليه منه، وهو: فأوقدوا له ناراً ليحرِّقُوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنارِ: يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم.

وقوله: «وأرَادُوا بِهِ كَيْدًا»، يقول تعالى ذكره: وأرادوا بإبراهيم كيداً «فَجَعَلْناهُمُ الأخْسَرِينَ» يعني الهالكين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

يقول تعالى ذكره: ونَجَّيْنَا إبراهيمَ ولوطاً من أعدائهما، نمرود وقومه من

أرضِ العراق. «إلى الأرْضِ التي باركْنا فِيها للْعَالمِينَ» وهي أرضُ الشام، فارقَ صلواتُ الله عليه قومَهُ ودينَهُم، وهاجرَ إلى الشام.

وهذه القصة التي قَصَّ اللهُ من نبأ إبراهيمَ وقومِهِ تذكيرٌ منه بها قومَ محمدٍ ﷺ من قريش أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثانَ، وأذاهم محمداً على نهيه عن عبادتها، ودعائِهم إلى عبادةِ الله مخلصين له الدين، مسلكَ أعداءِ أبيهم إبراهيمَ، ومخالفتهم دِينَهُ، وأنَّ محمداً في براءته من عبادتها، وإخلاصه العبادةَ لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يَلْقَى منهم في ذلك سالكٌ منهاجَ أبيهِ إبراهيمَ، وأنه مُخْرِجُهُ من بين أظهرهم، كما أخرجَ إبراهيمَ من بين أظهر قومِهِ حين تمادوا في غيهم إلى مهاجرِهِ من أرضِ الشام، ومُسَلٍّ بذلك نبيه محمداً ﷺ عما يَلْقَى من قومِهِ من المكروهِ والأذى، ومُعَلِّمُهُ أنه مُنَجِّيهِ منهم كما نجىَّ أباهُ إبراهيمَ من كَفَرَةِ قومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذكره: ووهبنا لإبراهيمَ إسحاق ولداً، ويعقوب ولد ولده، نافلةً لك.

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بقوله: «نافِلَةً»، فقال بعضهم: عَنَى به يعقوبَ خاصة.

وقال آخرون: بل عنى بذلك إسحاقَ ويعقوبَ، قالوا: وإنما معنى النافلة: العَطِيَّة، وهما جميعاً من عطاءِ الله أعطاهما إياه.

وقد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ، أنَّ النافلةَ: الفَضْل من الشيء يصيرُ إلى الرجلِ

من أيِّ شيءٍ كان ذلك، وكِلَا ولديه إسحاق ويعقوب كان فَضْلًا من الله تَفضَّلَ به على إبراهيمَ، وهبةً منه له. وجائزٌ أن يكون عَنَى به أنه آتاهما إياه جميعاً نافلةً منه له، وأنْ يكون عَنَى أنه آتاه نافلة يعقوب، ولا برهانَ يدلُّ على أيِّ ذلك المراد من الكلام، فلا شيء أَوْلى أنْ يقالَ في ذلك مما قال اللهُ: ووهب الله له لإبراهيم ـ إسحاقَ ويعقوبَ، نافلةً.

وقوله: «وكُلًّا جَعَلْنا صَالِحِينَ»، يعني عاملينَ بطاعةِ الله، مجتنبينَ محارمَهُ، وعَنَى بقوله: «كُلًّا»: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب.

وقوله: «وَجَعَلْناهُمْ أئمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمةً يؤتَمُّ بهم في الخيرِ في طاعةِ الله في اتباعِ أمره ونهيِهِ، ويُقْتَدى بهم، ويُتَّبَعونَ عليه.

وقوله: «يَهْدُونَ بأمْرِنا»، يقول: يهدون الناسَ بأمرِ الله إياهم بذلك، ويدعونهم إلى الله وإلى عبادته.

وقوله: «وأوْحَيْنا إلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ»، يقول تعالى ذكره: وأوحينا فيما أوحينا أنِ افعلوا الخيراتِ، وأقيموا الصلاةَ بأمرنا بذلك. «وكانُوا لَنا عابِدِينَ»، يقول: كانوا لنا خاشعين، لا يستكبرونَ عن طاعتنا وعبادتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذكره: وآتينا لوطاً حكماً، وهو فصلُ القضاءِ بين الخصومِ، وعلماً: يقول: وآتيناه أيضاً علماً بأمرِ دينه، وما يجبُ عليه لله من فرائضِه.

وقوله: «ونَجَّيْناهُ مِنَ القَرْيَةِ التي كانَتْ تَعْمَلُ الخَبائِثَ»، يقول: ونَجَّيْناهُ من عذابنا الذي أحللناه بأهلِ القرية التي كانت تعملُ الخبائثَ، وهي قريةُ

سَدُوم التي كان لوطٌ بعثَ إلى أهلها، وكانت الخبائثُ التي يعملونها: إتيان الذكرانِ في أدبارهم، وخَذْفهم الناسَ، وتَضارُطَهُمْ في أنديتهم، مع أشياء أُخَر كانوا يعملونها من المُنكر، فأخرجه اللهُ حين أرادَ إهلاكَهُمْ إلى الشام.

وقوله: «إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ» مخالفين أمرَ الله، خارجينَ عن طاعتهِ وما يرضى من العمل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأدخلنا لوطاً في رحمتنا بانجائِنا إياهُ مما أحللنا بقومهِ من العذابِ والبلاءِ، وإنقاذِنَاهُ منه. «إنه من الصالحين»، يقول: إنَّ لوطاً من الذين كانوا يعملون بطاعتنا، وينتهون إلى أمرنا ونهينا ولا يعصوننا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمدُ نوحاً إذ نادى رَبَّهُ من قبلك، ومن قبلِ إبـراهيمِ ولـوط، وسألنا أنْ نُهلكَ قومه الذين كذَّبُوا الله فيما تَوَعَّدَهُمْ به من وعيدِه، وكذَّبُوا نوحاً فيما أتاهم به من الحقِّ من عند ربه، «وقَالَ رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأَرْضِ مِنَ الكـافِرينَ دَيَّارًا» فاستجبنا له دعاءَهُ، ونجيَّناهُ وأهلَهُ، يعني بأهله: أهل الإيمان من ولده وحلائلهم «مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ» يعني بالكربِ العظيم: العذاب الذي أُحِلَّ بالمكذِّبينَ من الطوفانِ والغرق.

والكربُ: شدّة الغمّ، يقال منه: قد كربني هذا الأمرُ فهو يكرُبني كرباً.

وقوله: «وَنَصَرْناهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا»، يقول: ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذَّبُوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناهُ منهم، فأغرقناهم أجمعين، إنهم كانوا قومَ سوءٍ، يقول تعالى ذِكْرُه إنَّ قومَ نوحٍ الذين كذَّبُوا بآياتنا كانوا قومَ سوءٍ، يسيئون الأعمالَ، فيعصونَ الله ويخالفون أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ داودَ وسليمانَ يا محمدُ إذ يحكمانِ في الحرث. والحرثُ: إنما هو حرثُ الأرض. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك كان زرعاً، وجائزٌ أنْ يكون غَرْساً، وغيرُ ضائرٍ الجهلُ بأيِّ ذلك كان.

وقوله: «إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنمُ القَوْمِ»، يقول: حين دخلت في هذا الحرثِ غنمُ القومِ الآخرينَ من غير أهلِ الحرثِ ليلاً، فَرَعَتْهُ أو أفسدته. «وكُنَّا لحكْمِهِمْ شاهِدِينَ»، يقول: وكُنَّا لحكمِ داودَ وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدتْ غَنمُ أهلِ الغنمِ من حرثِ أهلِ الحرثِ، شاهدينَ لا يخفى علينا منه شيءٌ، ولا يغيبُ عنا عِلْمُه.

وقوله: «فَفَهَّمْناها»، يقول: ففهَّمنا القضيةَ في ذلك «سُلَيْمانَ» دونَ داود، «وكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وعلماً»، يقول: وكلهم من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم في أوَّلِ هذه السورةِ آتينا حكماً وهو النبوةُ، وعلماً: يعني وعلماً بأحكامِ الله.

وقوله: «وَسَخَّرْنا مَعَ دَاوُدَ الجِبالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ»، يقول تعالى ذكره: وسَخَّرْنَا مع داودَ الجبالَ، والطيرَ يُسَبِّحْنَ معه إذا سَبَّحَ.

وقوله: «وكُنَّا فاعِلِينَ»، يقول: وكنا قد قضينا أنا فاعِلُو ذلكَ، ومُسَخِّرُو الجبالِ والطيرِ في أمِّ الكتابِ مع داودَ عليه الصلاة والسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذكره: وعلمنا داودَ صنعةَ لبوسٍ لكم، واللبوسُ عند العرب: السلاحُ كله، درعاً كانَ أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً.

وأما في هذا الموضع فإنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: عَنَى الدروع.

واختلفت القرأةُ في قراءة قوله: «لِتُحْصِنَكُمْ» فقرأ ذلك أكثر قرأةِ الأمصار: «لِيُحْصِنَكُمْ» بالياء، بمعنى: ليحصنكم اللَّبوسُ من بأسِكم، ذَكَّرُوه لتذكيرِ اللَّبوس. وقرأ ذلك أبو جعفر يزيد بن القعقاع «لِتُحْصِنَكُمْ» بالتاء، بمعنى: لتحصنكم الصنعة، فأنَّثَ لتأنيثِ الصنعة. وقرأ شيبة بن نصاح وعاصم ابن أبي النَّجود «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون، بمعنى: لنحصنكم نحنُ من بأسِكم.

وأَوْلى القراءاتِ في ذلك بالصواب عندي قراءةُ من قرأه بالياء، لأنها القراءةُ التي عليها الحجةُ من قرأةِ الأمصار، وإنْ كانت القراءاتُ الثلاث التي ذكرناها متقاربات المعاني، وذلك أن الصنعة هي اللبوس، واللَّبوس هي الصنعة، والله هو المُحْصِنُ به من البأس، وهو المحصنُ بتصييرِ الله إياهُ كذلك، ومعنى قوله: «لِيُحْصِنَكُمْ» لِيُحْرِزَكُمْ، وهو من قوله: قد أحصنَ فلانٌ جاريته. وقد بَيَّنا معنى ذلك فيما مضى قَبْلُ. والبأسُ: القتال، وعلَّمنا داودَ صنعةَ سلاحٍ لكم ليحرزكم إذا لبستموه، ولقيتم فيه أعداءَكُمْ من القتلِ.

وقوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ»، يقول: فهل أنتم أيها الناسُ شاكِرُو اللهَ على نعمتِهِ عليكم بما علَّمَكُمْ من صنعةِ اللبوسِ المحصِنِ في الحربِ وغير ذلك من نعمه عليكم، يقول: فاشكروني على ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذكره «وَ» سخرنا «لِسُلَيْمانَ» بن داود «الرِّيحَ عاصِفَةً» وعُصُوفُها: شدةُ هبوبها «تَجْري بأمْرِهِ إلى الأرْضِ التي بارَكْنا فِيها»، يقول: تجري الريحُ بأمرِ سليمانَ، إلى الأرضِ التي باركنا فيها، يعني: إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري بسليمانَ وأصحابِهِ إلى حيثُ شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: «إلى الأرْضِ التي بارَكْنا فِيها».

وقوله: «وكُنَّا بكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ»، يقول: وكُنَّا عالمينَ بأنَّ فعلنا ما فعلنا لسليمان من تسخيرِنَا له، وإعطائِنَا ما أعطيناهُ من الملك وصلاحِ الخلق، فعلى عِلْمٍ منا بموضعِ ما فعلنا به من ذلك فعلنا، ونحنُ عالمونَ بكلِّ شيءٍ لا يَخْفَى علينا منه شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وسخرنا أيضاً لسليمانَ من الشياطين مَنْ يغوصون له في البحر، ويعملون عملاً دونَ ذلك من البنيانِ والتماثيلِ والمحاريب «وكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ»، يقول: وكنا لأعمالهم ولأعدادِهم حافظينَ، لا يَئُودُنا حِفْظُ ذلك كله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر أيوبَ يا محمدُ إذْ نادى رَبَّهُ وقد مَسَّهُ الضرُّ والبلاء «رَبِّ إنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فاسْتَجَبْنا لَهُ»، يقول تعالى ذكره: فاستجبنا لأيوبَ دعاءه إذْ نادانا، فكشفنا ما كانَ به من ضُرٍّ وبلاءٍ وجهد، وكان الضرُّ الذي أصابه، والبلاءُ الذي نزل به امتحاناً من الله له، واختباراً.

واختلف أهلُ التأويلِ في الأهلِ الذي ذكر الله في قوله: «وآتَيْناهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ»، أَهُمْ أهلُه الذين أُوتيهم في الدنيا، أمْ ذلك وَعْدٌ وَعَدَهُ اللهُ أيوبَ أنْ يفعل به في الآخرة؟ فقال بعضهم: إنما آتى الله أيوبَ في الدنيا مثلَ أهلِه الذين هلكوا، فإنهم لم يُرَدُّوا عليه في الدنيا، وإنما وعدَ اللهُ أيوبَ أن يؤتيه إياهم في الآخرة.

وقال آخرون: بل رَدَّهُمْ إليه بأعيانهم، وأعطاهُ مِثْلَهُمْ معهم.

وقال آخرون: بل آتاه المِثْلَ من نسلِ ماله الذي رَدَّهُ عليه وأهله، فأما الأهلُ والمالُ فإنه رَدَّهُمَا عليه.

وقوله: «رَحْمَةً» نصبت بمعنى: فعلنا بهم ذلك رحمةً منا له.

وقوله: «وَذِكْرَى لِلْعابِدِينَ»، يقول: وتذكرةً للعابدينَ رَبَّهُم، فعلنا ذلك به ليعتبروا به، ويعلموا أنَّ الله قد يبتلي أولياءَهُ ومَنْ أَحَبَّ من عباده في الدنيا بضروبٍ من البلاءِ في نفسِه وأهلِه ومالِه، من غيرِ هوانٍ به عليه، ولكن اختباراً منه له ليبلغ بصبرِه عليه، واحتسابِه إياه، وحُسْنِ يقينه منزلته التي أعَدَّهَا له تباركَ وتعالى من الكرامةِ عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾

يعني تعالى ذكره بإسماعيلَ: إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد، وبإدريس: أخنوخ، وبذي الكفل: رجلاً تكفل من بعض الناس، إما من نبيٍّ وإما من ملكٍ من صالحي الملوكِ بعملٍ من الأعمال، فقامَ به من بعده، فأثنى الله عليه حُسْنَ وفائهِ بما تكفَّلَ به، وجعله من المعدودينَ في عباده، مع مَنْ حمد صبره على طاعةِ الله.

وقوله: «وأدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأدخلنا إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ، والهاء والميم عائدتان عليهم. «فِي رَحْمَتِنا إنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول: إنهم ممن صلح، فأطاع الله، وعمل بما أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذكره: واذكُرْ يا محمدُ ذا النونِ، يعني صاحبَ النون، والنونُ: الحوتُ. وإنما عنى بذي النون: يونس بن متى، وقد ذكرنا قصته في سورة يونس بما أغنى عن ذِكْرِه في هذا الموضع.

وقوله: «إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً»، يقول: حين ذهب مغاضباً.

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذهابه مغاضباً، وعَمَّنْ كان ذهابُهُ، وعلى مَنْ كان غَضَبُه، فقال بعضهم: كان ذهابُهُ عن قومِهِ وإياهم غاضب.

وقال آخرون: ذهب عن قومه مغاضباً لربه، إذ كشفَ عنهم العذابَ بعد ما وَعَدَهُمُوه.

وقال آخرون: بل إنما غاضَبَ رَبَّهُ من أجلِ أنه أُمِرَ بالمصيرِ إلى قومٍ لينذرهم بأسَهُ، ويدعوهم إليه، فسأل رَبَّهُ أنْ يُنْظِرَهُ، ليتأهَّبَ للشخوصِ إليهم، فقيل له: الأمرُ أسرعُ من ذلك، ولم ينظر حتى شاء أن ينظر إلى أنْ يأخذ نعلاً ليلبسها، فقيل له نحو القول الأوّل، وكان رجلاً في خُلُقِه ضِيقٌ، فقال: أعجلني ربي أنْ آخذَ نعلاً، فذهبَ مُغَاضباً.

وليس في واحدٍ من هذين القولين من وصفِ نبيِّ الله يونس صلواتُ الله عليه شيءٌ إلا وهو دونَ ما وصفه بما وصفه الذين قالوا: ذهبَ مغاضباً لقومِهِ، لأنَّ ذهابه عن قومِهِ مغاضباً لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقامِ بين أظهرهم، ليبلِّغَهُمْ رسالتَهُ، ويحذِّرَهُمْ بأسَهُ، وعقوبته على تركِهِم الإيمانَ به، والعمل بطاعته لا شك أنَّ فيه ما فيه، ولولا أنه قد كان ﷺ أتى ما قالَهُ الذين وصفوه بإتيانِ الخطيئةِ، لم يكن الله تعالى ذِكْرُه ليعاقبه العقوبةَ التي ذكرها في كتابه، ويصفهُ بالصفةِ التي وصفَهُ بها، فيقول لنبيه ﷺ: «وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ»، ويقول: «فالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلا أنهُ كانَ مِنَ المُسَبِحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

وقوله: «فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: فظنَّ أنْ لن نعاقبه بالتضييقِ عليه من قولهم: قدرت على فلان: إذا ضيقتُ عليه، كما قال الله جلّ ثناؤه: «وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ».

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظنَّ أنه يُعْجِزُ رَبَّهُ فلا يقدر عليه.

وقال آخرون: بل ذلك بمعنى الاستفهام، وإنما تأويله: أفظَنَّ أنْ لنْ نقدرَ عليه.

وأَوْلى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عَنَى به: فظنّ يونس أن لن نحبسه ونضيق عليه، عقوبةً له على مغاضبتهِ رَبَّهُ.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى بتأويلِ الكلمة، لأنه لا يجوزُ أن يُنسبَ إلى الكفرِ، وقد اختاره لنبوَّتِهِ، ووَصْفُهُ بأَنْ ظَنَّ أنَّ ربه يعجزُ عما أرادَ به، ولا يقدرُ عليه، وصفٌ له بأنه جَهِلَ قدرةَ الله، وذلك وصفٌ له بالكفرِ، وغيرُ جائزٍ لأحدٍ وصفُه بذلك.

وقـوله: «فَنادَى في الظُّلُماتِ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بهذه الظلمات، فقال بعضهم: عنى بها ظُلْمَةَ الليل، وظلمةَ البحر، وظلمةَ بطنِ الحوت.

وقال آخرون: إنما عَنَى بذلك أنه نادى في ظُلْمةِ جوفِ حوتٍ في جوفِ حوتٍ آخر في البحر، قالوا: فذلك هو الظلماتُ.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن يونس أنه ناداه في الظلماتِ «أنْ لا إلَهَ إلا أنْتَ سُبْحانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ»، وَلا شك أنه قد عَنَى بإحدى الظلمات: بطن الحوتِ، وبالأخرى: ظلمة البحر، وفي الثـالثـة اختـلاف، وجـائـزٌ أنْ تكونَ تلك الثالثة: ظلمة الليل، وجائزٌ أنْ تكون لحوت في جوفِ حوتٍ آخر، ولا دليلَ يدلُّ على أيٍّ ذلك من أيٍّ، فلا قولَ في ذلك أَوْلى بالحقِّ من التسليمِ لظاهرِ التنزيل.

وقوله: «لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ»، يقول: نادى يونس بهذا القول معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته «إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» في معصيتي إياك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾

يقـول تعـالى ذكره: «فاسْتَجَبْنَا» ليونسَ دعاءَهُ إيانا، إذْ دعانا في بطنِ الحـوتِ، ونجينـاه من الغمِّ الذي كان فيه بحبْسِناهُ في بطنِ الحوت، وغَمِّه بخطيئتِهِ وذَنْبه. «وكذَلكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ»، يقول جلّ ثناؤه: وكما أنجينا يونسَ من كربِ الحبسِ في بطنِ الحوتِ في البحرِ إذْ دَعَانَا، كذلك نُنْجِي المؤمنينَ من كَرْبِهم إذا استغاثوا بنا ودَعَوْنَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ زكريا حين نادى رَبَّهُ «رَبِّ لا تَذَرْنِي» وحيداً «فَرْداً» لا ولدَ لي ولا عَقِب. «وأنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ»، يقول: فارزقني وارثاً من آلِ يعقوبَ يرثني، ثم ردَّ الأمرَ إلى الله فقال: وأنتَ خيرُ الوارثين، يقول الله جلّ ثناؤه: فاستجبنا لزكريا دُعاءَهُ، ووهبنا له يحيى ولداً ووارثاً يرثه، وأصلحنا له زوجه.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الصلاح الذي عناه الله جلّ ثناؤه بقوله: «وأصْلَحْنا لَهُ زَوْجَه»، فقال بعضهم: كانت عقيماً فأصلحها، بأنْ جعلها وَلُوداً.

وقال آخرون: كانت سيئةَ الخُلُقِ، فأصلحها الله له بأنْ رزقها حُسْنَ الخُلُق.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله أصلح لزكريا زوجَهُ، كما أخبـر تعـالى ذكـره بأنْ جعلها ولوداً حسنةَ الخُلُق، لأنَّ كل ذلك من معاني إصلاحهِ إياها، ولم يَخْصُصِ الله جلَّ ثناؤه بذلك بعضاً دونَ بعضٍ في كتابه،

ولا على لسانِ رسولِه، ولا وضع على خصوصِ ذلك دلالةً، فهو على العموم ما لم يأتِ ما يجبُ التسليمُ له بأنَّ ذلك مرادٌ به بعضٌ دونَ بعض.

وقوله: «إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ»، يقول الله: إنَّ الذين سميناهم، يعني زكريا وزوجه ويحيى، كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعملِ بما يُقَرِّبُهم إلينا.

وقوله: «وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً»، يقول تعالى ذكره: وكانوا يعبدوننا رغباً ورهَباً، وعَنَى بالدعاء في هذا الموضع: العبادة، كما قال: «وأَعْتَزِلُكُمْ ومَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وأَدْعُو رَبِّي عَسى أن لا أَكُونَ بدُعاءِ رَبّي شَقِيًّا»، ويعني بقوله: «رَغَباً» أنهم كانوا يعبدونه رغبةً منهم فيما يرجونَ منه من رحمتِهِ وفضله. «وَرَهَباً»، يعني رهبة منهم منعذابهِ وعقابِهِ، بتركهم عبادَتَهُ، وركوبهم معصيته.

وقوله: «وكانُوا لَنا خاشِعِينَ»، يقول: وكانوا لنا متواضعين متذللين، ولا يستكبرونَ عن عبادتنا. ودعائنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر التي أحصنتْ فَرْجَها، يعني مريمَ بنت عمران. ويعني بقوله: «أَحْصَنَتْ»: حفظت، ومنعت فرجها مما حرَّمَ الله عليها إباحتَهُ فيه.

وقوله: «وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعَالمينَ»، يقول: وجعلنا مريمَ وابنها عبرةً لعالمي زمانِهِمَا يعتبرونَ بهما، ويتفكرونَ في أمرهما، فيعلمونَ عظيمَ سلطاننا وقُدْرتنا على ما نشاءُ: وقيل: آية ولم يقل آيتين، وقد ذكر آيتين؛ لأنَّ معنى الكلام: جعلناهما عَلَماً لنا وحجةً، فكلُّ واحدةٍ منهما في معنى الدلالة على

الله، وعلى عظيمِ قُدرته، يقوم مقام الآخر إذا كان أمرهما في الدلالة على الله واحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذه مِلَّتُكم ملةً واحدة، وأنا رَبُّكم أيها الناسُ فاعبدونِ دونَ الآلهةِ والأوثانِ، وسائر ما تعبدونَ من دوني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتفرَّقَ الناسُ في دينهم الذي أمرهم الله به، ودعاهم إليه، فصاروا فيه أحزاباً، فتهوَّدَت اليهودُ، وتنصَّرتِ النصارى، وعُبِدَتِ الأوثانُ، ثم أخبر جلَّ ثناؤه عَمَّا هُمْ إليه صائرونَ، وأنَّ مرجعَ جميعِ أهلِ الأديان إليه متوعداً بذلك أهلَ الزيغِ منهم والضلال،، ومعلمهم أنه لهم بالمرصاد، وأنه مُجَازٍ جميعَهم جزاءَ المحسنِ بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾

يقول تعالى ذكره: فَمَنْ عملَ من هؤلاءِ الذين تفرَّقُوا في دينهم بما أمره الله به من العملِ الصالح، وأطاعه في أمرِهِ ونهيه، وهو مقرٌّ بوحدانيةِ الله، مصدِّقٌ بوعده ووعيده، متبرِّىءٌ من الأندادِ والآلهةِ. «فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ»، يقول: فإن الله يشكر عملَهُ الذي عمل له مطيعاً له، وهو به مؤمنٌ، فيثيبه في الآخرة

ثوابَهُ الذي وعدَ أهلَ طاعتهِ أنْ يُثِيبَهُمُوه، ولا يكفر ذلك له فيجحده، ويحرمه ثوابَهُ على عملِه الصالح. «وَإنَّا لَهُ كاتِبُونَ»، يقول: ونحن نكتبُ أعماله الصالحةَ كلها، فلا نتركُ منها شيئاً لنجْزِيه على صغيرِ ذلك وكبيرِه وقليلِه وكثيرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

تأويل الكلام: حرامٌ على أهلِ قريةٍ أهلكناهم بِطَبْعِنَا على قلوبِهم، وخَتْمنا على أسماعِهم وأبصارهم، إذْ صَدُّوا عن سبيلنا، وكفروا بآياتنا أنْ يتوبوا، ويراجعوا الإيمان بنا، واتباع أمرنا والعمل بطاعتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: حتى إذا فُتح عن يأجوجَ ومأجوجَ، وهما أمَّتانِ من الأمم رَدْمُهُمَا.

وأما قوله: «وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ»، فإن أهلَ التأويل اختلفوا في المعنيِّ به، فقال بعضهم: عُنِي بذلك بنو آدمَ أنهم يخرجون من كلِّ موضعٍ كانوا دُفِنُوا فيه من الأرضِ، وإنما عُني بذلك الحشرُ إلى موقفِ الناسِ يومَ القيامة.

وقال آخرون: بل عنى بذلك يأجوج ومأجوج، وقوله: «وهم» كناية أسمائهم.

والصوابُ من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: عنى بذلك: يأجوج

ومأجوج. وإن قوله: «وَهمْ» كناية عن أسمائِهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْـدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَـرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى ذكره: حتى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ، اقتربَ الوعدُ الحقُّ، وذلك وعدُ الله الذي وَعَدَ عبادَهُ أنه يبعثهم من قبورهم للجزاءِ والثوابِ والعقابِ، وهو لا شكَّ حَقٌّ كما قال جلَّ ثناؤه.

وقـولـه: «فإِذَا هِيَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: فإذا الأبصارُ شاخصة، أبصارُ الذين كفروا.

وقوله: «ياوَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا»، يقول تعالى ذكره: فإذا أبصارُ الـذين كفـروا قد شخصت عنـد مجيء الـوعدِ الحقِّ بأهوالِهِ، وقيامِ الساعة بحقائقها، وهم يقولون: يا وَيْلَنا قد كنا قبل هذا الوقتِ في الدنيا في غفلةٍ من هذا الذي نرى ونعاين، ونزلَ بنا من عظيمِ البلاء. وفي الكلام متروكٌ تُرِكَ ذكره استغناءً بدلالة ما ذُكِرَ عليه عنه، وذلك يقولون من قوله: «فاذَا هِيَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، يقولون: يا وَيْلَنا.

وقوله: «بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ»، يقول مخبراً عن قِيلِ الذين كفروا بالله يومئذٍ: ما كنا نعمل لهذا اليومِ ما يُنَجِّينَا من شدائدِه، بل كنا ظالمين بمعصيتنا رَبَّنَا، وطاعتنا إبليسَ وجُنْده في عبادة غير الله عزّ وجلّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْـبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذكره: إنكم أيها المشركونَ بالله، العابدونَ من دونهِ الأوثانَ والأصنام، وما تعبدون من دون الله من الآلهة «حَصَبُ جهنم»، يقول: يُرْمَى بهم فيها. وقد ذكر أنَّ الحَصَبَ في لغةِ أهلِ اليمن: الحطب، فإنْ يكن ذلك كذلك، فهو أيضاً وجهٌ صحيح. وأما ما قلنا من أنَّ معناه الرمي فإنه في لغة أهلِ نجد.

وأما قوله: «أَنْتُمْ لَهَا واردون»، فإن معناه: أنتم عليها أيها الناسُ أو إليها واردونَ، يقول: داخلونَ. وقد بيَّنتُ معنى الورود فيما مضى قَبْلُ بما أغنى عن إعادتهِ في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركينَ الذين وصفَ صِفَتَهم أنهم ما يأتيهم من ذِكْرٍ من رَبِّهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون، وهم مشركو قريش أنتم أيها المشركون وما تعبدونَ من دونِ الله وارِدُو جهنمَ، ولو كان ما تعبدونَ من دونِ الله آلهةً ما وَرَدُوهَا، بل كانت تمنعُ مَنْ أرادَ أنْ يُورِدَكُمُوهَا إذْ كنتم لها في الدنيا عابدينَ، ولكنها إذْ كانت لا نفعَ عندها لأنفسها، ولا عندها دفع ضرٍّ عنها، فهي من أنْ يكونَ ذلك عندها لغيرها أبعد، ومَنْ كان كذلك كان بَيِّناً بُعْدُهُ من الألوهةِ، وإنَّ الإله هو الذي يقدرُ على ما يشاء، ولا يقدرُ عليه شيء، فأما مَنْ كان مقدوراً عليه، فغير جائز أن يكون إلهاً.

وقوله: «وكلٌّ فِيها خالِدُونَ»، يعنيِ الآلهة، ومَنْ عَبَدَها أنهم ماكثونَ في النار أبداً بغير نهاية، وإنما معنى الكلام: كلكم فيها خالدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «لَهُمْ» المشركينَ وآلهتَهُمْ، والهاء والميم في قولـه: «لَهُمْ» من ذِكْرِ كلِّ التي في قوله: «وكُلٌّ فِيها خالِدُونَ»، يقول تعالى ذكره: لِكُلِّهم في جهنمَ زفيرٌ. «وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ»، يقول: وهم في النار لا يسمعون.

وأما قوله: «إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى، أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في المعنيِّ به، فقال بعضهم: عنى به كل مَنْ سبقتْ له من الله السعادة من خَلْقِه أنه عن النارِ مُبْعَدٌ.

وقال آخرون: بل عنى: من عَبد مِنْ دونِ الله، وهو لله طائعٌ، ولعبادةِ من يَعبد كاره.

وأوْلى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: «إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» ما كان من معبود، كان المشركونَ يعبدونَهُ والمعبودُ لله مطيعٌ وعابِدُوهُ بعبادتهم إياه بالله كفّارٌ، لأنَّ قوله تعالى ذكره: «إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى» ابتداء كلام محقق لأمرٍ كان ينكرهُ قومٌ، فكأن المشركين قالوا لنبيِّ الله ﷺ، إذْ قال لهم: «إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»، ما الأمرُ كما تقولُ، لأنَّا نعبدُ الملائكةَ، ويعبدُ آخـرونَ المسيحَ وعُزَيراً، فقال عزَّ وجلَّ ردّاً عليهم قولهم، بل ذلك كذلك، وليس الذين سبقتْ لهم مِنَّا الحسنى هم عنها مُبْعَدُونَ لأنهم غير معنيينَ بقولنا: «إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: لا يسمع هؤلاء الذين سبقتْ لهم منا الحسنى حَسِيسَ النار، ويعني بالحسيس: الصوتَ والحِسَّ.

«وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ»، يقول: وهم فيما تشتهيه نُفوسُهم من نعيمها ولَذَّاتِها ماكثون فيها، لا يخافونَ زوالاً عنها، ولا انتقالاً عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الفزعِ الأكبرِ: أيّ الفزع هو؟ فقال بعضهم: ذلك النارُ إذا أطبقتْ على أهلها.

وقال آخرون: بل ذلك النفخة الآخرة.

وقال آخرون: بل ذلك حين يُؤْمَرُ بالعبدِ إلى النار.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: ذلك عند النفخةِ الآخرة، وذلك أنَّ مَنْ لم يحزنه ذلك الفزَعُ الأكبر، وأمِنَ منه، فهو مما بَعْدَهُ أحْرَى أنْ لا يفزعَ، وأنْ مَنْ أفزعه ذلك فغيرُ مأمون عليه الفزعُ مما بعده.

وقوله: «وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ»، يقول: وتستقبلهم الملائكةُ، يُهَنِّئُونَهُمْ يقولون: «هَـذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» فيه الكرامة من اللهِ، والحِباء، والجزيل من الثوابِ على ما كنتم تَنْصَبُونَ في الدنيا لله في طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ

﴿لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يحزنهم الفَزَعُ الأكبر، يومَ نطوي السماءَ، فيومَ صلة مِنْ يحزنهم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى السجلِّ الذي ذكره الله في هذا الموضعِ، فقال بعضهم: هو اسمُ مَلَكٍ من الملائكة.

وقال آخرون: السجلُّ: رجلٌ كان يكتبُ لرسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: بل هو الصحيفةُ التي يكتب فيها.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجلُّ في هذا الموضع: الصحيفةُ، لأن ذلك هو المعروفُ في كلامِ العرب، ولا يعرف لنبينا ﷺ كاتبٌ كان اسمه السجلُّ، ولا في الملائكةِ مَلَكٌ ذلك اسمُه.

فإنْ قال قائل: وكيف نطوي الصحيفةَ بالكتابِ إنْ كان السجلُّ صحيفةً؟ قيل: ليس المعنى كذلك، وإنما معناه: يوم نطوي السماءَ كَطَيِّ السجلِّ على ما فيه من الكتابِ، ثم جعل نَطوي مصدراً، فقيل: «كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ»، واللام في قوله للكتاب، بمعنى على.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ «للكُتُب»، فإنَّ قَرَأة أهلِ المدينةِ وبعض أهلِ الكوفة والبصرة قرءوه بالتوحيدِ، كطيِّ السجلّ للكتابِ، وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفة «لِلْكُتُبِ» على الجماع.

وأوْلى القراءتين عندنا في ذلك بالصوابِ قراءةُ مَنْ قرأه على التوحيدِ للكتابِ، لما ذكرنا من معناه، فإن المراد منه: كطيِّ السجلِّ على مافيه مكتوبٌ، فلا وجه إذْ كان ذلك معناه لجميعِ الكتبِ إلا وجه نتبعه من معروفِ كلامِ العرب، وعند قوله: «كَطَيِّ السِّجِلِّ» انقضاء الخبر عن صلةِ قولِه: «لا

يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ»، ثم ابتدأ الخبر عَمَّا اللهُ فاعلٌ بخلقِه يومئذٍ فقال تعالى ذكره: «كَمَا بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» فالكاف التي في قوله: «كَمَا» من صلة «نُعِيدُه» تقدَّمتْ قَبْلَها، ومعنى الكلام: نُعيدُ الخَلْقَ عُراةً حُفاةً غُرْلاً يوم القيامة، كما بدأناهم أَوَّلَ مَرَّةٍ في حال خَلْقِنَاهُمْ في بطونِ أُمَّهاتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

(يعني): ولقد كتبنا في الكتبِ من بعدِ أمِّ الكتابِ الذي كتب اللهُ كُلَّ ماهو كائنٌ فيه قبلَ خَلْقِ السمواتِ والأرض، وذلك أن الزبور هو الكتابُ، يقال منه: زبرتُ الكتابَ وذَبرته[1]: إذا كتبته، وإن كلَّ كتابٍ أنزله اللهُ إلى نبيٍّ من أنبيائه فهو ذِكْر. فإذْ كان ذلك كذلك، فإن في إدخاله الألفَ واللام في الذكر، الدلالة البينة أنه معنيٌّ به ذِكْرٌ بعينهِ معلوم عند المخاطبينَ بالآية، ولو كان ذلك غيرَ أمِّ الكتابِ التي ذكرنا لم تكن التوراةُ بأوْلى من أنْ تكونَ المعنيةَ بذلك من صحف إبراهيم، فقد كان قبل زَبور داود.

فتأويل الكلام إذن، إذْ كان ذلك كما وصفنا: ولقد قضينا فأثبتنا قضاءنا في الكتب من بعد أمِّ الكتابِ أنَّ الأرضَ يرثها عباديَ الصالحونَ، يعني بذلك: أنَّ أرضَ الجنةِ يرثها عبادي العاملونَ بطاعتهِ، المنتهون إلى أمره ونهيه من عباده دون العاملين بمعصيته منهم، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

---

(١) بالذال المعجمة، وهي لغة فيه، كما بيناه فيما سبق.

يقول تعالى ذكره: إنَّ في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمدٍ ﷺ لبلاغاً لِمَنْ عبدَ اللهَ بما فيه من الفرائض التي فرضها اللهُ إلى رضوانه، وإدراكِ الطَّلِبة عنده.

وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أرسلناكَ يا محمدُ إلى خَلْقِنا إلا رحمةً لمن أرسلناكَ إليه من خلقي.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى هذه الآية، أجميع العالمِ الذي أُرسلَ إليهم محمدٌ أُريدَ بها مؤمنهم وكافرهم؟ أم أُريدَ بها أهل الإيمانِ خاصةً دونَ أهلِ الكفر؟ فقال بعضهم: عنى بها جميعَ العالم المؤمن والكافر.

وقال آخرون: بل أُريدَ بها أهل الإيمان دونَ أهلِ الكفر.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قول مَنْ قال: إنَّ الله أرسلَ نبيه محمداً ﷺ رحمةً لجميعِ العالم مُؤْمِنِهم وكافِرِهم. فأما مؤمنهم فإنَّ الله هَدَاهُ به وأدخله بالإيمان به، وبالعملِ بما جاء من عندِ الله الجنةَ. وأما كافرهم فإنه دفعَ به عنه عاجلَ البلاءِ الذي كان ينزلُ بالأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها من قبله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ: ما يوحي إليَّ ربي إلا أنَّه لا إله لكم يجوزُ أن يُعبدَ إلا إلهٌ واحد، لا تصلح العبادةُ إلا له، ولا ينبغي ذلك لغيرِه. «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»، يقول: فهل أنتم مُذْعِنُونَ له أيها المشركون، العابدونَ الأوثانَ والأصنامَ بالخضوعِ لذلك، ومتبرِّئُونَ من عبادةِ ما دونه من آلهتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩﴾

يقول تعالى ذكره: فإنْ أدبرَ هؤلاء المشركونَ يا محمدُ عن الإقرارِ بالإيمانِ، بأنْ لا إله لهم إلا إلهٌ واحد، فأعْرَضُوا عنه، وأَبَوا الإجابةَ إليه، فقلْ لهم: «قَدْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَوَاءٍ»، يقول: أَعْلِمْهُمْ أنك وهُمْ على علم من أنَّ بعضَكم لبعضٍ حربٌ، لا صلحَ بينكم ولا سِلْمَ.

وإنما عَنَى بذلك قومَ رسولِ الله ﷺ من قُرَيش.

وقوله: «وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ وما أدري متى الوقتُ الذي يحلُّ بكم عقابُ الله الذي وعدكم، فينتقم به منكم، أقريبٌ نزولهُ بكم، أم بعيد؟..

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾

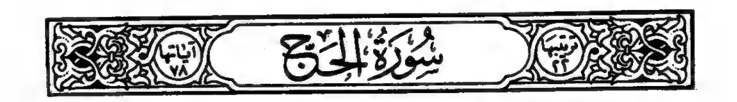
يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المشركين، إنَّ الله يعلمُ الجهرَ الذي تجهرونَ به من القولِ، ويعلمُ ما تُخفونَهُ، فلا تجهرونَ به، سواء عنده خَفِيُّه وظاهِرُه، وسرُّهُ وعلانيته، أنه لا يخفى عليه منه شيءٌ، فانْ أَخَّرَ عنكم عقابَهُ على ما تُخفونَ من الشرك به، أو تجهرون به، فما أدري ما السبب الذي من أجله يؤخِّرُ ذلك عنكم، لعلَّ تأخيره ذلك عنكم مع وَعْدِه إياكم لفتنةٍ يريدها بكم، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجلٍ قد جعله لكم تبلغونه، ثم ينزل بكم حينئذٍ نقمته.

الأنبياء: ١١٢

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ: ياربِّ افصلْ بيني وبين من كَذَّبني من مشركي قومي وكَفَرَ بكَ، وعبدَ غيرَكَ، بإحلالِ عذابكَ ونقمتكَ بهم، وذلك هو الحقُّ الذي أمرَ اللهُ تعالى نبيه أن يسألَ ربه الحكمَ به وهو نظيرُ قوله جلّ ثناؤه: «رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنَا وبَينَ قَوْمِنا بالحَقّ وأنْتَ خَيْرُ الفاتِحِينَ».

وقوله: «وَرَبُّنا الرَّحْمَنُ المُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ»، يقول جلَّ ثناؤه: وقل يا محمد: وربنا الذي يرحمُ عباده، ويَعُمُّهم بنعمتهِ الذي أستعينُه عليكم فيما تقولونَ وتصفونَ من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله «إنْ هَذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وأنْتُمْ تُبْصِرُونَ»، وقولكم: «بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ» وفي كَذِبكُمْ على اللهِ جلَّ ثناؤه وقيلكم: «اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً»، فإنه هينٌ عليه تغييرُ ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيلِ العقوبةِ لكم على ما تَصِفُونَ من ذلك.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الناسُ احذروا عقابَ رَبِّكم بطاعتِه، فأطيعوهُ ولا تعصوه، فإنَّ عقابه لمن عاقبَهُ يومَ القيامةِ شديدٌ، ثم وصفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ هَوْلَ أشراطِ ذلك اليوم وبُدُوِّهِ، فقال: «إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ».

وقوله تعالى: «يَوْمَ تَرَوْنَها»، يقول جَلَّ ثناؤُه: يوم تَرونَ أيها الناسُ زلزلةَ الساعـةِ تَذْهَلُ مِنْ عِظَمِهَا، كُلُّ مرضعةِ مولودٍ عما أرضعتْ، ويعني بقوله: «تَذْهَلُ» تنسى وتترك من شِدَّةِ كَرْبها، يقال: ذَهَلْت عن كذا أذْهَل عنه ذُهُولاً وَذَهِلْت أيضاً، وهي قليلة، والفصيحُ: الفتح في الهاء، فأما في المستقبل فالهاء مفتوحة في اللغتين، لم يسمع غير ذلك.

فتأويلُ الكلام: يوم ترون أيها الناسُ زلزلةَ الساعةِ، تنسى وتتركُ كُلُّ والدةِ مولودٍ تُرْضِعُ ولدها عَمَّا أرضعتْ.

«وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا»: يقولُ: وتسقط كُلُّ حاملٍ من شدَّةِ كَرْبِ ذلك حَمْلَها.

وقـولـه: «وَتَـرَى النَّاسَ سُكارَى»، يقولُ: وترى الناسَ يا محمدُ، من عظيمِ ما نزلَ بهم من الكرب وشِدَّتِه سُكارى من الفزعِ ، وما هم بسُكارى من شربِ الخمر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾

ذُكِرَ أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث.

ويعني بقوله: «مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغَيْرِ عِلْمٍ»، مَنْ يخاصمُ في الله، فيزعمُ أنَّ اللهَ غيرُ قادرٍ على إحياء مَنْ قد بَليَ وصار تراباً، بغير علم يعلمه، بل بجهلٍ منه بما يقول، «ويَتَّبِعُ» في قِيلِه ذلك وجِدالِه في الله بغيرِ علمٍ «كُلَّ شَيْطانٍ مَّرِيدٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قُضِيَ على الشيطان: فمعنى «كُتِبَ» ههنا قُضِيَ، والهاء التي في قوله: «عليه» من ذِكْرِ الشيطان.

وقوله: «فأَنَّهُ يُضِلُّهُ»، يقولُ: فإن الشيطان يضله، يعني: يضلُّ مَنْ تَوَلَّاه.

وتأويل الكلام: قُضِيَ على الشيطان أنه يُضِلُّ أتباعه ولا يهديهم إلى الحقّ.

وقوله: «ويَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السَّعِيرِ»، يقولُ: ويَسُوقُ مَنِ اتَّبَعَهُ إلى عذاب جهنم الموقدة. وسياقُه إياه إليه بدعائِه إياه إلى طاعته ومعصية الرحمن، فذلك هدايتُه مَنْ تَبِعَهُ إلى عذابِ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾

وهذا احتجاجٌ من الله على الذي أخبرَ عنه من الناسِ أنه يجادلُ في الله بغيرِ علمٍ، اتباعاً منه للشيطان المريد، وتنبيهٌ له على موضعِ خطأ قِيلِه، وإنكاره ما أنكرَ من قدرةِ رَبِّه، قال: يا أيها الناسُ إنْ كنتم في شكٍّ من قدرتنا على بَعْثِكم من قبوركم بعد مَمَاتكم وبِلاَكُم استعظاماً منكم لذلك، فإنَّ في ابتدائنا خَلْقَ أبيكم آدم ﷺ من ترابٍ، ثم إنشائناكُمْ من نطفة آدم، ثم تَصْريفناكُمْ أحوالاً حالاً بعد حالٍ، من نطفةٍ إلى علقةٍ، ثم من عَلَقة إلى مُضْغةٍ، لكم معتبراً ومُتَّعَظاً تعتبرونَ به، فتعلمون أنَّ مَنْ قدرَ على ذلك فغير مُتعذِّرٍ عليه إعادتكم بعد فنائكم، كما كنتم أحياء قبل الفناء.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «مُخَلَّقةٍ وغير مخلَّقة»، فقال بعضهم: هي من صفةِ النطفة، قال: ومعنى ذلك: فإنَّا خلقناكم من ترابٍ، ثم من نطفة مُخَلَّقة وغير مُخَلَّقةٍ، قالوا: فأما المخلَّقة: فما كان خَلْقاً سَوِيّاً. وأما غير مخلقة، فما دفعته الأرحامُ من النُّطَفِ، وألقته قبلَ أنْ يكون خَلْقاً.

وقال آخرون: معنى ذلك: تامة وغير تامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: المضغة مصوَّرة إنساناً وغير مصوّرة، فإذا صُوِّرتْ فهي مُخَلَّقة وإذا لم تُصَوَّرْ فهي غير مُخَلَّقة.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: المُخَلَّقةُ: المصورةُ خَلْقاً تاماً، وغير مُخَلَّقة: السِّقط قبلَ تمامِ خَلْقِه، لأنَّ المخلَّقة وغير المخلَّقة من

نعتِ المُضغـة والنطفة بعد مصيرها مضغة، لم يبقَ لها حتى تصيرَ خَلْقاً سوياً إلا التصوير. وذلك هو المراد بقوله: «مُخَلَّقَةٍ وغَيرِ مخَلَّقَةٍ» خَلْقاً سوياً، وغير مخلَّقة بأن تلقيه الأمُّ مضغةً ولا تصوّر، ولا يُنفخ فيها الروح.

وقـوله: «لِنُبَيِّنَ لَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْره: جعلنا المضغةَ منها المخلقة التامة، ومنها السقط غير التامِّ لنبيِّنَ لكم قُدْرَتَنا على ما نشاءُ، ونُعَرِّفَكُمْ ابتداءنا خَلْقَكُمْ.

وقوله: «وَنُقِرِ في الأَرْحامِ ما نَشاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ كُنَّا كتبنا له بقاءً وحياةً إلى أمدٍ وغاية، فإنا نُقِرُّهُ في رحمِ أمهِ إلى وقتهِ الذي جعلنا له أن يمكثَ في رحمها فلا تسقطه، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أَذِنَّا له بالخروجِ منها، فيخرج.

وقوله: «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم نخرجكم من أرحامِ أمهـاتكم إذا بلغتم الأجلَ الذي قَدَّرْتُه لخروجكم منها طفلاً صغاراً، وَوَحَّدَ الطفل، وهو صفةٌ للجميع، لأنه مصدرٌ مثل عدل وزور.

وقوله: «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ»، يقولُ: ثم لتبلغوا كمالَ عقولكم ونهايةَ قُواكم بعمركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ومنكم أيهـا الناس مَنْ يُتَوفَّى قبل أنْ يبلغَ أَشُدَّهُ فيموت، ومنكم مَنْ يُنْسأ في أجله فيُعَمَّر حتى يهرم، فَيُرَدُّ من بعد انتهاءِ شبابه،

وبلوغه غاية أشدّهِ إلى أرذلِ عُمُره، وذلك الهرمُ حتى يعود كهيئته في حال صباه، لا يعقل من بعد عَقْلِه الأوَّلِ شيئاً.

ومعنى الكلام: ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمُر بعد بلوغه أشدَّهُ. «لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ» كان يعلمه «شَيْئاً».

وقوله: «وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وترى الأرضَ يا محمدُ، يابسة دارسةَ الآثارِ من النباتِ والزرع.

وقوله: «فإذَا أنْزَلْنا عَلَيْها المَاء اهْتَزَّتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا نحن أنزلنا على هذه الأرض الهامدةِ التي لا نباتَ فيها، المطرَ من السماء اهتزّت، يقولُ: تَحرَّكَتْ بالنباتِ. «وَرَبَتْ»، يقولُ: وأضعفت النباتَ بمجيءِ الغيثِ.

وقوله: «وأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وأنبتت هذه الأرضُ الهامدةُ بذلك الغيث، من كُلِّ نوعٍ بهيج، يعني بالبَهِيج: البَهِج، وهو الحَسَن[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾**

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك» هذا الذي ذكرتُ لكم أيها الناسُ من بَدْئِنَا خَلْقَكُمْ في بطونِ أمهاتكم، ووصفنا أحوالكم قبلَ الميلادِ وبعده، طفلاً، وكهلاً، وشيخاً هَرماً، وتَنْبيهنَاكُمْ على فِعْلنا بالأرضِ الهامدةِ بما نُنَزِّلُ عليها من الغيثِ لتؤمنوا وتُصَدِّقُوا بأنَّ ذلك الذي فعلَ ذلك، الله الذي هو الحقُّ لاشكَّ

(١) انظر مفردات الراغب: ١٤٨، وهو حُسْنُ اللونِ.

فيه، وأن مَنْ سِواهُ مما تعبدونَ من الأوثانِ والأصنامِ باطلٌ لأنها لا تقدرُ على فِعْل شيءٍ من ذلك، وتعلموا أنَّ القدرة التي جعلَ بها هذه الأشياء العجيبة، لا يتعذَّرُ عليها أنْ يُحْيِي بها الموتى بعد فنائها ودروسها في التراب، وأنَّ فاعلَ ذلك على كلِّ ما أرادَ وشاءَ من شيءٍ قادرٌ، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَهُ، ولتوقِنُوا بذلك أنَّ الساعةَ التي وعدتُكم أنْ أبعثَ فيها الموتى من قبورهم جائية لا محالة. «لا رَيْبَ فِيها»، يقولُ: لاشك في مجيئها وحدوثها، «وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ حينئذٍ مَن فيها من الأمواتِ أحياءً إلى موقفِ الحسابِ، فلا تَشُكُّوا في ذلك، ولا تمترُوا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُخاصِمُ في توحيدِ الله وإفراده بالألوهةِ بغير علمٍ منه بما يُخاصم به، «وَلا هُدًى»، يقولُ: وبغير بيانٍ معه لما يقولُ ولا بُرْهان، «وَلا كِتابٍ مَنِيرٍ»، يقولُ: وبغيرِ كتابٍ من الله أتاه لصحةِ ما يقولُ. «منير»، يقولُ: يُنيرُ عن حُجَّتِه. وإنما يقول ما يقول من الجهلِ ظناً منه وحُسباناً، وذُكِرَ أنه عُنِي بهذه الآيةِ والتي بعدها النضر بن الحارث من بني عبدالدار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يجادلُ هذا الذي يجادلُ في الله بغير علم «ثانِيَ عِطْفِهِ».

واختلفَ أهل التأويل في المعنى الذي من أجله وُصِفَ بأنه يثني عطفه،

وما المرادُ من وصفه إياه بذلك، فقال بعضهم: وصفه بذلك لتكبُّرِه وتبختُرِه، وذُكِرَ عن العرب أنها تقول: جاءني فلان ثانِيَ عِطْفه: إذا جاء متبختراً من الكِبْرِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لاوٍ رَقَبَتَهُ.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يُعْرِضُ عما يُدْعَى إليه فلا يسمع له.

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربات المعنى، وذلك أنَّ مَنْ كانَ ذا استكبارٍ، فمن شأنه الإعراضُ عما هو مستكبرٌ عنه ولَيّ عُنُقِه عنه والإعراض.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هذا المُخَاصِمَ في الله بغيرِ علمٍ أنه من كِبره إذا دُعِيَ إلى الله، أعرض عن داعيهِ، ولوى عنقَهُ عنه، ولم يسمع ما يُقال له استكباراً.

وقوله: «لِيُضِلَّ عن سَبيلِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: يجادل هذا المشرك في الله بغير عِلْم مُعْرِضاً عن الحقِّ استكباراً، ليصدَّ المؤمنينَ بالله عن دينهم الذي هَداهُم له، ويستزلَّهُمْ عنه. «لَهُ في الدُّنْيا خِزْيٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لهذا المجادلِ في الله بغيرِ علمٍ، في الدنيا خِزيٌ وهو القَتْلُ والذلُّ والمَهَانة بأيدي المؤمنينَ، فقتلَهُ اللهُ بأيديهم يومَ بدر.

وقوله: «وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ونحرقه يومَ القيامةِ بالنار.

وقوله: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ويقال له إذا أُذِيقَ عذابَ النار يومَ القيامة: هذا العذابُ الذي نُذِيقكَهُ اليومَ بما قَدَّمتْ يداكَ في الدنيا من الذنوبِ والآثام، واكتسبته فيها من الإجرام. «وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، يقولُ: وفعلنا ذلك، لأنَّ الله ليس بظلامٍ للعبيد، فيعاقب بعضَ عبيدهِ على جُرْمٍ، وهو يغفرُ مِثْلَهُ من آخر غيره، أو يحمل ذَنْبَ مذنبٍ على غيرِ مذنب، فيعاقبه به، ويعفو عن صاحبِ الذنب، ولكنه لا يعاقبُ أحداً إلا على

جُرْمِه، ولا يعذِّبُ أحداً على ذنبٍ يغفر مثله لآخرَ إلا بسببٍ استحقَّ به منه مغفرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

يعني جلَّ ذِكْرُه بقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ» أعراباً كانوا يَقْدمُونَ على رسولِ الله ﷺ، مهاجرينَ من باديتهم، فإنْ نالوا رخاءً من عيشٍ بعد الهجرةِ والدخولِ في الإسلام أقاموا على الإسلام، وإلا ارتدُّوا على أعقابهم، فقال الله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ» على شكٍّ، «فإنْ أصابهُ خيرٌ اطمأنَّ بهِ» وهو السَّعَةُ من العيشِ، وما يشبههُ من أسبابِ الدنيا اطمأنَّ به، يقولُ: استقرَّ بالإسلام وثبتَ عليه، «وإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ» وهو الضيقُ بالعيشِ وما يشبهه من أسبابِ الدنيا «انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ»، يقولُ: ارتدَّ فانقلبَ على وجهه الذي كان عليه من الكفرِ باللهِ.

وقوله: «خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ»، يقولُ: غَبِنَ هذا الذي وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ صِفَتَهُ دُنْيَاهُ، لأنه لم يَظْفَرْ بحاجتِهِ منها بما كان من عبادتِهِ اللهَ على الشكِّ، ووضع في تجارته فلم يربح. «والآخرةَ»، يقولُ: وخسر الآخرة، فإنه مُعَذَّبٌ فيها بنارِ الله المُوقدة.

وقوله: «ذلكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبينُ»، يقولُ: وخسارته الدنيا والآخرة هي الخُسْرانُ: يعني الهلاكُ المُبين، يقولُ: يبيِّن لمن فكَّرَ فيه وتدبره أنه قد خَسِرَ الدنيا والآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا

﴿يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ أصابت هذا الذي يعبدُ الله على حرفٍ فتنةٌ، ارتدَّ عن دينِ الله، يدعو من دون الله آلهةً لا تضرُّه إنْ لم يعبدها في الدنيا، ولا تنفعُه في الآخرةِ إنْ عَبَدَهَا. «ذلكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ»، يقولُ: ارتدادهُ ذلك داعياً من دونِ الله هذه الآلهة هو الأخذُ على غيرِ استقامةٍ، والذهابُ عن دين الله ذهاباً بعيداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يدعو هذا المنقلبُ على وجهه، من إن أصابته فتنةٌ، آلهةً لَضرُّهَا في الآخرةِ له، أقربُ وأسرعُ إليه من نفعها.

وقوله: «لَبِئْسَ المَوْلَى»، يقولُ: لبئس ابن العمِّ هذا الذي يعبدُ الله على حرفٍ، «وَلَبِئْسَ العَشِيرُ»، يقولُ: ولبئس الخليطُ المعاشرُ والصاحبُ هُوَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله يدخلُ الذينَ صَدَقُوا الله ورسولَهُ، وعَمِلوا بما أمرهم اللهُ في الدنيا، وانتهوا عما نهاهم عنه فيها جناتٍ: يعني بساتين. «تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقولُ: تجري الأنهار من تحت أشجارها، «إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُريدُ» فيعطي ما شاءَ من كرامتِه أهلَ طاعته، وما شاءَ من الهوانِ أهلَ معصيتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ۝١٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّ بالهاء التي في قوله: «أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ».

فقال بعضهم: عُنِيَ بها نبيُّ الله ﷺ، فتأويلُه على قولِ بعض قائلي ذلك: مَنْ كان من الناس يحسبُ أنْ لن ينصرَ اللهُ محمداً في الدنيا والآخرة، فليمدُدْ بحبلٍ، وهو السببُ إلى السماء: يعني سماء البيت، وهو سقفه، ثم ليقطع السببَ بعد الاختناقِ به، فلينظُرْ هل يذهبن اختناقه ذلك، وقطعه السبب بعد الاختناق ما يغيظ: يقول: هل يذهبن في ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

وقال آخرون: ممن قال: الهاء في ينصره من ذِكْرِ اسمِ رسولِ الله ﷺ: السماءُ التي ذُكِرَت في هذا الموضع، هي السماءُ المعروفة، وقالوا: معنى الكلام: مَنْ كان يظنُّ أنْ لَنْ ينصرَ اللهُ نبيه ﷺ، ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه، ومنه: فليقطع ذلك من أصلِه من حيثُ يأتيه، فإنَّ أصلَهُ في السماء، فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء، ثم ليقطع عن النبيِّ ﷺ الوحيَ الذي يأتيه من الله، فإنه لا يكايدُه حتى يقطعَ أصلَهُ عنه، فكايدَ ذلك حتى قطعَ أصله عنه. «فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ» ما دخلهم من ذلك، وغاظهم اللهُ به من نصرةِ النبيِّ ﷺ وما ينزل عليه.

وقال آخرون: ممن قال «الهاء» التي في قوله: «يَنْصُرَهُ» من ذِكْرِ محمد ﷺ: معنى النصر ها هنا الرزقُ، فعلى قولِ هؤلاءِ تأويلُ الكلام: مَنْ كان يظنُّ أنْ لن يرزقَ اللهُ محمداً في الدنيا، ولن يعطيه. وذكروا سماعاً من العرب: مَنْ ينصرني نَصَرَهُ اللهُ، بمعنى: من يُعْطِني أعطاهُ الله. وحكوا أيضاً سماعاً منهم:

نصرَ المطرُ أرضَ كذا: إذا جَادَهَا وأحياها.

وقال آخرون: الهاء في ينصره من ذكر «مَنْ»، وقالوا: معنى الكلام: مَنْ كان يظنُّ أنْ لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فليمدُدْ بسببٍ إلى سماء البيت، ثم ليختنق، فلينظرْ هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، أنه لا يرزق!

وأولى ذلك بالصواب عندي في تأويل ذلك قولُ مَنْ قال: الهاء من ذِكْرِ نبيِّ الله ﷺ ودينه، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه، ذكرَ قوماً يعبدونه على حَرْفٍ، وأنهم يطمئنون بالدين إنْ أصابوا خيراً في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدُّونَ عن دِينهم لشدَّةٍ تُصِيبهم فيها، ثم أتبع ذلك هذه الآية، فمعلوم أنه إنما أتبعه إياها توبيخاً لهم على ارتـدادهم عن الدين، أو على شَكِّهم فيه ونفاقهم، استبطاءً منهم السعة في العيشِ، أو السبوغ في الرزق. وإذا كان الواجبُ أنْ يكونَ ذلك عقيبَ الخبرِ عن نفاقهم، فمعنى الكلام إذن، إذْ كان ذلك كذلك: مَنْ كان يحسب أنْ لن يرزقَ اللهُ محمداً ﷺ وأمته في الدنيا، فيوسِّع عليهم من فضلِه فيهـا، ويرزقهم في الآخـرة من سَنِيِّ عطاياه وكـرامتـه، استبطاءً منه فِعْلَ اللهِ ذلك به وبهم، فليمدُدْ بحبلٍ إلى سماء فوقه؛ إما سقفِ بيت، أو غيره مما يعلقُ به السبب من فوقـه، ثم يختنق إذا اغتـاظ من بعضِ ما قضى الله، فاستعجل انكشافَ ذلك عنه، فلينظر هل يذهبنَّ كيده اختناقَهُ، كذلك ما يغيظ، فإنْ لم يُذْهِبْ ذلك غيظَهُ، حتى يأتي الله بالفرج من عنده فيذهبه، فكذلك استعجالُه نصرَ الله محمداً ودينه لن يُؤَخِّر ما قضى اللهُ له من ذلك عن ميقاتِه، ولا يعجِّل قَبْلَ حِينه.

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت في أسد وغطفان، تباطئوا عن الإسلامِ، وقـالوا: نخافُ أن لا يُنْصَر محمدٌ ﷺ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهودِ فلا يميروننا ولا يُرَوُّونَنا، فقال الله تبارك وتعالى لهم: مَنْ استعجل من اللهِ نصرَ محمدٍ، فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء فليختنقْ فلينظرْ استعجاله بذلك في

نفسه، هل هو مُذْهِبٌ غيظَهُ؟ فكذلك استعجالُه من الله نصرَ محمدٍ غير مقدّم نصره قبل حينه.

وقوله: «وكَذلكَ أنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكما بيَّنت لكم حُجَجي على مَنْ جحد قُدْرَتِي على إحياءِ مَنْ مات من الخَلْقِ بعد فنائه، فأوضَحْتُهَا أيها الناسُ، كذلك أنزلنا إلى نبينا محمدٍ ﷺ هذا القرآنَ آياتٍ بيِّنات، يعني دِلالاتٍ واضحاتٍ، يهدينَ مَن أرادَ اللهُ هدايَتَهُ إلى الحقِّ. «وأنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُريدُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولأنَّ الله يوفق للصوابِ ولسبيلِ الحقِّ مَنْ أراد، أنزل هذا القرآنَ آياتٍ بيِّنات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الفصلَ بين هؤلاءِ المنافقينَ الذين يَعْبدونَ اللهَ على حرفٍ، والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثانَ والأصنامَ، والذين هادوا، وهم اليهودُ، والصابئينَ والنصارى والمجوس الذين عَظَّمُوا النيران وخدموها، وبين الذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ، إلى الله[1]، وسيفصلُ بينهم يومَ القيامةِ بعدلٍ من القضاء، وفَصْلُهُ بينهم إدخالُه النارَ الأحزابَ كُلَّهم والجنةَ المؤمنينَ به وبرُسُلِهِ، فذلك هو الفصلُ من الله بينهم.

وقوله: «إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ»، يقولُ: إنَّ الله على كل شيءٍ من أعمالِ هؤلاءِ الأصناف الذين ذكرهم الله جَلَّ ثَناؤُهُ، وغير ذلك من الأشياء كلها شهيدٌ لا يَخْفَى عنه شيءٌ من ذلك.

---

(١) سياق العبارة: إن الفصل بين هؤلاءِ. . . إلى الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمدُ بقلبكَ، فتعلم أنَّ اللهَ يسجدُ له مَنْ في السمواتِ من الملائكةِ، ومَنْ في الأرض من الخَلْقِ من الجنِّ وغيرِهم، والشمسُ والقمرُ والنجومُ في السماء، والجبالُ، والشجرُ، والدوابُّ في الأرض، وسجودُ ذلك ظلالُه حين تطلعُ عليه الشمسُ، وحينَ تزولُ، إذا تحوَّلَ ظِلُّ كُلِّ شيءٍ فهو سجوده.

وقوله: «وكثيرٌ من الناس»، يقولُ: ويسجد كثير من بني آدم، وهم المؤمنونَ بالله.

وقوله: «وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكثيرٌ من بني آدم حَقَّ عليه عذابُ اللهِ، فوجبَ عليه بكُفْرِه به، وهو مع ذلك يسجدُ لله ظله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يُهنْهُ اللهُ من خَلْقه فَيُشْقِه «فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» بالسعادةِ يسعده بها، لأنَّ الأمور كُلَّها بيدِ الله، يوفِّقُ مَنْ يشاءُ لطاعته، ويخذلُ من يشاءُ، ويُشْقِي من أرادَ، ويُسْعِدُ من أحبَّ.

وقوله: «إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله يفعل في خَلْقِه ما يشاءُ من إهانةِ مَن أرادَ إهانتَهُ، وإكرامِ مَنْ أرادَ كرامتَهُ، لأنَّ الخلق خلقه، والأمر أمره، «لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ

﴿كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّ بهذين الخصمين اللذين ذكرهما اللهُ، فقال بعضهم: أحدُ الفريقين: أهلُ الإيمان، والفريقُ الآخر: عَبَدَةُ الأوثان من مشركي قريش الذين تبارزوا يومَ بدر.

وقال آخرون: ممن قال أحدُ الفريقين فريقُ الإيمان: بل الفريق الآخرُ أهل الكتاب.

وقال آخرون منهم: بل الفريقُ الآخرُ الكفارُ كُلُّهم من أيِّ ملةٍ كانوا.

وقال آخرون: الخصمان اللذان ذكرهما اللهُ في هذه الآية: الجنة والنار.

وأَوْلى هذه الأقوال عندي بالصواب، وأشبهها بتأويلِ الآيةِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بالخصمين جميعَ الكُفَّار من أي[1] أصنافِ الكفر كانوا، وجميعَ المؤمنين.

وإنما قلتُ ذلك أولى بالصواب، لأنه تعالى ذكره ذكر قبل ذلك صنفين من خَلْقِه: أحدهما أهلُ طاعةٍ له بالسجودِ له، والآخر: أهلُ معصيةٍ له، قد حقَّ عليه العذاب، فقال: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِ، والشَّمْسُ والقَمَـرُ»، ثم قال: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّـاسِ وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَـذَابُ»، ثم أَتْبَـعَ ذلـك صِفةَ الصنفينَ كِلَيْهِمَا وما هو فاعلٌ بهما، فقال: «فالذينَ كَفَرُوا قُطِّعتْ لَهُمْ ثيابٌ منْ نارٍ»، وقال الله: «إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ» فكان بَيِّناً بذلك أن ما بين ذلك خيرٌ عنهما.

---

(١) في المطبوع: «أن» ولا يستقيم بها المعنى.

فإنْ قال قائل: فما أنتَ قائلٌ فيما رُويَ عن أبي ذَرٍّ في قوله: «إنَّ ذَلكَ» نزلَ في الذين بارزوا يومَ بدر[1]؟ قيل: ذلك إنْ شاء الله كما رُوِيَ عنه، ولكن الآية قد تنزلُ بسببٍ من الأسباب، ثم تكون عامةً في كُلِّ ما كان نظيرَ ذلك السبب، وهذه من تلك، وذلك أنَّ الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شركٍ وكفرٍ بالله، والآخر أهل إيمانٍ بالله وطاعةٍ له، فكلُّ كافرٍ في حكم فريقِ الشركِ منهما في أنه لأهلِ الإيمانِ خَصْمٌ، وكذلك كُلُّ مؤمنٍ في حكمِ فريقِ الإيمان منهما في أنه لأهلِ الشركِ خصم.

فتأويل الكلام: هذان خصمان اختصموا في دين رَبِّهم، واختصامهم في ذلك معاداةُ كُلِّ فريقٍ منهما الفريقَ الآخر، ومحاربته إياه على دينه.

وقوله: «فالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما الكافرُ باللهِ منهما فإنه يُقْطَعُ له قميصٌ من نحاسٍ من نار.

وقوله: «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رؤوسِهِمُ الحَمِيمُ»، يقولُ: يُصَبُّ على رؤوسهم ماءٌ مُغْلىً.

وقوله: «يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ»، يقولُ: يُذَابُ بالحميم الذي يُصَبُّ من فوقِ رؤوسهم ما في بطونهم من الشحوم، وتُشْوَى جلودُهُم منه فتتساقط، والصهرُ: هو الإذابةُ، يقال منه: صهرتُ الألية بالنارِ: إذا أذبتها أصهرها صهراً.

وقوله: «ولَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ» تَضْرِبُ رؤوسَهُم بها الخزنةُ إذا أرادوا الخروجَ من النارِ حتى ترجعهم إليها.

---

(١) حديث متفق عليه: البخاري (٣٩٦٦) و(٣٩٦٨) و(٣٩٦٩) و(٤٧٤٣)، ومسلم (٣٠٣٣)، والذين بارزوا من المسلمينَ هم علي وحمزة وعَبيدة بن الحارث، ومن المشركينَ: شيبة بن ربيعة وعقبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

وقوله: «كُلَّما أرادُوا أنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فيها»، يقولُ: كلما أراد هؤلاءِ الكفارُ الذين وصفَ اللهُ صِفتَهُم الخروجَ من النار، مما نالهم من الغمِّ والكربِ، رُدُّوا إليها.

وعَنَى بقوله: «ذُوقُوا عَذَابَ الحَريق»، ويقال لهم: ذوقوا عذابَ النار، وقيل: «عذاب الحريق» والمَعْنَى: المُحْرِقُ، كما قيل: العذاب الأليم، بمعنى: المُؤلِمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الذين آمنوا بالله ورسوله فأطاعوهما بما أمرهم اللهُ به من صالحِ الأعمالِ، فإنَّ الله يُدْخِلُهم جناتِ عدنٍ تجري من تحتها الأنهارُ، فيحلِّيهم فيها من أساورَ من ذهب ولؤلؤاً.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «وَلُؤْلُؤاً» فقرأته عامة قَرَأة أهلِ المدينة وبعض أهل الكوفة نصباً معَ التي في الملائكة، بمعنى: يُحَلَّون فيها أساورَ من ذهب ولؤلؤاً، عطفاً باللؤلؤ على موضعِ الأساور، لأن الأساورَ وإنْ كانت مخفوضةً من أجلِ دخول «مِن» فيها، فانها بمعنى النَّصب، قالوا: وهي تعدُّ في خط المصحف بالألف، فذلك دليلٌ على صحةِ القراءةِ بالنصبِ فيه. وقرأت ذلك عامة قَرَأةِ العراق والمِصْرَين «وَلُؤْلُؤٍ» خفضاً عطفاً على إعراب الأساور الظاهر.

واختلف الذين قرأوا ذلك كذلك في وجهِ إثباتِ الألفِ فيه، فكان أبو عَمرو بن العلاء فيما ذُكِرَ لي عنه يقولُ: أثبتت فيه كما أثبتت في قالوا، وكالوا. وكان الكسائي يقولُ: أثبتوها فيه للهمزة، لأن الهمزة حرف من الحروف.

والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماء من القَرَأة، متفقتا المعنى، صحيحتا المخرج في العربية، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ.

وقوله: «وَلِبَاسُهُمْ فيها حَرِيرٌ»، يقولُ: ولبوسهم التي تَلِي أبشارَهُمْ فيها ثيابُ حريرٍ.

وقوله: «وَهُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وهداهم رَبُّهم في الدنيا إلى شهادةِ أنْ لا إله إلا الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين جحدوا توحيدَ اللهِ، وكذَّبُوا رُسُلَهُ، وأنكروا ما جاءَهُم به من عند رَبِّهم، «ويصدُّونَ عن سبيلِ الله»، يقولُ: ويمنعون الناسَ عن دينِ الله أنْ يدخلُوا فيه، وعن المسجد الحرام الذي جعله اللهُ للناسِ الذين آمنوا به كافةً لم يخصص منها بعضاً دون بعضٍ «سَوَاءً العاكِفُ فِيهِ والبادِ»، يقولُ: معتدلٌ في الواجب عليه ـ من تعظيمِ حُرْمَةِ المسجدِ الحرام، وقضاء نُسُكه به، والنزول فيه، حيث شاءَ ـ العاكفُ فيه، وهو المقيمُ به؛ والباد: وهو المنتابُ إليه من غيره.

وقوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أليمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يُرِدْ فيه إلحاداً بظلمٍ نذقه من عذابٍ أليم، وهو أنْ يميلَ في البيتِ الحرام بظلم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الظلم الذي مَنْ أرادَ الإلحادَ به في المسجد الحرام، أذاقه اللهُ من العذابِ الأليم، فقال بعضهم: ذلك هو الشركُ بالله وعبادةُ غيرِه به: أي بالبيت.

وقال آخرون: هو استحلالُ الحرامِ فيه أو ركوبه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك الظلم: استحلالُ الحرم متعمِّداً.

وقال آخرون: بل ذلك احتكارُ الطعامِ بمكة.

وقال آخرون: بل ذلك كُلُّ ما كان منهياً عنه من الفعلِ، حتى قول القائل: لا والله، وبلى والله.

وأَوْلى الأقوالِ التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: إنه كُلُّ معصيةٍ لله، وذلك أن الله عَمَّ بقوله: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ» ولم يخصص به ظلم دون ظلم في خَبَرٍ ولا عَقْلٍ، فهو على عمومِه. فإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الكلام: ومَنْ يُرِدْ في المسجدِ الحرامِ بأنْ يميلَ بظلمٍ، فيعصِي اللهَ فيه، نُذِقْهُ يومَ القيامة من عذابٍ موجعٍ له.

القَوْلُ في تأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُعْلِمَهُ عظيمَ ما رَكِبَ قومُه من قريش

خاصةً دون غيرهم من سائر خَلْقِه بعبادتهم في حرمه، والبيت الذي أمر إبراهيم خليله ﷺ ببنائه وتطهيره من الآفاتِ والرِّيَبِ والشرك: واذكر يا محمدُ كيف ابتدأنا هذا البيتَ الذي يعبدُ قومُكَ فيه غيري، إذ بَوَّأْنا لخليلنا إبراهيم، يعني بقوله: بوأنا: وَطَّأنا له مكانَ البيت.

ويعني بالبيت: الكعبة. «أنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» في عبادتك إيايَ، «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ» الذي بنيته من عبادةِ الأوثان.

وقوله: «للطَّائِفِينَ»، يعني للطائفين به. «والقائمينَ»، بمعنى: المصلين الذين هُمْ قيامٌ في صلاتهم.

وقوله: «وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»، يقولُ: والركع السجود في صلاتِهم حولَ البيت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عَهِدْنا إليه أيضاً أنْ أَذِّنْ في الناسِ بالحجِّ، يعني بقوله: «وأذِّنْ»: أعْلِم ونادِ في الناسِ أنْ حُجُّوا أيها الناسُ بيتَ الله الحرام. «يَأْتُوكَ رِجالاً»، يقولُ: فإنَّ الناسَ يأتونَ البيتَ الذي تأمرهم بحجِّه مُشاةً على أرجلهم، «وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ»، يقـولُ: وركبـاناً على كُلِّ ضامرٍ، وهي الإبلُ المهـازيلُ «يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» يقـولُ: تأتي هذه الضوامرُ من كُلِّ فَجٍّ عميق، يقولُ: من كُلِّ طريقٍ ومكانٍ ومسلكٍ بعيد.

وذُكِرَ أنَّ إبراهيمَ صلواتُ الله عليه لما أمره الله بالتأذين بالحجِّ، قام على مقامهِ فنادى: يا أيها الناسُ إنَّ الله كتب عليكم الحجَّ فحجُّوا بيته العتيق.

وقوله: «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى المنافع التي ذكرها الله في هذا الموضع فقال بعضهم: هي التجارة ومنافع الدنيا.

وقال آخرون: هي الأجْرُ في الآخرة، والتجارة في الدنيا.

وقال آخرون: بل هي العفو والمغفرة.

وأوْلى الأقوالِ بالصواب قولُ من قال: عنى بذلك: ليشهدوا منافعَ لهم من العملِ الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أنَّ الله عَمَّ لهم منافعَ جميعِ ما يَشْهَد له الموسم، ويأتي له مكة أيامَ الموسم من منافعِ الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئاً من منافعهم بخبرٍ ولا عقلٍ، فذلك على العمومِ في المنافعِ التي وصفت.

وقوله: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ في أيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِن بَهِيمَةِ الأنْعامِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكي يَذْكُروا اسمَ الله على ما رزقهم من الهدايا والبُـدْن التي أهدوها من الإبلِ والبقر والغنم، في أيامٍ معلومات، وهُنَّ أيامُ التشريق في قولِ بعضِ أهل التأويل. وفي قول بعضهم أيام العَشْر. وفي قول بعضهم: يوم النحر وأيام التشريق.

وقد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويل في ذلك، وبيَّنا الأوْلى بالصوابِ منها في سورة البقرة، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «فَكُلُوا مِنْهَا»، يقولُ: كُلُوا من بهائمِ الأنعامِ التي ذكرتم اسمَ الله عليها أيها الناسُ هنالك، وهذا الأمرُ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمرُ إباحةٍ لا أمرُ إيجابٍ، وذلك أنه لا خلافَ بين جميع الحُجَّةِ أنَّ ذابحَ هَدْيِهِ أو بُدْنَتِهِ هنالك، إنْ لم يأكل من هديه أو بدنته، أنه لم يضيع له فرضاً كان واجباً عليه، فكان معلوماً

بذلك أنه غير واجب.

وقوله: «وأطْعِمُوا البائِسَ الفَقِيرَ»، يقولُ: وأطعموا مِمَّا تذبحونَ أو تنحرون هنالك من بهيمةِ الأنعام، من هَدْيِكُمْ وبُدْنِكم البائسَ، وهو الذي به ضرُّ الجوعِ والزمانةِ والحاجة، والفقير: الذي لا شيءَ له.

وقوله: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: ثم ليقضوا ما عليهم من مناسكِ حَجِّهم: من حلقِ شعرٍ، وأخذِ شاربٍ، ورمي جمرةٍ، وطوافٍ بالبيت.

وقوله: «وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ»، يقولُ: وليوفوا الله بما نَذَرُوا من هَدْيٍ وبدنة وغير ذلك.

وقوله: «وَلْيَطَّوَّفُوا بالبَيْتِ العَتيقِ»، يقولُ: وليطَّوَّفُوا ببيتِ الله الحرام.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «العَتِيق» في هذا الموضع، فقال بعضهم: قيل ذلك لبيتِ الله الحرام، لأنَّ الله اعتقه من الجبابرةِ أنْ يَصِلُوا إلى تخريبه وهدمه.

وقال آخرون: قيل له عتيق، لأنه لم يملكه أحدٌ من الناس.

وقال آخرون: سمي بذلك لِقِدَمِهِ، (وهو قول ابن زيد).

ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها في قوله: «البَيْتِ العَتِيقِ» وجهٌ صحيح، غير أنَّ الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر، غير أن الذي رُوي عن عبدالله بن الزبير أوْلى بالصحة، قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّما سُمِّيَ البَيْتَ العَتِيقَ لأنَّ اللهَ أعْتَقَهُ مِنَ الجَبابرَةِ فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْه قَطُّ صَحِيحاً»[1].

(١) أخرجه المؤلف، والترمذي (٣١٧٠)، وقال: حسن صحيح، وقد روي هذا الحديث عن الزهري عن النبي ﷺ، مرسلاً. قلنا: وساقه الطبري من رواية ابن جريج عن الزهري، وساقه الترمذي من رواية عُقيل عن الزهري. وفي رواية الترمذي: لم يظهر عليه جبار.

وعنى بالطوافِ الذي أمر جَلَّ ثَنَاؤُهُ حاجَّ بيتِهِ العتيقِ به في هذه الآية طوافَ الإفاضة الذي يُطاف به بعد التعريف، إما يوم النحر. وإما بعده، لا خلافَ بين أهلِ التأويلِ في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلكَ»: هذا الذي أمر به من قضاء التَّفث، والوفاء بالنذور، والطواف بالبيتِ العتيق هو الفرضُ الواجبُ عليكم يا أيها الناسُ في حجكم. «وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ»، يقولُ: ومن يجتنبْ ما أمرهُ اللهُ باجتنابه في حالِ إحرامهِ تعظيماً منه لحدود اللهِ أنْ يُواقِعَهَا وحُرَمهُ أنْ يستحلَّها، فهو خيرٌ له عند ربه في الآخرة.

وقولـه: «وأُحِلَّتْ لَكُم الأَنْعَامُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وأحلَّ اللهُ لكم أيها النـاسُ الأنعـامَ، أنْ تأكلوها إذا ذكَّيْتُموها، فلم يحرِّم عليكم منها بَحيرةً، ولا سائبـةً، ولا وَصِيلةً، ولا حامـاً، ولا ما جعلتمـوهُ منها لآلهتكم «إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ»، يقولُ: إلا ما يُتْلَى عليكم في كتابِ اللهِ، وذلك: الميتة، والدَّم، ولحم الخنـزير، ومـا أُهِـلَّ لغيرِ اللهِ به، والمنخنقـة، والموقوذة ، والمتردِّية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذُبح على النُّصب، فإنَّ ذلك كله رِجْسٌ.

وقوله: «فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ»، يقولُ: فاتقوا عبادَةَ الأوثانِ، وطاعةَ الشيطانِ في عبادتها فإنها رجسٌ.

وقـولـه: «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واتقوا قولَ الكذبِ والفِـرية على الله بقـولكم في الآلهة «ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى»

وقـولكم للمـلائكة: هي بنات الله، ونحو ذلك من القولِ، فإنَّ ذلك كذبٌ وزور، وشرك بالله.

فإنْ قال قائل: وهل من الأوثانِ ما ليس برجسٍ، حتى قيل: فاجتنبوا الرجسَ منها؟ قيل: كُلُّها رِجْسٌ، وليس المعنى ما ذهبت إليه في ذلك. وإنما معنى الكلام: فاجتنبوا الرجسَ الذي يكونُ من الأوثانِ أي عبادتها، فالذي أمر جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ» منها اتقاء عبادتها، وتلك العبادة هي الرجس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: اجتنبـوا أيها الناسُ عبادةَ الأوثانِ، وقولَ الشرك، مستقيمينَ لله على إخلاصِ التوحيدِ له، وإفراد الطاعةِ والعبادةِ له خالصاً دونَ الأوثانِ والأصنام، غيرَ مشركينَ به شيئاً من دونه، فإنه مَنْ يُشركْ بالله شيئاً من دونه، فمثله في بُعْدِهِ من الهدى وإصابةِ الحقِّ وهلاكه وذهابه عن ربه، مَثَلُ مَنْ خَرَّ من السمـاء، فَتَخْـطَفُـه الطيرُ، فهلكَ، أو هَوَتْ به الريحُ في مكانٍ سحيق، يعني من بعيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي ذكرتُ لكم أيها الناسُ، وأمرتُكم به من اجتنابِ الرجسِ من الأوثان، واجتناب قولِ الزور، حنفاءَ لله، وتعظيم شعائر

الله، وهو استحسانُ البُدْنِ واسْتِسْمَانُها، وأداء مناسك الحجِّ على ما أمرَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، من تقوى قلوبكم.

وأَوْلى الأقـوال في معنى تقوى القلوب أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه، أخبر أنَّ تعظيمَ شعائرِهِ، وهي ما جعله أعلاماً لخلقه فيما تَعَبَّدَهُمْ به من مناسكِ حَجِّهم من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها والأعمال التي ألزمهم عملها في حَجِّهم من تقوى قلوبهم، لم يخصص من ذلك شيئاً، فتعظيمُ كلِّ ذلك من تقوى القلوب، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وحقّ على عبادِهِ المؤمنينَ به تعظيم جميع ذلك، وقال: «إنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ» وأنَّثَ، ولم يقل: فإنه، لأنه أُريدَ بذلـك: فإنَّ تلك التعـظيمـةَ مع اجتنابِ الرجس من الأوثانِ من تقوى القلوب، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ». وعَنَى بقوله «فإنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوب» فإنها من وَجَلِ القلوبِ من خشيةِ الله وحقيقةِ معرفتها بعظمتِهِ وإخلاصِ توحيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى المنافع التي ذكر الله في هذه الآية، وأخبر عباده أنها إلى أجل مسمى، على نحوِ اختلافهم في معنى الشعائر التي ذكرها جَلَّ ثَنَاؤُهُ، في قوله: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فإنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ» فقال: الـذين قالـوا عنى بالشعائر: البُدْن، معنى ذلك: لكم أيها الناسُ في البُدْنِ منافعُ. ثم اختلف أيضاً الذين قالوا هذه المقالة في الحال التي لهم فيها منافع، وفي الأجل الذي قال عزَّ ذِكْرُه «إلى أجل مُسَمًّى» فقال بعضهم: الحال التي أخبر الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ لهم فيها منافع، هي الحال التي لم يوجبها صاحبها ولم يُسَمِّها بُدْنَةً ولم يقلدها. قالوا: ومنافعها في هذه الحال: شربُ ألبانها، وركوبُ

ظهـورها، وما يرزقهم الله من نِتاجها وأولادها. قالوا: والأجلُ المسمى الذي أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ ذلك لعبادِه المؤمنينَ منها إليه، هو إلى إيجابهم إياها، فإذا أوجبوها بطل ذلك، ولم يكن لهم من ذلك شيء.

وقال آخرون ممن قال: الشعائر: البدن في قوله: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ الله فإنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوب» والهاء في قوله: «لَكُمْ فِيها» من ذِكْرِ الشعائر، ومعنى قولـه: «لَكُمْ فِيهـا مَنـافـعُ»: لكم في الشعـائرِ التي تعظمونها لله منافع بعد اتخاذِكُمُوها لله بُدْناً أو هدايا، بأنْ تركبوا ظهورها إذا احتجتم إلى ذلك، وتشربوا ألبانَها إن اضطررتم إليها. قالوا: والأجلُ المسمى الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ «إلى أَجَلٍ مُسَمًّى» إلى أنْ تُنْحَرَ.

وأما الذين قالوا: معنى الشعائر في قوله: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ الله»: شعائر الحـجّ، وهي الأماكن التي يُنْسَكُ عندها للهِ، فإنهم اختلفوا أيضاً في معنى المنافع التي قال الله: «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ» فقال بعضهم: معنى ذلك: لكم في هذه الشعـائـر التي تُعَـظِّمُـونَهـا منـافـعُ بتجـارتكم عندها، وبيعكم وشرائكم بحضرتها، وتَسَوُّقِكُم. والأجل المسمى: الخروج من الشعائر إلى غيرها، ومن المواضع التي يُنْسَكُ عندها إلى ما سواها في قول بعضهم.

وقال آخرون منهم: المنافع التي ذكرها الله في هذا الموضع: العملُ لله بما أمر من مناسكِ الحجّ. قالوا: والأجل المسمَّى: هو انقضاءُ أيام الحجِّ التي يُنْسَكُ لله فيهنّ.

وقد دَلّلنا قَبْلُ على أنَّ قولَ الله تعالى ذِكْرُه: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ» معنيٌّ به: كلُّ ما كانَ من عملٍ أو مكانٍ جعله الله عَلماً لمناسكِ حجِّ خَلْقِه، إذ لم يخصص من ذلـك جَلَّ ثَنَاؤُهُ شيئاً في خبرٍ ولا عَقْلٍ. وإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أن معنى قوله: «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى»: في هذه الشعائر منافع إلى أجل مسمى، فما كان من هذه الشعائر بدناً وهدياً، فمنافعها لكم

من حين تملكون، إلى أنْ أوجبتموها هدايا وبدناً وما كان منها أماكن يُنْسَك لله عندها، فمنافعها: التجارة لله عندها، والعمل بما أمر به إلى الشخوصِ عنهـا، ومـا كان منهـا أوقاتاً بأن يُطاعَ اللهُ فيها بعملِ أعمالِ الحجِّ وبطلبِ المعاشِ فيها بالتجارةِ، إلى أن يُطَافَ بالبيتِ في بعض، أو يوافي الحَرَمَ في بعض، ويخرج عن الحرم في بعض.

وقد اختلف الذين ذكرنا اختلافهم في تأويل قوله: «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى» في تأويل قوله: «ثُمَّ مَحِلُّها إلى البَيْتِ العَتِيقِ» فقال الذين قالوا: عَنَى بالشعائر في هذا الموضع: البُدْن، معنى ذلك: ثم مَحِل البُدْن إلى أن تبلغَ مكةَ، وهي التي بها البيت العتيق.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم محلكم أيها الناسُ من مناسكِ حجكم إلى البيتِ العتيق أنْ تطوفوا به يومَ النحرِ بعد قضائِكم ما أوجبهُ اللهُ عليكم في حجكم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم مَحِلُّ منافعِ أيامِ الحجِّ إلى البيتِ العتيق بانقضائها.

وأوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصواب. قولُ من قال: معنى ذلك: ثم محلُّ الشعائرِ التي لكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مسمى إلى البيتِ العتيق، فما كان من ذلك هدياً أو بُدْناً، فبموافاتهِ الحرمَ في الحرم، وما كان من نُسكٍ، فالطواف بالبيت.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَلِكُلّ أُمَّةٍ»، ولكلِّ جماعةٍ سلف فيكم من أهلِ الإيمانِ باللهِ أيها الناسُ جعلنا ذبحاً يُهرِقون دَمَهُ. «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ » بذلك لأنَّ من البهائم ما ليسَ من الأنعام، كالخيلِ والبغالِ والحمير. وقيل: إنما قيلَ للبهائمِ بهائم، لأنها لا تتكلمُ.

وقـولـه: «فَـإلٰهُكُمْ إلَهٌ وَاحِدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاجتنبوا الرجسَ من الأوثانِ، واجتنبوا قولَ الزور، فإلهكم إلهٌ واحدٌ، لا شريكَ له، فإياهُ فاعبدوا، وله أخلصوا الألوهةَ.

وقـولـه: «فَلَهُ أَسْلِمُـوا»، يقولُ: فلإلَهِكُمْ فاخْضَعُوا بالطاعةِ، وله فَذلُّوا بالإقرارِ بالعبودية.

وقوله: «وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وبشر يا محمدُ، الخاضعينَ لله بالطاعةِ، المذعنينَ له بالعبوديةِ، المنيبينَ إليه بالتوبةِ، وقد بيَّنا معنى الإخباتِ فيما مضى من كتابنا هذا[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فهذا من نعتِ المخبتين، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وبَشِّرْ يا محمدُ المُخْبتينَ الذين تخشعُ قلوبُهم لذكرِ الله، وتخضع من خشيته وَجَلاً من عقابِهِ، وخوفاً من سخطه. «والصَّابِرِينَ عَلى ما أَصَابَهُمْ» من شِدَّةٍ في أمرِ الله، ونالهم من مكروهٍ في جنبه، «والمُقِيمِي الصَّلاةِ» المفروضة، «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» من الأموالِ «يُنْفِقُونَ» في الواجبِ عليهم إنفاقها فيه في زكاةٍ، ونفقةِ عيالٍ، ومَنْ وجبت عليه نفقته، وفي سبيل الله.

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٣ من سورة هود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والبُدْن: وهي جمع بَدَنَة، وقد يقال لواحدها: بَدَن، وإذا قيل بُدْن احتمل أن يكون جمعاً وواحداً.

والبَـدنُ: هو الضخمُ من كلِّ شيءٍ، ولـذلك قيل لامرىء القيسِ بن النعمـان صاحبِ الخـورنق والسـدير، البَدن: لضخمه واسترخاءِ لحمه، فإنه يقـال: قد بَدَّنَ تبـديناً. فمعنى الكـلام: والإبل العظام الأجسام الضخام، جعلناها لكم أيها الناسُ من شعائرِ الله، يقولُ: من أعلامِ أمرِ الله الذي أمركم به في مناسك حجكم إذا قلدتموها وجَلَّلْتُموها وأشْعَرْتُموها علم بذلك، وشعرَ أنكم فعلتم ذلك من الإبلِ والبقر.

وقوله: «لَكُمْ فِيها خَيْرٌ»، يقولُ: لكم في البُدْن خير، وذلك الخيرُ هو الأجرُ في الآخرةِ بنحرها والصدقةِ بها، وفي الدنيا: الركوب إذا احتاج إلى ركوبها.

وقوله: «فاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْها صَوَافَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاذكروا اسمَ اللهِ على البُدْن عند نحركم إياها صَوَافّ، بمعنى مُصْطَفَّة، واحدها صافة، يقولُ: مصطفة بين أيديها، معقولة إحدى قوائمها.

وقوله: «فإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها»، يقولُ: فإذا سقطتْ فوقعتْ جنوبُهَا إلى الأرضِ بعد النَّحْرِ، «فَكُلُوا مِنْها» وهو من قولهم: قد وجبت الشمس: إذا غابت فسقطت للتغيب.

وقوله: «فَكُلُوا مِنْهـا» وهذا مخرجهُ مخرجُ الأمر، ومعناه: الإباحةُ، والإطلاقُ، يقول الله: فإذا نحرت فسقطت ميتةً بعد النحرِ، فقد حَلَّ لكم أكلها، وليس بأمرِ إيجابٍ.

وقوله: «وأطْعِمُوا القانعَ والمُعْتَرَّ»، يقولُ: فأطعموا منها القانع.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيّ بالقانع والمعترّ، فقال بعضهم: القانع: الذي يقنع بما أُعْطِيَ أو بما عنده ولا يسأل، والمعترُّ: الذي يتعرّضُ لك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل.

وقال آخرون: القانع: الذي يقنع بما عنده، ولا يسأل؛ والمعترّ: الذي يعتريك فيسألك.

وقال آخرون: القانع: هو السائلُ، والمعترُّ: هو الذي يعتريك ولا يسأل.

وقال آخرون: القانع: الجار، والمعترّ: الذي يعتريك من الناس.

وقال آخرون: القانع: الطوَّافُ. والمعترُّ: الصديقُ الزائر.

وقال آخرون: القانع: هو المسكينُ، والمعترُّ: الذي يتعرَّضُ للحم.

وقال آخرون: القانع: الطامعُ، والمعترُّ: الذي يعترُّ بالبدن.

وقال آخرون: القانع: الذي يقنع، والمعترُّ: الذي يعتريك.

وأوْلى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: عَنَى بالقانع: السائل، لأنه لو كان المعنيُّ بالقانعِ في هذا الموضع، المكتفي بما عنده، والمستغني به، لقيل: وأطعموا القانع والسائل، ولم يقل: وأطعموا القانع والمعترّ، وفي إتباع ذلك قوله: والمعترَّ، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القانعَ معنيٌّ به السائل من قولهم: قنع فلان إلى فلان، بمعنى سأله وخضع إليه، فهو يقنع قنوعاً.

وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي، فإنه من قَنِعتُ بكسر النون أقنعُ

قناعةً وقنعاً وقنعاناً. وأما المعترّ: فإنه الذي يأتيكَ معترّاً بك لتعطيه وتطعمه.

وقوله: «كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ»، يقولُ: هكذا سخرنا البُدْن لكم أيها الناسُ «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ»، يقولُ: لتشكروني على تسخيرها لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها، ولكن ينالُه اتقاؤُكم إياه إنِ اتقيتمُوه فيها فأردتم بها وَجْهَهُ، وعملتم فيها بما نَدَبَكُمْ إليه، وأمركم به في أمرها، وعظمتم بها حرماته.

وقوله: «كَذلكَ سَخَّرَها لَكُمْ»، يقولُ: هكذا سَخَّرَ لكم البُدن «لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ»، يقولُ: كي تُعَظِّمُوا الله على ما هداكم، يعني: على توفيقهِ إياكم لدينهِ، وللنُّسُكِ في حَجِّكم. «وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ»، يقولُ: وبَشِّرْ يا محمدُ الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا بالجنةِ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله يدفعُ غائلةَ المشركينَ عن الذين آمنوا بالله وبرسوله، إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خَوَّانٍ يخونُ الله، فيخالف أمره ونهيه ويعصيه، ويطيعُ الشيطانَ «كَفُورٍ»، يقولُ: جَحُودٍ لِنِعَمِه عنده، لا يعرف لمنعمها حَقَّهُ، فيشكره عليها.

وقيل: إنه عَنَى بذلك: دفع الله كفار قريش عَمَّنْ كان بين أظهرهم من المؤمنينَ قبل هِجْرَتِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَذِنَ اللهُ للمؤمنينَ الذين يقاتلون المشركينَ في سبيلِه بأنَّ المشركينَ ظلموهم بقتالهم.

واختلفت القَـرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة «أُذِنَ» بضم الألف «يُقاتَلُونَ» بفتح التاء بترك تسميةِ الفاعل، في أُذِنَ ويُقاتَلُونَ جميعاً. وقرأ ذلك بعض الكوفيين وعامة قَرَأَةِ البصرة «أُذِنَ» بترك تسمية الفاعل و«يُقاتِلُونَ» بكسر التاء، بمعنى يقاتل المأذون لهم في القتال المشركينَ. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفيين وبعض المكيين «أَذِنَ» بفتح الألف، بمعنى: أَذِنَ اللهُ، و«يُقاتِلُونَ» بكسر التاء، بمعنى: إن الذين أَذِنَ اللهُ لهم بالقتال، يقاتلون المشركينَ.

وهذه القراءاتُ الثلاث متقاربات المعنى، لأنَّ الذين قرأوا أُذِنَ على وجه ما لم يُسَمَّ فاعلُه يرجع معناه في التأويل إلى معنى قراءة مَنْ قرأهُ على وجه ما سُمي فاعله ـ وإنَّ من قرأ يُقاتِلونَ، ويُقاتَلُونَ بالكسر أو الفتح، فقريب معنى أحدهما من معنى الآخر ـ وذلك أنَّ مَنْ قاتل إنساناً، فالذي قاتله له مقاتِلٌ، وكُلُّ واحدٍ منهما مقاتل. فإذْ كان ذلك كذلك فبأيةِ هذه القراءاتِ قرأ القارئُ فمصيبٌ الصوابَ.

غير أن أَحَبَّ ذلك إليَّ، أنْ أقرأ به أَذِنَ بفتح الألف، بمعنى: أَذِنَ اللهُ، لِقُرْبِ ذلك من قولهِ «إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» أَذِنَ اللهُ في الذين لا يحبهم للذين يقـاتلونهم بقتـالهم، فيردّ أَذِنَ على قوله: «إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ»،

وكذلك أَحَبُّ القراءاتِ إليَّ في يُقاتِلُونَ كسر التاء؛ بمعنى: الذين يقاتِلُونَ مَن قد أخبر الله عنهم أنه لا يحبهم، فيكون الكلام متصلاً معنًى بعضِه ببعضٍ.

وقوله: «وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنَّ الله على نصرِ المؤمنينَ الذين يقاتلون في سبيلِ الله لقادرٌ، وقد نصرهم فأعزَّهُمْ ورفعهم، وأهلك عَدُوَّهُمْ، وأذلهم بأيديهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أُذِنَ للذين يقاتلون «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ»، فالذين الثانية رَدٌّ على الذين الأولى، وعَنَى بالمُخْرَجِينَ من دُورهم: المؤمنينَ الذين أخرجهم كفارُ قريش من مكة، وكان إخراجهم إياهم من دُورِهم وتعذيبهم بعضهم على الإيمانِ بالله ورسوله، وسَبِّهم بعضهم بألسنتهم ووعيدهم إياهم، حتى اضطرُّوهم إلى الخروجِ عنهم، وكان فِعْلُهم ذلك بهم بغير حقٍّ، لأنهم كانوا على باطلٍ، والمؤمنونَ على الحقِّ، فلذلك قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ».

وقوله: «إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم يُخْرَجُوا من ديارهم إلا بقولهم: رَبُّنا الله وحده لا شريكَ له، فأن في موضع خفض ردّاً على الباء في قوله: «بِغَيْرِ حَقٍّ»، وقد يجوز أن تكون في موضع نصب على وجه الاستثناء.

وقوله: «وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولولا دفعُ الله المشركينَ بالمسلمينَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولولا القتالُ والجهادُ في سبيل الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولولا دفعُ الله بأصحابِ رسولِ الله ﷺ عَمَّنْ بَعْدَهم من التابعين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لولا أنَّ الله يدفعُ بمن أوجبَ قبولَ شهادتِهِ في الحقوق، تكون لبعض الناسِ على بعض، عمن لا يجوزُ قبولُ شهادتِهِ وغيره، فأحيا بذلك مالَ هذا، ويُوقَى بسببِ هذا إراقة دم هذا، وتركوا المظالم من أجلِهِ لتظالمَ الناسُ، فَهُدِّمَتْ صوامع.

وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه، أخبر أنه لولا دفاعه الناسَ بعضَهم ببعضٍ، لهُدم ما ذكر، من دفعهِ تعالى ذِكْرُه بعضَهم ببعضٍ، وكَفِّهِ المشركينَ بالمسلمينَ عن ذلك؛ ومنه كفه ببعضهم التظالُمَ، كالسلطانِ الذي كفَّ به رعيته عن التظالمِ بينهم؛ ومنه كفُّه لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحقِّ مَنْ له قِبَله حَقٌّ ونحو ذلك، وكلُّ ذلك دفع منه الناسَ بعضهم عن بعض لولا ذلك لتظالموا، فهدَم القاهرون صوامعَ المقهورين وَبِيَعهم، وما سَمَّى جَلَّ ثَنَاؤُهُ، ولم يضعِ اللهُ تعالى دلالة في عَقْلٍ، على أنه عَنَى من ذلك بعضاً دون بعض، ولا جاء بأنَّ ذلك كذلك خبرٌ يجبُ التسليمُ له، فذلك على الظاهرِ والعمومِ على ما قد بيَّنه قَبْلُ لعمومِ ظاهرِ ذلك جميع ما ذكرنا.

وقوله: «لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بالصوامع، فقال بعضهم: عَنَى بها صوامع الرهبان.

وقال آخرون: بل هي صوامع الصابئين.

وأما قوله: «وَبِيَعٌ»، فإنه يعني بها: بيع النصارى.

قوله: «وَصَلَوَاتٌ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: عنى بالصلوات: الكنائس.

وقال آخرون: عنى بالصلوات مساجدَ الصابئين.

وقال آخرون: هي مساجد للمسلمين ولأهلِ الكتابِ بالطرق.

وقوله: «وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ كَثِيراً»، اخْتُلِفَ في المساجد التي أُريدت بهذا القولِ، فقال بعضهم: أريد بذلك مساجد المسلمينَ.

وقال آخرون: عنى بقوله: «وَمَسَاجِدُ»: الصوامع والبيع والصلوات.

وأوْلى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: لَهُدِّمَتْ صوامعُ الرهبان: وبِيَعُ النصارى، وصلواتُ اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً.

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأنَّ ذلك هو المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم، وما خالفه من القولِ، وإنْ كان له وجهٌ فغيرُ مستعمل فيما وَجَّهَهُ إليه مَنْ وجهه إليه.

وقوله: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليعيننَّ اللهُ مَنْ يقاتلُ في سبيله، لتكون كلمته العليا على عدوِّهِ، فَنَصْرُ الله عبدَهُ: معونته إياه، ونَصْرُ العبدِ رَبَّهُ: جهادُه في سبيله لتكون كلمته العليا.

وقوله: «إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن الله لقويٌّ على نَصْرِ مَنْ جاهد في سبيله من أهلِ ولايته وطاعته، عزيزٌ في مُلْكه، يقولُ: منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول تعالى ذِكْرُه: «أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»، «الذين إن مكَّناهم في الأرض، أقامُوا الصلاةَ»، والذين ههنا ردٌّ على الذين يقاتلون. ويعني بقوله: «إنْ مَكَنَّاهُمْ في الأَرْضِ»: إن وَطَّنَّا لهم في البلاد. فقهروا المشركينَ، وغلبوهم عليها، وهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ، يقولُ: إنْ نصرنـاهم على أعدائهم، وقهروا مشركي مكة، أطاعوا الله، فأقاموا الصلاةَ بحدودها، وآتوا الزكاةَ: يقول: وأعطوا زكاةَ أموالِهم مَنْ جعلها اللهُ له، «وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ»، يقولُ: ودعوا الناسَ إلى توحيدِ الله، والعملِ بطاعته وما يعرفه أهلُ الإيمـان بالله، «ونَهـوْا عَن المُنْكَرِ»، يقولُ: ونهوا عن الشركِ بالله، والعملِ بمعاصيه، الذي ينكره أهلُ الحقِّ والإيمانِ بالله. «ولله عاقِبَةُ الأُمُورِ»، يقولُ: ولله آخر أمورِ الخَلْقِ، يعني: أنَّ إليه مصيرها في الثوابِ عليها، والعقاب في الدار الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه مُسَلِّياً نبيهُ محمداً ﷺ عما يناله من أذى المشركينَ بالله، وحاضّاً له على الصبرِ على ما يلحقه منهم من السَّبِّ والتكذيب: وإنْ يُكَذِّبُكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بالله على ما أتيتهم به من الحقِّ والبرهان، وما تَعِدُهُمْ من العذابِ على كفرهم بالله، فذلك سُنَّةُ إخوانهم من الأممِ الخالية

المكذِّبةِ رُسُلَ الله، المشركةِ بالله، ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإنَّ العذابَ المهين من ورائهم، ونصري إياك، واتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتَىٰ عذابي على أسلافهم من الأممِ الذين من قبلهم بعد الإمهالِ إلى بلوغ الآجال، فقد كذبت قبلهم: يعني مشركي قريش، قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقومُ إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وهم قومُ شعيب، يقولُ: كَذَّبَ كلُّ هؤلاءِ رسلَهُم، وكُذِّب موسى، فقيل: وكُذِّب موسى، ولم يقل: وقوم موسى، لأنَّ قومَ موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابتْ له ولم تكذِّبْهُ، وإنما كذَّبَهُ فرعونُ وقومُه من القبطِ. وقد قيل: إنما قيل ذلك كذلك لأنه وُلِدَ فيهم، كما ولد في أهل مكة.

وقوله: «فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرينَ»، يقولُ: فأمهلتُ لأهلِ الكُفْر بالله من هذه الأمم، فلم أعاجلهم بالنقمة والعذاب، «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ»، يقولُ: ثم أحللتُ بهم العقابَ بعد الإملاء، «فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ»، يقولُ: فانظرْ يا محمدُ كيف كان تغييري ما كان بهم من نعمةٍ، وتنكري لهم عما كنتُ عليه من الإحسانِ إليهم، ألم أُبدلهم بالكثرةِ قِلَّةً، وبالحياةِ موتاً وهلاكاً، وبالعمارةِ خراباً؟ يقولُ: فكذلك فِعْلي بمكذِّبيكَ من قريش، وإنْ أمليتُ لهم إلى آجالهم، فإني مُنْجزُكَ وَعْدي فيهم، كما أنجزتُ غيركَ من رُسُلي وعدي في أممهم، فأهلكناهم، وأنجيتُهم من بين أظهرهم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكم يا محمدُ من قريةٍ أهلكتُ أهلَها وهم ظالمون، يقولُ: وهم يعبدون غيرَ من ينبغي أنْ يُعبدَ، ويعصون مَنْ لا ينبغي لهم أن يَعْصوه.

وقوله: «فَهِيَ خاويَةٌ عَلى عُرُوشِها»، يقولُ: فبادَ أهلُها وخَلَتْ، وخَوَتْ من سكانها فخَرِبَتْ وتَداعتْ، وتساقطت على عروشها، يعني على بنائها وسُقوفِها.

وقوله: «وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ»، يقول تعالى: فكأَيِّنْ من قريةٍ أهلكناها، ومن بئرٍ عَطَّلْنَاهَا بإفناءِ أهلها، وهلاكِ وارديها، فاندفنتْ وتعطلت، فلا واردةَ لها ولا شاربة منها (وَ) من «قَصْرٍ مَشِيدٍ» رفيعٍ بالصخور والجصِّ، قد خلا من سُكَّانِه، بما أذقنا أهلَهُ من عذابنا بسوءِ فِعالهم، فبادوا، وبقي قصورُهم المشيدةُ خاليةً منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يسيروا هؤلاءِ المكذِّبونَ بآياتِ الله، والجاحدونَ قُدْرَتَهُ في البلاد، فينظروا إلى مصارعِ ضُرَبائهم من مُكذِّبي رُسُلِ الله الذين خَلَوْا من قبلهم، كعادٍ وثمود، وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكَّروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سُنَّةَ الله فيمن كفرَ وعبدَ غيره، وكَذَّبَ رسله فينيبوا من عُتُوِّهم وكُفْرِهم ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحقِّ «قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها» حُجَجَ الله على خَلْقِه وقدرته على ما بيَّنا، «أَوْ آذانٌ يسمعون بِهَا»، يقولُ: أو آذان تصغى لسماعِ الحقِّ فتعي ذلك، وتميز بينه وبين الباطل.

وقوله: «فإنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ»، يقولُ: فإنها لا تعمى أبصارُهم أنْ يبصروا بها الأشخاصَ ويروها، بل يبصرونَ ذلك بأبصارهم، ولكن تعمى

قلوبُهم التي في صدورهم عن أنصارِ الحقِّ ومعرفته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويستعجلونك يا محمدُ مشركو قومك بما تَعِدُهُمْ من عذابِ الله على شِرْكِهم به، وتكـذيبهم إياك فيما أتيتَهُمْ به من عند الله في الدنيا، ولَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ الذي وعدكَ فيهم، من إحلالِ عذابه ونقمتِه بهم في عاجل الدنيا، ففعل ذلك، ووفى لهم بما وَعَدَهُمْ، فقتلهم يومَ بدر.

واختلف أهلُ التأويل في اليوم الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» أيّ يومٍ هُوَ؟ فقال بعضهم: هو من الأيامِ التي خلق الله فيها السمواتِ والأرض.

وقال آخرون: بل هو من أيام الآخرة.

والقول الثاني عندي أشبهُ بالحقِّ في ذلك؛ وذلك أن الله تعالى ذِكْرُه أخبر عن استعجالِ المشركينَ رسولَ الله ﷺ بالعذاب، ثم أخبر عن مبلغ قَدْرِ اليومِ عنده، ثم اتبع ذلك قوله: «وكأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ» فأخبر عن إمـلائِه أهلَ القريةِ الظالمة، وتركه مُعَاجَلَتَهُمْ بالعذاب، فَبَيَّنَ بذلك أنه عَنَى بقوله: «وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» نَفي العَجَلَة عن نفسه، وَوَصْفها بالأناةِ والانتظار. وإذْ كان ذلك كذلك، كان تأويلُ الكلام: وإنَّ يوماً من الأيامِ التي عند الله يومَ القيامة، يوم واحد كألفِ سنةٍ من عددكم، وليس ذلك عنده ببعيد، وهو عندكم بعيد، فلذلك لا يعجلُ بعقوبةِ مَنْ أرادَ عقوبته حتى يبلغ غايةَ مُدَّتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وكأيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْت لَهَا»، يقولُ: أَمْهَلْتُهم، وأخَّرْتُ عذابهم، وهم بالله مشركون، ولأمرِهِ مخالفونَ، وذلك كان ظلمُهم الذي وصفَهُمُ اللهُ به جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فلم أُعَجِّلْ بعذابهم، «ثُمَّ أخَذْتُها»، يقولُ: ثم أخذتُها بالعذابِ، فعذَّبْتُهَا في الدنيا بإحلالِ عقوبتنا بهم، «وإليَّ المَصِيرُ»، يقولُ: وإليَّ مصيرُهم أيضاً بعد هلاكهم، فَيَلْقَوْنَ من العذابِ حينئذٍ ما لا انقطاعَ له؛ يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك حالُ مُسْتَعْجِليكَ بالعذابِ من مشركي قومك، وإنْ أمليتُ لهم إلى آجالهم التي أَجَّلْتُها لهم، فإني آخِذُهُمْ بالعذابِ، فقاتِلُهُمْ بالسيفِ، ثم إليَّ مصيرهم بعد ذلك فموجِعُهُمْ إذن عقوبةً على ما قَدَّمُوا من آثامهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك الذين يجادلونك في الله بغير علمٍ ، اتباعاً منهم لكلِّ شيطانٍ مَريد، «يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّمَا أنا لَكُمْ نَذِيرٌ مبينٌ» أُنْذِرُكم عقابَ الله أنْ ينزلَ بكم في الدنيا، وعذابَهُ في الآخرة أنْ تَصْلَوْهُ، «مبينٌ»، يقولُ: أُبيِّنُ لكم إنذاري ذلك وأُظْهِرُه، لتنيبوا من شِرْكِكُمْ، وتَحْذَرُوا ما أُنذركم من ذلك، لا أملكُ لكم غيرَ ذلك، فأما تعجيلُ العقاب وتأخيره الذي تستعجلونني به، فإلى الله ليسَ ذلك إليَّ، ولا أقدرُ عليه؛ ثم وصفَ نذارته وبشارته، ولم يَجْرِ للبشارةِ ذِكْرٌ، ولما ذُكِرَتِ النذارةُ على عملٍ

عُلِمَ أنَّ البشارة على خِلافهِ، فقال: والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات مِنكم أيها الناسُ ومِنْ غيرِكم «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقولُ: لهم من الله سترُ ذنوبهم التي سَلَفَتْ منهم في الدنيا عليهم في الآخرة، «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»، يقولُ: ورزقٌ حَسَنٌ في الجنة.

وقوله: «وَالَّذِينَ سَعَوْا في آياتِنا مُعاجِزينَ»، يقولُ: والذين عملوا في حججنا فَصَدُّوا عن اتباعِ رسولنا، والإقرارِ بكتابنا الذي أنزلناه.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «مُعاجِزِينَ» فقال بعضهم: معناه: مُشَاقِّين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم ظنوا أنهم يُعْجِزُونَ اللهَ فلا يقدرُ عليهم.

وهذان الوجهان من التأويل في ذلك على قراءة مَنْ قرأه «في آياتِنا مُعاجِزِينَ» بالألفِ، وهي قراءة عامة قَرَأة المدينةِ والكوفة. وأما بعض قَرَأة أهل مكة والبصرة، فإنه قرأه «مُعَجِّزِينَ» بتشديد الجيم بغير ألف، بمعنى أنهم عجزوا الناس، وثَبَّطُوهم عن اتباعِ رسولِ الله ﷺ والإيمانِ بالقرآن.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأة متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ مَنْ عجز عن آياتِ الله، فقد عاجزَ الله، ومن معاجزةِ اللهِ التعجيزُ عن آياتِ الله، والعملُ بمعاصيهِ وخلاف أمرِه، وكان من صِفَةِ القومِ الذين أنزل اللهُ هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يُبَطِّئون الناسَ عن الإيمانِ بالله، واتباعِ رسوله، ويغالبونَ رسولَ الله ﷺ، يحسبون أنهم يُعْجِزُونَهُ ويَغْلِبُونَهُ، وقد ضَمِنَ اللهُ له نَصْرَهُ عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله. فإذ كان ذلك كذلك. فبأيِّ القراءتين قرأ القارئُ فمصيبٌ الصواب في ذلك.

وأما المعاجزة فإنها المفاعلة من العجز، ومعناه: مغالبة اثنين، أحدهما صاحبه أيهما يعجزه فيغلبه الآخر ويقهره.

وأما التعجيز: فإنه التضعيفُ وهو التّفعيلُ من العجز.

وقوله: «أُولَئِكَ أَصْحابُ الجَحِيمِ»، يقولُ: هؤلاءِ الذين هذه صِفَتُهم هم سكانُ جهنم يوم القيامة، وأهلها الذين هم أهلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾

قيل: إنَّ السببَ الذي من أجله أنزلت هذه الآيةُ على رسولِ الله ﷺ، أنَّ الشيطانَ كان ألقى على لسانِه في بعضِ ما يتلوهُ مما أُنزلَ اللهُ عليه من القرآنِ ما لم يُنزله اللهُ عليه، فاشتدَّ ذلك على رسول الله ﷺ، واغْتَمَّ به، فَسَلَّاهُ الله مما به من ذلك بهذه الآيات.

وتأويل الكلام: وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تلا كتابَ الله، وقرأ، أو حَدَّثَ وتكلم، ألقى الشيطانُ في كتابِ الله الذي تَلاهُ وقرأه، أو في حديثِهِ الذي حَدَّثَ وتكلم «فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ»، يقول تعالى: فَيُذْهِبُ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ من ذلك على لسانِ نبيه ويُبْطِلُه.

وقـولـه: «ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ»، يقولُ: ثم يخلص الله آياتِ كتابِهِ من الباطلِ الذي ألقى الشيطان على لسانِ نبيه، «وَاللهُ عَلِيمٌ» بما يحدث في خَلْقِه من حدث لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ «حَكِيمٌ» في تدبيره إياهم، وصرفه لهم فيما شاء وأَحَبَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فينسخُ الله ما يلقي الشيطان، ثُم يُحْكِمُ اللهُ آياتِه، كي يجعلَ ما يلقي الشيطانُ في أمنية نبيه من الباطلِ، يقولُ: اختباراً يختبرُ به الذين في قلوبهم مَرَضٌ من النفاقِ، وذلك الشكُّ في صِدْقِ رسولِ الله ﷺ وحقيقةِ ما يُخْبِرُهُمْ به.

وقوله: «والقاسيةِ قُلوبُهُم»، يقولُ: وللذين قَسَتْ قلوبُهم عن الإيمانِ بالله فلا تَلِين ولا ترعوي وهُمْ المشركونَ بالله.

وقوله: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ مشركي قومِكَ يا محمدُ لفي خلافٍ لله في أمرِه بعيد من الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكي يعلمَ أهلُ العلم بالله أنَّ الذي أنزله الله من آياتِه التي أحكمها لرسولِه، ونسخَ ما ألقى الشيطانُ فيه، أنه الحقُّ من عند ربكَ يا محمـدُ، فيؤمنوا به، يقولُ: فَيُصَدِّقُوا به، «فَتخْبِتَ لهُ قلوبُهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فتخضعَ للقرآنِ قلوبُهم، وتُذْعِنَ بالتصديقِ به والإقرارِ بما فيه. «وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»، وإنَّ الله لمرشدُ الذين آمنوا بالله ورسوله إلى الحقِّ القاصدِ، والحقِّ الواضحِ بنسخِ ما ألقى الشيطانُ في أمنيةِ رسولِه، فلا يضرُّهُمْ كيدُ الشيطانِ، وإلقاؤه الباطلَ على لسان نبيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يزالُ الذين كفروا بالله في شكٍّ، والهاء التي في قوله «منه» من ذِكْرِ القرآن الذي أحكمَ اللهُ آياتِه.

وقوله: «حتى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ»، يقولُ: لا يزالُ هؤلاءِ الكفار في شك من أمرِ هذا القرآنِ إلى أن تأتيهم الساعة «بَغْتَةً» وهي ساعة حشر الناس لموقفِ الحساب. بغتةً، يقولُ: فجأة، «أَوْ يَأْتِيَهُم عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ».

واختلف أهلُ التأويل في هذا اليوم أيِّ يومٍ هو، فقال بعضهم: هو يومُ القيامة.

وقال آخرون: بل عَنَى به يومَ بدر، وقالوا: إنما قيل له يومٌ عقيم، أنهم لم ينظروا إلى الليل، فكان لهم عقيماً.

وهذا القول الثاني أوْلى بتأويلِ الآية، لأنه لا وجهَ لأنْ يقال: لا يزالون في مريةٍ منه حتى تأتيهم الساعةُ بغتةً، أو تأتيهم الساعةُ؛ وذلك أنَّ الساعةَ هي يوم القيامة، فإن كان اليوم العقيم أيضاً هو يوم القيامة، فإنما معناه ما قلنا من تكرير ذكرِ الساعةِ مرّتين باختلافِ الألفاظ، وذلك ما لا معنى له. فإذْ كان ذلك كذلك، فأوْلى التأويلين به أصحهما معنى وأشبههما بالمعروفِ في الخطابِ وهو ما ذكرناه من معناه.

فتـأويلُ الكلام إذن: ولا يزالُ الذين كفروا في مريةٍ منه، حتى تأتيهمُ الساعةُ بغتةً، فيصيروا إلى العذابِ الدائمِ، أو يأتيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ لهم، فلا يُنْظَرُوا فيه إلى الليلِ، ولا يُؤَخَّرُوا فيه إلى المساء، لكنهم يُقْتَلُونَ قبل المساء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: السُّلْطان والمُلْكُ إذا جاءت الساعةُ للهِ وحده لا شريكَ له ولا ينازِعُه يومئذٍ منازعٌ وقد كان في الدنيا ملوكٌ يُدْعَوْنَ بهذا الاسمِ ولا أحدَ يومئذٍ يُدْعى ملكاً سواه. «يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ»، يقولُ: يفصل بين خَلْقِه المشركينَ به والمؤمنينَ؛ فالذين آمنوا بهذا القرآن، وبِمَنْ أنزَلَهُ، ومَنْ جاء به، وعملوا بما فيه من حلالِه وحرامِه، وحدودِه وفرائِضِه في جناتِ النعيمِ يومئذٍ، والذين كفروا بالله ورسوله، وكذَّبُوا بآياتِ كتابه وتنزيله، وقالوا: ليس ذلك من عند الله، إنما هو إفكٌ افتراهُ محمدٌ، وأعانَهُ عليه قوم آخرون، «فأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»، يقولُ: فالذين هذه صِفَتُهم لهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ عذابٌ مهين، يعني عذابٌ مُذِلٌّ في جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين فارقوا أوطانَهم وعشائرهم، فتركوا ذلك في رِضَا الله وطاعته، وجهاد أعدائِه ثم قتلوا أو ماتوا وهم كذلك، ليرزقَنَّهُمُ الله يومَ القيامةِ في جناتِه رزقاً حسناً، يعني بالحسن: الكريم، وإنما يعني بالرزق الحَسَن: الثواب الجزيل. «وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيرُ الرَّازِقِينَ»، يقولُ: وإنَّ الله لهو خيرُ مَنْ بسطَ فَضْلَهُ على أهلِ طاعتِه وأكرمهم.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ اختلفوا في حُكْمِ مَنْ مات في سبيلِ الله، فقال بعضهم: سواء المقتول منهم والميت.

وقال آخرون: المقتولُ أفضل، فأنزل الله هذه الآية على نبيه ﷺ، يعلمهم استواءَ أمرِ الميتِ في سبيله، والمقتول فيها في الثوابِ عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليدخلنَّ اللهُ المقتولَ في سبيله من المهاجرين والميت منهم «مُدْخَلاً يَرْضونَهُ»، وذلك المُدخلُ هو الجنة، «وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ» بمن يهاجرُ في سبيله ممن يخرجُ من داره طَلَبَ الغنيمةِ، أو عَرَضٍ من عروضِ الدنيا. «حَلِيمٌ» عن عُصاةِ خَلْقِه، بتركِه مُعَاجَلَتَهُمْ بالعقوبةِ والعذاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلكَ»: لهذا، لهؤلاءِ الذين هاجروا في سبيلِ الله، ثم قُتِلُوا أو ماتـوا، ولهم مع ذلـك أيضـاً، أنَّ الله يَعِـدُهم النصرَ على المشركينَ الذين بَغَوْا عليهم فأخرجوهم من ديارهم.

وقوله: «إنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غفورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله لذو عفوٍ وصفحٍ لمن انتصرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ من بعدِ ما ظلمه الظالمُ بحقٍّ، غفور لما فعل ببادئه بالظلم، مثل الذي فعل به غيرَ مُعَاقِبِهِ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلكَ»: هذا النصرُ الذي أنصره على مَنْ بغي عليه على الباغي، لأني القادرُ على ما أشاء، فمن قُدْرتِه أنَّ الله يولجُ الليلَ في النهار، يقولُ: يدخل ما ينقصُ من ساعاتِ الليل في ساعاتِ النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا، «وَيُولِجُ النَّهار في اللَّيْلِ» ويدخل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فما نقصَ من طولِ هذا، زاد في طولِ هذا، وبالقُدرةِ التي تفعل ذلك ينصر محمداً ﷺ وأصحابَهُ على الذين بَغَوْا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، «وأنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يقولُ: وفعل ذلك أيضاً بأنه ذُو سمعٍ لما يقولون من قول: لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، بصير بما يعملون، لا يغيبُ عنه منه شيء، كل ذلك منه بمرأى ومسمع، وهو الحافظ لكل ذلك، حتى يجازي جميعهم على ما قالوا وعملوا من قولٍ وعملٍ جزاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذَلكَ»، هذا الفعلُ الذي فعلتُ من إيلاجي الليلَ في النهار، وإيلاجي النهارَ في الليل، لأني أنا الحقُّ الذي لا مثل لي ولا شريك ولا نِدَّ، وأن الذي يدعوه هؤلاءِ المشركونَ إلهاً من دونه، هو الباطلُ الذي لا يقدرُ على صنعة شيء، بل هو المصنوعُ، يقول لهم تعالى ذِكْرُه: أفتتركون أيها الجُهَّالُ عبادةَ مَنْ منه النفعُ وبيده الضرُّ، وهو القادرُ على كل شيء، وكُلّ شيءٍ دونَهُ، وتعبدونَ الباطلَ الذي لا تنفعكم عبادته.

وقوله: «وأنَّ الله هُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ»، يعني بقوله: «العَلِي»: ذو العلوّ على كل شيء، هو فوقَ كلِّ شيء، وكل شيء دون، «الكَبيرُ»، يعني: العظيم. الذي كُلُّ شيءٍ دونه، ولا شيء أعظم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ، «أنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً»، يعني مطراً «فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً» بما ينبتُ فيها من النبات، «إنَّ اللهَ لَطِيفٌ» بإستخراجِ النباتِ من الأرضِ بذلك الماء وغير ذلك من ابتداعِ ما شاء أنْ يبتدعه «خَبِيرٌ» بما يحدثُ عن ذلك النبت من الحبِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: له مُلْكُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ من شيءٍ هم عبيدُه ومماليكه وخلقه، لا شريكَ له في ذلك، ولا في شيءٍ منه، وإنَّ الله هو الغنيُّ عن كلِّ ما في السمواتِ وما في الأرضِ من خلقه وهم المحتاجون إليه، الحميدُ عند عبادِه في إفضالِه عليهم وأياديه عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تَرَ أنَّ الله سخر لكم أيها الناس ما في الأرض من الدَّوابِّ والبهائم، فذلك كُلُّه لكم، تصرفونه فيما أردتم من حوائجكم «والفُلْكَ تَجْرِي في البَحْرِ بأمْرِهِ»، يقولُ: وسخر لكم السفن تجري في البحرِ بأمرِه، يعني بقُدرته، وتذليله إياها لكم كذلك.

«ويُمْسِكُ السَّماءَ أنْ تَقَعَ عَلى الأرْضِ»، يقولُ: ويمسكُ السماءَ بِقُدْرته، كي لا تقعَ على الأرض إلا بإذنه. ومعنى قوله: «أنْ تَقَعَ»: أن لا تقع. «إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ»، بمعنى: إنه بهم لذُو رأفةٍ ورحمة، فمن رأفتِه بهم ورحمته لهم أمسكَ السماءَ أنْ تقعَ على الأرضِ إلا بإذنه، وسخر لكم ما وصف في هذه الآية تَفَضُّلاً منه عليكم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي أنعم عليكم هذه النعمَ، هو الذي جعلَ لكم أجساماً أحياء بحياةٍ أحدثَها فيكم، ولم تكونوا شيئاً، ثم هو يُميتكم من بعد حياتكم، فيفنيكم عند مجيء آجالكم، ثم يحييكم بعد مماتكم عند بَعْثِكم لقيامِ الساعة. «إنَّ الإنْسانَ لَكَفُورٌ»، يقولُ: إنَّ ابنَ آدم لجحودٌ لنعمِ اللهِ التي أنعم بها عليه من حُسْنِ خَلْقِه إياه، وتسخيرِه له ما سخر مما في الأرض والبرِّ والبحر، وتركه إهلاكه بإمساكِه السماءَ أنْ تقعَ على الأرضِ بعبادته غيره من الآلهةِ والأنداد، وتركه إفرادَهُ بالعبادةِ، وإخلاصَ التوحيدِ له.

وقوله: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً»، يقولُ: لكل جماعةِ قومٍ هي خَلَتْ من قَبْلِكَ، جعلنا مألفاً يألفُونَهُ، ومكاناً يعتادونه، لعبادتي فيه، وقضاءِ فرائضي، وعملاً يلزمونه، وأصلُ المنسكِ في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجلُ ويألفه، لخيرٍ أو شرٍّ؛ يقال: إنَّ لفلان منسكاً يعتاده، يُراد: مكاناً يغشاهُ ويألفه لخيرٍ أو شرّ. وإنما سُمِّيَتْ مناسكُ الحجّ بذلك، لتردُّدِ الناسِ إلى الأماكن التي تُعمل فيها أعمال الحجّ والعُمرة، وفيه لغتان: (مَنْسِك) بكسر

السين وَفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و(مَنْسَك) بفتح الميم والسين جميعاً، وذلك من لغة أسد، وقد قُرىء باللغتين جميعاً.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً»: أيّ المناسك عَنَى به؟ فقال بعضهم: عَنَى به: عيدهم الذي يعتادونه.

وقال آخرون: عنى به: ذبح يذبحونه، ودم يُهْرِيقُونَهُ.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: عَنَى بذلك إراقةَ الدم أيامَ النحرِ بمِنى، لأنَّ المناسكَ التي كان المشركونَ جادلوا فيها رسولَ الله ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقةِ الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام بما قد أخبر الله عنهم في سورة الأنعام، غير أن تلك لم تكن مناسك، فأما التي هي مناسك، فإنما هي هدايا أو ضحايا. ولذلك قلنا: عَنَى بالمنسك في هذا الموضع الذبح الذي هو بالصفة التي وصفنا.

وقوله: «فَلا يُنَازِعُنَّكَ في الأَمْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا ينازعنك هؤلاءِ المشركونَ باللهِ يا محمدُ، في ذبحكَ ومنسكك بقولهم: أتأكلونَ ما قتلتم، ولا تأكلونَ الميتةَ التي قتلها اللهُ؟ فإنك أولى بالحقِّ منهم، لأنك مُحِقٌّ وهم مبطلون.

وقوله: «وَادْعُ إلى رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وادْعُ يا محمدُ، منازِعِيكَ من المشركينَ بالله في نسكك وذبحك، إلى اتباعِ أمرِ ربك في ذلك بأنْ لا يأكلوا إلا ما ذبحوه بعد اتباعك، وبعد التصديقِ بما جئتهم به من عند الله، وتَجَنَّبُوا الذبحَ للآلهةِ والأوثان، وتَبَرَّءُوا منها، إنك لعلى طريقٍ مستقيم غيرِ زائلٍ عن محجةِ الحقِّ والصوابِ في نسكك الذي جعله لكَ ولأمتكَ رَبُّكَ، وهم الضلال على قصدِ السبيل، لمخالفتهم أمرَ اللهِ في ذبائحهم ومطاعِمهم وعبادَتِهم الآلهةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنْ جادلكَ يا محمدُ، هؤلاءِ المشركونَ باللهِ في نسكك، فقل: اللهُ اعلمُ بما تعملون ونعمل.

وقوله: «اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يقضي بينكم يومَ القيامةِ فيما كنتم فيه من أمرِ دِينكم تختلفون، فتعلمون حينئذٍ أيها المشركونَ المُحِقَّ من المُبْطِلِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تعلمْ يا محمدُ، أنَّ الله يعلم كلَّ ما في السمواتِ السبع، والأرضين السبع، لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، وهو حاكمٌ بين خَلْقِه يومَ القيامة على عِلْمٍ منه بجميع ما عملوه في الدنيا، فمجازي المُحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته. «إنَّ ذلكَ في كِتابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عِلْمَهُ بذلك في كتابٍ وهو أمُّ الكتابِ الذي كتب فيه رَبُّنا جَلَّ ثَناؤُهُ قبل أن يخلقَ خَلْقَهُ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، «إنَّ ذلكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ».

وقوله: «إنَّ ذلكَ عَلى اللهِ يَسِيرٌ»، اختلف في ذلك، فقال بعضهم: معناه: إنَّ الحُكْم بين المختلفين في الدنيا يوم القيامة على الله يسير.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ كتابَ القلم الذي أمرهُ اللهُ أنْ يكتبَ في اللوحِ المحفوظِ ما هو كائنٌ على الله يسير يعني هين. وهذا القول الثاني أولى بتأويلِ ذلك وذلك أن قوله: «إنَّ ذلكَ عَلى اللهِ يَسيرٌ». . . إلى قوله: «إنَّ

ذلكَ فِي كِتابٍ» أقرب وهو له مجاور، ومن قوله: «اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ» متباعد مع دخولِ قوله: «أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ والأرْض» بينهما، فإلحاقه بما هو أقربُ أوْلى ما وُجِدَ للكلام، وهو كذلك مخرج في التأويل صحيح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعبدُ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ من دونِه، ما لم يُنَزِّلْ به جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم حجةً من السماءِ في كتابٍ من كتبه التي أنزلها إلى رسله بأنها آلهةٌ تصلحُ عبادَتُهَا، فيعبدونها بأن الله أَذِنَ لهم في عبادتها، وما ليسَ لهم به علم، أنها آلهة. «وما للظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»، يقولُ: وما للكافرين بالله الذين يعبدون هذه الأوثان من ناصرٍ ينصرهم يومَ القيامة، فينقذهم من عذابِ الله، ويدفعُ عنهم عقابَهُ إذا أراد عقابهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا تُتلى على مشركي قريش العابدينَ من دونِ الله ما لم ينزل به سلطاناً «آياتُنا» يعني: آيات القرآن «بيِّناتٍ»، يقولُ: واضحاتٍ حججها وأدلتها فيما أُنزلتْ فيه. «تَعْرِفُ في وُجوهِ الَّذينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ»، يقولُ: تتبين في وجوههم ما ينكره أهلُ الإيمان بالله من تغيرها لسماعهم بالقرآن.

وقولـه: «يَكادُونَ يَسْطُونَ بالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِم آياتِنا»، يقولُ: يكادون يبطشون بالذين يتلون عليهم آياتِ كتابِ الله من أصحابِ النبيِّ ﷺ لشدَّةِ تَكَرُّههم أنْ يسمعوا القرآن يتلى عليهم.

وقوله: «قُلْ أفأُنَبِئُكُمْ بِشَرّ مِنْ ذَلِكُمْ»، يقولُ: أفأنبئكم أيها المشركونَ بأكْرَهَ إليكم من هؤلاءِ الذين تتكرَّهُونَ قراءتهم القرآنَ عليكم، هي «النَّارُ» وَعَدَهَا اللهُ الذين كفروا، وقد ذُكِرَ عن بعضهم أنه كان يقول: إنَّ المشركينَ قالوا: والله إن محمداً وأصحابه لشرُّ خَلْقِ الله، فقال الله لهم: قُلْ أفأنبئكم أيها القائلونَ هذا القول بِشَرٍّ، من محمدٍ ﷺ، أنتم أيها المشركونَ الذين وَعَدَهُم اللهُ النارَ.

وقوله: «وَبِئْسَ المَصِيرُ»، يقولُ: وبئس المكانُ الذي يصيرُ إليه هؤلاءِ المشركونَ بالله يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الناس جُعِلَ لله مَثَلٌ وذِكْرٌ، ومعنى ضَرَبَ في هذا الموضع: جَعَلَ، من قولهم: ضَرَبَ السلطانُ على الناس البَعْثَ، بمعنى: جَعَلَ عليهم، وضربَ الجزيةَ على النصارى، بمعنى: جعل ذلك عليهم؛ والمَثَل: الشَّبَه، يقول جَلَّ ثناؤه: جُعِلَ لي شَبَهٌ أيها الناسُ، يعني بالشَّبهِ والمَثَل: الآلهةَ، يقولُ: جَعَلَ لي المشركونَ الأصنامَ[1] شَبَهاً، فعبدوها معي،

(١) في المطبوع: «والأصنام» وما أثبتناه هو الصواب.

وأشركوها في عبادتي، فاستمعوا له، يقولُ: فاستمعوا حالَ ما مَثَّلوه، وجعلوه لي في عبادتهم إياه شبهاً، وصفته: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً»، يقولُ: إنَّ جميع ما تعبدون من دونِ اللهِ من الآلهةِ والأصنامِ، لو جُمِعَتْ لم يخلقوا ذُباباً في صِغَرِه وقِلَّته، لأنها لا تقدرُ على ذلك ولا تُطيقه، ولو اجتمع لخلقِه جميعها. والذبابُ واحد، وجمعه في القلة أذبة، وفي الكثير ذِبَّان نظير غُراب، يُجْمَعُ في القلة أغْربة، وفي الكثرة غِرْبان.

وقوله: «وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً»، يقولُ: وإنْ يسلب الآلهةَ والأوثانَ الذبابُ شيئاً مما عليها من طيبٍ وما أشْبَهَهُ من شيءٍ لا يستنقذُوه منه، يقولُ: لا تقدرُ الآلهةُ أنْ تستنقذَ ذلك منه.

واختُلِفَ في معنى قوله: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ»، فقال بعضهم: عنى بالطالب: الآلهة، وبالمطلوب: الذباب.

وكان بعضهم يقول: معنى ذلك: «ضَعُفَ الطَّالِبُ» من بني آدم إلى الصنمِ حاجَتَهُ «والمَطْلُوبُ» إليه الصنمُ أنْ يعطيَ سائِلَهُ من بني آدمَ ما سألَهُ يقول: ضعفَ عن ذلك وعجزَ.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنَّ معناه: وعجز الطالبُ وهو الآلهةُ أنْ تستنقذَ من الذبابِ ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه؛ والمطلوب: الذباب.

وإنما قلتُ هذا القولَ أولى بتأويل ذلك، لأنَّ ذلك في سياق الخبر عن الآلهـةِ والذباب، فأنْ يكون ذلك خبراً عما هو به متصلٌ أشبه من أن يكون خبراً، عما هو عنه منقطع، وإنما أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن الآلهة بما أخبر به عنها في هذه الآية من ضعفها ومهانتها، تقريعاً منه بذلك عَبَدتها من مشركي قريش، يقول تعالى ذِكْرُه: كيف يُجْعَلُ لي مِثْلٌ في العبادة، ويُشْرَكُ فيها معي ما لا

قدرةَ له على خَلْقِ ذبابٍ، وإنْ أَخَذَ له الذبابُ فسلبه شيئاً عليه لم يقدرْ أن يمتنعَ منه، ولا ينتصر، وأنا الخالقُ ما في السمواتِ والأرض، ومالكُ جميعَ ذلك والمحيي مَنْ أردتُ، والمميتُ ما أردت ومَنْ أردتُ، إن فاعل ذلك، لاشكَّ أنه في غايةِ الجهلِ.

وقوله: «ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، يقولُ: ما عَظَّمَ هؤلاءِ الذين جعلوا الآلهةَ للهِ شريكاً في العبادة حَقَّ عظمتهِ حين أشركوا به غيره. فلم يُخْلِصُوا له العبادةَ ولا عرفوه حقَّ معرفتهِ من قولهم: ما عرفتُ لفلان قدره إذا خاطبوا بذلك من قَصَّر بحقه، وهم يريدون تعظيمه.

وقوله: «إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ»، يقولُ: إن الله لقويٌّ على خَلْقِ ما يشاء، من صغيرِ ما يشاءُ من خَلْقِه وكبيره «عَزِيزٌ»، يقولُ: منيعٌ في مُلكه لا يقدرُ شيءٌ دونَهُ أنْ يسلبه من مُلْكِه شيئاً، وليس كآلهتكم أيها المشركونَ الذين تَدْعُونَ من دون الذين لا يقدرون على خَلْقِ ذباب، ولا على الامتناعِ من الذباب، إذا استلبها شيئاً ضعفاً ومهانة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله يختارُ من الملائكةِ رُسُلاً كجبريلَ وميكائيلَ اللذين كانا يرسلهما إلى أنبيائه، ومَنْ شاء من عبادِه ومن الناسِ، كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم. ومعنى الكلام: الله يصطفي من الملائكةِ رُسُلاً، ومن الناسِ أيضاً رُسُلاً: وقد قيل: إنما أنزلت هذه الآيةُ لما قال المشركونَ: أأُنْزِلَ عليه الذكر من بيننا، فقال الله لهم: ذلك إليَّ وبيدي دونَ خَلْقي، أختارُ مَنْ شئتُ منهم للرسالةِ.

وقوله: «إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ»، يقولُ: إنَّ الله سميعٌ لما يقولُ المشركونَ في محمدٍ ﷺ، وما جاءَ به من عندِ ربه، بصيرٌ بمن يختاره لرسالته من خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله يعلم ما كان بين أيدي ملائكته ورسله، من قبل أنْ يخلقهم وما خلفهم، يقولُ: ويعلمُ ما هو كائنٌ بعد فنائِهم. «وَإِلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ»، يقولُ: إلى الله في الآخرةِ تصيرُ إليه أمورُ الدنيا، وإليه تعودُ كما كان منه البدء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله «ارْكَعُوا» للهِ في صلاتكم «وَاسْجُدُوا» له فيها، «وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ»، يقولُ: وذِلُّوا لربكم، واخضعوا له بالطاعة، «وَافْعَلُوا الخَيْرَ» الذي أمركم رَبُّكم بفعله، «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، يقولُ: لتفلحوا بذلك، فَتُدْرِكُوا به طَلِباتكم عند رَبِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ

اختلف[1] أهل التأويل في تأويل قوله: «وَجاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ»، فقال بعضهم: معناه: وجاهدوا المشركينَ في سبيل الله حَقَّ جهاده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تخافوا في الله لومةَ لائمٍ، قالوا: وذلك هو حقُّ الجهاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: اعملوا بالحقِّ، حقَّ عمله.

والصوابُ من القولِ في ذلك، قولُ مَنْ قال: عُنِي به الجهادُ في سبيل الله، لأنَّ المعروفَ من الجهاد ذلك، وهو الأغلبُ على قولِ القائلِ: جاهدتُ في الله. وحقّ الجهاد: هو استفراغُ الطاقةِ فيه.

وقوله: «هُوَ اجْتَباكُمْ»، يقولُ: هو اختاركم لدينه، واصطفاكُمْ لحربِ أعدائهِ، والجهادِ في سبيله.

وقوله: «ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّين مِنْ حَرَجٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما جعل عليكم رَبُّكم في الدين الذي تَعَبَّدَكُمْ به من ضيقٍ، لا مخرجَ لكم مما ابتليتم به فيه، بل وَسَّعَ عليكم، فجعلَ التوبةَ من بعضٍ مخرجاً، والكفّارة من بعض، والقصاصَ من بعض، فلا ذنبَ يذنبُ المؤمنُ إلا وله منه في دِينِ الإسلام مخرجٌ.

وقوله: «مِلَّةَ أبيكُمْ إبْرَاهِيمَ» نَصَبَ ملة بمعنى: وما جعلَ عليكم في الدين من حرج، بل وَسَّعَهُ، كملَّةِ أبيكم، فلما لم يجعلْ فيها الكاف اتصلت بالفعل الذي قبلها فنصبت، وقد يحتمل نصبها أنْ تكونَ على وجهِ الأمرِ بها، لأنَّ الكلامَ قَبْلَهُ أمرٌ، فكأنه قيل: اركعوا واسجدوا، والْزَمُوا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم.

وقوله: «هُوَ سَمَّاكُم المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وفي هَذَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: سماكم يا معشرَ مَنْ آمَنَ بمحمدٍ ﷺ المسلمينَ من قَبْلُ.

(١) في المطبوع: «واختلف» وحذف الواو أليق.

وأما قوله: «مِنْ قَبْلُ»، فإن معناه: من قبل نزولِ هذا القرآن في الكتبِ التي نزلتْ قبله، «وفي هذا»، يقولُ: وَفِي هَذَا الكِتاب.

وقوله: «لِيَكونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاس»، يقول تعالى ذِكْرُه: اجتباكم الله وسَمَّاكم أيها المؤمنونَ بالله وآياته من أمةِ محمدٍ ﷺ مسلمين، ليكون محمدٌ رسول الله شهيداً عليكم يومَ القيامة، بأنه قد بلَّغكم ما أُرسلَ به إليكم، وتكونوا أنتم شهداء حينئذ على الرسل أجمعين، أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ»، يقولُ: فأدُّوا الصلاةَ المفروضةَ لله عليكم بحدودها، وآتوا الزكاةَ الواجبةَ عليكم في أموالكم. «وَاعْتَصِمُوا بالله»، يقـولُ: وثِقُـوا بالله، وتَـوكَّلُوا عليه في أمـوركم، «فَنِعْمَ المَوْلَى»، يقولُ: فنعم الوليُّ الله لمن فعل ذلكم منكم، فأقامَ الصلاةَ، وآتى الزكاةَ، وجاهدَ في سبيلِ الله حَقَّ جهادِه، واعتصمَ به، «وَنِعْمَ النَّصِيرُ»، يقولُ: ونعم النَّاصرُ هو له على من بَغاهُ بسوءٍ.



سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «قَدْ أفلَحَ المُؤْمِنُونَ»: قد أدركَ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ محمداً ﷺ، وأقَرُّوا بما جاءهم به من عندِ الله، وعملوا بما دعاهم إليه مما سَمَّى في هذه الآياتِ الخلودَ في جنَّاتِ رَبِّهم، وفازوا بطَلبتهم لديه[1].

وقوله: «الَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذين هم في صلاتهم إذا قاموا فيها خاشعون، وخشوعُهم فيها تَذَلُّلهم للهِ فيها بطاعتِه، وقيامُهم فيها بما أمرهم بالقيامِ به فيها. وقيل: إنها نزلت من أجلِ أنَّ القومَ كانوا يرفعون أبصارَهُمْ فيها إلى السماء قبل نزولها، فَنُهُوا بهذه الآيةِ عن ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في الذي عنى به في هذا الموضع من الخشوع، فقال بعضهم: عنى به: سكون الأطرافِ في الصلاة.

وقال آخرون: عَنَى به الخوفَ في هذا الموضع.

وقد بيَّنا فيما مضى قَبْلُ من كتابنا، أنَّ الخشوع: التذلل والخضوع بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع[2]. وإذْ كان ذلك كذلك، ولم يكن الله تعالى

---

(١) قال الزجاج: أي قد نالوا البقاء الدائم في الخير (معاني القرآن: ٤/ ٥).

(٢) وانظر معاني القرآن للزجاج: ٤/ ٦

ذِكْرُه دَلَّ على أنَّ مراده من ذلك معنى دون معنى في عقل ولا خبر، كان معلوماً أنَّ معنى مراده من ذلك العموم. وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلامِ ما وصفتُ من قَبْلُ، من أنه: والذين هم في صلاتهم متذللون لله بإدامةِ ما ألزمهم من فرضِه وعبادته، وإذا تَذَلَّلَ لله فيها العبدُ رُئِيَتْ ذلةُ خضوعِه في سكونِ أطرافه، وشغله بفرضه، وتركه ما أمر بتركه فيها.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين هُمْ عن الباطل، وما يكرههُ اللهُ من خَلْقِه مُعْرِضُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين هم لزكاةِ أموالهم التي فَرَضَها اللهُ عليهم فيها مؤدُّونَ، وفِعْلُهم الذي وُصِفُوا به هو أداؤُهُمُوهَا.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفروجِهِمْ حافِظُونَ. إلَّا عَلى أَزْوَاجِهِمْ»، يقولُ: والذين هم لفروجِ أنفسِهم، وعَنَى بالفروج في هذا الموضع: فروجَ الرجالِ، وذلك أقبالُهم، حافظونَ: يحفظونها من أعمالها في شيء من الفروج.

«إلَّا عَلى أَزْوَاجِهِمْ»، يقولُ: إلا من أزواجهم اللاتي أحلهنَّ اللهُ للرجالِ بالنكاح، «أوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ»، يعني بذلك: إماءهم. و«ما» التي في قوله: «أوْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» في[1] محلِّ خفضٍ[2]، عطفاً على الأزواج. «فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومينَ»، يقولُ: فإنَّ مَنْ لم يحفظ فرجه عن زوجهِ ومِلْكِ يمينه، وحفظه عن

(١) ليست في المطبوعة.

(٢) أنظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٣١.

غيرِه من الخَلْقِ، فإنه غير مُوَبَّخٍ على ذلك، ولا مذموم، ولا هو بفعله ذلك راكب ذنباً يُلامُ عليه.

وقوله: «فَمَن ابْتَغَى وَرَاءَ ذلكَ»، يقولُ: فمن التمسَ لفرجِهِ مَنْكَحاً سوى زوجته ومِلْكِ يمينه، «فأُولَئِكَ هُمُ العادُونَ»، يقولُ: فهم العادون حدودَ الله، المجاوزونَ ما أَحَلَّ الله لهم إلى ما حَرَّمَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِينَ هُمْ لأَماناتِهِمْ» التي ائْتُمِنُوا عليها «وَعَهْدِهِمْ»، وهو عقودهم التي عاقدوا الناس «راعُونَ»، يقولُ: حافظونَ لا يضيعون، ولكنهم يوفون بذلك كله.

وقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظُونَ»، يقولُ: والذين هم على أوقاتِ صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها ولا يشتغلونَ عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يُؤَدُّوها فيها.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم في الدُّنيا، هم الوارثونَ يومَ القيامةِ منازلَ أهلِ النار من الجَنَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «الَّذِينَ يَرِثُونَ» البُستان ذا الكرم، وهو الفِرْدوس عند العربِ.

وقوله: «هُمْ فِيها خالِدُونَ»، يعني ماكثونَ فيها، يقولُ: هؤلاءِ الذين يرثون الفردوسَ خالدون، يعني ماكثونَ فيها أبداً، لا يتحوَّلُونَ عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» أسللناهُ منه، فالسلالةُ هي المُسْتَلَّةُ من كلِّ تُربةٍ، ولذلك كان آدم خُلِقَ من تربةٍ أُخِذت من أديم الأرض.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهلُ التأويلِ على اختلافٍ منهم في المَعْنيِّ بالإنسان في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُنِيَ به آدم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد خلقنا وَلَد آدم، وهو الإنسانُ الذي ذكر في هذا الموضع، من سلالة، وهي النطفةُ التي اسْتُلَّتْ من ظَهْرِ الفَحْلِ من طين، وهو آدمُ الذي خُلِقَ من طين.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال معناه: ولقد خلقنا ابنَ آدم من سُلالةِ آدمَ، وهي صفةُ مائِهِ وآدم هو الطين، لأنه خُلِقَ منه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية لدلالة قوله: «ثُمَّ جعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ» على أنَّ ذلك كذلك، لأنه معلومٌ أنه لم يصر في قرارٍ مكين إلا بعد خَلْقِه في صُلْب الفَحْل، ومن بعد تَحَوُّلِه من صلبه صار في قرارٍ مكين، والعربُ تسمي ولدَ الرجلِ ونطفته: سليله وسلالته، لأنهما مسلولان منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ

﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ»: ثم جعلنا الإنسانَ الذي جعلناهُ من سلالةٍ من طين، نطفةً في قرارٍ مكين، وهو حيث استقرَّتْ فيه نطفةُ الرجل من رحم المرأة، ووصفه بأنه مكين، لأنه مُكِّنَ لذلك، وهُيِّىءَ له ليستقرَّ فيه إلى بلوغِ أمره الذي جعله له قراراً.

وقوله: «ثُمَّ خَلَقْنا النطْفَةَ عَلَقَةً»، يقولُ: ثم صَيَّرنا النطفةَ التي جعلناها في قرار مكين عَلَقة، وهي القطعة من الدم، «فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً»، يقولُ: فَجعلنا ذلك الدمَ مضغةً، وهي القطعةُ من اللحم.

وقوله: «فخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً»، يقولُ: فجعلنا تلك المضغة من اللحم عظاماً.

وقوله: «فَكَسَوْنا العظامَ لَحْماً»، يقولُ: فألبسنا العظام لحماً.

وقوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ»، يقولُ: ثم أنشأنا هذا الإنسان خَلْقاً آخر، وهذه الهاء التي في «أَنْشَأْنَاهُ» عائدةٌ على الإنسانِ في قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ» وقد يجوز أنْ تكونَ من ذِكْر العظم والنطفة والمضغة، جعل ذلك كله كالشيءِ الواحد، فقيل: ثم أنشأنا ذلك خَلْقاً آخر.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ»، فقال بعضهم: إنشاؤه إياه خلقاً آخرَ: نفخهُ الروحَ فيه، فيصير حينئذٍ إنساناً، وكان قبلَ ذلك صورة.

وقال آخرون: إنشاؤهُ خَلْقاً آخر، تصريفه إياه في الأحوالِ بعد الولادةِ في الطفولة والكهولة، والاغتذاء، ونباتِ الشعرِ والسنِّ، ونحو ذلك من أحوالِ

الأحياء في الدنيا.

وقال آخرون: بل عَنَى بانشائِه خلقاً آخر: سَوَّى شبابه.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بذلك نفخَ الروحِ فيه، وذلك أنه بنفخِ الروحِ فيه يتحوَّلُ خلقاً آخر إنساناً، وكان قبلَ ذلك بالأحوالِ التي وصفَهُ اللهُ أنه كان بها من نطفةٍ وعلقةٍ ومُضغةٍ وعظمٍ، وبنفخِ الروح فيه يتحوَّلُ عن تلك المعاني كُلِّها إلى معنى الإنسانيةِ، كما تحوَّلَ أبوهُ آدمُ بنفخِ الروح في الطينة التي خلق منها إنساناً، وخلقاً آخر غير الطينِ الذي خُلِقَ منه.

وقوله: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فتبارك الله أحسنُ الصانعين، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: إنما قيل: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ» لأن عيسى بن مريم كان يخلق، فأخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن نفسِه أنه يخلقُ أحسنَ مما كانَ يَخْلُقُ، وهو قول ابن جُرَيْج.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قول مجاهد، لأنَّ العربَ تسمي كُلَّ صانعٍ خالقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنكم أيها الناسُ من بَعْدِ إنشائِكم خلقاً آخرَ وتَصْيِيرِنَاكُم إنساناً سوياً مَيِّتُونَ وعائدونَ تراباً كما كنتم، ثم إنكم بعد موتكم وعَوْدِكم رفاتاً بالياً مبعوثونَ من الترابِ خلقاً جديداً، كما بدأناكم أوَّلَ مرّة. وإنما قيل: «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلكَ لَمَيِّتُونَ» لأنه خبر عن حالٍ لهم يحدث ولم يكن.

وكذلك تقول العربُ لمن لم يَمُتْ: هو مائتٌ وميتٌ عن قليلٍ، ولا يقولون لمن قد مات مائت، وكذلك هو طَمِعٌ فيما عندكَ إذا وصف بالطَّمَع، فإذا أخبر عنه أنه سيفعل ولم يفعل قيل هو طامعٌ فيما عندك غداً، وكذلك ذلك في كلٍّ ما كان نظيراً لما ذكرناه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا فوقكم أيها الناسُ سبعَ سمواتٍ، بعضهنَّ فوقَ بعضٍ، والعربُ تسمي كُلَّ شيءٍ فوقَ شيءٍ طريقة. وإنما قيل للسمواتِ السبعِ سبع طرائق، لأن بعضهنَّ فوقَ بعضٍ، فكلُّ سماء منهنَّ طريقة.

وقوله: «وَما كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غافلِينَ»، يقولُ: وما كنا في خَلْقِنَا السمواتِ السبع فوقكم عن خلقنا الذي تحتها غافلين، بل كنا لهم حافظينَ من أنْ تسقط عليهم فتهلكهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنزلنا من السماء ما في الأرضِ من ماءٍ فأسكناهُ فيها.

وقوله: «وَإِنَّا على ذهاب بِهِ لَقادِرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنا على الماء الـذي أسكناهُ في الأرض لقادرون أنْ نذهبَ به، فتهلكوا أيها الناسُ عَطَشاً

---

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٢/٢٣٢.

وتخرب أَرَضُوكُمْ، فلا تنبت زرعاً ولا غرساً، وتهلك مواشيكم، يقولُ: فمن نعمتي عليكم تَرْكي ذلك لكم في الأرضِ جارياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأَحْدَثْنَا لكم بالماءِ الذي أنزلناهُ من السماء بساتينَ من نخيلٍ وأعناب «لَكُمْ فِيهَا»، يقولُ: لكم في الجنات «فَوَاكِهُ» كثيرة، «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ»، يقولُ: ومن الفواكه تأكلون. وقد يجوز أنْ تكونَ الهاء والألف من ذكر الجنات، ويحتمل أن تكون من ذكر النخيل والأعناب.

وخصّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الجنات التي ذكرها في هذا الموضع، فوصفها بأنها من نخيلٍ وأعناب، دونَ وصفها بسائرِ ثمارِ الأرض، لأنَّ هذين النوعينِ من الثمارِ كانا هما أعظم ثمارِ الحجاز وما قَرُبَ منها؛ فكانتِ النخيلُ لأهلِ المدينة. والأعنابُ لأهلِ الطائف، فذكَّرَ القومَ بما يعرفونَ من نعمةِ الله عليهم، بما أنعمَ به عليهم من ثمارها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنشأنا لكم أيضاً شجرةً تخرجُ من طورِ سيناء، «وشجرةً» منصوبة عطفاً على الجنات ويعني بها: شجرة الزيتون.

وقوله: «تخْرُجُ مِنْ طُورِ سيناءَ»، يقولُ: تخرج من جبلٍ ينبتُ الأشجار.

وقد بيَّنتُ معنى الطور فيما مضى، واختلاف المختلفين بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع.

وأما قوله: «سيناءَ» فإنَّ القَرَأة اختلفت في قراءته، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة «سِيناءَ» بكسر السين. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «سَيْنَاءَ» بفتحِ السين، وهما جميعاً مجمعون على مَدِّهَا.

والصوابُ من القولِ في ذلك، أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأة الأمصار، بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: المباركُ، كأن معنى الكلام عنده: شجرةً تخرجُ من جبلٍ مباركٍ.

وقال آخرون: معناه: حَسَنٌ.

وقال آخرون: هو اسمُ جبلٍ معروف.

وقال آخرون: معناه: أنه جبلٌ ذو شجر.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ سيناء اسمٌ أُضِيفَ إليه الطورُ يعرف به، كما قيل جَبَلا طيىء فأضيفا إلى طيىء، ولو كان القولُ في ذلك كما قال مَنْ قال: معناه: جَبَلٌ مباركٌ، أو كما قال: من قال معناه حَسَن. لكان الطور مُنَوَّناً، وكان قوله سيناء، من نعته، على أن سيناء بمعنى: مبارك وحسن، غير معروفٍ في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك إن شاء الله، كما قِيلَ من أنه جبلٌ عُرِفَ بذلك، وأنه الجبلُ الذي نُودِيَ منه موسى ﷺ، وهو مع ذلك مباركٌ، لا أنَّ معنى سيناء: معنى مبارك.

وقوله: «تَنْبُتُ بالدُّهْنِ»، يقولُ: تَنْبُتُ هذه الشجرة بثمرِ الدهن.

وقوله: «وصِبْغٍ للآكِلِين»، يقولُ: تَنْبُتُ بالدهن وبِصِبْغٍ للآكلين يَصْطَبِغُ بالزيتِ الذينَ يأكلونه[1].

---

(١) يصطبغ: يأْتدمُ، أي: الآكلون يأتدمون بالزيت. وانظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٣٣.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ لَكُمْ» أيها الناس «في الأنْعامِ لَعِبْرَةً» تعتبرونَ بها، فتعرفونَ بها أياديَ اللهِ عندكم، وقُدْرَتَهُ على ما يشاء، وإنه الذي لا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده، ولا يعجزه شيءٌ شاءه. «نُسْقيكُمْ مِمَّا في بُطُونها» من اللبنِ الخارجِ من بينِ الفرثِ والدم، «ولَكُمْ» مع ذلك «فِيها»، يعني في الأنعام «مَنافِعُ كَثِيرةٌ» وذلك كالإبلِ التي يُحملُ عليها، ويُرْكَبُ ظهرها، ويُشْرَب دَرُّها، «ومِنْها تَأْكُلُونَ»، يعني: من لحومها تأكلون.

وقوله: «وَعَلَيْها وَعَلى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ»، يقولُ: وعلى الأنعام وعلى السفن تحملون على هذهِ في البرِّ، وعلى هذه في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولَقَدْ أرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ» داعيهم إلى طاعتنا وتوحيدنا، والبراءة من كلِّ معبودٍ سِوانا، «فَقالَ» لهم نوح: «يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ»، يقولُ: قال لهم: ذلُّوا يا قوم للهِ بالطاعة، «ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ»، يقولُ: ما لكم من معبودٍ يجوزُ لكم أنْ تَعْبُدُوه غيره، «أفَلا تَتَّقُونَ»، يقولُ: أفلا تخشون بعبادتِكُمْ غيرَهُ عقابَهُ أنْ يحلَّ بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ

﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فقالت جماعةُ أشرافِ قومِ نُوح، الذين جحدوا توحيدَ الله، وكذَّبُوه لقومهم: ما نوح أيها القومُ إلا بشرٌ مثلكم، إنما هو إنسانٌ مثلكم، وكبعضكم «يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ»، يقولُ: يريد أنْ يصيرَ له الفضلُ عليكم، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع، «وَلَوْ شاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً»، يقولُ: ولو شاء اللهُ أنْ لا نعبدَ شيئاً سواه لأنزلَ ملائكةً، يقولُ: لأرسلَ بالدعاء إلى ما يَدْعُوكم إليه نوح ملائكةً تؤدِّي إليكم رسالته.

وقوله: «ما سَمِعْنا بهَذَا» الذي يدعونا إليه نوح من أنه لا إلهَ لنا غير الله في القرونِ الماضية، وهي آباؤهم الأوَّلُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرَه مُخبراً عن قِيلِ الملإِ الذين كفروا من قوم نوح: «إنْ هُو إلَّا رجُلٌ به جِنَّةٌ» ما نوح إلا رجلٌ به جنونٌ. وقد يقال أيضاً للجنِّ جنة، فيتفق الاسمُ والمصدر، وهو من قوله: «إنْ هو» كناية اسم نوح.

وقوله: «فَتربَّصُوا بهِ حتى حِينٍ»، يقولُ: فَتَلَبَّثُوا به، وتنظروا به حتى حِين: يقول إلى وقت مَّا، ولم يَعْنُوا بذلك وقتاً معلوماً، إنما هو كقولِ القائلِ:

دَعْهُ إلى يومٍ مًا، أو إلى وقتٍ مًا.

وقـولـه: «قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ»، يقولُ: قال نوح داعياً ربه، مستنصراً به على قومه لما طال أمره وأمرهم، وتمادوا في غيهم «رَبِّ انْصُرْنِي» عَلى قَوْمي «بِما كَذَّبُونِ»، يعني: بتكذيبهم إيايَ، فيما بلَّغتُهم من رسالتك، ودعوتهم إليه من توحيدك.

وقوله: «فَأوْحَيْنا إلَيْهِ أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنا وَوَحْينا»، يقولُ: فقلنا له حين استنصرَنا على كَفَرةِ قومِهِ: اصنع الفُلْكَ، وهي السفينة بأعيننا، يقولُ: بمرأىً منا، ومنظرٍ، «وَوَحْيِنَا»: يقولُ: وبتعليمنا إياكَ صنعتها، «فإذَا جاء أمْرُنا»، يقولُ: فإذا جاء قضاؤنا في قومكَ بعذابِهم وهلاكِهم، «وَفَارَ التَّنُّورُ».

وقد ذكرنا فيما مضى اختلافَ المختلفين في صفة فَوْرِ التنور. والصواب عندنا من القولِ فيه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

«فاسْلُكْ فيها مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»، يقولُ: فادخل في الفلك واحملْ، والهاء والألف في قوله: «فيها» من ذِكْر الفُلك «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»، يقال: سلكته في كذا وأسلكته فيه.

«وأهْلَكَ»، وهم وَلَدُه ونساؤهم، «إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْل» من الله بأنه هالكٌ فيمن يهلكُ من قومكَ فلا تَحملْهُ معكَ، وهو يام الذي غرق. ويعني بقـوله: «مِنْهُمْ» مِن أهلكَ، والهاء والميم في قوله: «منهم» من ذِكْرِ الأهل. وقوله: «وَلا تخاطِبْني»... الآية، يقولُ: ولا تسألني في الذين كفروا بالله أنْ أُنَجِّيهم، «إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»، يقولُ: فإني قد حتمتُ عليهم أنْ أُغْرِقَ جميعَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإذَا اسْتَوَيْتَ أنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلى الفُلْكِ»: فإذا اعتدلتَ في السفينة أنتَ ومَنْ معكَ ممن حملته معكَ من أهلك راكباً فيها عالياً فوقها، «فَقُلْ الحَمْدُ للهِ الَّذي نَجَّانا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ»، يعني من المشركينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه نوح عليه السلام: وقُلْ إذا سَلَّمَكَ اللهُ وأخرجكَ من الفُلك، فنزلتَ عنها: «رَبِّ أنزِلْنِي مُنزَلًا» من الأرضِ «مُباركاً، وأنْتَ خَيْرُ» مَنْ أنزلَ عِبادَهُ المنازلَ.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ» يقول تعالى ذِكْرُه: إن فيما فعلنا بقومِ نوحٍ يا محمدُ من إهلاكِنَاهُمْ إذْ كذبوا رُسُلَنَا، وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهةَ والأصنامَ، لَعِبَراً لقومكَ من مشركي قريش، وعظاتٍ وحُجَجاً لنا، يستدلون بها على سنتنا في أمثالهم، فينزجروا عن كفرهم، ويرتدعوا عن تكذيبكَ، حذراً أن يصيبهم مثلُ الذي أصابهم من العذابِ.

وقوله: «وَإنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكنا مُخْتَبِريهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا، لننظُرَ ما هُمْ عاملونَ قبلَ نزولِ عقوبتنا بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أحدثنا من بعد مَهْلِكِ قومِ نوحٍ، قرناً آخرين،

فأوجدناهم «فأَرْسَلْنا فِيهِم رَسُولاً مِنْهُمْ» داعياً لهم «أنِ اعْبُدُوا اللهَ» يا قوم، وأطيعوهُ دونَ الآلهةِ والأصنام، فإنَّ العبادةَ لا تنبغي إلا له «ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ»، يقولُ: ما لكم من معبودٍ يصلحُ أنْ تعبدُوا سواه «أفَلا تَتَّقُونَ» أفلا تخافون عقابَ الله بعبادتكم شيئاً دونه، وهو الإلهُ الذي لا إله لكم سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه: وقالت الأشرافُ من قومِ الرسولِ الذي أرسلنا بعد نوحٍ، وعَنَى بالرسولِ في هذا الموضع: صالحاً، وبقومِه: ثمود «الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ»، يقولُ: الذين جحدوا توحيدَ الله؛ وكذَّبُوا بلقاءِ الآخرة: يعني كَذَّبُوا بلقاءِ الله في الآخرة.

وقوله: «وأتْرَفْناهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا»، يقولُ: ونعَّمناهم في حياتهم الدنيا بما وسَّعنا عليهم من المعاشِ، وبسطنا لهم من الرزقِ، حتى بَطِرُوا وعَتَوْا على رَبِّهم، وكفروا.

وقوله: «ما هَذَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ»، يقولُ: قالوا: بعثَ اللهُ صالحاً إلينا رسولاً من بيننا، وخَصَّهُ بالرسالة دوننا، وهو إنسانٌ مثلنا يأكلُ مما نأكلُ منه من الطعام، ويشربُ مما نشربُ، وكيف لم يرسل مَلَكاً من عندِه يُبَلِّغُنَا رسالَتَهُ قال: «وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ»، معناه: مما تشربونَ منه، فحذف «من» الكلام «منه»، لأنَّ معنى الكلام: ويشربُ من شرابكم، وذلك أنَّ العربَ تقولُ: شربتُ من شرابك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الملأ من قومِ صالح لقومهم: «وَلئِنْ أطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ» فاتبعتموه، وقَبِلْتُمْ ما يقولُ وصدَّقْتُموه «إنَّكُمْ» أيها القومُ «إذاً لَخاسِرُونَ»، يقولُ: قالوا: إنكم إذن لمغبونون حظوظَكُمْ من الشرفِ والرفعةِ في الدنيا باتباعكم إياه.

وقوله: «أيَعِدُكُمْ أنَّكُمْ إذَا مِتُّمْ وكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً»... الآية. يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا لهم: أيَعِدُكُمْ صالحٌ أنكم إذا متم وكنتم تراباً في قبوركم، وعظاماً قد ذهبتْ لحومُ أجسادِكم، وبقيتْ عظامُهَا أنكم مُخْرَجُونَ من قبورِكم أحياء، كما كنتم قبلَ مماتكم؟.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن قولِ الملأ من ثمود أنهم قالوا: هيهاتَ هيهاتَ: أي بعيدٌ ما تُوعَدُونَ أيها القومُ، من أنكم بعدَ موتِكم ومصيرِكُمْ تراباً وعظاماً مُخْرَجُونَ أحياء من قبوركم، يقولون ذلك غير كائن.

وقوله: «إنْ هِيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا»، يقولُ: ما حياة إلا حياتُنَا الدنيا التي نحنُ فيها «نَمُوتُ وَنَحْيَا» يقولُ: تموتُ الأحياءُ منا فلا تحيا، ويحدثُ آخرون منا فيولدونَ أحياء. «وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ»، يقولُ: قالوا: وما نحنُ بمبعوثينَ بعد المماتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا ما صالح إلا رجلٌ اختلقَ على الله كذباً في قوله: «ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ»، وفي وَعْدِه إياكم أنكم إذا مِتُّمْ وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخْرجون. وقوله: «هُوَ» من ذِكْرِ الرسولِ وهو صالح «وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وما نحنُ له بِمُصَدِّقِينَ فيما يقولُ: إنه لا إلهَ لنا غير الله، وفيما يَعِدُنَا من البعثِ بعد المماتِ.

وقوله: «قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ»، يقولُ: قال صالح لما أيسَ من إيمانِ قومِهِ باللهِ، ومن تصديقهم إياه بقولهم: «وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ» ربِّ انصرني على هؤلاءِ بما كَذَّبُونِ، يقولُ: بتكذيبهم إيَّايَ فيما دعوتُهُمْ إليه من الحقِّ، فاستغاثَ صلواتُ الله عليه بربه من أذاهم إياه، وتكذيبهم له، فقال الله له مجيباً في مسألته إيَّاهُ ما سألَ: عن قليلٍ يا صالحُ ليصبحنَّ مُكَذِّبُوكَ من قومك على تكذيبهم إياكَ نادمينَ، وذلك حين تَنزلُ بهم فِتْنَتُنَا فلا ينفعهمُ الندم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فانتقمنا منهم، فأرسلنا عليهم الصيحةَ، فأخذتهم بالحقِّ، وذلك أنَّ الله عاقبهم باستحقاقِهم العقابَ منه بكفرهم به، وتكذيبهم رسوله. «فَجَعَلْنَاهُمْ غُثاءً»، يقولُ: فَصَيَّرْنَاهُمْ بمنزلةِ الغثاء، وهو ما ارتفعَ على السيلِ ونحوه، كما لا يُنْتَفَعُ به في شيءٍ، فإنما هذا مثل. والمعنى: فأهلكناهم فجعلناهم كالشيء الذي لا منفعةَ فيه.

وقوله: «فَبُعْداً للْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، يقولُ: فأبعد اللهُ القومَ الكافرينَ بهلاكِهم إذْ كفروا بربهم، وعَصَوْا رُسُلَهُ، وظلموا أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أحدثنا من بعدِ هلاكِ ثمودَ قوماً آخرين.

وقوله: «ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أجلَهَا»، يقولُ: ما يتقدمُ هلاكُ أمةٍ من تلك الأممِ التي أنشأناها بعدَ ثمود، قبلَ الأجلِ الذي أجَّلْنَا لهلاكها، ولا يستأخرُ هلاكُها عن الأجلِ الذي أجَّلْنَا لهلاكِها، والوقت الذي وَقَّتْنَا لفنائها، ولكنها تهلكُ لمجيئِه. وهذا وعيدٌ من اللهِ لمشركي قومِ نبينا محمدٍ ﷺ، وإعلامٌ منه لهم أنَّ تأخيره في آجالهم مع كفرهم به وتكذيبهم رسولَهُ، لِيَبْلُغُوا الأجلَ الذي أجَّلَ لهم، فيحلّ بهم نقمته، كَسُنَّتِه فيمَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ السالفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثُمَّ أرْسَلْنَا» إلى الأمم التي أنشأنا بعد ثمود «رُسُلَنا تَتْرَى» يعني: يتبعُ بعضها بعضاً، وبعضها في إثرِ بعض.

وقوله: «كُلَّما جاءَ أُمَّةً رَسُولَها كَذَّبُوهُ»، يقولُ: كلما جاء أمةً من تلك الأممِ التي أنشأناها بعدَ ثمود رسولها الذي نُرسِلُه إليهم كَذَّبُوهُ فيما جاءهم به من الحقِّ من عندنا.

وقوله: «فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً»، يقولُ: فأتبعنا بعضَ تلك الأمم بعضاً بالهلاكِ، فأهلكنا بعضَهم في إثرِ بعض.

وقـوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أحادِيثَ» للناس، ومثلاً يُتَحدَّثُ بهم في الناسِ، والأحاديثُ في هذا الموضع جمع أُحدوثة، لأنَّ المعنى ما وصفتُ من أنهم جُعِلُوا للناسِ مثلاً يتحدَّثُ بهم، وقد يجوز أنْ يكونَ جمع حديث، وإنما قيل: «وَجَعَلْناهُمْ أحادِيثَ» لأنهم جُعِلُوا حديثاً، ومثلاً يتمثَّلُ بهم في الشرِّ، ولا يقالُ في الخير: جعلته حديثاً ولا أُحدوثةً.

وقوله: «فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ»، يقولُ: فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله، ولا يصدِّقُونَ برسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أرسلنا بعدَ الرسلِ الذين وصفَ صِفَتهم قبلَ هذه الآية موسى وأخاهُ هارونَ إلى فرعونَ وأشرافِ قومِهِ من القبطِ «بآياتنا»، يقولُ: بحججنا «فاسْتَكْبَرُوا» عن اتِّباعِهَا والإيمانِ بما جاءهم به من عند الله «وكانُوا قَوْماً عالِينَ»، يقولُ: وكانوا قوماً عالين على أهلِ ناحيتهم، ومَنْ في بلادهم من بني إسرائيل وغيرهم بالظلم، قاهرين لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فقال فرعون وملؤه «أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا» فَنَتَّبعهما «وَقَوْمُهُما» من بني إسرائيلَ «لَنا عابِدُونَ» يعنون أنهم لهم مُطِيعُونَ مُتَذَلِّلُونَ، يأتمرونَ لأمرِهم، ويَدِينُونَ لهم، والعربُ تُسمي كُلَّ مَنْ دانَ لملكٍ عابداً له. ومن ذلك قِيلَ لأهلِ الحيرة: العُبَّادُ، لأنهم كانوا أهلَ طاعةٍ لملوكِ العجم.

وقوله: «فَكَذَّبُوهُمَا فكانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ»، يقولُ: فكذَّبَ فرعونُ وملؤُه موسى وهارونَ فكانوا ممن أهلَكَهُمُ اللهُ، كما أهلكَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ بتكذيبها رسلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد آتينا موسى التوراةَ ليهتدي بها قومُه من بني إسرائيل، ويعملوا بما فيها، «وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ»، يقولُ: وجعلنا ابنَ مريم وأُمَّهُ حجةً لنا على مَنْ كان بينهم، وعلى قدرتنا على إنشاءِ الأجسامِ من غيرِ أصلٍ، كما أنشأنا خَلْقَ عيسى من غيرِ أبٍ.

وقوله: «وَآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ»، يقولُ: وضَمَمْنَاهُمَا وصَيَّرْنَاهُمَا إلى ربوةٍ، يقال: أوى فلانٌ إلى موضعِ كذا، فهو يأوي إليه: إذا صار إليه؛ وعلى مثال أفعلته فهو يُؤْوِيه.

وقوله: «إلى رَبْوَةٍ»، يعني: إلى مكانٍ مرتفعٍ من الأرض على ما حوله، ولذلك قيلَ للرجلِ يكونُ في رِفْعةٍ من قومِهِ، وعزٍّ وشرفٍ وعدد: هو في ربوةٍ من قومه.

وقوله: «ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: من صِفةِ الربوةِ التي آوينا إليها مريمَ وابنَها عيسى، أنها أرضٌ منبسطةٌ، وساحةٌ، وذاتُ ماءٍ ظاهرٍ لغيرِ الباطن حارٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقلنا لعيسى: يا أيها الرسلُ كُلُوا من الحلالِ الذي طَيَّبَهُ اللهُ لكم دونَ الحرامِ، «وَاعْمَلُوا صَالِحاً»، تقول في الكلام للرجل الواحد: أيها القومُ كُفُّوا عنَّا أذاكم، وكما قال: «الَّذِينَ قالَ لهمُ النَّاسُ»، وهو رجلٌ واحد.

وقوله: «إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»، يقولُ: إني بأعمالكم ذُو علمٍ لا يخفى عليَّ منها شيءٌ، وأنا مُجازيكم بجميعها، ومُوَفِّيكُمْ أُجورَكُمْ وثوابكم عليها، فَخُذُوا في صالحاتِ الأعمال واجتهدوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾

معنى الكلام: وقلنا لعيسى يا أيها الرسلُ كُلُوا من الطيباتِ. وقلنا: وإنَّ هذه أمتكم أمةً واحدة. وقيل: إنَّ الأمة الذي في هذا الموضع: الدِّينُ والمِلَّةُ.

وقوله: «وأنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ»، يقولُ: وأنا مولاكم فاتقونِ بطاعتي تَأْمَنُوا عِقابي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتفرَّقَ القومُ الذين أمرهم الله من أمةِ الرسولِ عيسى، بالاجتماعِ على الدينِ الواحدِ والملةِ الواحدة، دِينَهُمْ الذي أمرهم الله بلزومِهِ. «زُبُـراً» كتباً، فدانَ كُلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ غيرِ الكتابِ الذي دانَ به الفريقُ الآخر، كاليهودِ الذين زعموا أنهم دانوا بحكمِ التوراةِ، وكَذَّبُوا بحكمِ الإنجيلِ والقرآنِ، وكالنصارى الذين دانوا بالإنجيلِ بزعمهم، وكَذَّبُوا بحكمِ الفرقان.

وقوله: «كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»، يقولُ: كُلُّ فريقٍ من تلك الأمم بما اختاروه لأنفسِهم من الدينِ والكتبِ فَرِحُونَ مُعْجَبُونَ به، لا يرون أنَّ الحقَّ سِواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، فَدَعْ يا محمدُ، هؤلاءِ الذين تَقَطَّعُوا أمرهم بينهم زبراً «في غَمْرتهم» في ضلالتهم وغيهم، «حتى حِين»، يعني: إلى أجلٍ سيأتيهم عند مجيئِهِ عذابي.

وقوله: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِين»، يقول تعالى ذِكْرُه: أيحسبُ هؤلاءِ الأحزابُ الذين فَرَّقُوا دينهم زبراً، أنَّ الذي نُعطيهم في عاجلِ الدنيا من مالٍ وبنين «نُسارِعُ لَهُمْ»، يقولُ: نُسَابِقُ لهم في خيراتِ الآخرة، ونبادر لهم فيها. و«ما» من قوله: «أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ» نصب لأنها بمعنى الذي. «بَلْ لا يَشْعُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تكذيباً لهم: ما ذلك كذلك، بل لا يعلمونَ

أنَّ إمدادي إياهم بما أُمِدُّهُمْ به من ذلك إنما هو إملاءٌ واستدراجٌ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» إن الذين هم من خشيتِهم وخوفِهم من عذابِ الله مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبونَ في طاعته، جادُّونَ في طَلَبِ مَرْضَاتِه. «وَالَّذِينَ هُمْ بآياتِ رَبهِمْ يُؤْمِنُونَ»، يقولُ: والذين هم بآياتِ كتابهِ وحججه مُصَدِّقُون. «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ»، يقولُ: والذين يُخْلِصُونَ لربهم عبادَتَهُمْ، فلا يجعلونَ له فيها لغيرِه شركاً لوثَنٍ، ولا لصنمٍ، ولا يُراءون بها أحداً من خَلْقِه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإياه يقصدون بالطاعةِ والعبادةِ دونَ كُلِّ شيءٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «والَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا» والذين يُعْطُونَ أهلَ سُهْمَانِ الصدقةِ ما فرضَ اللهُ لهم في أموالهم «ما آتَوْا» يعني: ما أعطوهم إياه من صدقةٍ، ويؤدُّونَ حقوقَ الله عليهم في أموالهم إلى أهلها «وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ»، يقولُ: خائفةٌ من أنهم إلى رَبِّهم راجعون، فلا يُنَجِّيهم ما فعلوا من ذلك من عذابِ الله، فهم خائفونَ من المرجعِ إلى الله.

وقوله: «أُولَئِكَ يُسارِعُونَ في الخَيْرَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين هذه الصفاتُ صفاتُهم، يبادرونَ في الأعمالِ الصالحة، ويطلبونَ الزلفةَ عند الله بطاعتِه.

وقوله: «وَهُمْ لَهَا سابِقُونَ» كان بعضهم يقولُ: معناه: سَبَقَتْ لهم من الله السعادةُ، فذلك سبوقهم الخيرات التي يعملونها.

وكان بعضهم يتأوَّلُ ذلك بمعنى: وهُمْ إليها سابقونَ.

وتأوَّلَهُ آخرون: وهم من أجلها سابقون.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القولُ الذي قيلَ من أنه سَبَقَتْ لهم من الله السعادةُ، قبلَ مسارعتهم في الخيراتِ، ولِمَا سبقَ لهم من ذلك سارعوا فيها.

وإنما قلتُ ذلك أوْلى التأويلين بالكلام، لأنَّ ذلك أظهر مَعْنَيَيْهِ، وأنه لا حاجةَ بنا إذا وَجَّهْنَا تأويلَ الكلامِ إلى ذلك إلى تحويلِ معنى اللام التي في قوله: «وَهُمْ لَهَا» إلى غيرِ معناها الأغلبِ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا نكلفُ نفساً إلا ما يَسَعُهَا، ويصلحُ لها من العبادةِ، ولـذلك كلَّفناها ما كلفناها من معرفةِ وحدانيةِ الله، وشَرَعْنَا لها ما شرعنا من الشرائعِ. «وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بالحَقِّ»، يقولُ: وعندنا كتابُ أعمالِ الخَلْقِ بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ ينطقُ بالحقِّ. «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقولُ: يبينُ بالصدقِ عما عملوا من عمـلٍ في الـدنيا لا زيادةَ عليه ولا نقصان، ونحنُ مُوَفُّو جميعِهم أجـورَهُمْ، المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته. «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقولُ: وهم لا يُظْلَمُونَ بأنْ يزادَ على سيئاتِ المسيءِ منهم ما لم يَعْمَلْهُ فيعاقب على غيرِ جُرْمه، وينقص المحسن عما عمل من إحسانِهِ، فينقص عما له من الثواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الأمرُ كما يحسبُ هؤلاءِ المشركونَ من أنَّ إمدادنَاهُمْ بما نَمُدُّهُمْ به من مالٍ وبنينَ بخيرٍ نسوقُه بذلك إليهم والرضا منا عنهم، ولكن قلوبهم في غمرةٍ عَمىً عن هذا القرآنِ. وعَنَى بالغمرةِ ما غَمَرَ قلوبَهم، فَغَطَّاها عن فَهْمِ ما أَوْدَعَ اللهُ كتابَهُ من المواعظِ والعبرِ والحججِ. وعَنَى بقوله: «مِنْ هَذَا» من القرآن.

وقوله: «وَلَهُمْ أعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلكَ هُمْ لَهَا عامِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولهؤلاءِ الكفار أعمالٌ لا يرضاها اللهُ من المعاصي من دونِ ذلك، يقول: من دونِ أعمالِ أهلِ الإيمانِ باللهِ، وأهلِ التقوى والخشية له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولهؤلاءِ الكفار من قريش أعمالٌ من دونِ ذلك هم لها عاملونَ، إلى أنْ يُؤْخَذَ أهلُ النِّعمةِ والبطرِ منهم بالعذاب.

«إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ»، يقولُ: فإذا أخذناهم به جأروا، يقولُ: ضَجُّوا واستغاثوا مما حَلَّ بهم من عذابنا، ولعلَّ الجُؤار: رفع الصوت، كما يجأرُ الثورُ.

وقولـه: «لا تَجْأَرُوا اليَوْمَ»، يقولُ: لا تَضجُّوا وتستغيثوا اليومَ وقد نزلَ بكم العذابُ الذي لا يدفع عن الذينَ ظَلَمُوا أنفسَهُمْ، فإنَّ ضجيجَكم غير نافِعِكم، ولا دافعٍ عنكم شيئاً مما قد نزلَ بكم من سخطِ الله، «إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ»، يقولُ: إنكم من عذابنا الذي قد حَلَّ بكم لا تستنقذون، ولا يخلصكم منه

شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المشركينَ من قريش: لا تضجُّوا اليومَ وقد نزل بكم سخطُ الله وعذابُه، بما كسبتْ أيديكم، واستوجبتُمُوه بكفركم بآياتِ ربكم «قَدْ كانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» يعني: آيات كتاب الله، يقول: كانت آياتُ كتابي تُقْرَأُ عليكم، فتكذِّبُونَ بها وترجعونَ مُوَلِّينَ عنها إذا سمعتموها. كراهيةً منكم لسماعها. وكذلك يقال لكلِّ مَنْ رجع من حيثُ جاء نَكَصَ فلانٌ على عقبه.

وقوله: «مُسْتَكْبِرينَ بِهِ»، يقولُ: مستكبرينَ بحرمِ الله، يقولون: لا يظهر علينا فيه أحدٌ، لأنَّا أهلُ الحرم.

وقوله: «سامراً»، يقولُ: تَسْمرُونَ بالليل.

أما قوله: «تَهْجرون» فلها وجهان من المعنى: أحدهما أن يكون عَنَى أنه وصفهم بالإعراضِ عن القرآنِ أو البيتِ، أو رسولِ الله ﷺ ورفضِه. والآخرُ أنْ يكونَ عَنَى أنهم يقولون شيئاً من القولِ كما يهجرُ الرجلُ في منامه، وذلك إذا هَذَى، فكأنه وصفهم بأنهم يقولون في القرآنِ ما لا معنى له من القولِ، وذلك أن يقولوا فيه باطلاً من القولِ الذي لا يضرّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يتدبرْ هؤلاءِ المشركونَ تنزيلَ الله وكلامَهُ، فيعلموا ما فيه من العِبَرِ، ويعرفوا حججَ اللهِ التي احتجَّ بها عليهم فيه. «أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُم الأوَّلينَ»، يقولُ: أم جاءهم أمرُ ما لم يأتِ من قبلهم من أسلافِهم، فاستكبروا ذلك وأعرضوا، فقد جاءت الرسلُ من قبلهم، وأُنزلت معهم الكتبُ، وقد يحتمل أنْ تكون «أم» في هذا الموضع بمعنى: بَلْ، فيكون تأويل الكلام: أفلم يَدَّبَّرُوا القولَ بَلْ جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأوَّلين، فتركوا لذلك التدبرَ، وأعرضوا عنه، إذْ لم يكنْ فيمن سَلَفَ من آبائِهم ذلك.

وقوله: «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم لم يعرف هؤلاءِ المكذِّبُونَ محمداً، وأنه من أهلِ الصِّدْقِ والأمانة، فهم له مُنْكِرُونَ، يقولُ: فينكروا قولَهُ، أو لم يعرفوه بالصدقِ، ويحتجوا بأنهم لا يعرفونه، يقول جَلَّ ثناؤه: فكيف يُكَذِّبُونَهُ وهم يعرفونه فيهم بالصدقِ والأمانةِ. «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ»، يقولُ: أيقولون بمحمدٍ جنونٌ، فهو يتكلمُ بما لا معنى له، ولا يفهمُ ولا يدري ما يقولُ «بَلْ جاءَهُمْ بالحَقّ»، يقول تعالى ذِكْرُه :فإنْ يقولوا ذلك فَكَذِبُهُمْ في قِيلِهم ذلك واضحٌ بَيِّنٌ، وذلك أنَّ المجنونَ يهذي، فيأتي من الكلام بما لا معنى له، ولا يعقل، ولا يفهم، والذي جاءهم به محمدٌ هو الحكمةُ التي لا أحكمَ منها، والحقّ الذي لا تخفى صِحَّتُه على ذي فطرةٍ صحيحة، فكيف يجوزُ أنْ يقال: هو كلام مجنون.

وقوله: «وأَكْثَرُهُمْ للْحَقِّ كارِهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاءِ الكَفَرةِ أنهم لم يعرفوا محمداً بالصدق، ولا أن محمداً عندهم مجنونٌ، بل قد علموه صادقاً محقاً فيما يقولُ، وفيما يدعوهم إليه، ولكن أكثرهم للإذعانِ للحقِّ كارهونَ، ولأتباعِ محمدٍ ساخطون، حَسَداً منهم له، وبغياً عليه، واستكباراً في الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو عَمِلَ الربُّ تعالى ذِكْرُه بما يهوى هؤلاءِ المشركونَ، وأجرى التدبيرَ على مشيئتهم وإرادتهم، وترك الحقَّ الذي هم له كارهون، لفسدتِ السمواتُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ، وذلك أنهم لا يعرفون عواقبَ الأمور، والصحيحَ من التدبيرِ والفاسدَ؛ فلو كانت الأمورُ جاريةً على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثارِ أكثرهم الباطلَ على الحقِّ، لم تقرّ السمواتُ والأرض ومَنْ فيهنَّ من خَلْقِ الله، لأنَّ ذلك قام بالحقّ.

وقوله: «بَلْ أتَيْناهُمْ بذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل الذِّكْرِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو بيانُ الحقِّ لهم بما أنزلَ على رجلٍ منهم من هذا القرآن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بل أتيناهم بِشَرَفِهم، وذلك أنَّ هذا القرآنَ كان شرفاً لهم، لأنه نزلَ على رجلٍ منهم، فأعرضوا عنه وكفروا به، وقالوا ذلك نظيرَ قوله: «وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ».

وهذان القولان متقاربا المعنى؛ وذلك أنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنزل هذا القرآنَ بياناً بَيَّنَ فيه ما لخلْقِه إليه الحاجةُ من أمرِ دينهم، وهو مع ذلك ذِكْرٌ لرسولِه ﷺ وقومه، وشَرَفٌ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم تسألُ هؤلاءِ المشركينَ يا محمدُ، من قومكَ خراجاً. يعني أجراً على ما جِئتَهُمْ به من عند الله من النصيحة والحقِّ «فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ»: فأجرُ رَبِّكَ على نفاذِكَ لأمرِه، وابتغاء مَرْضَاتِه خيرٌ لك من ذلك، ولم يسألهم النبيُّ ﷺ على ما أتاهم به من عند الله أجراً، قال لهم، كما قالَ اللهُ له، وأمَرَهُ بقِيلِه لهم: «قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلَّا المَوَدَّةَ في القُرْبى»، وإنما معنى الكلام: أم تسألهم على ما جئتهم به أجراً، فَنَكَصُوا على أعقابهم إذا تلوته عليهم مستكبرينَ بالحرم، فخراجُ رَبِّكَ خير.

وقـولـه: «وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقينَ»، يقولُ: واللهُ خيرُ مَنْ أعطى عوضاً على عملٍ، ورزق رزقاً.

وقوله: «وَإنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنك يا محمدُ، لتدعو هؤلاءِ المشركينَ من قومِك إلى دينِ الإسلام، وهو الطريقُ القاصدُ، والصراطُ المستقيم، الذي لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: والذين لا يُصَدِّقُونَ بالبعثِ بعد الممات، وقيامِ الساعة، ومجازاةِ اللهِ عبادَهُ في الدار الآخرة «عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ»، يقولُ: عن محجَّةِ الحَقِّ؛ وقَصْدِ السبيل وذلك دين الله الذي ارتضاهُ لعباده لعادلون، يقال منه: قد نَكَبَ فلان عن كذا: إذا عَدَلَ عنه ونكب عنه: أي عدل عنه.

وقوله: «وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرّ»، يقول تعالى: ولو رحمنا

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرةِ، ورفعنا عنهم ما بهم من القَحْطِ والجدب، وضرٍّ الجوعِ والهزال «لَلَجُّوا في طُغْيانهمْ»، يعني: في عُتُوِّهم، وجُرْأَتِهم على رَبِّهم «يَعْمَهُونَ»، يعني: يتردّدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أخذنا هؤلاءِ المشركينَ بعذابِنَا، وأنزلنا بهم بأسَنَا وسخطنا، وضَيَّقْنَا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادَهُمْ، وقتلنا سراتَهُمْ بالسيفِ «فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ»، يقولُ: فما خَضَعُوا لربهم فينقادوا لأمرِه ونهيه، ويُنِيبُوا إلى طاعته. «وَما يَتَضَرَّعُونَ»، يقولُ: وما يتذللون له.

وذُكر أن هذه الآيةَ نزلتْ على رسولِ الله ﷺ حين أخذ الله قريشاً بسني الجَدْبِ، إذْ دعا عليهم رسولُ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: حتى إذا فتحنا عليهم بابَ القتالِ، فقتلوا يوم بدر.

وقال آخرون: معناه: حتى إذا فتحنا عليهم بابَ المجاعةِ والضرِّ، وهو البابُ ذُو العذابِ الشديد. وهذا القولُ أوْلى بتأويلِ الآية، لصحةِ الخبرِ عن ابن عباس، أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ على رسولِ الله ﷺ، في قصة المجاعةِ التي

أصـابت قريشـاً بدعاء رسولِ الله ﷺ عليهم[١] وأمر ثمامة بن أثال[٢]، وذلك لاشكَّ أنه كان بعد وقعة بدر.

وقوله: «إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، يقولُ: إذا هؤلاءِ المشركونَ فيما فتحنا عليهم من العذابِ حَزْنَى نادمونَ على ما سَلَفَ منهم في تكذيبهم بآياتِ الله، في حين لا ينفعهم الندمُ والحزنُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي أحدثَ لكم أيها المكذِّبُونَ بالبعثِ بعد المماتِ، السمعَ الذي تسمعون به، والأبصارَ التي تُبصرونَ بها، والافئدةَ التي تفقهون بها، فكيف يتعذَّرُ على مَنْ أنشأ ذلك ابتداء عادته بعد عدمه وفقده، وهو الذي يُوجِدُ ذلك كُلَّهُ إذا شاء، ويفنيه إذا أراد «قليلاً ما تشكرونَ»، يقولُ: تشكرون أيها المكذِّبُونَ خبرَ اللهِ من عطائِكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٧٩﴾

---

(١) ساقه المؤلف من طريق عكرمة عن ابن عباس، وهو ان رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعِنّي على قريش بسنين كسني يوسف» أو: «اللهم أعني عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسف» وأصله في الصحيحين.

(٢) أسر المسلمون ثمامة بن أثال وأتوا به النبيَّ ﷺ، فخلَّى سبيله، فلحق بمكة، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العِلْهز، فجاء أبو سفيان إلى النبيِّ ﷺ فقال: أليس بأنك بعثت رحمةً للعالمين؟ فقال: بلى. فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فأنزل الله: «ولقد أخذناهم بالعذاب». انظر: أسباب النزول للواحدي: ١٧٩، والدر المنثور: ١٢/٥.

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي خلقكم في الأرض، وإليه تُحْشَرُونَ من بعد مماتِكم ثم تُبعَثُونَ من قبوركم إلى موقفِ الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي يُحيي خَلْقَهُ يقولُ: يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نُطَفاً أمواتاً، بنفخِ الروح فيها بعد التارات التي تأتي عليها، «ويميتُ»: يقـول: ويميتهم بعد أنْ أحياهم. «ولَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ»، يقولُ: وهو الذي جعلَ الليلَ والنهار مختلفين، كما يقال في الكلام: لك المنُّ والفضلُ، بمعنى: إنك تَمُنُّ وتفضلُ.

وقوله: «أفَلا تَعْقِلُونَ»، يقولُ: أفلا تعقلون أيها الناسُ أنَّ الذي فعلَ هذه الأفعالَ ابتداءً من غيرِ أصلٍ، لا يمتنعُ عليه إحياءُ الأمواتِ بعد فنائهم، وإنشاءُ ما شاءَ إعدامه بعد إنشائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما اعتبرَ هؤلاءِ المشركونَ بآياتِ الله، ولا تَدَبَّرُوا ما احتجَّ عليهم من الحججِ والدلالة على قدرته، على فعل كلِّ ما يشاء، ولكنْ قالوا مثلَ ما قالَ أسلافُهم من الأممِ المُكَذِّبةِ رُسُلَها قَبْلَهُمْ. «قالُوا أئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً وَعِظاماً»، يقولُ: أئذا متنا، وعدنا تراباً، قد بَلِيَتْ أجسامنا، وبرأتْ عظامنا من لحومنا «أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»، يقولُ: أئِنَّا لمبعوثون من قبورنا أحياء كهيئتنا قبلَ المماتِ؟ إنَّ هذا لشيءٌ غير كائن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا: لقد وُعِدْنَا هذا الوعدَ الذي تَعِدُنَا يا محمدُ، وَوَعَدَ آباءنا من قبلنا قومٌ ذكروا أنهم لله رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، فلم نَرَهُ حقيقة أنَّ هذا يقول: ما هذا الذي تَعِدُنَا من البعثِ بعد الممات «إلَّا أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، يقولُ: ما سَطَّرَهُ الأوَّلُونَ في كتبهم من الأحاديثِ والأخبارِ التي لا صحةَ لها ولا حقيقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاءِ المكذِّبين بالآخرةِ من قومكَ لِمَنْ ملكُ الأرضِ ومَنْ فيها من الخَلْقِ، إنْ كنتم تعلمون مَن مالكها، ثم أعلمه أنهم سيقرُّونَ بأنها لله ملكاً دونَ سائرِ الأشياءِ غيره. «قُلْ أفلا تَذَكَّرُونَ»، يقولُ: فَقُلْ لهم إذا أجابوكَ بذلك كذلك أفلا تَذَكَّرُونَ، فتعلمون أنَّ مَنْ قدرَ على خَلْقِ ذلك ابتداء، فهو قادرٌ على إحيائهم بعد مماتهم، وإعادتهم خَلْقاً سَوِيّاً بعد فنائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ، مَنْ ربُّ السمواتِ السبع، وربُّ العرشِ المحيط بذلك؟ سيقولون ذلك كله لله «وهو رَبُّه»، فقل لهم:

أفلا تَتَّقُونَ عقابه على كُفرِكُمْ به، وتكذيبكم خَبَرَهُ وخبرَ رسولِه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، مَنْ بيدِهِ خزائنُ كُلِّ شيء.

وقوله: «وَهُوَ يُجيرُ» مَنْ أرادَ مِمَّنْ قَصَدَهُ بسوءٍ «وَلا يُجارُ عَلَيْهِ»، يقولُ: ولا أحد يمتنعُ مِمَّنْ أرادَهُ هو بسوء، فيدفع عنه عذابه وعقابه «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» من ذلك صفته، فإنهم يقولون: إنَّ ملكوتَ كُلِّ شيءٍ، والقدرة على الأشياء، كُلّها للهِ، فَقُلْ لهم يا محمدُ «فَأَنَّى تُسْحَرُونَ»، يقولون: فمن أيِّ وجهٍ تصرفون عن التصديقِ بآياتِ الله، والإقرارِ بأخبارِه وأخبارِ رسولِه، والإيمانِ بأنَّ الله القادرُ على كل ما يشاء، وعلى بَعْثِكم أحياء بعد مماتِكم، مع علمكم بما تقولونَ من عظيمِ سلطانه وقدرته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٩٠ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾

يقولُ: ما الأمرُ كما يزعمُ المشركونَ بالله من أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وأنَّ الآلهةَ والأصنامَ آلهةٌ دون الله. «بَلْ أَتَيْناهُمْ بالحَقِّ» اليقين، وهو الدينُ الذي ابتعثَ الله به نبيه ﷺ، وذلك الإسلامُ، ولا يُعْبَد شيءٌ سوى الله، لأنه لا إلهَ

غيره. «وإنَّهُمْ لَكاذِبُونَ»، يقولُ: وإنَّ المشركينَ لكاذبونَ فيما يُضيفونَ إلى الله، ويَنْحَلُونَهُ من الولدِ والشريك.

وقوله: «ما اتَّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما لله من وَلَدٍ، ولا كانَ معه في القديم، ولا حين ابتدَعَ الأشياءَ مَنْ تصلحُ عبادتُه، ولو كان معه في القديم، أو عند خَلْقِه الأشياء مَنْ تصلح عبادته «مِنْ إلهٍ إذاً لَذَهَب»، يقولُ: إذنْ لاعتـزلَ كُلُّ إلـهٍ منهم «بِمَا خَلَقَ» من شيءٍ فانفردَ به، ولتغالبوا، فَلَعَلا بعضُهم على بعض، وغَلَبَ القويُّ منهم الضعيف، لأن القويَّ لا يرضى أنْ يعلوه ضعيفٌ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها لمن عقل وتدبر.

وقوله: «إذاً لَذَهَبَ» جواب لمحذوف، وهو: لو كان معه إلهٌ، إذنْ لذهبَ كُلُّ إلهٍ بما خلق، اجتُزِىءَ بدلالةِ ما ذكر عليه عنه.

«سُبْحـانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاءِ المشركونَ، من أنَّ له ولداً، وعَمَّا قالوه من أنَّ له شريكاً، أو أنَّ معه في القدم إلهاً يُعبد، تباركَ وتعالى.

وقوله: «عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو عالِمُ ما غابَ عن خَلْقِه من الأشياء، فلم يَرَوْهُ ولم يشاهدوهُ، وما رأوه وشاهدوه، إنما هذا من الله خَبَرٌ عن هؤلاءِ الذين قالوا من المشركينَ: اتَّخَذَ اللهُ ولداً، وعبدوا من دونِهِ آلهةً، أنهم فيما يقولون ويفعلون مُبْطِلُونَ مخطئون، فإنهم يقولون ما يقولون من قولٍ في ذلك عن غيرِ علمٍ، بَلْ عن جهلٍ منهم به، وإنَّ العالمَ بقديمِ الأمورِ وبحديثها، وشاهِدِهَا وغائِبها عنهم، اللهُ الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فَخَبَرُهُ هو الحقُّ دونَ خبرهم.

وقوله: «فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فارتفع الله وَعَلاَ عن

شركَ هؤلاءِ المشركينَ، ووصفهم إياه بما يصفون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، ربِّ إنْ تُرِيَنِّي في هؤلاءِ المشـركينَ ما تَعِـدُهُمْ من عذابكَ، فلا تُهْلِكني بما تُهلكُهم به، ونَجِّني من عذابكَ وسخطكَ، فلا تجعلني في القوم المشركينَ، ولكن اجعلني ممن رضيتَ عنهُ من أوليائِكَ.

وقوله: «وإنَّا عَلى أنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّا يا محمدُ، على أنْ نُرِيَكَ في هؤلاءِ المشركينَ ما نَعِدُهُمْ من تعجيلِ العذاب لهم لقادرونَ فلا يَحْزُنَنَّكَ تكذيبُهم إياكَ بما نَعِدُهُمْ به، وإنما نُؤَخِّرُ ذلك ليبلُغَ الكتابُ أجله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: ادفع يا محمدُ بالخلةِ التي هي أحسنُ، وذلك الإغضاءُ والصفحُ عن جَهلَةِ المشركينَ، والصبر على أذاهم، وذلك أمره إياه قبلَ أمرِه بحربِهم، وعَنَى بالسيئة: أذى المشركينَ إياهُ وتكذيبهم له فيما أتاهُمْ به من عندِ الله، يقول له تعالى ذِكْرُه: اصبرْ على ما تَلْقَى منهم في ذاتِ الله.

وقولـه: «نَحْنُ أعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: نحنُ أعلمُ بما يصفـونَ اللهَ به، وينحَلُونَهُ من الأكاذيبِ والفِريةِ عليه، وبما يقولون فيكَ من السوءِ، ونحن مُجازُوهم على جميعِ ذلك، فلا يَحْزُنْكَ ما تسمعُ منهم من قبيحِ القول.

وقوله: «وَقُلْ رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وقُلْ يا محمدُ، ربِّ أستجيرُ بك من خنق[1] الشياطينِ وهمزاتها، والهَمْزُ: هو الغَمْز، من ذلك قيل للهمز في الكلام: هَمْزة، والهَمَزات جمع همزة.

وقوله: «وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أنْ يَحْضُرُونِ»، يقولُ: وقُلْ أستجيرُ بكَ ربِّ أنْ يحضرون في أموري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: حتى إذا جاء أحدَ هؤلاءِ المشركينَ الموتُ، وعاينَ نزولَ أمرِ اللهِ به، قال لعظيمِ ما يُعاينُ مما يَقْدُمُ عليه من عذابِ الله تَنَدُّماً على ما فاتَ، وتَلَهُّفاً على ما فرطَ فيه قبلَ ذلك من طاعةِ الله ومسألته للإقالة «رَبِّ ارْجِعُونِ» إلى الدنيا، فَرُدُّوني إليها «لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً»، يقولُ: كي أعملَ صالحاً فيما تركتُ قبلَ اليومِ من العملِ، فَضَيَّعْتُه، وفَرَّطتُ فيه.

وقوله: «كَلَّا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ليس الأمرُ على ما قالَ هذا المشركُ،

(١) الهمز كالعصر، والخنق: هو عصر الرقبة وضغطها لينقطع النَّفَسُ، لذلك قال المؤلف: خنق الشيطان.

لن يُرْجَعَ إلى الدنيا، ولن يُعَادَ إليها «إنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها»، يقولُ: هذه الكلمة، وهو قوله: «رَبِّ ارْجِعُونِ» كلمة هو قائلها: يقولُ: هذا المشرك هو قائلها.

وقوله: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ»، يقولُ: ومن أمامهم حاجزٌ يحجزُ بينهم وبين الرجوع «إلى يوم يُبْعَثون» من قبورهم، وذلك يوم القيامة. والبرزخُ والحاجزُ والمُهْلَةُ متقارباتٌ في المعنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «فإذَا نُفِخَ في الصُّورِ» من النفختين أيَّتهما عَنى بها، فقال بعضهم: عنى بها النفخة الأولى.

فمعنى ذلك على هذا التأويل: فإذا نُفِخَ في الصورِ، فصَعِقَ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض إلا مَنْ شاء الله، فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ يتواصلون بها، ولا يتساءلون، ولا يتزاورونَ، فيتساءلون عن أحوالهم، وأنسابهم.

وقال آخرون: بل عنى بذلك النفخة الثانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ»: موازينُ حسناتِه وخَفَّتْ موازينُ سيئاتِه «فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ» يعني الخالدون في جنات النعيم «وَمَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ»، يقولُ: ومَنْ خفَّت موازين حسناتِه فرجَحَتْ بها موازينُ سيئاته «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ»، يقولُ: غَبَنُوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله «في جَهَنَّمَ خالِدُونَ»، يقولُ: هم في نار جهنم.

وقوله: «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ»، يقولُ: تَسْفَع وُجُوهَهم النارُ. «وَهُمْ فِيها كالِحُونَ» والكلوح: أنْ تتقلص الشفتان عن الأسنانِ، حتى تبدو الأسنان.

فتأويلُ الكلام: يَسْفَعُ وجوههم لَهَبُ النار فَتُحْرِقها، وهم فيها متقلصو الشِّفاهِ عن الأسنانِ من إحراقِ النارِ وجوهَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: «أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» يعني آيات القرآن تُتْلَى عليكم في الدنيا «فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ».

وقوله: «رَبَّنا غَلَبت علينا شِقْوَتنا»، يقولُ: ربنا غلبتْ علينا ما سَبَقَ لنا في سابقِ عِلْمِكَ وخُطَّ لنا في أمِّ الكتاب.

وقوله: «وكُنَّا قَوماً ضالِّينَ»، يقولُ: كنا قوماً ضَلَلْنا عن سبيلِ الرشادِ، وقَصْدِ الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخبراً عن قِيلِ الذين خَفَّتْ موازينُ صالحِ أعمالهم يومَ

القيامةِ في جهنم: رَبَّنَا أخرجنا من النار، فإنْ عُدْنَا لما تكرهُ مِنَّا من عملٍ، فإنا ظالمون.

وقوله: «قالَ اخْسَئُوا فِيها»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الربُّ لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ «اخْسَئُوا فِيهـا»: أي اقعدوا في النار، يقال منه: خَسَأْتُ فلاناً أَخْسَؤُهُ خَسْأً وخُسُوءاً، وخَسِيءَ هو يخسَأ، وما كان خاسئاً، ولقد خَسِيءَ «وَلا تُكَلِّمُونِ» فعند ذلك أيسَ المساكينُ من الفَرَجِ، ولقد كانوا طامعينَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّهُ»، وهذه الهاء في قوله: «إنه» هي الهاء التي يسميها أهلُ العربيةِ المجهولةَ. وقد بَيَّنْتُ معناها فيما مضى قَبْلُ، ومعنى دخولها في الكلام بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. «كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي»، يقولُ: كانت جماعةٌ من عبادي، وهُمْ أهلُ الإيمانِ بالله يقولون في الدنيا «رَبَّنا آمَنَّا» بك وبرسلكَ، وما جاءوا به من عندك «فاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَارْحَمْنا» وأنتَ خيرُ مَنْ رَحِمَ أهلَ البلاء، فلا تُعَذِّبْنَا بعذابكَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاتخذتم أيها القائلونَ لربِّهم «رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وكُنَّا قَوماً ضالِّينَ» في الدنيا، القائلين فيها «رَبَّنا آمَنَّا فاغْفِرْ لنا وَارْحَمْنا وأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» سخْرِياً. والهاء والميم في قوله «فاتَّخَذْتُمُوهُمْ» من ذِكْرِ الفريق.

واختلفت القَرأة في قوله «سخْرِيًّا فقرأه بعضُ قَرَأةِ الحجازِ وبعض أهلِ البصرة والكوفة «فاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا بكسر السين، ويتأوَّلونَ في كسرها أنَّ معنى ذلك الهزء، ويقولون: إنها إذا ضُمَّتْ، فمعنى الكلمة: السُّخْرَةُ والاستعبادُ، فمعنى الكلام على مذهب هؤلاءِ: فاتخذتم أهلَ الإيمانِ بي في الدنيا هُزُؤاً ولعباً، تهزءونَ بهم حتى أَنْسَوْكُمْ ذكري. وقرأ ذلك عامةُ قَرَأةِ المدينة والكوفة «فاتَّخذْتُموهمْ سُخْرِيًّا» بضم السين، وقالوا: معنى الكلمة في الضمِّ والكسر واحد. وحكى بعضُهم عن العربِ سماعاً لِجِّيٌّ ولُجِّيٌّ، ودِري، ودُرِّيّ، منسوب إلى الدرِّ، وكذلك كِرْسيٌّ وكُرْسيّ؛ وقالوا ذلك من قِيلهم كذلك، نظير قولهم في جمع العصا: العِصِيّ بكسر العين، والعُصيّ بضمها؛ قالوا: وإنما اخترنا الضمَّ في السُّخريّ لأنه أفصحُ اللغتين.

والصوابُ من القول في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان، ولغتان معروفتان بمعنى واحد، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأة، فبأيتهما قرأ القارىءُ ذلك فمصيبٌ، وليس يُعْرفُ من فرقٍ بين معنى ذلك إذا كُسرت السينُ وإذا ضُمت، لما ذكرتُ من الروايةِ عَمَّنْ سمع من العربِ ما حَكَيتُ عنه.

وقوله: «حتى أَنْسَوكُمْ ذِكْري»، يقولُ: لم يزل استهزاؤكُم بهم أنساكُمْ ذلك من فِعلكم بهم ذكري، فألْهَاكم عنه «وكُنْتُمْ مِنْهُ تَضْحَكُونَ».

وقوله: «إنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنّي أيُّها المشركونَ بالله المُخَلَّدُونَ في النار جَزَيتُ الذين اتخذتموهم في الدنيا سخرياً من أهل الإيمان بي، وكنتم منهم تَضحكونَ اليومَ بما صبروا على ما كانوا يَلْقَوْنَ بينكم من أذى سخريتكم وضَحِكِكُمْ منهم في الدنيا. «إنهم هم الفائزون»، يقولُ: إني جزيتهم اليومَ الجنةَ بما صبروا في الدنيا على أذاكُمْ بها في أنهم اليومَ هُمُ الفائزونَ بالنعيمِ الدائمِ، والكرامةِ الباقية أبداً بما عملوا من صالحاتِ الأعمال في الدنيا، ولقوا في طلب رضاي من المكاره فيها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ١١٣﴾

تأويلُ الكلام: قال الله: كم لبثتم في الدنيا من عدد سنين؟ قالوا مُجيبين له: لبثنا فيها يوماً أو بعضَ يومٍ، فاسألَ العادِّينَ، لأنَّا لا ندري قد نسينا ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّ بالعادِّينَ، فقال بعضهم: هُمُ الملائكةُ الذين يحفظون أعمالَ بني آدم، ويُحْصُونَ عليهم ساعاتهم.

وقال آخرون: بل هم الحُسَّابُ.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقالَ كما قالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ «فاسألَ العادِّينَ» وهم الذين يَعُدُّونَ عددَ الشهورِ والسنين وغير ذلك، وجائزٌ أنْ يكونوا الملائكة، وجائز أن يكونوا بني آدم وغيرهم، ولا حُجَّة بأيِّ ذلك من أيٍّ ثبتت صحتها، فغيرُ جائز توجيهُ معنى ذلك إلى بعض العادِّينَ دونَ بعضٍ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾

يعني: قال الله لهم: ما لبثتم في الأرضِ إلا قليلاً، يسيراً لو أنكم كنتم تعلمونَ قَدْرَ لُبْثِكُمْ فيها.

وقوله: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً؟»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفحسبتم أيها الأشقياءُ أنَّا إنما خلقناكم إذْ خلقناكم لعباً وباطلاً، وأنكم إلى رَبِّكم بعد مَماتِكم لا تصيرونَ أحياء، فَتُجْزَوْنَ بما كنتم في الدنيا تعملون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتعالى اللهُ الملكُ الحَقُّ عما يَصِفُه به هؤلاءِ المشركونَ من أنَّ له شريكاً وعما يضيفون إليه من اتِّخاذِ البنات. «لا إلَهَ إلَّا هُوَ»، يقولُ: لا معبودَ تنبغي له العبودةُ إلا الله الملكُ الحقُّ «ربُّ العرش الكريم» والربُّ مرفوع بالردِّ على الحقِّ، ومعنى الكلام: فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ، رَبُّ العرشِ الكريم، لا إله إلا هو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يَدْعُ مع المعبودِ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له معبوداً آخر، لا حُجَّةَ له بما يقولُ ويعملُ من ذلك، ولا بَيِّنة.

وقوله: «فإنَّمَا حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ»، يقولُ: فإنما حسابُ عمله السَّيِّىء عند رَبِّه وهو مُوَفِّيهِ جزاءه إذا قَدِمَ عليه. «إنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ»، يقولُ: إنه لا ينجحُ أهلُ الكفرِ بالله عنده، ولا يدركونَ الخلودَ والبقاء في النعيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ، ربِّ اسْتُرْ عليَّ ذنوبي بعفوكَ عنها، وارحمني بقبولِ توبتك، وتَرْكِكَ عقابي على ما اجترمتُ. «وأنْتَ خَيرُ الرَّاحِمينَ»، يقولُ: وقل أنتَ يا ربِّ خيرُ مَنْ رَحِمَ ذا ذَنْبٍ، فقبل توبته، ولم يعاقبه على ذنبه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «سُورَةٌ أَنْزَلْناها»: وهذه السورةُ أنزلناها.

وأما قوله: «وَفَرَضْناها» فإن القَرَأَةَ اختلفت في قراءته، فقرأه بعض قَرَأَةِ الحجازِ والبصرة «وَفَرَّضْناها» ويتأوَّلُونَهُ: وفَصَّلناها ونَزَّلنا فيها فرائضَ مختلفة. وكذلك كان مجاهد يقرؤه ويتأوَّلُه.

وقد يحتمل ذلك إذا قُرِىء بالتشديد وجهاً غيرَ الذي ذكرنا عن مجاهد، وهو أنْ يُوجَّهَ إلى أنَّ معناه: وفرضناها عليكم وعلى مَنْ بعدكم من الناسِ إلى قيامِ الساعة. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينة والكوفة والشأم «وَفَرَضْناها» بتخفيفِ الراء، بمعنى: أَوْجَبْنَا ما فيها من الأحكامِ عليكم، وألْزَمْناكُمُوهُ وبَيَّنَّا ذلك لكم.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَةِ، فبأيَّتِهِمَا قرأ القارىءُ فمصيبٌ. وذلك أنَّ الله قد فَصَّلها، وأنزَلَ فيها ضروباً من الأحكام، وأمرَ فيها ونَهَى، وفرض على عبادِه فيها فرائض. ففيها المعنيان كِلاَهُما: التَّفْرِيضُ، والفرض، فلذلك قلنا بأية القراءتين قرأ القارىءُ فمصيب الصواب.

وقـوله: «وأنْزَلْنا فيها آياتٍ بَيِّناتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنزلنا في هذه السورةِ علاماتٍ ودلالاتٍ على الحقِّ بَيِّناتٍ، يعني واضحاتٍ لمن تأمَّلَها وفكَّرَ فيها بعقلٍ، أنها من عند الله، فإنها الحقُّ المبينُ، وإنها تهدي إلى الصراطِ المستقيم. «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقولُ: لتتذكروا بهذه الآياتِ البيناتِ التي أنزلناها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ زنى من الرجالِ، أو زَنَتْ من النساءِ، وهو حُرٌّ بِكْرٌ غيرُ مُحْصَنٍ بزوجٍ، فاجلدُوه ضرباً مئةَ جَلْدَةٍ، عقوبةً لما صَنَعَ وأتى من معصيةِ الله «وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ في دِينِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا تأخذكم بالزاني والزانيةِ أيها المؤمنونَ رأفةٌ، وهي رِقَّةُ الرحمةِ في دِينِ الله، يعني في طاعة الله فيما أمركم به من إقامةِ الحدِّ عليهما على ما ألزمكم به.

واختلف أهلُ التأويل في المنهيِّ عنه المؤمنونَ من أخذِ الرأفةِ بهما، فقال بعضهم: هو تركُ إقـامـةِ حَدِّ الله عليهمـا، فأما إذا أُقيم عليهما الحدُّ، فَلَمْ تأخذهُمْ بهما رأفةٌ في دِينِ الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رأفَةٌ» فَتُخَفِّفُوا الضربَ عنهما، ولكن أوجعوهما ضرباً.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في إقامةِ حدِّ الله عليهما الذي افترض عليكم إقامته عليهما.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى التأويلين بالصوابِ لدلالةِ قولِ اللهِ بعده «في دِينِ اللهِ» يعني في طاعة الله التي أمركم بها، ومعلومٌ أنَّ دينَ الله الذي أمر به في الزانيين إقامة الحدِّ عليهما، على ما أمر من جَلْدِ كُلِّ واحدٍ منهما مئة جلدة، مع أن الشدَّةَ في الضرب لا حدَّ لها يوقف عليه، وكلُّ ضربٍ أوجع فهو شديدٌ، وليس للذي يوجع في الشدّة حدٌّ لا زيادة فيه فيؤمر به. وغيرُ جائزٍ وصفه جَلَّ ثَنَاؤُهُ بأنه أمَرَ بما لا سبيلَ للمأمورِ به إلى معرفته. وإذا كان ذلك كذلك فالذي للمأمورين إلى معرفته السبيل هو عدد الجلد على ما أمرَ به وذلك هو إقامة الحد على ما قلنا. وللعربِ في الرأفة لغتان: الرأْفة بتسكين الهمزة والرآفة بمدِّها كالسأْمة والسآمة والكأبة والكآبة. وكأن الرأفةَ المرَّةُ الواحدة، والرآفة المصدر، كما قيل: ضؤل ضآلة، مثل فعل فعالة، وقبح قباحة.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»، يقولُ: إنْ كنتم تُصَدِّقُونَ بالله رَبّكم وباليومِ الآخر، وأنكم فيه مبعوثون لحشرِ القيامةِ، وللثوابِ والعقابِ، فإنَّ مَنْ كان بذلك مُصَدِّقاً فإنه لا يخالفُ الله في أمرِه ونهيه خوفَ عقابِهِ على معاصيه.

وقـولـه: «وَلْيَشْهَـدْ عَذَابُهمـا طائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وليحضرْ جَلْدَ الزَانِيَيْنِ البِكْرين وَحَدَّهُمَا إذا أُقيمَ عليهما طائفةٌ من المؤمنين. والعربُ تسمي الواحدَ فما زادَ: طائفة.

وقوله: «مِنَ المُؤمِنِينَ»، يقولُ: من أهلِ الإيمان بالله ورسوله.

وقد اختلف أهلُ التأويل في مبلغ عدد الطائفة الذي أمر الله بشهود عذابِ الزانيين البكرين، فقال بعضهم: أقلُّه واحد.

وقال آخرون: أقله في هذا الموضع رجلان.

وقال آخرون: أقَلُّ ذلك ثلاثة فصاعداً.

وقال آخرون: بل أقل ذلك أربعة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: أقلُّ ما ينبغي حضور ذلك عدد من المسلمين الواحد فصاعدا، وذلك أنَّ الله عَمَّ بقوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طائِفَـة» والطائفة: قد تقعُ عند العربِ على الواحدِ فصاعداً. فإذْ كان ذلك كذلك، ولم يكن الله تعالى ذِكْرُه وضع دلالةً على أنَّ مرادَهُ من ذلك خاص من العددِ، كان معلوماً أنَّ حضور ما وقع عليه أدنى اسم الطائفة ذلك المَحْضَر، مخـرجٌ مقيمَ الحدِّ، ممـا أمـره اللهُ به بقـوله: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابهُما طائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ» غير أني وإنْ كان الأمرُ على ما وصفتُ، أستحبُّ أنْ لا يقصر بعددِ مَنْ يحضرُ ذلك الموضع عن أربعةِ أنفسٍ عدد مَنْ تقبل شهادتُه على الزنا، لأنَّ ذلك إذا كان كذلك، فلا خلافَ بين الجميعِ أنه قد أدَّى المقيم الحدّ ما عليه في ذلك، وهُمْ فيما دونَ ذلك مختلفون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: نزلتْ هذه الآيةُ في بعض مَنْ استأذنَ رسولَ الله ﷺ في نكاحِ نسوةٍ كُنَّ معروفاتٍ بالزنا من أهلِ الشـرك، وكُنَّ أصحـابَ راياتٍ يكْـرينَ أنْفُسَهُنَّ، فأنـزلَ الله تحريمهنَّ على المؤمنينَ، فقـال: الـزاني من المؤمنينَ لا يتزوَّجُ إلا زانيةً أو مشركةً، لأنهنّ كذلك؛ والزانيةُ من أولئك البغايا لا ينكحها إلا زانٍ من المؤمنينَ أو المشركينَ، أو مشرك مثلها، لأنهنّ كُنَّ مشركات. «وَحُرِّمَ ذلكَ على المُؤْمِنِينَ» فَحَرَّمَ الله نكاحهنَّ في قولِ أهلِ هذه المقالةِ بهذه الآية.

وقال آخرون: معنى ذلك: الزاني لا يزني إلا بزانيةٍ أو مشركة، والزانيةُ

لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك. قالوا: ومعنى النكاح في هذا الموضع: الجماع.

وقال آخرون: كان هذا حكم الله في كُلِّ زانٍ وزانية حتى نَسَخَهُ بقوله: «وأَنْكِحُوا الأيامَى مِنْكُمْ» فأحلَّ نكاحَ كُلِّ مسلمةٍ، وإنكاحَ كُلِّ مسلم.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عَنَى بالنكاح في هذا الموضع: الوطء، وأنَّ الآيةَ نزلتْ في البغايا المشركاتِ ذواتِ الراياتِ، وذلك لقيامِ الحجةِ على أنَّ الزانيةَ من المسلماتِ حرامٌ على كُلِّ مشرك، وأنَّ الزاني من المسلمينَ حرامٌ عليه كُلُّ مشركةٍ من عَبَدَةِ الأوثان. فمعلومٌ إذْ كان ذلك كذلك، أنه لم يُعْنَ بالآيةِ أنَّ الزاني من المؤمنينَ لا يعقدُ عقدَ نكاحٍ على عفيفةٍ من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانيةٍ أو مشركة. وإذْ كان ذلك كذلك، فَبَيِّنٌ أنَّ معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحلّ الزنا، أو بمشركة تستحله.

وقوله: «وحُرِّمَ ذلكَ عَلى المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وحُرِّمَ الزنا على المؤمنينَ بالله ورسوله، وذلك هو النكاحُ الذي قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «الزَّاني لا يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: والـذين يَشْتُمُونَ العفائفَ من حرائرِ المسلمينَ، فيرمونهنَّ بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رمَوْهُنَّ به من ذلك بأربعةِ شهداءَ عُدُولٍ يشهدونَ عليهنَّ أنهنَّ رأوهنَّ يفعلنَ ذلك، فاجلدُوا الذين رَمَوْهنّ بذلك ثمانينَ جلدةً، ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً، وأولئك هم الذين خالفوا أمرَ الله، وخرجوا من طاعته، ففسقوا عنها.

وذكر أن هذه الآية إنما نزلتْ في الذين رَمَوْا عائشةَ زوجِ النبيِّ ﷺ بما رَمَوْهَا به من الإفكِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذي استثنى منه قوله: «إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلكَ وأصْلَحُوا» فقال بعضهم: استثنى من قوله «وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أبَداً، وأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ» وقالوا: إذا تابَ القاذفُ قُبِلَتْ شهادتُه، وزالَ عنه اسمُ الفسق، حُدَّ فيه أو لم يُحَدَّ.

وقال آخرون: الاستثناء في ذلك من قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون»، وأما قوله: «وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أبداً» فقد وصل بالأبد ولا يجوز قبولها أبداً.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا أنَّ الاستثناء من المعنيين جميعاً، أعني من قولــه: «وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهــادَةً أبـداً»، ومن قولـه: «وأُولَئِـكَ هُمُ الفاسِقُونَ»، وذلك أنه لا خلافَ بين الجميعِ أنَّ ذلك كذلك إذا لم يحدّ في القذف حتى تاب، إما بأنْ يرفع إلى السلطان بعفوِ المقذوفةِ عنه، وإما بأنْ ماتت قبـل المـطالبـةِ بحدِّها، ولم يكنْ لها طالبٌ بحدِّها. فإذْ كان ذلك كذلك، وحدثتْ منه توبةٌ، صَحَّتْ له بها العدالة، فإذْ كان من الجميع إجماعاً، ولم يكن الله تعالى ذِكْرُه شَرَطَ في كتابه أنْ لا تُقبلَ شهادتُه أبداً بعد الحدِّ في رَمْيِهِ بل نهى عن قبولِ شهادته في الحال التي أوجبَ عليها فيها الحدَّ، وسماه فيها فاسقاً، كان معلوماً بذلك أنَّ إقامةَ الحدِّ عليه في رميه لا تحدث في شهادته مع التوبةِ من ذنبه ما لم يكن حادثاً فيها، قبل إقامتِه عليه، بَلْ توبته بعد إقامةِ الحدِّ عليه من ذنبه أحرى أنْ تكون شهادته معها أجوز منها قبل إقامته عليه،

لأنَّ الحدَّ يزيدُ المحدود عليه تطهيراً من جُرْمِه الذي استحقَّ عليه الحدّ.

فإنْ قال قائل: فهل يجوز أنْ يكونَ الاستثناءُ من قوله: «فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً» فتكون التوبة مُسْقطة عنه الحدِّ، كما كانت لشهادته عندك قبل الحدِّ، وبعده مجيزة، ولاسم الفسقِ عنه مُزيلة؟ قيل: ذلك غيرُ جائزٍ عندنا، وذلك أنَّ الحدَّ حقٌّ عندنا للمقذوفةِ كالقصاصِ الذي يجبُ لها من جنايةٍ يجنيها عليها مما فيه القصاصُ، ولا خلافَ بين الجميع أنَّ توبته من ذلك لا تضعُ عنه الواجبَ لها من القصاص منه، فكذلك توبتُه من القذفِ لا تضعُ عنه الواجبَ لها من الحدِّ، لأنَّ ذلك حقٌّ لها، إنْ شاءت عفته، وإن شاءت طالبتْ به، فتوبةُ العبدِ من ذنبِه، إنما تضعُ عن العبدِ الأسماءَ الذميمةَ، والصفات القبيحة، فأما حقوق الآدميين التي أوجبها الله لبعضِهم على بعضٍ في كلِّ الأحوالِ، فلا تزولُ بها ولا تبطل.

واختلف أهلُ العلم في صفة توبةِ القاذفِ التي تُقْبَل معها شهادتُه، فقال بعضهم: هو إكذابُهُ نَفْسَهُ فيه.

وقال آخرون: توبته من ذلك صلاحُ حالِه ونَدَمُهُ على ما فَرَطَ منه من ذلك، والاستغفارُ منه، وتركه العَوْدَ في مثل ذلك من الجرمِ، وذلك قولُ جماعةٍ من التابعين وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس.

وهذا القولُ أوْلى القولين في ذلك بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه جعلَ توبةَ كُلِّ ذي ذَنْبٍ من أهلِ الإيمانِ تركه العودَ منه، والندم على ما سلف منه، واستغفار ربه منه فيما كان من ذنبٍ بينَ العبدِ وبينه، دونَ ما كان من حقوقِ عبادِه ومظالمهم بينهم، والقاذفُ إذا أُقيمَ عليه فيه الحدّ، أو عُفِيَ عنه، فلم يبق عليه إلا توبتُه من جُرْمه بينه وبين رَبِّه، فسبيلُ توبته منه سبيلُ توبته من سائرِ أجرامه. فإذا كان الصحيحُ في ذلك من القولِ ما وصفنا، فتأويلُ الكلام: وأولئك هم الفاسقونَ، إلا الذين تابوا من جُرْمِهم الذي اجترموه بقذفِهم

المحصنـات من بعـد اجترامِهِمُوهُ «فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: ساترٌ على ذنـوبهم بعفـوهِ لهم عنهـا، رحيمٌ بهم بعـد التوبة أنْ يُعَذِّبَهُمْ عليها، فاقبلوا شهادتَهم ولا تُسَمُّوهم فَسَقةً، بَلْ سَمُّوهم بأسمائهم التي هي لهم في حال توبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ» من الرجال «أَزْوَاجَهُمْ» بالفاحشة، فيقذفونهنَّ بالزنا، «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ» يشهدونَ لهم بصحةِ ما رموهنَّ به من الفاحشةِ «فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ باللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ومعنى الكلام: والذين يرمون أزواجَهُمْ، ولم يكنْ لهم شُهداءُ إلا أنفُسُهم فشهـادةُ أحَـدِهم أربعُ شهاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين، تقومَ مقامَ الشهداءِ الأربعةِ في دفعِ الحدِّ عنه، فترك ذكر تقوم مقام الشهداء الأربعة، اكتفاءً بمعرفةِ السامعينَ بما ذكر من الكلامِ، فصار مرافع الشهادة ما وصفت. ويعني بقوله: «فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ باللهِ» فحلف أحدهم أربعَ أيمانٍ بالله من قولِ القـائـل: أشهـدُ بالله إنـه لمن الصـادقين فيما رَمى زوجتَهُ به من الفاحشة. «والخامِسَةُ»، يقولُ: والشهادةُ الخامسة «أنَّ لعنةَ اللهِ عَلَيْهِ»، يقولُ: أن لعنةَ الله له واجبةٌ عليه وحالةٌ إنْ كان فيما رماها به من الفاحشةِ من الكاذبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ

النـور: ٩

مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾

يعني جلَّ ذِكْرُه بقوله: «وَيَدْرَأُ عَنْها العَذابَ» ويدفعُ عنها الحدَّ.

واختلف أهلُ العلم في العذاب الذي عناه الله في هذا الموضع أنه يدرؤه عنها شهاداتُها الأربعُ، فقال بعضهم بنحوِ الذي قلنا في ذلك من أنَّ الحدَّ جلد مئة إنْ كانت بِكراً، أو الرجم إنْ كانت ثَيِّباً قد أحصنت.

وقال آخرون: بل ذلك الحبس، وقالوا: الذي يجبُ عليها انْ هي لم تشهدِ الشهاداتِ الأربع بعد شهاداتِ الزوج الأربع والتعانه: الحبس دونَ الحدِّ.

وإنما قلنا: الواجبُ عليها إذا هي امتنعت من الالْتعانِ بعد الْتعانِ الزوجِ الحدّ الذي وصفنا قياساً على إجماعِ الجميعِ على أنَّ الحدَّ إذا زالَ عن الزوجِ بالشهاداتِ الأربع على تصديقِه فيما رَمَاها به، أنَّ الحدَّ عليها واجبٌ، فجعل اللهُ أيمانَهُ الأربع، والتعانَهُ في الخامسة مُخْرَجَاً له من الحدِّ الذي يجبُ لها برميهِ إياها، كما جعلَ الشهداء الأربعة مخرجاً له منه في ذلك، وزائلاً به عنه الحدُّ، فكذلك الواجبُ أنْ يكون بزوالِ الحدّ عنه بذلك واجباً عليها حدّها، كما كان بزوالِه عنه بالشهود واجباً عليها، لا فرقَ بين ذلك.

وقوله: «أنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهادَاتٍ باللهِ»، يقولُ: ويدفع عنها العذابَ أنْ تحلفَ باللهِ أربعَ أيمانٍ أنَّ زوجَها الذي رماها بما رماها به من الفاحشةِ لمن الكاذبينَ فيما رماها به من الزنا. وقوله: «والخامِسَةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها». . . الآية، يقولُ: والشهادة الخامسة: أنَّ غَضَبَ الله عليها إنْ كان زوجها فيما رماها به من الزنا من الصادقين؛ ورفع قوله: «والخامِسَةُ» في كلتا الآيتين بأن التي تليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا فضلُ اللهِ عليكم أيها الناسُ ورحمتُه بكم، وأنه عَوَّادٌ على خَلْقِه بلُطْفِه وطَوْلِه، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجَلَكُمْ بالعقـوبـةِ على معـاصيكم، وفَضَحَ أهلَ الذنوبِ منكم بذنوبهم، ولكنه سَتَرَ عليكم ذنوبَكُمْ، وتركَ فضيحتكم بها عاجلاً رحمةً منه بكم، وتَفَضُّلاً عليكم، فاشكروا نِعمه، وانتهوا عن التقدُّمِ عما عنه نهاكم من معاصيهِ، وتركَ الجواب في ذلك إكتفاءً بمعرفةِ السامعِ المُرَادُ منه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين جاؤوا بالكذب والبهتان «عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»، يقولُ: جماعةٌ منكم أيها الناس. «لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»، يقولُ: لا تظنوا ما جاءوا به من الإفكِ شرّاً لكم عند الله، وعندَ الناسِ، بَلْ ذلك خيرٌ لكم عنده وعند المؤمنين، وذلك أنَّ الله يجعلُ ذلك كفارةً للمرميِّ به ويظهر براءته مما رُمِيَ به، ويجعل له منه مخرجاً. وقيل: إن الذي عَنَى الله بقوله: «إنَّ الَّذِينَ جاؤوا بالإفْك عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»: جماعةٌ منهم حَسّان بن ثابت، ومِسْطَح بن أُثاثة، وحَمْنة بنت جَحْش.

وقوله: «لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْم»، يقولُ: لكلِّ امرىءٍ من الذين جاءوا بالإفك جزاءُ ما اجترمَ من الإثمِ، بمجيئِه بما جاءَ به.

وقوله: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ»، يقولُ: والذي تَحَمَّلَ معظمَ ذلك الإثمِ والإفكِ منهم هو الذي بدأ بالخوضِ فيه، «له عذاب عظيم» يومَ القيامة.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ»... الآية، فقال بعضهم: هو حسان بن ثابت.

وقال آخرون: هو عبدالله بن أُبَيّ بن سلول.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: الذي تولَّى كبره من عصبةِ الإفكِ كان عبدالله بن أبيّ، وذلك أنه لا خلافَ بين أهلِ العلم بالسيرِ أنَّ الذي بدأ بذكرِ الإفكِ وكان يجمعُ أهلَهُ ويُحَدِّثُهم عبدالله بن أُبيّ ابن سلول، وفِعْلَهُ ذلك كان تولِّيه كِبْرَ ذلك الأمر.

وكان سبب مجيء أهلِ الإفكِ، ما حدثنا به ابن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثَوْر، عن مَعْمَر، عن محمد بن مُسْلِم بن عُبيدالله بن عبدالله ابن شهاب، قال: حدثني عروةُ بن الزبير، وسعيد بن المُسَيِّب، وعلقمة بن وقاص، وعُبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوجِ النبيِّ ﷺ حين قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فَبَرَّأَها اللهُ، وكُلُّهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضُهم كان أوعَى لحديثها من بعض، وأثبت اقتصاصاً، وقد وَعيتُ عن كُلِّ رجلٍ منهم الحديثَ الذي حدثني عن عائشة، وبعضُ حديثهم يُصَدِّقُ بعضاً[1].

زعموا أنَّ عائشة زوج النبيِّ ﷺ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرعَ بين نسائِه، فأيتهنَّ خرج سهمُها خرجَ بها؛ قالت عائشة: فأقرع بيننا في غَزَاةٍ غزاها، فخرج سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله ﷺ، وذلك بعد ما أُنزلَ الحجاب، وأنا أُحمل في هودجي، وأُنزلُ فيه، فسرنا، حتى إذا فرغَ رسولُ الله

---

(١) الحديث بطوله في الصحيحين: البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

ﷺ من غزوهِ وقفلَ إلى المدينة آذنَ ليلةً بالرحيلِ فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ؛ فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى الرَّحْلِ، فلمستُ صدري، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَار قد انقطعَ، فرجعتُ فالتمستُ عقدي، فحبسني ابتغاؤُه، وأقبلَ الرهطُ الذين كانوا يَرْحَلُون لي[١]، فاحتملوا هَوْدَجي فَرَحلُوه على بعيري الذي كنتُ أركبُ، وهم يحسبونَ أنِّي فيه؛ قالت: وكان النساءُ إذْ ذاكَ خِفافاً لم يُهَبَّلْنَ[٢] ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ، إنما يأكلن العُلْقَةَ من الطعامِ، فلم يستنكرِ القومُ ثقلَ الهودجِ حين رحلوهُ ورفعوه، وكنت جاريةً حديثةَ السنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا فوجدتُ عِقدي بعدما استمرَّ الجيشُ فجئتُ منازلهم وليسَ بها داعٍ ولا مجيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القومَ سيفقدوني ويرجعونَ إليَّ، فبينا أنا جالسةٌ في منزلي، غَلَبَتْني عيني، فنمتُ حتى أصبحتُ، وكان صفوانُ بن المُعَطَّلِ السُّلَميُّ، ثم الذكوانيُّ قد عَرَّسَ[٣] من وراءِ الجيش، فادَّلجَ[٤] فأصبحَ عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل أنْ يُضربَ الحجابُ عليَّ فاستيقظتُ باسترجاعِه حين عرفني، فَخَمَّرْتُ وجهي بجلباني، والله ما تكلمتُ بكلمةٍ، ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعِه، حتى أناخَ راحلَتَهُ، فوطىء على يديها، فركبتها، فانطلق يقودُ بي الراحلةَ، حتى أتينا الجيشَ بعدما نزلوا موغرينَ[٥] في نحرِ الظهيرة، فهلكَ مَنْ هَلَكَ في شأني، وكان الذي تولَّى كِبْرَهُ عبدالله بن أُبيّ ابن سلول، فَقَدِمْنَا المدينةَ، فاشتكيتُ شهراً والناسُ يُفيضونَ في قولِ أهلِ الإفكِ، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يُريبني في وجعي أني لا أعرفُ مِنْ

---

(١) رحلتَ البعير: إذا شددتَ عليه الرحل.

(٢) أي: يثقلن باللحم والشحم.

(٣) عَرَّسَ: نزل آخر الليل للراحة.

(٤) الادِّلاجُ: السير آخر الليل.

(٥) أي: النازل في وقت الوغرة، وهي شدة الحرِّ.

رسولِ الله اللطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخلُ فَيُسَلِّم ثم يقول: كيف تِيكُمْ، فذلك يريبني، ولا أشعر بالشرِّ حتى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ، فخرجتُ مع أمِّ مسطح قِبَلَ المناصع، وهو مُتَبَرَّزُنَا، ولا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبلَ أنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا، وأمْرُنَا أمرُ العربِ الأُولِ في التنزُّه[1]، وكنا نتأذَّى بالكُنُفِ أنْ نَتَّخِذَهَا عند بيوتنا، فانطلقتُ أنا وأُمُّ مِسْطَح، وهي ابنةُ أبي رُهْمِ بن عبدالمطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكرٍ الصدِّيق، وابنها مِسْطح بن أُثاثة بن عَبَّاد بن المطلب؛ فأقبلتُ أنـا وابنـةُ أبي رُهْمٍ قِبَـلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرتْ أمُّ مسطحٍ في مِرْطِهَا[2]، فقالت: تَعِسَ مسطح، فقلتُ لها: بئسَ ما قلتِ! أَتسبين رجلاً قد شهدَ بدراً؟ فقالت أي هَنْتَاهُ[3] أَوَ لَمْ تَسمعي ما قالَ؟ قلتُ: وما قالَ؟ فأَخْبَرَتْنِي بقولِ أهلِ الإفكِ، فازددتُ مرضاً على مرضي؛ فلما رجعتُ إلى منزلي ودخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، ثم قال كَيْفَ تِيكُمْ؟ فقلت: أتأذنُ لي أنْ آتي أبويَّ؟ قال: نعم، قالت: وأنا حينئذٍ أُريدُ أنْ أستثبتَ الخبرَ من قِبَلهما، فأَذِنَ لي رسولُ الله ﷺ، فجئتُ أبويَّ فقلتُ لأمي: أي أُمَّتَاه ماذا يتحدَّث الناسُ؟ فقالت: أي بُنَيَّة هَوِّني عليكِ، فوالله لَقَلَّمَا كانت امرأةٌ قَطُّ وضيئةٌ عند رجلٍ يحبها ولها ضرائرُ إلا أكْثَرْنَ عليها. قالت: قلت: سبحانَ الله، أَوَ قَدْ تَحَدَّثَ الناسُ بهذا وبلغ رسولَ الله ﷺ؟ قالت: نعم، فبكيتُ تلكَ الليلةَ حتى أصبحتُ لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم أصبحتُ فدخلَ عليَّ أبو بكر وأنا أبكي، فقال لأمي: ما يُبْكِيها؟ قالت: لم تكن علمتْ ما قِيلَ لها، فأكَبَّ يبكي، فبكى ساعةً ثم قال: اسكتي يا بنية، فبكيتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم بكيتُ

---

(١) هو الخروج إلى الصحراء للخلاء.

(٢) كساء من صوف.

(٣) معناها: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء.

ليلي المقبل لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم بكيتُ ليلتي المقبلة، لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، حتى ظنَّ أبواي أنَّ البكاء سيفلق كبدي.

فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأُسامةَ بن زيدٍ حين استلبثَ الوحيُ يستشيرهما في فراقِ أهلِه. قالت: فأما أُسامةُ فأشار على رسولِ الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءةِ أهلِه وبالذي في نفسِه من الودِّ فقالَ: يا رسولَ الله هُمْ أهلُكَ ولا نعلمُ إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: لم يُضَيِّقِ اللهُ عليكَ والنساءُ سِواها كثيرٌ وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ، يعني بريرةَ، فدعا رسولُ الله ﷺ بَريرةَ، فقال: هَلْ رأيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عائِشَةَ؟ قالت له بريرة: والذي بعثكَ بالحقِّ ما رأيتُ عليها أمراً قطّ أَغْمِصُه[1] عليها، أكثرَ من أنها حديثةُ السنِّ، تنام عن عجينِ أهلها، فتأتي الداجن[2] فتأكُلُه.

فقام النبيُّ ﷺ خطيباً، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: مَنْ يَعْذِرُني مِمَّنْ قَدْ بَلَغَني أذَاهُ في أهْلِي، يعني عبدالله بن أُبيِّ ابن سلول، وقال رسـولُ الله ﷺ وهو على المنبر أيضاً: يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُني مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أذَاهُ في أهْلِي، فَوَاللهِ ما عَلِمْتُ عَلى أهْلِي إلاَّ خَيْراً، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاَّ خَيْراً، وَمَا كانَ يَدْخُلُ عَلى أهْلِي إلاَّ مَعِي.

فقام سعدُ بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذركَ منه يا رسولَ الله، إنْ كان من الأوسِ ضربنا عُنُقَهُ، وإنْ كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمركَ؛ فقام سعدُ بن عبادة فقال، وهو سيدُ الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحَمِيَّةُ، فقال: أي سعد بن معاذ، لَعَمْرُ اللهِ لا تقتله، ولا تقدرُ على قَتْلِه، فقامَ أُسيد بن حضير وهو ابنُ عَمِّ[3] سعدِ بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ

---

(١) أي: أَعِيبُه.

(٢) الداجن: الشاة التي تألَفُ البيت ولا تخرج للمرعى.

(٣) في المطبوع: ابن عمه، ولا يستقيم، وما أثبتناه من الصحيحين.

لَعَمْـرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّـهُ، فإنـكَ منـافقٌ تجادلُ عن المنافقينَ، فثار الحَيَّان الأوسُ والخزرجُ، حتى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُخفِّضُهم حتى سكتوا.

ثم أتاني رسولُ الله ﷺ وأنا في بيت أبويَّ، فبينا هُمَا جالسانِ عندي وأنا أبكي، استأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي؛ قالت: فبينا نحنُ على ذلك، دخل علينا رسولُ الله ﷺ، ثم جلسَ عندي، ولم يجلسْ عنـدي منذ قِيلَ ما قيلَ، وقد لبثَ شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيءٍ؛ قالت: فَتَشَهَّدَ رسولُ الله ﷺ حين جلسَ، ثم قال: أمَّا بَعْدُ يا عائِشَةُ فإنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وكَذَا، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فإنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تابَ، تابَ اللهُ عَلَيْهِ. فلما قضى رسولُ الله ﷺ مقالَتَهُ، قلص[1] دمعي حتى ما أُحِسُّ منه دمعةً؛ قلتُ لأبي: أجِبْ عني رسولَ الله ﷺ فيما قالَ، قال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ، فقلتُ لأمي: أجيبي عني رسولَ الله ﷺ، قالتْ: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ، فقالت: فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأُ كثيراً من القرآنِ: إني واللهِ قد عرفتُ أنْ قد سمعتم بهذا حتى استقرَّ في أنفسكم، حتى كِذْتُمْ أنْ تُصَدِّقُوا به، فإنْ قلتُ لكم: إني بريئةٌ، واللهُ يعلمُ أني بريئـةٌ لا تصدِّقوني بذلك، ولئِنِ اعترفتُ لكم بأمرٍ، واللهُ يعلم أني منه بريئةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وإني والله ما أجدُ لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ».

ثم تولَّيتُ واضطجعتُ على فراشي، وأنا واللهِ أعلمُ أني بريئة، وأن الله سيبـرِّئني ببراءتي، ولكني والله ما كنتُ أظنُّ أنْ يُنْزَلَ في شأني وحيٌ يُتْلَى، ولَشَأني كان أحقر في نفسي من أنْ يتكلمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنتُ أرجو

---

(١) أي: ارتفع فاستمسك نزوله فانقطع.

أنْ يرى رسولُ الله ﷺ في المنام رؤيا يبرّئني اللهُ بها، قالت: والله ما رامَ[1] رسـولُ الله ﷺ مجلسه، ولا خرجَ من البيتِ أحدٌ حتى أنزلَ اللهُ على نبيه، فأخـذه ما كان يأخـذُه من البُـرَحَاءِ[2] عند الوحي، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثلُ الجمـانِ[3] من العَـرَقِ في اليوم الشاتِ، من ثِقَلِ القولِ الذي أُنزلَ عليه؛ قالت: فلما سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ وهو يضحكُ، كان أوَّلَ كلمةٍ تكلمَ بها أنْ قال: أبْشِري يا عائِشَةُ إنَّ اللهَ قَدْ برَّأكِ، فقالتْ لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا اللهَ، هو الذي أنزلَ براءتي، فأنزل الله: «إِنَّ الَّذِينَ جاؤوا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» عشرَ آيات، فأنزلَ هذه الآياتِ براءةً لي، قالت: فقال أبو بكر: وكان ينفقُ على مسطح لقرابتِه وفقرِه: والله لا أنفقُ عليه شيئاً أبداً بعد الذي قالَ لعائشة، قالت: فأنزلَ الله: «وَلا يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ» حتى بلغَ «غَفُورٌ رَحِيمٌ» فقال أبو بكر: إني لأحبُّ أنْ يغفرَ اللهُ لي، فرجعَ إلى مسطحٍ النفقةَ التي كان ينفقُ عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسولُ الله ﷺ، يسألُ زينبَ بنت جحش عن أمري، وما رأتْ، وما سمعتْ، فقالت: يا رسولَ الله أحْمِي سمعي وبصري، والله ما رأيتُ إلا خيراً، قالت عائشـة: وهي التي كانت تُسـاميني[4]، فَعَصَمَهـا اللهُ بالورعِ، وطفقتْ أختُها حَمْنة تحاربُ، فهلكتْ فيمن هَلَكَ.

قال الزهري بن شهاب: هذا الذي انتهى إلينا من أمر هؤلاءِ الرهطِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

(١) أي: ما فارق.

(٢) أي الشدة عند الوحي.

(٣) الجمان: الدُّر، شُبِّهَتْ قطراتُ عَرَقِه ﷺ بحباتِ اللؤلؤ في الصفاء والحُسْنِ.

(٤) تساميني: تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ.

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾

وهذا عتابٌ من الله تعالى ذِكْرُه أهل الإيمانِ به فيما وقعَ في أنفسهم من إرجافِ مَنْ أرجفَ في أمرِ عائشة بما أرجفَ به، يقول لهم تعالى ذِكْرُه: هَلاً أيها الناسُ إذ سمعتم ما قالَ أهلُ الإفكِ في عائشة ظَنَّ المؤمنونَ منكم والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً: يقول: ظننتم بمن قرفَ بذلك منكم خيراً، ولم تَظُنُّوا به أنه أتى الفاحشةَ، وقال بأنفسِهم، لأنَّ أهلَ الإسلامِ كُلُّهم بمنزلةِ نَفْسٍ واحدةٍ، لأنهم أهلُ ملةٍ واحدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هَلاَّ جاء هؤلاءِ العصبةُ الذين جاؤوا بالإفكِ، ورمَوا عائشةَ بالبهتانِ بأربعةِ شهداء يشهدونَ على مقالتهم فيها، وما رَمَوْهَا به، فإذْ لم يأتوا بالشهداءِ الأربعةِ على حقيقةِ ما رمَوْها به «فأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ»، يقولُ: فالعُصْبَةُ الذين رَمَوْهَا بذلك عند اللهِ هم الكاذبونَ فيما جاؤوا به من الإفك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ» أيها الخائضون في أمر عائشةَ، المُشِيعُونَ فيها الكذبَ والإثمَ بتَرْكِه تعجيلَ عقوبَتِكُمْ «وَرَحْمَتُهُ» إياكم لعفوِهِ عنكم «في الدُّنْيا والآخِرَةِ» بقبولِ توبتكم مما كان منكم في ذلك، «لَمَسَّكُمْ فيما» خُضْتُمْ فيه من أمرِهَا عاجلاً في الدنيا «عَذَابٌ عَظِيمٌ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لَمَسَّكُمْ فيما أفضيتم فيه من شأنِ عائشةَ عذابٌ عظيم، حين تَلَقَّـوْنَهُ بألسنتكم، و«إذ» من صلة قولِه لَمَسَّكُمْ. ويعني بقوله: «تَلَقَّوْنَهُ» تتلقون الإفكَ الذي جاءتْ به العصبةُ من أهلِ الإفك فتقبلونه، ويرويه بعضُكم عن بعضٍ، يقال: تَلَقَّيْتُ هذا الكلامَ عن فلان، بمعنى أخذتُه منه؛ وقيل ذلك لأنَّ الرجلَ منهم فيما ذُكِرَ يَلْقى آخر، فيقول: أَوَ مَا بلغكَ كذا وكذا عن عائشة؟ ليُشيع عليها بذلك الفاحشة.

قولـه: «وَتَقُـولُونَ بأفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وتقولون بأفواهكم ما ليسَ لكم به عِلْمٌ من الأمر الذي تَرْوُونه فتقولون: سمعنا أنَّ عائشةَ فعلت كذا وكذا ولا تعلمونَ حقيقةَ ذلك ولا صحته «وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً» وتظنون أنَّ قولكم ذلك وروايتَكُمُوهُ بألسنتكم، وتَلَقِّيْكُمُوهُ بعضُكم عن بعضٍ هَيِّنٌ سهلٌ، لا إثمَ عليكم فيه ولا حَرَجَ «وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ»، يقولُ: وتلقِّيكم ذلك كذلك، وقولُكُموه بأفواهكم عند الله عظيم من الأمرِ، لأنكم كنتم تؤذونَ به رسولَ الله ﷺ وحليلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَوْلا» أيها الخائضونَ في الإفكِ الذي جاءتْ به عصبةٌ منكم «إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» ممن جاء به «قلتُمْ» ما يحلُّ لنا أنْ نتكلمَ بهذا وما ينبغي لنا أن نتفوَّهَ به «سُبْحَانَك» تنزيهاً لك يا ربِّ، وبراءةً إليكَ مما جاء به هؤلاءِ. «هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: هذا القول بهتان عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُذَكِّرُكُمُ اللهُ وينهاكم بآيِ كتابِهِ، لئلا تَعُودُوا لمثلِ فِعْلِكم الـذي فعلتمـوه في أمـر عائشـةَ من تَلَقِّيكُم الإفك الذي رُوِيَ عليها بألسنتكم، وقولكم بأفواهكم ما ليسَ لكم به عِلْمٌ فيها أبداً «إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: إن كنتم تتعظون بعظاتِ الله، وتأتمرونَ لأمرِه، وتنتهون عما نهاكم عنه.

وقوله: «وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ»: ويفصِّلُ الله لكم حُجَجَهُ عليكم بأمره ونهيه، ليتبين المـطيع له منكم من العاصي، والله عليمٌ بكم وبأفعالكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، وهـو مُجازٍ المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءتِهِ، حكيمٌ في تدبيرِ خَلْقِه، وتكليفه ما كلَّفهم من الأعمال، وفرضه ما فرضَ عليهم من الأفعالِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يحبون أنْ يذيعَ الزنا في الذين صَدَّقُوا بالله ورسوله، ويظهرَ ذلك فيهم، «لهم عذاب أليم»، يقولُ: لهم عذابٌ وجيعٌ في الـدنيا بالحدِّ الذي جعله الله حدّاً لرامي المحصَنات والمحصَنين إذا رموهم بذلك، وفي الآخرةِ عذابُ جهنم إنْ ماتَ مُصِرّاً على ذلك غيرَ تائبٍ.

وقوله: «وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله يعلمُ كَذِبَ الذين جاؤوا بالإفك من صدقهم، وأنتم أيها الناسُ لا تعلمون ذلك، لأنكم لا

تعلمون الغيبَ،وإنما يعلمُ ذلك عَلَّامُ الغيوب. يقول: فلا تَرْوُوا ما لا عِلْمَ لكم به من الإفكِ على أهلِ الإيمان بالله، ولاسيما على حلائلِ رسولِ الله ﷺ فتهلكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنَّ الله تفضَّلَ عليكم أيها الناسُ ورَحِمَكُمْ، وأنَّ الله ذو رأفـةٍ، ذو رحمـة بخلقه لهلكتم فيما أَفَضْتُمْ فيه، وعاجَلَتْكُمْ من اللهِ العقوبةُ. وتركَ ذِكْرَ الجوابِ لمعرفةِ السامعِ بالمرادِ من الكلامِ بَعْدَهُ، وهو قوله: «يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ»... الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: يا أيها الذين صَدَّقوا اللهَ ورسوله، لا تَسلكُوا سبيلَ الشيطانِ وطُرُقَهُ، ولا تقتفوا آثارَهُ بإشاعتِكم الفاحشةَ في الذين آمنـوا، وإذاعَتِكُمُوها فيهم، وروايتكم ذلك عَمَّنْ جاء به، فإنَّ الشيطانَ يأمرُ بالفحشاء، وهي الزنا، والمنكر من القول.

وقد بيَّنا معنى الخطوات والفحشاء فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا فضلُ الله عليكم أيها الناسُ ورحمتُه لكم، ما تَطَهَّرَ منكم من أحدٍ أبداً من دَنَسِ ذنوبه وشِرْكِه، ولكن الله يطهِّرُ مَنْ يشاء من خلقه.

وقوله: «وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، يقولُ: والله سميع لما تقولون بأفواهِكم، وتَلَقَّوْنه بألسنتكم، وغير ذلك من كلامِكم، عليمٌ بذلك كله وبغيرِه من أمورِكم، محيطٌ به مُحْصِيه عليكم، ليجازيَكُمْ بكلِّ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يحلفْ بالله ذوو الفضلِ منكم، يعني ذوي التفضلِ والسَّعةِ: يقولُ: وذوو الجِدَة.

وإنما عُنِي بذلك أبو بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه في حلفِه بالله لا ينفق على مِسْطَح، فقال جَلَّ ثَناؤُهُ: ولا يحلفْ مَنْ كان ذا فضلٍ من مال وسعة منكم أيها المؤمنونَ بالله، أن لا يُعْطُوا ذَوِي قَرابتهم، فَيَصِلُوا به أرحامَهم، كمِسْطح، وهو ابن خالة أبي بكر «والمَسَاكِينَ» يقولُ: وذوي خَلَّة الحاجةِ، وكان مِسْطح منهم، لأنه كان فقيراً محتاجاً «والمُهَاجِرِينَ في سبيلِ اللهِ» وهم الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم في جهادِ أعداءِ الله وكان مِسْطَح منهم لأنه كان مِمَّنْ هاجرَ من مكةَ إلى المدينةِ وشهدَ مع رسولِ الله ﷺ بدراً. «وَلْيَعْفُوا»، يقولُ: وليعفوا عما كان منهم إليهم من جُرْمٍ وذلك كجرمِ مِسطَح إلى أبي بكر في إشاعتِه على ابنته عائشةَ ما أشاعَ من الإفكِ «وَلْيَصْفَحُوا»، يقولُ: وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرمانِهم ما كانوا يُؤْتُونَهُمْ قبلَ ذلك، ولكن ليعودوا لهم إلى مِثْلِ الذي

كانوا لهم عليه من الإفضالِ عليهم، «ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ»، يقولُ: ألا تحبون أنْ يسترَ اللهُ عليكم ذنوبكم بإفضالِكُمْ عليهم، فيترك عقوبتكم عليها «وَاللهُ غَفُورٌ» لذنوبِ مَنْ أطاعه، واتَّبَعَ أمْرَهُ، «رحيم» بهم أنْ يُعَذِّبَهُمْ مع اتباعهم أمره، وطاعتهم إياه على ما كانَ لهم من زلةٍ وهفوةٍ قد استغفروهُ منها، وتابوا إليه من فعلها.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ» بالفاحشة «المُحْصَناتِ» يعني العفيفات «الغافلاتِ» عن الفواحشِ «المُؤْمِنات» بالله ورسوله، وما جاء به من عندِ الله. «لُعِنُوا في الدُّنْيا والآخِرَة»، يقولُ: أُبْعِدُوا من رحمةِ الله في الدنيا والآخرة «ولَهُمْ» في الآخرة «عَذَابٌ عَظِيمٌ» وذلك عذاب جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولهم عذابٌ عظيم «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ» فاليوم الذي في قوله: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ» من صلة قوله: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وعَنَى بقوله: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ» يوم القيامة، وذلك حين يجحدُ أحَدُهم ما أكتسبَ في الدنيا من الذنوبِ عن تقريرِ اللهِ إياه بها فيختمُ اللهُ على أفواهِهم، وتشهدُ عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

فإنْ قال قائل: وكيف تشهدُ عليهم ألسنتهم حين يختم على أفواهِهم، قيل: عَنَى بذلك أنَّ ألسنةَ بعضِهم تشهدُ على بعضٍ، لا أنَّ ألسنتهم تنطقُ

وقد ختم على الأفواه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ» يوفيهم الله حسابَهُمْ وجزاءهم الحقَّ على أعمالهم. والدينُ في هذا الموضع: الحسابُ والجزاء.

وقوله: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ»، يقولُ: ويعلمون يومئذٍ أنَّ الله هو الحقُّ الذي يبين لهم حقائقَ ما كانَ يَعِدُهُمْ في الدنيا من العذاب، ويزول حينئذٍ الشكُّ فيه عن أهلِ النفاقِ الذين كانوا فيما كان يَعِدُهُمْ في الدنيا يمترون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٦﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثين من الرجال، والخبيثونَ من الرجالِ للخبيثاتِ من القولِ، والطيباتُ من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبيثاتُ من النساء للخبيثينَ من الرجال، والخبيثونَ من الرجالِ للخبيثاتِ من النساء.

وأولى هذه الأقـوال في تأويل الآية، قولُ مَنْ قال: عَنَى بالخبيثـات: الخبيثـات من القـول، وذلـك قبيحُـه وسَيِّئُـه للخبيثين من الـرجال والنساء، والخبيثـونَ من النـاس للخبيثـات من القـولِ، هُمْ بها أوْلى، لأنهم أهلها، والطيبات من القول، وذلك حَسَنُه وجميلُه للطيبينَ من الناس، والطيبون من الناس للطيباتِ من القولِ لأنهم أهلها وأحقُّ بها.

وإنمـا قلنا هذا القولَ أولى بتأويلِ الآية، لأنَّ الآياتِ قبلَ ذلك إنما جاءت بتـوبيخِ الله للقـائلينَ في عائشـة الإفـك، والـرامينَ المحصنـات الغـافلات المؤمنات، وإخبارهم ما خَصَّهُمْ به على إفكهم، فكان ختم الخبرِ عن أولى الفريقين بالإفكِ من الرامي والمرميِّ به، أشبه من الخبرِ عن غيرهم.

وقوله: «أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ»، يقولُ: الطيبون من الناسِ مُبَرَّءُونَ من خبيثاتِ القولِ إنْ قالوها، فإنَّ الله يصفحُ لهم عنها، ويغفرها لهم، وإنْ قيلت فيهم ضَرَّتْ قائلهـا ولم تضـرَّهُمْ، كمـا لو قال الطَّيِّبَ من القولِ الخبيثُ من الناس لم ينفعه الله به، لأنَّ الله لا يَتَقَبَّلُهُ، ولو قيلت له لضرَّتْهُ، لأنه يلحقه عَارُهَا في الدنيا، وذُلُّها في الآخرة.

وقـوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقول لهؤلاءِ الطيبين من الناس: مغفرةٌ من الله لذنوبهم، والخبيثِ من القولِ إنْ كانَ منهم «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»، يقولُ: ولهم أيضاً مع المغفرةِ عطيةٌ من الله كريمة، وذلك الجنة، وما أعدَّ لهم فيها من الكرامةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا

لا تَدْخُلُوا بيوتاً غير بيوتِكم حتى تستأذنوا.

وقال آخرون: معنى ذلك حتى تُؤْنِسُوا أهلَ البيتِ بالتَّنَحْنُحِ والتَّنَخُّمِ وما أشبهه، حتى يعلموا أنكم تُرِيدُونَ الدخولَ عليهم.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الاستئناس: الاستفعالُ من الانس، وهو أنْ يستأذنَ أهلَ البيت في الدخول عليهم، مخبراً بذلك مَنْ فيه، وهل فيه أحدٌ؟ وليؤذنهم أنه داخلٌ عليهم، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانِه إياهم. وقد حُكِيَ عن العربِ سماعاً: اذهب فاستأنس، هل ترى أحداً في الدار؟ بمعنى: أنظر هل ترى فيها أحداً؟.

فتأويل الكلام إذن إذا كان ذلك معناه: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتِكم حتى تُسَلِّمُوا وتستأذنوا، وذلك أن يقول أحدكم: السلامُ عليكم، أَدخلُ؟ وهو من المُقَدَّمِ الذي معناه التأخيرُ إنما هو حتى تسلموا وتستأذنوا.

وقوله: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ» يقول: استئناسكم وتسليمكم على أهلِ البيتِ الـذي تريدون دخـولَهُ، فإنْ دُخُولَكُمُوهُ خيرٌ لكم، لأنكم لا تدرون أنكم إذا دخلتموه بغيرِ إذنٍ، على ماذا تهجمون؟ على ما يسوءكم أو يسرّكم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن لم تَدْخُلوا على ما تَكْرَهُونَ، وأدَّيتم بذلك أيضاً حَقَّ الله عليكم في الاستئذان والسلام.

وقـولـه: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّـرُونَ»، يقـولُ: لتتـذكروا بفعلكم ذلك أوامرَ الله عليكم، واللازم لكم من طاعتِه فتطيعوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ لم تجدوا في البيوت التي تستأذنون فيها أحداً، يأذن لكم بالدخولِ إليها، فلا تَدْخُلُوها لأنها ليستْ لكم، فلا يحلُّ لكم دخولها إلا بإذنِ أربابها، فإنْ أذن لكم أربابُهَا أنْ تدخلوها، فادخلوها. «وَإِنْ قِيلَ لَكُم ارْجِعُوا فارْجِعُوا»، يقولُ: وإنْ قال لكم أهلُ البيوتِ التي تستأذنون فيها: ارجعـوا، فلا تدخُلُوها وارجعوا عنها ولا تدخلوها. «هُوَ أَزْكَى لَكُمْ»، يقولُ: رجوعُكم عنها إذا قيلَ لكم ارجعوا، ولم يُؤْذَن لكم بالدخولِ فيها أطهرُ لكم عند الله.

وقوله: «وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَليمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والله بما تعملون من رجـوعكم بعـد استئـذانكم في بيوت غيركم إذا قيل لكم ارجعوا، وترك رجوعكم عنها وطاعتكم الله فيما أمَرَكُمْ ونهاكم في ذلك وغيرِه من أمرِه ونهيِه، ذُو عِلْمٍ محيطٍ بذلك كله، مُحْصٍ جميعه عليكم، حتى يجازيكم على جميع ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس عليكم أيها الناسُ إثمٌ وحَرَجٌ، أنْ تدخلوا بيوتاً لا ساكنَ بها بغير استئذان.

ثم اختلفوا في ذلك أيِّ البيوتِ عَنَى، فقال بعضهم: عَنَى بها الخاناتِ والبيوتِ المبنيةِ بالطرقِ التي ليس بهـا سكـانٌ معروفون، وإنما بُنيتْ لمارَّةِ الطريقِ والسابلةِ، ليأْوُوا إليها، ويُؤْوُوا إليها أمتعتهم.

وقال آخرون: هي بيوت مكة.

وقال آخرون: هي البيوت الخَرِبَةُ والمتاعُ الذي قال الله فيها لكم قضاء الحاجة، من الخلاءِ والبولِ فيها.

وأولى الأقـوال في ذلـك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله عَمَّ بقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أنْ تَدْخُلوا بُيُوتاً غيرَ مَسْكُونَةٍ، فِيها مَتاعٌ لَكُمْ» كلَّ بيتٍ لا ساكنَ به لنا فيه متاعٌ ندخله بغيرِ إذنٍ، لأنَّ الإذنَ إنما يكونُ ليؤنس المأذون عليه قبلَ الدخولِ، أو ليأذنَ للداخلِ إنْ كان له مالكاً، أو كان فيه ساكناً. فأما إنْ كان لا مالكَ له فيحتاج إلى إذنِه لدخولِه ولا ساكنَ فيه، فيحتاج الداخلُ إلى إيناسه، والتسليم عليه، لئلا يهجمَ على ما لا يحبُّ رؤيتَهُ منه، فلا معنى للاستئذانِ فيه. فإذا كان ذلك، فلا وجه لتخصيصِ بعضٍ ذلك دونَ بعضٍ، فكلُّ بيتٍ لا مالكَ له ولا ساكنَ من بيتٍ مبنيٍّ ببعضِ الطرق للمارَّةِ والسابلة ليأووا إليه، أو بيتٍ خرابٍ قد بادَ أهلُه ولا ساكنَ فيه، حيث كان ذلك، فإنَّ لمن أرادَ دخولَهُ أنْ يدخلَ بغيرِ استئذانٍ لمتاعٍ له يُؤويه إليه، أو للاستمتاعِ به لقضاءِ حَقِّهِ من بولٍ أو غائط أو غير ذلك. وأما بيوت التجار، فإنه ليس لأحدٍ دخولها إلا بإذنِ أربابها وسكانها.

فإن ظنَّ ظانٌّ أنَّ التاجرَ إذا فتح دكانه وقعدَ للناس، فقد أذِنَ لمن أرادَ الدخولَ عليه في دخولِه، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلاف ما ظنَّ، وذلك أنه ليس لأحدٍ دخول ملكِ غيره بغيرِ ضرورةٍ ألجأته إليه، أو بغير سببٍ أباح له دخوله في الدخول، فذلك بَعْدُ راجعٌ إلى ما قلنا من أنه لم يدخله مَنْ دَخَلَهُ إلا بإذنه. وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن من معنى قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غيرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ» في شيء، وذلك أنَّ التي وضع الله عنا الجناحَ في دخولها بغير إذنٍ من البيوتِ، هي ما لم يكن مسكوناً، إذْ حانوت التاجر لا سبيلَ إلى دخولِه إلا بإذنه، وهو مع ذلك مسكون، فتبين أنه مما عَنَى الله من هذه الآية بمعزل.

وقال جماعةٌ من أهلِ التأويل: هذه الآية مستثناةٌ من قوله: «لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غيرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا على أهْلِها».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ للمؤمنينَ باللهِ وبكَ يا محمدُ «يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ»، يقولُ: يَكُفُّوا من نَظَرِهم إلى ما يشتهونَ النظرَ إليه، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه «وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» أن يراها مَنْ لا يحلُّ له رؤيتها، بلبسِ ما يسترها عن أبصارهم، «ذلكَ أَزْكَى لَهُمْ»، يقولُ: فإنَّ غضَّهَا من النظرِ عما لا يحلُّ النظرُ إليه، وحفظ الفرج عن أنْ يظهرَ لأبصارِ الناظرينَ أطهرُ لهم عند الله وأفضل. «إنَّ الله خَبيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، يقولُ: إنَّ الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناسُ فيما أمركم به من غضِّ أبصارِكم عما أمَرَكُمْ بالغَضِّ عنه، وحفظ فروجكم عن إظهارِها لمن نهاكم عن إظهارِهَا له.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وقُلْ»، يا محمدُ «للْمُؤْمِناتِ» من أمتك «يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِن» عما يكرهُ اللهُ النظرَ إليه مما نَهَاكُمْ عن النظرِ إليه «ويَحْفَظْنَ فُرُجَهُنَّ»، يقولُ: ويحفظن فروجهنَّ عن أنْ يراها مَنْ لا يحلُّ له رؤيتها، بلبسِ ما يسترها عن أبصارهم.

وقوله: «ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: ولا يُظْهِرْنَ للناسِ الذين

ليسوا لَهُنَّ بِمَحْرَمٍ زينتهنَّ، وهما زينتان: إحداهما ما خفيَ وذلك كالخلخالِ والسوارينِ والقُرْطَيْنِ والقلائد الأخرى ما ظهرَ منها، وذلك مختلف في المعنيِّ منه بهذه الآية، فكان بعضُهم يقول: زينةَ الثيابِ الظاهرةِ.

وقال آخرون: الظاهرُ من الزينةِ التي أُبيحَ لها أنْ تُبديه: الكحل، والخاتم، والسواران، والوجه.

وقال آخرون: عنى به الوجه والثياب.

وقال آخرون: عُنِي به الكَفَّانِ والوجه.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قالَ: عُنِيَ بذلك: الوجه والكفان، يدخلُ في ذلك إذا كان كذلك: الكحلُ، والخاتمُ، والسوارُ، والخِضَابُ.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك بالتأويلِ لإجماعِ الجميعِ على أنَّ على كلِّ مُصَلٍّ أنْ يسترَ عورته في صلاته، وأنَّ للمرأةِ أنْ تكشفَ وجهها وكَفَّيْها في صلاتها، وأنَّ عليها أنْ تسترَ ما عدا ذلك من بدنها، إلا ما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه أباح لها أنْ تُبديه من ذراعها إلى قَدْرِ النصف[1]. فإذ كان ذلك من جميعهم إجماعاً، كان معلوماً بذلك أنَّ لها أنْ تبدي من بدنها ما لم يكُنْ عورةً كما ذلك للرجالِ، لأنَّ ما لم يكن عورة، فغيرُ حرامٍ إظهارُه. وإذا كان لها إظهار ذلك، كان معلوماً أنه مما استثناهُ الله تعالى ذِكْرُه، بقوله: «إلا ما ظَهَرَ مِنْهَا» لأنَّ كُلَّ ذلك ظاهر منها.

وقوله: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ» يقول تعالى ذِكْرُه: وليلقين خُمُرهنَّ، وهي جمع خمار على جيوبهنَّ، ليسترنَ بذلك شعورهنَّ وأعناقهن وقِرَطَتَهُنّ.

---

(١) أخرجه المؤلف مرسلاً من حديث قتادة، وهو في الدر المنثور: ٤١/٥.

وقوله: «وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ» التي هي غيرُ ظاهـرةٍ، بل الخفية منهـا، وذلـك الخلخـال والقـرط والدملج، وما أُمِرَتْ بتغطيتِه بخمارها من فوقِ الجيب، وما وراء ما أُبيحَ لها كشفُه وإبرازُه في الصلاة وللأجنبيين من الناسِ والذراعين إلى فوق ذلك إلا لبعولتهنَّ.

يقول الله تعالى ذِكْرُه: قُلْ للمؤمناتِ الحرائر لا يُظْهِرْنَ هذه الزينةَ الخَفِيَّةَ التي ليست بالظاهرةِ إلَّا لبعولتهنَّ، وهم أزواجُهنَّ، واحدهم بَعْل، أو لآبائهنَّ، أو لآباءِ بعولتهن، يقولُ: أو لآباء أزواجهن، أو لأبنائهن، أو لأبناء بعولتهن، أو لإخوانهن، أو لبني إخوانهن، ويعني بقوله: «أوْ لإخْوانِهِنَّ» أو لأخواتهن، أو لبني إخوانهن أو بني أخواتهن، أو نسائهن، قيل: عَنَى بذلك نساءَ المسلمين.

وقوله: «أوْ ما مَلَكَتْ أيمانُهُنَّ» اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: أو مماليكهنَّ، فإنه لا بأسَ عليها أنْ تُظْهِرَ لهم من زينتها ما تظهره لهؤلاءِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو ما ملكتْ أيمانُهُنَّ من إماءِ المشركينَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: **أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يتبعونكم لطعامٍ يأكلونهُ عندكم ممن لا أربَ

له في النساءِ من الرجالِ، ولا حاجةَ به إليهنَّ، ولا يريدهنَّ[1].

وقوله: «أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا على عَوْرَاتِ النِّساءِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أو الطفلِ الذين لم يكشفوا عن عوراتِ النساء بجماعهنَّ، فيظهروا عليهن لصغرهنَّ.

وقوله: «وَلا يَضْرِبْنَ بأرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يجعلن في أرجلهنَّ من الحليِّ ما إذا مشين أو حرَّكْنَهُنَّ، عَلِمَ الناسُ الذين مشين بينهم ما يُخْفِينَ من ذلك.

وقوله: «وَتُوبُوا إلى الله جميعاً أَيُّها المُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وارجعوا أيها المؤمنونَ إلى طاعةِ الله فيما أمركم ونهاكم من غضِّ البصر، وحفظِ الفَرْجِ، وتركِ دخولِ بيوتٍ غير بيوتكم، من غير استئذانٍ ولا تسليمٍ، وغير ذلك من أمرِه ونهيِه. «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، يقولُ: لِتُفْلِحُوا وتُدْرِكُوا طَلباتِكُمْ لديه، إذا أنتم أطعتموه فيما أمركم ونهاكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وزَوِّجُوا أيها المؤمنونَ مَنْ لا زوجَ له من أحرارِ رجالِكم ونسائِكم ومن أهلِ الصلاحِ من عبيدكم ومماليككم. والأيامى: جمعُ أَيِّم، وإنما جمع الأيم أيامى لأنها فعيلة في المعنى، فجُمعت كذلك كما جمعت اليتيمة: يتامى.

---

(١) كأن يكون أحمقاً أو أبلهاً أو مخنثاً أو شيخاً فانياً أو نحو ذلك مما لا حاجة به إلى النساء (انظر: زاد المسير في علم التفسير: ٦/٣٣-٣٤).

«إنْ يَكُـونُوا فُقَرَاءَ»، يقولُ: إنْ يكن هؤلاءِ الذين تنكحونهم من أيامى رجالِكم ونسائِكم وعبيدِكم وإمائِكم أهلَ فاقةٍ وفقرٍ، فإنَّ الله يُغْنيهم من فَضْلِه، فلا يَمْنَعَنَّكُمْ فقرُهُمْ من إنكاحِهم.

وقوله: «وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والله واسعُ الفضل، جوادٌ بعـطاياه، فزوِّجُـوا إماءكم، فإنَّ الله واسعٌ يوسع عليهم من فَضْلِه، إنْ كانوا فقراء. عليم: يقول: هو ذُو علمٍ بالفقيرِ منهم والغنيِّ، لا يَخْفَى عليه حالُ خَلْقِه في شيءٍ وتدبيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وليستعففِ الذين لا يجدونَ ما ينكحونَ به النساءَ عن إتيانِ ما حَرَّمَ الله عليهم من الفواحشِ حتى يغنيهمُ الله من سَعَةِ فضلِه، ويوسِّعْ عليهم من رزقه.

وقوله: «وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أيمانُكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والذين يلتمسون المكاتبةَ منكم من مماليكِكُمْ «فكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً»، واختلف أهلُ العلم في وجه مُكاتبةِ الرجلِ عَبْدَهُ الذي قد عَلِمَ فيه خيراً، وهل قولـه: «فَكاتِبُوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً» على وجه الفرضِ أمْ هُوَ على وجهِ النَّدْبِ؟ فقال بعضهم: فرض على الرجل أنْ يكاتبَ عبده الذي قد علم فيه خيراً إذا سأله العبدُ ذلك.

وقال آخرون: ذلك غيرُ واجبٍ على السيد، وإنما قوله: «فَكاتِبُوهُمْ» نَدْبٌ من الله سادةَ العبيد إلى كتابةِ مَنْ عُلِمَ فيه منهم خيرٌ، لا إيجابٌ.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: واجبٌ على سيد العبدِ أنْ يكاتبه إذا علم فيه خيراً، وسأله العبدُ الكتابةَ، وذلك أنَّ ظاهرَ قوله: «فَكاتِبُوهُمْ» ظاهر أمرٍ، وأمرُ الله فَرْضٌ الانتهاءُ إليه ما لم يكن دليلٌ من كتابٍ أو سنة، على أنه نَدْبٌ لما قد بَيَّنا من العلةِ في كتابنا المسمى «البيان عن أصول الأحكام».

وأما الخبر الذي أمر الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ بكتابةِ عبيدهم إذْ عَلِمُوه فيهم، فهو القدرةُ على الاحترافِ والكَسْبِ لأداءِ ما كُوتِبُوا عليه.

وقوله: «وآتُوهُمْ مِنْ مالِ الَّذِي آتاكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطوهم من مالِ الله الذي أعطاكم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المأمور بإعطائِه من مالِ الله الذي أعطاه مَنْ هو؟ وفي المال أيّ الأموالِ هو؟ فقال بعضهم: الذي أمر اللهُ بإعطاءِ المكاتب من مالِ الله: هو مولى العبد المكاتب، ومال الله الذي أمر بإعطائِه منه هو مالُ الكتابة، والقَدْرُ الذي أمر أن يعطيه منه الربع.

وقال آخرون: بل ما شاء من ذلك المولى.

وقـال آخرون: بل ذلك حَضٌّ من اللهِ أهلَ الأموالِ على أنْ يُعطوهم سَهْمَهُم الذي جعله لهم من الصدقاتِ المفروضةِ لهم في أموالهم بقوله: «إنَّمَا الصَّدَقاتُ للْفُقَرَاءِ وَالمَساكِينِ والعامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَة قُلُوبُهمْ وفي الرِّقاب»، قال: فالـرقابُ التي جعل فيها أحد سُهمانِ الصدقة الثمانية هم المُكَاتَبُونَ، قال: وإياهُ عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وآتوهُمْ مِنْ مال الله الَّذِي آتاكُمْ»: أي سهمهم من الصدقة.

وأولى القولين بالصوابِ في ذلك عندي القولُ الثاني، وهو قولُ مَنْ قال: عَنَى به إيتاءَهُمْ سهمَهُمْ من الصدقةِ المفروضة.

وإنمـا قلنا ذلك أوْلى القولين، لأنَّ قوله: «وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُمْ» أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه بإيتاءِ المُكَاتَبينَ من مالِه الذي آتى أهلَ الأموالِ، وأمرُ الله فَرْضٌ على عبادِه الانتهاءُ إليه ما لم يُخْبِرْهُمْ أنَّ مُرَادَهُ الندب، لِمَا قد بيَّنا في غير موضع من كتابنا، فإذْ كان ذلك كذلك ولم يَكُنْ أخبرنا في كتابه، ولا على لسانِ رسولِه ﷺ، أنه نَدْبٌ، فَفَرْضٌ واجبٌ. وإذ كان ذلك كذلك، وكانت الحجةُ قد قامتْ أنْ لا حقَّ لأحدٍ في مالِ أحدٍ غيره من المسلمين، إلا ما أوجبه اللهُ لأهلِ سُهْمان الصدقةِ في أموال الأغنياءِ منهم، وكانت الكتابةُ التي يقتضيها سيدُ المُكَاتَبِ من مُكَاتِبِه مالاً من مالِ سيد المكاتب، فيفادُ أنَّ الحقَّ الذي أوجبَ اللهُ له على المؤمنينَ أنْ يُؤْتُوه من أموالهم، هو ما فرض على الأغنياءِ في أموالهم له من الصدقةِ المفروضةِ، إذْ كان لا حقَّ في أموالهم لأحدٍ سواها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: زَوِّجُوا الصالحينَ من عبادِكم وإمائكم، ولا تُكْرِهُوا إماءَكُمْ على البغاء، وهو الزنا «إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً»، يقولُ: إن أردن تعففاً عن الزنا. «لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَياةِ الدُّنْيا»، يقولُ: لتلتمسوا باكراهِكُمْ إياهُنَّ على الزنا عَرَضَ الحياةِ الـدنيا وذلـك ما تعـرض لهم إليه الحـاجةُ من رياشها وزينتها وأموالها، «وَمَنْ يُكْرِههُنَّ»، يقولُ: ومَنْ يُكْرِهُ فتياته على البغاء، فإنَّ اللهَ من بعدِ إكراهِه إياهُنَّ على ذلك لهم «غَفُورٌ رَحِيمٌ»، ووِزْرُ ما كان من ذلك عليهم دونهن..

وذُكر أن هذه الآيةَ أُنْزلتْ في عبدالله بن أُبيّ ابن سلول حين أكره أَمَتَهُ مسيكة على الزنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أنزلنا إليكم أيها الناسُ دلالاتٍ وعلاماتٍ مبينات: يقولُ: مفصلاتٍ الحقَّ من الباطلِ، وموضحاتٍ ذلك.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة وبعض الكوفيين والبصريين «مُبَيَّناتٍ» بفتح الياء بمعنى: مُفَصَّلاتٍ، وأنَّ الله فَصلَهُنَّ وبَيَّنهنَّ لعباده، فهنَّ مُفَصَّلاتٍ مُبَيَّناتٍ. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةُ الكوفة «مُبَيِّناتٍ» بكسر الياء، بمعنى أنَّ الآياتِ هُنَّ تُبَيِّنُ الحقّ والصوابَ للناسِ، وتهديهم إلى الحقّ.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، وقد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأَةِ، متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ الله إذا فصَّلها وبيَّنها صارت مبينة بنفسها الحقَّ لمن التمسهُ من قِبَلها، وإذا بيَّنت ذلك لمن التمسه من قبلها، فيبين الله ذلك فيها، فبأيِّ القراءتين قرأ القارىءُ، فمصيبٌ في قراءته الصوابَ.

وقوله: «وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» من الأمم، وموعظةً لمن اتقى الله، فخافَ عقابَهُ وخشيَ عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ

نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «اللهُ نُورُ السَّمواتِ والأرْضِ» هادي مَنْ في السمواتِ والأرض، فهم بنوره إلى الحقِّ يهتدون، وبهُداهُ من حيرةِ الضلالةِ يعتصمون.

وهذا مَثَلٌ ضربه اللهُ للقرآنِ في قلبِ أهلِ الإيمانِ به. فقال: مَثَلُ نورِ الله الذي أنارَ به لعبادِه سبيلَ الرشاد، الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصَدَّقُوا بما فيه في قلوبِ المؤمنينَ، مثل مشكاةٍ، وهي عمودُ القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوَّةِ التي تكون في الحيطان التي لا منفذَ لها، وإنما جعل ذلك العمود مشكاةً، لأنه غير نافذٍ، وهو أجوف مفتوحُ الأعلى، فهو كالكوّةِ التي في الحائط التي لا تنفذُ، ثم قال: «فِيها مِصْباحٌ» وهو السِّراجُ، وجعل السراجَ وهو المصباح مَثَلاً لِمَا في قلبِ المؤمنِ من القرآنِ والآياتِ المبينات، ثم قال: «المِصْباحُ في زُجاجَةٍ»، يعني: أن السراج الذي في المشكاة: في القنديل، وهو الزجاجة، وذلك مثل للقرآن، يقولُ: القرآنُ الذي في قلبِ المؤمن الذي أنار الله قَلْبَهُ في صدرِه، ثم مَثَّلَ الصدرَ في خُلوصِه من الكفرِ باللهِ والشكِّ فيه، واستنارتِه بنورِ القرآنِ، واستضاءتِه بآياتِ رَبِّه المبينات، ومواعظِه فيها بالكوكبِ الدُّرِّيِّ فقال: الزجاجة، وذلك صدرُ المؤمنِ الذي فيه قلبُه كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ، وإنما يَصِفُ صدرَهُ بالنقاءِ من كلِّ ريبٍ وشكٍّ في أسبابِ الإيمان بالله وبُعْدِه من دَنَسِ المعاصي، كالكوكبِ الذي يُشبه الدُّرَّ في الصفاء والضياء والحسن.

واختلفوا في قراءة قوله: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ» فقرأ ذلك بعض المكيين والمدنيين وبعض البصريين «تَوَقَّدَ مِنْ شَجَرَةٍ» بالتاء وفتحها وتشديد القاف وفتح الدال، وكأنهم وَجَّهُوا معنى ذلك إلى تَوَقُّدِ المصباحِ من شجرةٍ مباركة. وقرأه بعض عامة قَرَأة المدنيين «يُوقَدُ» بالياء وتخفيف القاف ورفع

الدال، بمعنى: يوقد المصباح موقده من شجرة. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «تُوقَدُ» بضم التاء وتخفيف القاف ورفع الدال، بمعنى: يوقِدُ الزجاجةَ مُوقِدُهَا من شجرةٍ مباركة. وقرأه بعض أهل مكة «تَوَقَّدُ» بفتح التاء وتشديد القاف وضم الـدال، بمعنى تَتَوَقَّدُ الزجاجةُ من شجرة، ثم أسقطت إحدى التاءين اكتفاء بالباقية من الذاهبة.

وهذه القراءات متقاربات المعاني وإن اختلفت الألفاظ بها، وذلك أنَّ الزجاجة إذا وصفت بالتوقد، أو بأنها تَوَقَّدَ، فمعلومٌ معنى ذلك، فإنَّ المرادَ به تَوَقَّدَ فيها المصباحُ، أو يُوقَدُ فيها المصباحُ، ولكن وجَّهُوا الخبرَ إلى أن وصفها بذلك أقرب في الكلام منها، وفهم السامعين معناه. والمراد منه، فإذا كان ذلك كذلك، فبأيِّ القراءاتِ قرأ القارىءُ فمصيبٌ، غير أنَّ أعجبَ القراءاتِ إليَّ أنْ أقرأ بها في ذلك «تَوَقَّدَ» بفتح التاء وتشديد القاف وفتح الدال بمعنى: وصف المصبـاح بالتوقد، لأنَّ التوقُّدَ والاتِّقَادَ لاشكَّ أنهما من صفتِه دونَ الزجاجة، فمعنى الكلام إذن: كمشكاةٍ فيها مصباح، المصباحُ من دهنِ شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ، لا شرقيةٍ ولا غربية.

وإنما قيل لهذه الشجرة: لا شرقيةٍ ولا غربية: أي ليست شرقية وحدها حتى لا تُصيبَها الشمسُ إذا غربت، وإنما لها نَصِيبُهَا من الشمسِ بالغَداةِ ما دامت بالجانبِ الذي يلي الشرق، ثم لا يكون لها نصيب منها إذا مالت إلى جانب الغرب، ولا هي غربية وحدها، فتصيبها الشمسُ بالعَشِيِّ إذا مالت إلى جانب الغرب، ولا تصيبها بالغَداةِ، ولكنها شرقيةٌ غربيةٌ، تطلعُ عليها الشمسُ بالغداة، وتغرب عليها، فيصيبها حرُّ الشمس بالغَداةِ والعشيِّ، قالوا: وإذا كانت كذلك كان أجود لزيتها.

وقوله: «يَكادُ زيْتُها يُضِيءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يكادُ زيتُ هذه الزيتونةِ

يضيءُ من صفائه، وحُسْنِ ضيائه. «وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ»، يقولُ: فكيف إذا مَسَّتْهُ النارُ.

وإنما أُريدَ بقوله: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ» أنَّ هذا القرآنَ من عند الله، وأنه كلامه، فجعل مَثَلَهُ ومثلَ كونه من عندِه، مثلَ المصباحِ الذي يُوقَدُ من الشجرةِ المباركةِ، التي وصفها جَلَّ ثَنَاؤُهُ في هذه الآية. وعَنَى بقوله: «يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ» أنَّ حججَ الله تعالى ذِكْرُه على خَلْقِه تكادُ من بيانها ووضوحها تُضِيءُ لمن فَكَّرَ فيها ونظرَ، أو أعرضَ عنها ولها[1]. «وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ»، يقولُ: ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بإنزاله هذا القرآنَ إليهم مُنَبِّهاً لهم على توحيدِه، فكيفَ إذا نَبَّههم به وذَكَّرهم بآياتِه، فزادهم به حجةً إلى حُجَجِه عليهم قبل ذلك، فذلك بيانٌ من الله، ونورٌ على البيان، والنور الذي كان قد وضعه لهم ونصبه قبل نزوله.

وقوله: «نُورٌ عَلى نُورٍ»، يعني النار على هذا الزيت الذي كاد يُضِيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ النارُ.

وهو عندي كما ذكرتُ مثل القرآن، ويعني بقوله: «نُورٌ عَلى نورٍ» هذا القرآنُ نورٌ من عندِ الله أنزله إلى خَلْقِه يستضيئون به «على نور» على الحججِ والبيانِ الذي قد نَصَبَهُ لهم قبل مجيءِ القرآنِ وإنزاله إياه، مما يدلُّ على حقيقةِ وحدانيتِه، فذلك بيانٌ من الله، ونورٌ على البيانِ، والنور الذي كان وضعه لهم، ونصبه قبل نزوله.

وقوله: «يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يُوَفِّق اللهُ لأتباعِ نوره، وهو هذا القرآن مَنْ يشاء من عباده.

وقوله: «وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلْنّاس»، يقولُ: ويُمَثِّلُ اللهُ الأمثالَ والأشباه

---

(١) من اللهو واللعب مُعْرِضاً عنها.

للناسِ ، كما مثَّل لهم مثل هذا القرآن في قلبِ المؤمن بالمصباح في المشكاةِ وسائر ما في هذه الآيةِ من الأمثال.

«وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: والله يضربُ الأمثالَ، وغيرَها من الأشياءِ كلها، ذُو عِلْمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ» اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ ، مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ.

وقوله: «وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُه»، يقولُ: وأذِنَ لعبادِه أَنْ يذكُروا اسمَهُ فيها.

وقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «يُسَبِّحُ لَهُ» فقرأ ذلك عامة قَرَأَة الأمصارِ «يُسَبِّحُ لَهُ» بضم الياء وكسر الباء، بمعنى: يُصَلِّي له فيها رجالٌ، ويجعل يسبح فعلاً للرجال، وخبراً عنهم، وترفع به الرجال، سوى عاصم وابن عامر فإنهما قرأا ذلك «يُسَبَّحُ لَهُ» بضمِّ الياء وفتح الباء على ما لم يسمَّ فاعلُه، ثم يرفعان الرجال بخبرٍ ثان مُضْمَرٍ كأنهما أرادا: يُسَبَّحُ اللهُ في البيوت التي أَذِنَ اللهُ أن ترفع، فسبَّح له رجالٌ فرفعا الرجال، بفعل مضمر.

والقراءة التي هي أولاهما بالصوابِ، قراءةُ مَنْ كسر الباء، وجعله خبراً

للرجال وفعلاً لهم. وإنما كان الاختيارُ رفع الرجالِ بمضمرٍ من الفعل لو كان الخبر عن البيوتِ، لا يتمُّ إلا بقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيها». فأما والخبر عنها دونَ ذلك تامٌّ فلا وجه لتوجه قوله: يسبح له إلى غيره.

وعَنَى بقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصَالِ» يصلي له في هذه البيوتِ بالغُدُواتِ والعَشِيَّاتِ رجالٌ.

وقوله: «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يشغَلُ هؤلاءِ الرجال الذين يصلون في هذه المساجِدِ التي أذِنَ اللهُ أن ترفع عن ذِكْرِ اللهِ فيها، وإقامِ الصلاةِ تجارةٌ ولا بيع.

وقوله: «وَإقامِ الصَّلاةِ»، يقولُ: ولا يَشْغَلُهم ذلك أيضاً عن إقامِ الصلاةِ بحدودها في أوقاتها.

وقوله: «وَإيتاءِ الزَّكاةِ»، قيل: معناه: وإخلاص الطاعةِ لله.

وقوله: «يخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأبْصَارُ»، يقولُ: يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ من هَوْله بين طمعٍ بالنجاةِ وحَذَرٍ بالهلاكِ، والأبصار: أيّ ناحيةٍ يُؤْخَذُ بهم أذاتَ اليمينِ أمْ ذاتَ الشمالِ، ومن أينَ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ، أمِنْ قِبَلِ الأيمانِ، أم من قِبَلِ الشمائلِ، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أحْسَنَ ما عَمِلُوا»، يقولُ: فعلوا ذلك، يعني أنهم لم تُلْهِهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْرِ اللهِ، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاةَ، وأطاعوا رَبَّهم مخافةَ عذابِهِ يومَ القيامة، كي يُثيبهم اللهُ يومَ القيامةِ بأحسنِ أعمالِهم التي عملوها في الدنيا، ويَزيدَهُمْ على ثوابِهِ إياهم على أحسنِ أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله، فَيُفْضِلُ عليهم من عندِه بما أحبَّ من كرامته لهم. وقوله: «واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بغيرِ حِسَابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يتفضل على مَنْ شاء وأرادَ من طَوْلِه وكرامتِه، مما لم يستحقه بعمله ولم يبلغه بطاعتِه بغيرِ حسابٍ،

يقولُ: بغير محاسبةٍ على ما بذل له وأعطاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه اللهُ لأعمالِ أهلِ الكفرِ به. فقال: والذين جحدوا توحيد ربهم، وكذَّبُوا بهذا القرآن وبمن جاء به مَثَلُ أعمالهم التي عملوها «كَسَرابٍ»، يقول: مثل سرابٍ، والسراب: ما لصقَ بالأرض، وذلك يكون نصف النهار، وحين يشتدُّ الحَرُّ والآلُ ما كان كالماء بين السماءِ والأرضِ، وذلك يكون أوَّلَ النهارِ يرفع كلَّ شيءٍ ضُحىً.

وقوله: «بقِيعَةٍ» وهي جمع قاع، كالجيرة جمع جارٍ، والقاع: ما انبسط من الأرضِ واتَّسَعَ وفيه يكون السرابُ.

وقوله: «يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً»، يقولُ: يظن العطشانُ من الناس السرابَ ماء «حَتَّى إذَا جَاءَهُ» والهاء من ذكر السراب، والمعنى: حتى إذا جاء الظمآنُ السرابُ ملتمساً ماءً يستغيث به من عطشه «لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً»، يقولُ: لم يجد السـرابَ شيئاً، فكذلك الكافرونَ باللهِ من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبـون أنهـا مُنجيتُهم عنـدَ الله من عذابه، كما حَسِبَ الظمآنُ الذي رأى السرابَ فظنه ماءً يُرويه من ظمئِه، حتى إذا هَلَكَ وصارَ إلى الحاجةِ إلى عملِه الذي كان يرى أنه نافِعهُ عند الله، لم يجده، ينفعهُ شيئاً، لأنه كان عمله على كفرٍ بالله ووجد الله هذا الكافر عند هلاكهِ بالمرصادِ، فوفَّاهُ يومَ القيامة حسابَ أعمالِه التي عملها في الدنيا، وجازاهُ بها جزاءه الذي يستحقه عليها منه.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «حتى إذا جاءَهُ لَمْ يجِدْهُ شَيْئاً» فإن لم يكن

السرابُ شيئاً، فَعَلَامَ أدخلت الهاء في قوله: «حَتَّى إذا جاءَهُ»، قيل: إنه شيءٌ يُرى من بعيدٍ كالضباب الذي يُرَى كثيفاً من بعيدٍ، والهباء، فإذا قرب منه المرءُ، رَقَّ وصارَ كالهواءِ. وقد يحتمل أنْ يكون معناه: حتى إذا جاء موضِعَ السرابِ لم يجد السرابَ شيئاً، فاكتفى بذكرِ السرابِ من ذِكْرِ موضِعِه. «واللَّهُ سَرِيعُ الْحِسـابِ»، يقولُ: والله سريعُ حسابُه، لأنه تعالى ذِكْرُه لا يحتاج إلى عقد أصابع، ولا حفظ بقلب، ولكنه عالم بذلك كله قبل أنْ يعملَهُ العبدُ، ومن بَعْدِ ما عمله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

وهذا مَثَلٌ آخرُ ضربه اللهُ لأعمالِ الكفارِ، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَثَلُ أعمالِ هؤلاءِ الكفار في أنها عُملتْ على خطأ وفسادٍ وضلالةٍ وحيرةٍ من عمالها فيها، وعلى غيرِ هُدى، مَثَلُ ظلمات في بحرٍ لُجِّيٍّ. ونسب البحر إلى اللجة وصفاً له بأنه عميقٌ كثيرُ الماء، ولجةُ البحر معظمُه. «يَغْشاهُ مَوْجٌ» يقولُ: يغشى البحرَ موجٌ «مِنْ فَوْقِـهِ مَوْجٌ»، يقـولُ: من فوقِ المـوجِ موجٌ آخرُ يغشاه «مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ»، يقولُ: من فوق الموجِ الثاني الذي يغشى الموجَ الأوّل سحابٌ، فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم، والبحر اللجيّ مثلاً لقلبِ الكافر. يقولُ: عمل بنية قلبٍ قد غَمَرَهُ الجهلُ، وتَغَشَّتْهُ الضلالةُ والحيرة، كما يغشى هذا البحر اللجيَّ موجٌ من فوقه موجٌ، من فوقه سحابٌ، فكذلك قلبُ هذا الكافرِ الذي مثل عمله مثل هذه الظلماتِ، يغشاهُ الجهلُ بالله بأن الله ختم عليه، فلا يعقلُ

عن اللهِ، وعلى سمعه، فلا يسمعُ مواعظَ الله، وجعل على بصره غشاوةً فلا يبصرُ به حججَ الله، فتلك ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ[1].

وقوله: «إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاها»، يقولُ: إذا أخرجَ الناظرُ يَدَهُ في هذه الظلمات لم يَكَدْ يراها.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: لم يَكَدْ يراها مع شِدَّةِ هذه الظلمةِ التي وصف، وقد علمتَ أنَّ قولَ القائلَ: لم أكد أرى فلاناً، إنما هو إثباتٌ منه لنفسه رؤيته بعد جَهْدٍ وشدّة، ومن دونِ الظلماتِ التي وصف في هذه الآية ما لا يرى الناظرُ يده إذا أخرجها فيه، فكيف فيها؟

قيل في ذلك أقوالٌ نذكرها، ثم نخبر بالصوابِ من ذلك.

أحدها: أن يكون معنى الكلام: إذا أخرج يده رائياً لها لم يكد يراها: أي لم يعرف من أين يراها، فيكون من المُقَدَّمِ الذي معناهُ التأخير، ويكون تأويلُ الكلام على ذلك: إذا أخرج يده لم يقرب أنْ يراها.

والثاني: أنْ يكونَ معناه: إذا أخرج يده لم يرها، ويكون قوله: «لَمْ يَكَدْ» في دخوله في الكلام نظير دخول الظنِّ فيما هو يقينٌ من الكلامِ كقوله: «وظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ» ونحو ذلك.

والثالث: أن يكون قد رآها بعد بُطْءٍ وجَهْدٍ، كما يقول القائلُ لآخرَ: ما كدتُ أراكَ من الظلمةِ، وقد رآه، ولكن بعد إياسٍ وشدةٍ، وهذا القولُ الثالثُ أظهرُ معاني الكلمةِ من جهة ما تستعمل العرب أكاد في كلامها، والقولُ الآخر الذي قلنا إنه يتوجه إلى أنه بمعنى لم يَرَهَا قولٌ أوضحُ من جهة التفسير، وهو

---

(١) قال ابن الجوزي: «فكلامه ظُلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة»، (زاد المسير: ٦/٥١)، وهو كلام منسوب إلى أبي ابن كعب رضي الله عنه.

أخفى معانيه. وإنما حَسُنَ ذلك في هذا الموضع، أعني أنْ يقول: لم يكد يراها مع شدة الظلمةِ التي ذكر، لأنَّ ذلك مَثَلٌ لا خبرٌ عن كائنٍ كان. «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً»، يقولُ: من لم يرزقه الله إيماناً وهدى من الضلالةِ، ومعرفةً بكتابه، «فَما لَهُ مِنْ نُورٍ»: يقول فما له من إيمانٍ وهُدى ومعرفة بكتابه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تنظُرْ يا محمدُ، بعينِ قلبكَ، فتعلم أنَّ الله يصلي له من في السموات والأرض من ملكٍ وإنسٍ وجنٍّ «والطَّيْرُ صَافَّاتٍ» في الهواء أيضاً تسبح له «كُلّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ».

ويتوجه قوله: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ» لوجوه: أحدها: أنْ تكونَ الهاءُ التي في قوله «صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ» من ذِكْرِ كُلٍّ، فيكون تأويلُ الكلام: كُلُّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم قد علم اللهُ صلاتَهُ وتسبيحه، ويكون الكلُّ حينئذٍ مرتفعاً بالعائد من ذكره في قوله: «كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيحَهُ» وهو الهاء التي في الصلاة.

والوجه الآخر: أنْ تكونَ الهاءُ في الصلاة والتسبيح أيضاً للكُلِّ، ويكون الكُـلُّ مرتفعـاً بالعائدِ من ذكره عليه في «عَلِمَ»، ويكون «عَلِمَ» فعلاً للكلِّ، فيكـون تأويلُ الكـلام حينئـذٍ: قد علم كل مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم صلاة نفسه وتسبيحه، الذي كُلِّفه وأُلْزمه.

والوجه الآخر: أنْ تكون الهاء في الصلاة والتسبيح من ذِكْرِ الله، والعِلْمُ

للكلِّ، فيكون تأويل الكلام حينئذ: قد علم كلُّ مسبحٍ ومصلٍّ صلاةَ الله التي كَلَّفَـهُ إياها وتسبيحه، وأظهرُ هذه المعانِي الثلاثة على هذا الكلام. المعنى الأوَّل، وهو أن يكون المعنى: كُلُّ مصلٍّ منهم ومسبح، قد عَلِمَ اللهُ صلاتَهُ وتسبيحه.

وقوله: «وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ ذو علم بما يفعـل كلُّ مصـلٍّ ومسبـح منهم، لا يخفى عليه شيءٌ من أفعالهم، طاعتها ومعصيتها، محيطٌ بذلك كله، وهو مُجَازِيهم على ذلك كله.

وقـوله: «وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولله سلطانُ السمواتِ والأرض وملكها دون كلِّ مَنْ هو دونَهُ من سلطانٍ وملكٍ، فاياه فارهبوا أيها الناسُ، وإليه فارغبوا لا إلى غيرِه، فإنَّ بيدِه خزائنَ السمواتِ والأرض، لا يخشى بعطاياكم منها فقراً. «وإلى اللهِ المَصِيرُ»، يقول: وأنتم إليه بعد وفاتكم، مَصِيرُكُمْ ومعادُكُمْ، فَيُوفِّيكم أجورَ أعمالِكم التي عملتموها في الدنيا، فأحسنوا عبادَتَهُ، واجتهدوا في طاعته، وقَدِّمُوا لأنفسكم الصالحات من الأعمال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «أنَّ الله يُزْجِي»، يعني يسوق «سحاباً» حيثُ يريدُ «ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ»، يقولُ: ثم يؤلف بين السحاب.

وقوله: «ثُمَّ يجْعَلُهُ رُكاماً» يقولُ: ثم يجعل السحابَ الذي يُزْجيهِ، ويؤلف بعضَهُ إلى بعضٍ رُكاماً، يعني متراكماً بعضه على بعض.

وقوله: «فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ»، يقولُ: فترى المطرَ يخرجُ من بين السحابِ، وهو الودق.

وقوله: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ»، قيل في ذلك قولان: أحـدهما: أنَّ معناه: أنَّ الله ينزلُ من السماء من جبالٍ في السماء من بَرَدٍ مخلوقة هنالك خلقة، كأنَّ الجبالَ على هذا القول، هي من برد، كما يقال: جبال من طِين. والقول الآخر: أنَّ الله ينزلُ من السماء قَدْرَ جبالٍ، وأمثالَ جبالٍ من برد إلى الأرضِ، كما يقال: عندي بيتان تبناً، والمعنى: قدر بيتين من التبن، والبيتان ليسا من التبن.

وقوله: «فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ»، يقولُ: فيعذِّبُ بذلك الذي ينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد، من يشاء فيهلكه، أو يهلك به زروعه وماله «ويَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ» من خلقه، يعني عن زُروعهم وأموالهم.

وقوله: «يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ»، يقولُ: يكادُ شِدَّةُ ضوء بَرْقِ هذا السحاب يذهبُ بأبصارِ مَنْ لاقى بصره، والسَّنَا مقصورٌ، وهو ضوء البرق.

وقوله: «يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ والنَّهارَ»، يقولُ: يعقب اللهُ بين الليلِ والنهارِ ويصرفهما، إذا أذهبَ هذا جاء هذا، وإذا أذهبَ هذا جاء هذا. «إنَّ في ذلكَ لَعِبْرَةً لِأُولى الأَبْصَارِ»، يقولُ: إنَّ في إنشاءِ الله السحابَ، وإنزاله منه الودقَ، ومن السماء البردَ، وفي تقليبه الليلَ والنهارَ لعبرةً لمن اعتبرَ به، وعِظَةً لمن اتَّعَظَ به، مِمَّنْ له فَهْمٌ وعقل، لأنَّ ذلك يُنبىءُ ويدلُّ على أنَّ له مدبِّراً ومصرِّفاً ومُقَلِّباً لا يشبهه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

قولـه: «خلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ»، يعني: من نطفة، «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِـهِ» كالحياتِ ومـا أشبهها، وقيل إنما قيل «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى بَطْنِهِ» والمشي لا يكونُ على البطنِ، لأنَّ المشيَ إنما يكونُ لما له قوائم على التشبيه وأنه لَمَّا خالط ما له قوائم ما لا قوائمَ له جازَ، كما قال: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى رِجْلَيْنِ» كالطيرِ «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أرْبَعٍ» كالبهائم.

فإن قال قائل: فكيف قيل: فمنهم من يمشي، ومِنْ للناس، وكلُّ هذه الأجناس أو أكثرها لغيرهم؟ قيل: لأنه تفريق ما هو داخلٌ في قوله: «وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّـةٍ» وكان داخلاً في ذلك الناسُ وغيرهم، ثم قال: فمنهم، لاجتماعِ الناسِ والبهائمِ وغيرِهم في ذلك واختلاطهم، فكنى عن جميعِهم كنايتَهُ عن بني آدم، ثم فَسَّرهم بمن، إذ كان قد كنى عنهم كناية بني آدم خاصة. «يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ»، يقولُ: يحدث الله ما يشاء من الخلق. «إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقولُ: إن الله على إحداثِ ذلك وخَلْقِه، وخَلْقِ ما يشاء من الأشياء غيره، ذُو قدرةٍ لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ أراد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد أنزلنا أيها الناسُ علاماتٍ واضحاتٍ دالاتٍ على طريقِ الحقِّ وسبيلِ الرشاد. «وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقولُ: والله يرشد مَنْ يشاء من خَلْقِه بتوفيقه، فيهديه إلى دينِ الإسلامِ ، وهو الصراطُ

المستقيم، والطريقُ القاصدُ الذي لا اعوجاجَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقولُ المنافقونَ: صَدَّقْنَا باللهِ وبالرسولِ، وأطعنا اللهَ وأطعنا الرسولَ «ثُمَّ يَتَوَلَّى فريقٌ مِنْهُمْ»، ثم تُدْبِرُ كُلُّ طائفةٍ منهم من بعدما قالوا هذا القولَ عن رسولِ الله ﷺ، وتدعو إلى المحاكمةِ إلى غيره خَصْمَها. «وَما أُولَئِكَ بالمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وليس قائلو هذه المقالةِ يعني قوله: «آمَنَّا باللهِ وَبالرَّسُولِ وأَطَعْنا» بالمؤمنينَ لتركهم الإحتكامَ إلى رسولِ الله ﷺ وإعراضهم عنه إذا دُعُوا إليه.

وقوله: «وَإِذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ»، يقولُ: وإذا دُعِيَ هؤلاءِ المنافقونَ إلى كتابِ الله وإلى رسولِه «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فيما اختصموا فيه بحكمِ الله «إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ» عن قبولِ الحقِّ، والرضا بحكمِ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَكُنِ الحقُّ لهؤلاءِ الذين يُدْعَوْنَ إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهم فيأبونَ ويُعْرِضُونَ عن الإجابةِ إلى ذلك، قِبَلَ الذين يَدْعُونَهُمْ إلى اللهِ ورسولِه يأتوا إلى رسولِ الله مُذْعنينَ، يقولُ: مذعنين مُنْقَادِينَ لحكمِه، مُقِرِّينَ به طائعينَ غيرَ مكرهين، يقال منه: قد أذعنَ فلانٌ بحقه إذا أقرَّ به طائعاً

غير مستكره، وانقادَ له وسلم.

وقوله: «أفي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفي قلوبِ هؤلاءِ الذين يعرضون إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهم شكٌّ في رسولِ الله ﷺ، أنه لله رسولٌ، فهم يمتنعونَ من الإجابةِ إلى حُكْمِه والرضا به «أمْ يَخافُونَ أنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ» إذا احتكموا إلى حكمِ كتابِ الله وحكمِ رسولِه وقال: «أنْ يَحيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ» والمعنى: أنْ يحيفَ رسولُ الله عليهم، فبدأ بالله تعالى ذِكْرُه تعظيماً لله كما يقال: ما شاء الله ثمَّ شئتَ، بمعنى: ما شئت. ومما يدلُّ على أن معنى ذلك كذلك قوله: «وإذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فأفرد الرسولَ بالحكمِ ولم يقل: ليحكما.

وقوله: «بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، يقولُ: ما خافَ هؤلاءِ الْمُعْرِضُونَ عن حُكْمِ الله وحكم رسوله، إذْ أعرضوا عن الإجابةِ إلى ذلك مما دُعُوا إليه، أنْ يحيفَ عليهم رسولُ الله، فيجورَ في حُكْمِه عليهم، ولكنهم قومٌ أهلُ ظلمٍ لأنفسِهم بخلافهم أمرَ رَبِّهم، ومعصيتهم الله فيما أمرهم من الرضا بحكمِ رسولِ الله ﷺ فيما أَحَبُّوا وكرهوا، والتسليم له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما كان ينبغي أنْ يكونَ قول المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى حكمِ الله وإلى حكمِ رسولِه، «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» وبين خصومهم «أنْ يَقُولُوا سَمِعْنا» ما قيل لنا «وأطَعْنا» مَنْ دَعَانا إلى ذلك. ولم يُعن بكانَ في هذا الموضعِ الخبر عن أمرٍ قد مضى فيقضى، ولكنه تأنيبٌ من الله الذين أنزلت هذه الآية بسببهم، وتأديب منه آخرين غيرهم.

وقوله: «وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهم وبين خصومهم أنْ يقولوا: سمعنا وأطعنا المفلحون، يقولُ: هم المُنْجِحُونَ المُدْرِكُونَ طَلِباتِهم بفِعْلِهم ذلك، المُخَلَّدُونَ في جناتِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ» فيما أمره ونهاه، ويُسَلِّمْ لحكمهما له وعليه، ويَخَفْ عاقبةَ معصيةِ الله ويحذره، ويَتَّقِ عذابَ الله بطاعته إياه في أمره ونهيه «فَأُولَئِكَ»، يقولُ: فالذين يفعلون ذلك «هُمُ الفَائِزُونَ» برضا الله عنهم يومَ القيامة، وأمنهم من عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَلَفَ هؤلاءِ المعرضون عن حكمِ الله وحكمِ رسوله، إذْ دُعُوا إليه، «باللهِ جَهْدَ أيمَانِهِمْ»، يقولُ: أغلظَ أيمانِهم وأشدَّها «لَئِنْ أمَرْتَهُمْ» يا محمدُ، بالخروج إلى جهادِ عدوِّكَ وعدوِّ المؤمنينَ «لَيَخْرُجُنَّ، قُلْ لا تُقْسِمُوا» لا تحلفُوا، فإنَّ هذه «طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» منكم فيها التكذيبُ. «إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلونَ»، يقولُ: إنَّ الله ذُو خبرةٍ بما تعملونَ من طاعتكم اللهَ ورسولَهُ، أو خلافكم أمرهما. أو غير ذلك من أموركم، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ، وهو مُجَازِيكم بكلِّ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المقسمينَ بالله جهدَ أيمانِهم لئن أمرتهم ليخرجنَّ، وغَيْرِهِمْ من أمتكَ «أَطِيعُوا اللهَ» أيها القومُ، فيما أمَرَكُمْ به، ونهاكُمْ عنه «وأَطِيعُوا الرَّسُولَ» فإن طاعته لله طاعة. «فإنْ تَوَلَّوْا»، يقولُ: فإن تُعْـرِضُوا وتُدْبِرُوا عما أمركم به رسولُ الله ﷺ، أو نهاكم عنه، وتأبوا أنْ تُذْعِنُوا لحكمه لكم وعليكم. «فإنَّمَا عَلَيْهِ ما حُمِّلَ»، يقولُ: فإنما عليه فِعلُ ما أُمِـرَ بفعلِه من تبليغِ رسالةِ الله إليكم على ما كَلَّفَهُ من التبليغِ «وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ»، يقولُ: وعليكم أيها الناسُ أن تفعلوا ما ألزمكم، وأوجَبَ عليكم من اتباعِ رسولِه ﷺ، والانتهاءِ إلى طاعتِه فيما أمركم ونهاكم.

وقوله: «وَإنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإنْ تُطيعو أيها الناسُ رسولَ الله فيما يأمركم وينهاكم، تَرْشُدُوا وتُصِيبوا الحقَّ في أموركم «وَما عَلى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المُبينُ»، يقولُ: وغير واجب على مَنْ أرسله الله إلى قومٍ برسالةٍ إلا أنْ يبلغهم رسالتَهُ بلاغاً يبين لهم ذلك البلاغ عما أرادَ الله به، يقولُ: فليس على محمـدٍ أيها الناسُ إلا أداء رسالةِ الله إليكم وعليكم الطاعةُ وإنْ أطعتموه لحظوظِ أنفسِكم تُصِيبونَ، وإنْ عصيتمُوه بأنفسكم فتوبقون[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي

(١) توبقون: أي تُهلكون أنفسكم. والموبقات: الكبائر من المعاصي لأنهن مهلكات.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا» باللهِ ورسولِه «مِنْكُمْ» أيها الناسُ «وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ»، يقولُ: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ»، يقــولُ: ليورثنهم الله أرضَ المشـركينَ من العـربِ والعجمِ، فيجعلهم ملوكَها وساسَتها «كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقولُ: كما فعل من قبلهم ذلـك ببني إسـرائيل، إذ أهلكَ الجبـابرةَ بالشأم، وجعلهم ملوكَها وسكـانهـا. «وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّـذِي ارْتَضَى لَهُمْ»، يقولُ: وليوطِّئَنَّ لهم دِينهم، يعني ملتهم التي ارتضاها لهم، فأمرهم بها. وقيل: وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا، ثم تَلَقَّى ذلك بجوابِ اليمينِ بقوله: «لَيَسْتَخْلِفَنهم» لأنَّ الوعدَ قولٌ يصلحُ فيه «أن»، وجوابُ اليمين كقوله: وعدتُكَ أنْ أكرمكَ، ووعدتك لأُكْرِمَنَّكَ.

وقوله: «وَلَيُبَدِّلنهم من بعدِ خَوْفهم أمناً»، يقولُ: وليغيرنَّ حالَهُمْ عَمَّا هي عليه من الخوفِ إلى الأمنِ، والعربُ تقول: قد بَدَّلَ فلان إذا غيرت حاله، ولم يأت مكان فلان غيره، وكذلك كُلُّ مغيرٍ عن حاله، فهو عندهم مُبَدَّلٌ بالتشديد.

وقـولـه: «يَعْبُدُونَنِي»، يقولُ: يخضعون لي بالطاعةِ، ويتذللون لأمري ونهيي. «لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً»، يقولُ: لا يشركون في عبادتهم إيايَ الأوثانَ والأصنامَ ولا شيئاً غيرها، بل يخلصون لي العبادةَ فَيُفْرِدُونَها إليَّ دونَ كلِّ ما عبد من شيء غيري.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجل شكايةِ بعضِ أصحابهِ إليه في بعضِ الأوقاتِ التي كانوا فيها من العدوِّ في خوفٍ شديدٍ مما هُمْ فيه من الرعبِ والخوفِ، وما يلقونَ بسببِ ذلك من الأذى والمكروه.

ومعنَى الكُفر الذي ذكره اللهُ في قوله: «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلكَ» هو قول مَن قال: إنه كُفرٌ بالنعمةِ لا كفرٌ باللهِ؛ وذلك أنَّ الله وعد الإنعامَ على هذه الأمةِ

بما أخبر في هذه الآية، أنه منعمٌ به عليهم؛ ثم قال عقيبَ ذلك: فَمَنْ كفرَ هذه النعمةَ بعد ذلك «فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأقيمُوا» أيها الناسُ «الصَّلاةَ» بحدودها، فلا تُضَيِّعُوها «وآتُوا الزَّكاةَ» التي فرضَها اللهُ عليكم أهْلَهَا، وأطيعوا رسولَ رَبِّكم فيما أمركم ونهاكم. «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقولُ: كي يرحمكم رَبُّكم، فينجيكم من عذابه.

وقـولـه: «لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجزِينَ في الأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا تحسبنَّ يا محمدُ، الذين كفروا بالله مُعْجِزِيهِ في الأرضِ إذا أراد إهلاكَهُمْ «وَمَأْوَاهُمْ» بعد هلاكِهم «النَّارُ، وَلَبِئْسَ المَصِيرُ» الذي يصيرونَ إليه ذلك المأوى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في المعنيِّ بقـولـه: «لِيَسْتَـأْذِنْكُمُ الَّـذِينَ مَلَكَتْ

أيمَـانُكُمْ»، فقـال بعضهم: عنى بذلـك: الرجال دون النساء، ونُهُوا عن أنْ يَدْخُلُوا عليهم في هذه الأوقاتِ الثلاثة، هؤلاءِ الذين سُمُّوا في هذه الآيةِ إلا بإذنٍ.

وقال آخرون: بل عنى به: الرجال والنساء.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: عنى به الذكور والإناث، لأن الله عَمَّ بقولِهِ «الَّذِينَ مَلَكَتْ أيمانُكُمْ» جميع أملاكِ أيماننا، ولم يخصص منهم ذكراً ولا أنثى، فذلك على جميع من عَمَّهُ ظاهرُ التنزيل.

فتأويلُ الكلام: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، ليستأذنكم في الدخولِ عليكم عبيدُكُمْ وإماؤكم، فلا يدخلوا عليكم إلا بإذنٍ منكم لهم.

«وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ»، يقولُ: والذين لم يحتلموا من أحراركم «ثَلاثَ مَرَّاتٍ»، يعني ثلاث مرات في ثلاثة أوقاتٍ من ساعاتِ ليلكم ونهاركم.

وقوله: «ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأة المدينة والبصرة «ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» برفع الثلاث، بمعنى الخبر عن هذه الأوقاتِ التي ذكرت كأنه عندهم، قيل: هذه الأوقاتُ الثلاثة التي أمرناكم بأنْ لا يدخلَ عليكم فيها مَنْ ذكرنا إلا بإذنٍ، ثلاث عورات لكم، لأنكم تَضَعُونَ فيهـا ثيابَكم، وتَخْلُونَ بأهلِيكم، وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «ثَلاثَ عَوْراتٍ» بنصب الثـلاث على الـردِّ على الثلاثِ الأولى، وكأن معنى الكلام عندهم: ليستأذنكم الذين مَلَكَتْ أيمانُكم، والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم ثلاث عوراتٍ لكم.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، وقد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأةِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقـوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ»، يقول

تعـالى ذِكْـرُه: «ليس عليكم» معشـر أربابِ البيوتِ والمساكن «ولا عليهم»، يعني: ولا على الذين مَلَكَتْ أيمانُكم من الرجالِ والنساء، والذين لم يبلغوا الحُلُمَ من أولادِكم الصغار، حَرَجٌ ولا إثمٌ بعدهنّ، يعني بعد العورات الثلاث، والهاء والنون في قوله: «بَعْدَهُنَّ» عائدتان على الثلاث من قوله: «ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ»، وإنما يعْني بذلك أنه لا حَرَجَ ولا جناحَ على الناسِ أنْ يدخلَ عليهم مماليكُهم البالغون، وصبيانُهم الصغارُ بغيرِ إذنٍ بعد هذه الأوقاتِ الثلاثِ اللاتي ذكرهنَّ في قوله: «مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ، وحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشاءِ».

وقوله: «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ»، يقولُ: هؤلاءِ المماليكُ والصبيانُ الصغارُ هُمْ طَوَّافونَ عليكم أيها الناسُ، ويعني بالطوَّافينَ: أنهم يدخلونَ ويخرجونَ على مواليهم وأقربائهم في منازلهم غدوةً وعشيةً بغيرِ إذنٍ يطوفون عليهم، بعضكم على بعض في غير الأوقاتِ الثلاثِ التي أمرهم أن لا يدخلوا على ساداتهم وأقربائهم فيها إلا بإذن. «كَذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم الآياتِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: كما بينتُ لكم أيها الناسُ أحكامَ الاستئذانِ في هذه الآية، كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم جميعَ أعلامِه وأدِلَّتِه وشرائع دينه. «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقولُ: والله ذُو عِلْمٍ بما يصلحُ عبادَهُ، حكيمٌ في تدبيرِه إياهم، وغير ذلك من أموره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا بلغَ الصغارُ من أولادِكم وأقربائكم، ويعني بقوله: «مِنْكُمْ» من أحراركم «الحُلُمَ» يعني الاحتلامَ واحتلموا. «فَلْيَسْتأْذِنُوا»، يقولُ:

فلا يدخلوا عليكم في وقتٍ من الأوقاتِ إلا بإذنٍ، لا في أوقاتِ العوراتِ الثلاث ولا في غيرها.

وقوله: «كَما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقولُ: كما استأذنَ الكبارُ من ولد الرجلِ وأقربائه الأحرار، وخَصَّ اللهُ تعالى ذِكْرُه في هذه الآية الأطفالَ بالذِّكْر، وتعريف حُكْمِهم عبادَهُ في الاستئذانِ دونَ ذِكْرِ ما ملكَتْ أيمانُنا، وقد تقدَّمَتِ الآيةُ التي قبلها بتعريفهم حُكْمَ الأطفالِ الأحرارِ والمماليكِ، لأنَّ حكم ما ملكتْ أيمانُكم من ذلك، حُكْمٌ واحد، سواء فيه حُكْمُ كبارِهم وصغارِهم في أنَّ الإِذْنَ عليهم في الساعاتِ الثلاثِ التي ذكرها اللهُ في الآية التي قَبْلُ.

«كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ»، يقولُ: هكذا يبينُ اللهُ لكم آياته، أحكامَهُ وشرائعَ دِينهِ، كما بَيَّنَ لكم أمرَ هؤلاءِ الأطفالِ في الاستئذانِ بعد البلوغ . «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»، يقولُ: واللهُ عليم بما يصلحُ خَلْقَهُ وغيرَ ذلك من الأشياء، حكيمٌ في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللَّواتي قد قَعَدْنَ عن الولدِ من الكبر من النساء، فلا يَحِضْنَ ولا يَلِدْنَ، واحدتهنَّ قاعدٌ. «اللاَّتي لا يَرْجُونَ نِكاحاً»، يقولُ: اللاتي قد يَئِسْنَ من البعولةِ، فلا يطمعن في الأزواج. «فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ»، يقولُ: فليس عليهنَّ حَرَجٌ ولا إثمٌ أنْ يضعن ثيابهنَّ، يعني جلابيبهنَّ، وهي القناعُ الذي يكونُ فوقَ الخمارِ، والرداءُ الذي يكون فوقَ الثياب، لا حَرَجَ عليهنَّ أن يضعنَ ذلك عند المحارمِ من الرجالِ، وغيرِ المحارمِ من الغرباءِ، غير متبرجاتٍ بزينة.

وقوله: «غيرَ مُتَبرِّجاتٍ بزينَةٍ»، يقولُ: ليس عليهنَّ جناحٌ في وضع أرديتهنَّ إذا لم يُرِدْنَ بوضعِ ذلك عنهنَّ أنْ يُبْدِينَ ما عليهنَّ من الزينةِ للرجالِ. والتبرُّجُ: هو أنْ تُظْهِرَ المرأةُ من محاسنها ما ينبغي لها أنْ تستره.

وقوله: «وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لَهُنَّ»، يقولُ: وإنْ تَعَفَّفْنَ عن وضعِ جلابيبهنَّ وأرديتهنَّ، فَيَلْبَسْنَهَا خيرٌ لهنَّ من أن يَضَعْنَهَا.

«وَاللهُ سَمِيعٌ» ما تنطقون بألسنتكم «عَلِيمٌ» بما تُضْمِرُهُ صدورُكُمْ، فاتقوه أنْ تَنْطِقُوا بألسنتكم ما قد نَهاكُمْ عن أن تنطقوا بها، أو تُضمروا في صدوركم ما قد كَرِهَهُ لكم، فتستوجِبُوا بذلك منه عقوبةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في هذه الآيةِ في المعنى الذي أُنزلتْ فيه، فقال بعضهم: أنزلت هذه الآيةُ ترخيصاً للمسلمين في الأكل مع العميانِ والعرجانِ والمرضى وأهلِ الزمانة من طعامهم، من أجلِ أنهم كانوا قد امتنعوا من أنْ يأكلوا معهم من طعامهم، خشيةَ أنْ يكونوا قد أتوا بأكْلِهم معهم من طعامِهم

شيئاً مما نَهَاهُمْ اللهُ عنه بقوله: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ، إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ».

وقال آخرون: بل نزلتْ هذه الآيةُ ترخيصاً لأهلِ الزمانة في الأكلِ من بيوتِ مَنْ سَمَّى اللهُ في هذه الآية، لأنَّ قوماً كانوا من أصحابِ رسولِ الله ﷺ إذا لم يكن عندهم في بيوتهم ما يطعمونهم ذهبوا بهم إلى بيوتِ آبائهم وأمهاتهم، أو بعض مَنْ سَمَّى اللهُ في هذه الآية، فكانَ أهلُ الزمانةِ يتخوَّفُونَ من أنْ يُطْعَمُوا ذلك الطعام، لأنه أطعمهم غيرَ مُلْكِه.

وقال آخرون: بل نزلت ترخيصاً لأهلِ الزمانة الذين وصفهم الله في هذه الآية أنْ يأكُلُوا من بيوتِ من خَلَّفهم في بيوته من الغزاة.

وقال آخرون: بل عَنَى بقوله: «لَيْسَ عَلى الأعْمَى حَرَجٌ، وَلا عَلى الأعْرَجِ حَرَجٌ، وَلا عَلى المَرِيضِ حَرَجٌ» في التخلُّفِ عن الجهادِ في سبيل الله، قالوا: وقوله: «وَلا عَلى أنْفُسِكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» كلامٌ منقطعٌ عما قبله.

وقال آخرون: بل نزلتْ هذه الآيةُ ترخيصاً للمسلمين الذين كانوا يتقون مؤاكلةَ أهلِ الزمانة في مؤاكلتهم إذا شاؤوا ذلك.

واختلفوا أيضاً في معنى قوله: «أوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ»، فقال بعضهم: عَنَى بذلك: وكيلَ الرجل وقَيِّمَهُ، أنه لا بأسَ عليه أنْ يأكلَ من ثمرِ ضيعتِه، ونحوِ ذلك.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: منزل الرجل نفسه أنه لا بأسَ عليه أنْ يأكل.

وأشبهُ الأقوال بالصواب قولُ مَنْ قال: إنها نزلت ترخيصاً لأهل الزمانةِ الذين وصفهم الله في هذه الآية أن يأكلوا من بيوتِ من خَلَّفهم في بيوته من

الغـزاة، وذلـك أنَّ أظهـرَ معاني قوله: «لَيْسَ عَلى الأعْمَى حَرَجٌ، وَلا عَلى الأعْرَجِ حَرَجٌ»، أنه لا حرجَ على هؤلاءِ الذين سموا في هذه الآية أنْ يأكلوا من بيوتِ مَنْ ذَكَرَهُ اللهُ فيها على ما أباحَ لهم من الأكلِ منها فإذْ كان ذلك أظهر معانيه، فتوجيه معناه إلى الأغلبِ الأعرفِ من معانيه أوْلى من توجيهه إلى الأنكرِ منها. فإذ كان ذلك كذلك، كان ما خالفَ من التأويلِ قولُ مَنْ قال: معناه: ليس في الأعمى والأعرج حرج أوْلى بالصواب. وكذلك أيضاً الأغلبُ من تأويل قوله: «وَلا عَلى أنْفُسِكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ» أنه بمعنى: ولا عليكم أيها الناسُ، ثم جمع هؤلاءِ والزَّمْنى الذين ذكرهم قَبْلُ في الخطابِ، فقال: أنْ تأكلوا من بيوتِ أنفسِكم، وكذلك تفعلُ العربُ إذا جمعت بين خبرِ الغائبِ والمخـاطَبِ، غَلَّبَتِ المُخَـاطَبَ، فقـالت: أنتَ وأخـوك قمتمـا، وأنتَ وزيدٌ جلستمـا، ولا تقول: أنت وأخوك جلسا، وكذلك قوله: «وَلا عَلى أنْفُسِكُمْ» والخبر عن الأعمى والأعرج والمريض غَلَّبَ المخاطب، فقال: أنْ تأكلوا، ولم يقل: أن يأكلوا.

فإن قال قائل: فهذا الأكلُ من بيوتهم قد علمناه، كان لهم حلالاً، إذْ كانَ ملكاً لهم، أو كانَ أيضاً حلالاً لهم الأكلُ من مالِ غيرهم؟ قيل له: ليس الأمـرُ في ذلـك على ما تَوَهَّمْتَ، ولكنـه أنهم كانوا إذا غابوا في مغازيهم، وتَخَلَّفَ أهلُ الزمانة منهم، دفع الغازي مفتاحَ مسكنه إلى المتخلِّفِ منهم، فأطلقَ له في الأكل مما يخلف في منزله من الطعام، فكان المتخلفون يتخوَّفُونَ الأكلَ من ذلك وربُّه غائبٌ، فأعلمه الله أنه لا حَرَجَ عليه في الأكلِ منه، وأذِنَ لهم في أكله فإذا كان ذلك كذلك تَبَيَّنَ أنْ لا معنى لقولِ مَنْ قال: إنما أنزلت هذه الآية من أجلِ كراهة المستتبع أكلَ طعامِ غير المستتبع، لأن ذلك لو كان كما قالَ مَنْ قال ذلك، لقيل: ليس عليكم حرجٌ أنْ تأكلوا من طعامِ غيرِ مَنْ أضافَكُمْ، أو من طعامِ آباءِ مَنْ دعاكم، ولم يقل: أن تأكلوا من بيوتِكم أو بيوتِ آبائكم، وكذلك لا وجهَ لقولِ مَنْ قال: معنى ذلك: ليس على الأعمى

حَرَجٌ في التخلفِ عن الجهادِ في سبيلِ الله، لأنَّ قوله: «أنْ تأْكُلُوا» خبر ليس، وأن في موضع نصب على أنها خبرٌ لها، فهي متعلقةٌ بليسَ، فمعلومٌ بذلك أنَّ معنى الكلام: ليس على الأعمى حرج أنْ يأكلَ من بيته، لا ما قاله الذين ذكرنا من أنه لا حَرَجَ عليه في التخلفِ عن الجهادِ.

فإذْ كان الأمرُ في ذلك على ما وصفنا، تبين أنَّ معنى الكلام: لا ضيقَ على الأعمى، ولا على الأعرج، ولا على المريض، ولا عليكم أيها الناسُ أنْ تأكلُوا من بيوتِ أنفسكم، أو من بيوتِ آبائكم، أو من بيوتِ أمهاتكم، أو من بيوتِ إخوانكم، أو من بيوتِ أخواتكم، أو من بيوتِ أعمامكم، أو من بيوتِ عماتكم، أو من بيوتِ أخوالكم، أو من بيوتِ خالاتكم، أو من البيوتِ التي ملكتم مَفَاتِحَهَا، أو من بيوتِ صديقكم إذا أَذِنُوا لكم في ذلك عند مَغِيبهم ومَشْهَدِهم. والمفاتحُ: الخزائنُ، واحدها: مفتح، إذا أريد به المصدر، وإذا كان من المفاتيح التي يفتح بها، فهي مِفتح ومفاتح، وهي ههنا على التأويل الذي اخترناهُ جمع مِفتح الذي يفتح به.

وأمـا قولـه: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنـاحٌ أنْ تأْكُلُوا جَمِيعاً أوْ أشْتاتا» فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: كان الغنيُّ من الناسِ يتخوَّفُ أنْ يأكلَ مع الفقير، فَرَخَّصَ لهمِ في الأكل معهم.

وقـال آخـرون: بل عُني بذلـك حيٌّ من أحياء العرب، كانوا لا يأكلُ أحدُهم وحدَهُ، ولا يأكلُ إلا مع غيرِه، فأذِنَ الله لهم أن يأكلَ مَنْ شاء منهم وحدَهُ، ومَنْ شاء منهم مع غيره.

وقال آخرون: بل عُني بذلك قومٌ كانوا لا يأكلون إذا نزلَ بهم ضيفٌ إلا مع ضيفهم، فَرَخَّصَ لهم في أنْ يأكلوا كيف شاءوا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أنْ يقالَ: إنَّ الله وضع الحَرَجَ عن المسلمينَ أنْ يأكلوا جميعاً معاً إذا شاءوا، أو أشتاتاً متفرِّقينَ إذا أرادوا، وجائزٌ

أنْ يكون ذلك نزل بسببِ مَنْ كان يتخوَّفُ من الأغنياء الأكلَ مع الفقيرِ، وجائزٌ أنْ يكونَ نزل بسببِ القومِ الذين ذكر أنهم كانوا لا يَطْعَمُونَ وحداناً، وبسبب غير ذلك، ولا خبرَ بشيءٍ من ذلك يَقْطَعُ العُذْرَ، ولا دلالةَ في ظاهرِ التنزيلِ على حقيقةِ شيءٍ منه، والصوابُ التسليمُ لما دَلَّ عليه ظاهرُ التنزيل، والتوقُّفُ فيما لم يَكُنْ على صحتِه دليلٌ.

وقـولـه: «فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ»، اختلف أهلُ التأويل في ذلك، فقال بعضهم: معناه: فإذا دخلتم أيها الناسُ بيوتَ أنفسِكم، فَسَلِّمُوا على أهليكم وعيالكم.

وقال آخرون: بل معناه: فإذا دخلتم المساجدَ فسلموا على أهلها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا دخلتم بيوتاً من بيوتِ المسلمينَ فيها ناسٌ منكم، فليسلم بعضُكم على بعض.

وإنمـا قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «فإذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً» ولم يخصصْ من ذلك بيتاً دونَ بيتٍ، وقال: «فَسَلِّمُوا عَلى أنْفُسِكُمْ»، يعني: بعضكم على بعض: فكان معلوماً إذ لم يخصص ذلك على بعضِ البيوتِ دونَ بعض، أنه معنيٌّ به جميعها، مساجدها وغير مساجدها. ومعنى قوله: «فَسَلِّمُوا عَلى أنْفُسِكُمْ» نظير قوله: «وَلا تَقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ».

وقوله: «كَذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ الآياتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هكذا يفصلُ اللهُ لكم معالمَ دِينكم، فيبينها لكم، كما فَصَّلَ لكم في هذه الآية ما أحلَّ لكم فيهـا، وعـرَّفَكُمْ سبيلَ الـدخولِ على مَنْ تدخلونَ عليه، «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقولُ: لكي تَفْقَهُوا عن اللهِ أمرَهُ ونَهْيَهُ وأدبه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما المؤمنونَ حقَّ الإيمانِ، إلَّا الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله. «وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ»، يقولُ: وإذا كانوا مع رسولِ اللهِ ﷺ «عَلى أَمْرٍ جامعٍ»، يقولُ: على أمرٍ يجمعُ جميعَهُمْ من حربٍ حضرت، أو صلاةٍ اجتمعَ لها، أو تشاورٍ في أمرٍ نَزَلَ «لَمْ يَذْهَبُوا»، يقولُ: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمرِ، حتى يستأذنوا رسولَ اللهِ ﷺ.

وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين لا ينصرفون يا محمدُ إذا كانوا معكَ في أمرٍ جامعٍ عنك إلا بإذنكَ لهم طاعةً منهم لله ولكَ، وتصديقاً بما أتيتهم به من عندي، أولئك الذين يصدقون الله ورسوله حقاً، لا مَنْ يخالفُ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولِه، فينصرف عنك بغيرِ إذنٍ منك له، بعد تَقَدُّمِكَ إليه أنْ لا ينصرفَ عنك إلا بإذنك.

وقوله: «فإِذَا اسْتَأْذَنوكَ لبَعْضِ شأنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا استأذنَكَ يا محمدُ الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنكَ في هذه المواطن لبعضِ شأنهم، يعني: لبعضِ حاجاتهم التي تعرضُ لهم، فأْذَنْ لمن شئتَ منهم في الإنصرافِ عنكَ لقضائها. «وَاسْتَغْفِرْ لَهُم» يقولُ: وادْعُ الله لهم بأنْ يتفضَّلَ عليهم بالعفوِ عن تبعاتِ ما بينه وبينهم «إنَّ اللهَ غَفُورٌ» لذنوبِ عبادِه التائبين «رَحِيمٌ» بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأصحاب نبيه محمدٍ ﷺ: «لا تَجْعَلُوا» أيها المؤمنونَ «دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً».

واختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: نَهَى الله بهذه الآيةِ المؤمنينَ أنْ يتعرَّضُوا لدعاء الرسولِ عليهم، وقال لهم: اتقوا دعاءه عليكم بأنْ تفعلوا ما يسخطه، فيدعو لذلك عليكم فتهلكوا، فلا تجعلوا دعاءه كدعاء غيرِه من الناسِ، فإنَّ دعاءه موجبة، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل ذلك نهيٌ من الله أنْ يَدْعُوا رسولَ الله ﷺ بغلظٍ وجفاءٍ، وأمرٌ لهم أنْ يدعوه بلينٍ وتواضعٍ، وهو قول مجاهد، وقتادة.

وأوْلى التأويلين في ذلك بالصواب عندي، التأويلُ الذي قاله ابن عباسٍ، وذلك أنَّ الذي قبل قوله: «لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً» نهيٌ من الله المؤمنينَ أن يأتوا من الانصرافِ عنه في الأمرِ الذي يجمعُ جميعَهُمْ ما يكرهه، والذي بعده وعيدٌ للمنصرفينَ بغيرِ إذنِه عنه، فالذي بينهما بأنْ يكون تحذيراً لهم سخطه أنْ يضطرّه إلى الدعاء عليهم، أشبه من أنْ يكونَ أمراً لهم بما لم يجرِ له ذِكْرٌ من تعظيمِه وتوقيره بالقول والدعاء.

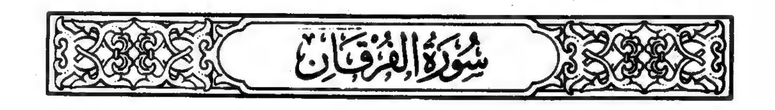
وقوله: «قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنكم أيها المنصرفونَ عن نبيكم بغيرِ إذنه، تستراً وخفيةً منه، وإنْ خفيَ أمرُ مَنْ يفعل ذلك منكم، على رسولِ الله ﷺ، فإنَّ الله يعلمُ ذلك، ولا يَخْفَى عليه، فليتَّقِ مَنْ يفعل ذلك منكم، الذين يخالفون أمرَ الله في الانصرافِ عن رسولِ الله ﷺ إلا بإذنِه، أنْ تُصيبهم فتنةٌ من الله، أو يصيبهم عذابٌ أليم، فيطبع على قلوبهم، فيكفروا بالله،

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ لله مُلكُ جميعِ السمواتِ والأرضِ: يقولُ: فلا ينبغي لمملوكٍ أنْ يخالفَ أمرَ مالِكه فيعصيه، فيستوجبُ بذلك عقوبته، يقولُ: فكذلك أنتم أيها الناسُ لا يصلحُ لكم خلافُ رَبِّكم الذي هو مَالِكُكُمْ فأطيعوهُ، وَأْتَمِرُوا لأمرِه، ولا تنصرفوا عن رسوله إذا كنتم معه على أمرٍ جامعٍ إلا بإذنه.

وقوله: «قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ» من طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم من ذلك.

«وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ»، يقولُ: ويوم يرجعُ إلى اللهِ الذين يخالفونَ عن أمرِه. «فَيُنَبِّئُهُمْ»، يقولُ: فيخبرهم حينئذٍ «بِمَا عَمِلُوا» في الدنيا، ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها من خلافِهم على رَبِّهم «وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: واللهُ ذُو عِلْمٍ بكلِّ شيء عملتُموه أنتم وغيركم وغير ذلك من الأمورِ، لا يَخْفَى عليه شَيْءٌ، بل هو محيطٌ بذلك كُلِّه، وهو موفٍّ كلَّ عاملٍ منكم أجرَ عَمَلِه يومَ تُرْجَعُونَ إليه.



سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدست أسماؤه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾

تبارَكَ: تفاعلَ من البركة، فقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ»، يقولُ: تبارك الذي نَزَّلَ الفصلَ بين الحقِّ والباطلِ فصلاً بعد فصلٍ وسورةً بعدَ سورةٍ، على عبده محمدٍ ﷺ، ليكونَ محمدٌ لجميعِ الجنِّ والإنسِ، الذين بعثه الله إليهم داعياً إليه، «نذيراً»، يعني: منذراً ينذرهم عقابه، ويُخَوِّفهم عذابه، إنْ لم يُوَحِّدُوه ولم يُخْلِصُوا له العبادةَ، ويخلعوا كلَّ ما دونه من الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تباركَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يعني: الذي له سلطانُ السمواتِ والأرضِ يُنْفِذُ في جميعها أمرَهُ وقضاءه، ويُمْضِي في كُلِّها أحكامَهُ، يقولُ: فحقٌّ على مَنْ كان كذلك أن يطيعه أهلُ مملكته، ومَنْ في سلطانه، ولا يعصوه، يقولُ: فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناسُ واتبعوه، واعملوا بما جاءكم به من الحقِّ. «ولَم يَتَّخِذْ وَلَداً»، يقولُ:

تكذيباً لمن أضافَ إليه الولد، وقال: الملائكة بنات الله، ما اتَّخَذَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ولداً، فمن أضافَ إليه ولداً فقد كذب وافترى على ربه.
«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ»، يقولُ تكذيباً لمن كان يضيفُ الأُلوهةَ إلى الأصنام ويعبدها من دونِ الله من مشركي العرب، ويقول في تلبيته: لَبَّيْكَ لا شريكَ لك، إلا شريكاً هو لكَ تملكُه وما مَلَكَ، كَذَبَ قائلو هذا القولِ، ما كان لله من شريكٍ في مُلكه وسلطانه، فيصلح أنْ يعبد من دونه.

يقول تعالى ذِكْرُه: فأفردوا أيها الناسُ لربكم الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبدِه محمدٍ نبيه ﷺ الألوهةَ، وأخلصوا له العبادةَ دون كلِّ ما تعبدون من دونِه من الآلهةِ والأصنامِ والملائكة والجنِّ والإنس، فإنَّ كُلَّ ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلحُ العبادةُ إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك.

وقـوله: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخلق الذي نَزَّلَ على محمـدٍ الفرقانَ كل شيء، فالأشياء كلها خَلْقُه وملكه، على المماليكِ طاعةُ مالكهم، وخدمةُ سَيِّدهم دونَ غيره، يقولُ: وأنا خالقكم ومالككم، فأخلصوا لي العبادةَ دونَ غيري.

وقوله: «فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً»، يقولُ: فَسَوَّى كُلَّ ما خلق، وهَيَّأَهُ لما يصلح له، فلا خَلَلَ فيه ولا تفاوت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مُقَرِّعاً مشركي العرب بعبادتهم ما دونَهُ من الآلهةِ، ومُعَجِّباً أُولي النُّهى منهم، ومُنَبِّهَهم على موضعِ خطأ فِعْلِهم، وذهابهم عن

منهج الحقِّ، وركوبهم من سبلِ الضلالةِ ما لا يركبهُ إلا كُلُّ مدخولِ الرأي، مسلوبِ العقلِ، واتخذ هؤلاءِ المشركونَ بالله من دون الذي له مُلك السمواتِ والأرض وحده، من غير شريك، الذي خلق كل شيءٍ فَقَدَّرَهُ، آلهة: يعني أصناماً بأيديهم يعبدونها، لا تخلقُ شيئاً وهي تخلق، ولا تملكُ لأنفسها نفعاً تَجُرُّهُ إليها، ولا ضرّاً تدفعه عنها ممن أرادها بضرٍّ، ولا تملكُ إماتةَ حيٍّ، ولا إحياءَ ميتٍ، ولا نشرَهُ من بعد مماتِه، وتركوا عبادةَ خالق كلِّ شيءٍ، وخالق آلهتهم، ومالك الضرِّ والنفعِ، والذي بيده الموتُ والحياةُ والنشور. والنشور: مصدر نُشر الميت نشوراً، وهو أن يبعث ويحيا بعد الموتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ الكافرون بالله، الذين اتَّخَذُوا من دونِه آلهةً: ما هذا القرآنُ الذي جاءنا به محمدٌ «إلَّا إفْكٌ»، يعني: إلا كذبٌ وبهتان «افْتَرَاهُ» اختلقه وتَخَرَّصَهُ بقوله: «وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ» ذكر أنهم كانوا يقولون: إنما يعلِّمُ محمداً هذا الذي يجيئنا به اليهودُ، فذلك قوله: «وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»، يقولُ: وأعان محمداً على هذا الإفكِ الذي افتراه يهود.

وقوله: «فَقَدْ جاؤوا ظُلْماً وَزُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقد أتى قائلو هذه المقالة، يعني الذين قالوا: «إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ» ظلماً، يعني بالظلم نِسبتهم كلامَ الله وتنزيله إلى أنه إفكٌ افتراهُ محمدٌ ﷺ. وقد بيَّنا فيما مضى أنَّ معنى الظلم: وضع الشيء في غيرِ موضعِه، فكأنَّ ظلمَ قائلي هذه المقالةِ القرآنَ بِقيلهم هذا وَصْفهم إياهُ بغير صِفَته. والزور: أصله تحسينُ الباطل. فتأويلُ الكلام: فقد أتى هؤلاءِ القوم في قِيلهم «إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْتَرَاهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ» كذباً محضاً.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾

ذكر أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، وأنه المعنيُّ بقوله: «وَقالُوا أساطيرُ الأوَّلينَ».

وتأويل الكلام: وقال هؤلاءِ المشركونَ بالله، الذين قالوا لهذا القرآنِ: إنْ هذا إلا إفكٌ افتراهُ محمدٌ ﷺ، هذا الذي جاءنا به محمدٌ، أساطيرُ الأولينَ، يَعْنُونَ أحاديثَهم التي كانوا يُسَطِّرُونَهَا في كتبهم، اكتتبها محمدٌ ﷺ من يهود، «فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ» يعنون بقوله: «فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ»، فهذه الأساطيرُ تُقْرَأُ عليه من قولهم: أمليتُ عليكَ الكتابَ. وأمللت «بُكْرَةً وَأَصِيلاً»، يقولُ: وتملى عليه غدوةً وعشياً.

وقوله: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ الله من مشركي قومك: ما الأمرُ كما تقولون من أنَّ هذا القرآنَ أساطيرُ الأوّلين، وأنَّ محمداً ﷺ افتراهُ وأعانه عليه قومٌ آخرون، بل هو الحقُّ أنزله الربُّ الذي يعلمُ سِرَّ من في السموات ومن في الأرض، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ، ومُحْصي ذلك على خَلْقِه، ومُجازِيهم بما عزمتْ عليه قلوبُهم، وأضمروه في نفوسهم. «إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً»، يقولُ: إنه لم يزلْ يصفح عن خلقِه ويرحمهم، فيتفضَّلْ عليهم بعفوه، يقولُ: فلأن ذلك من عادتِه في خَلْقِه، يُمْهِلُكُمْ أيها القائلونَ ما قلتم من الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلتم من الكفر.

القَوْلُ فِي تأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ

﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾

ذُكر أنَّ هاتين الآيتين نزلتا على رسولِ الله ﷺ فيما كان مشركو قومِه قالوا له ليلةَ اجتماعِ أشرافهم، بظهر الكعبة، وعرضوا عليه أشياء، وسألوهُ الآيات.

فتأويل الكلام: وقال المشركون: ما لهذا الرسول: يعنون محمداً ﷺ، الذي يزعمُ أنَّ الله بعثه إلينا يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في أسواقنا كما نمشي، لولا أُنزلَ إليه: يقول: هَلَّا أُنزلَ إليه ملَكٌ إنْ كان صادقاً من السماء، فيكون معه منذراً للناس، مصدِّقاً له على ما يقول، أو يُلْقَى إليه كنزٌ من فضة أو ذهب، فلا يحتاج معه إلى التصرُّفِ في طلب المعاش. «أَوْ تَكونُ لهُ جَنَّةٌ»: يقولُ: أو يكون له بستانٌ «يَأْكُل مِنْهَا».

وقوله: «وَقال الظَّالِمُونَ»، يقولُ: وقال المشركونَ للمؤمنين بالله ورسوله «إنَّ تَتَّبِعُونَ» أيها القوم باتباعكم محمداً إلا رجلاً به سحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظرْ يا محمدُ، إلى هؤلاءِ المشركينَ الذين شَبَّهُوا لك الأشباهَ بقولهم لك: هو مسحورٌ، «فَضَلُّوا» بذلك عن قصدِ السبيل، وأخطؤوا طريقَ الهدى والرشاد، «فلا يستطيعون»، يقول: فلا يجدون «سبيلا» إلى الحقِّ، إلا فيما بعثتك به، ومن الوجهِ الذي ضلوا عنه.

وقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي إنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهَارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تَقَدَّسَ الذي إنْ شاء جعلَ لك خيراً من ذلك.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بذلك التي في قوله: «جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلكَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: خيراً مما قال هؤلاءِ المشركونَ لك يا محمدُ، هَلاَّ أُوتيته وأنتَ لله رسولٌ، ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه عن ذلك الذي لو شاء جعل له من خيرٍ مما قالوا، فقال: «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: عنى بذلك المشي في الأسواق. والتماس المعاش، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: بل عنى بذلك بيوت التجار التي فيها أمتعةُ الناس.

والقولُ الذي ذكرناه عن مجاهد في ذلك، أشبهُ بتأويلِ الآية، لأنَّ المشركينَ إنما استعظموا أنْ لا تكونَ له جنةٌ يأكل منها، وأنْ لا يُلْقَى إليه كنزٌ، واستنكروا أنْ يمشي في الأسواق، وهو للهِ رسولٌ، فالذي هو أولى بوعدِ الله إياه أن يكون وعداً بما هو خيرمما كان عند المشركينَ عظيماً، لا مما كان منكراً عندهم.

وعنى بقوله: «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»: بساتين تجري في أصول أشجارها الأنهار.

وقوله: «وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً»، يعني بالقصور: البيوت المبنية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما كَذَّبَ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ، وأنكروا ما جِئْتَهُمْ به يا محمدُ من الحقِّ من أجلِ أنكَ تأكلُ الطعام، وتمشي في الأسواق، ولكن من أجلِ أنهم لا يُوقِنُونَ بالمَعَادِ، ولا يصدقون بالثوابِ والعقابِ تكذيباً منهم بالقيامة، وبعث الله الأموات أحياء لحشرِ القيامة. «وأعتدنا»، يقولُ: وأعددنا لمن كَذَّبَ ببعثِ اللهِ الأمواتَ أحياءً بعد فنائهم لقيامِ الساعة، ناراً تُسَعَّرُ عليهم، وتَتَّقِدُ إذا رأتهم من مكانٍ بعيد، يقولُ: إذا رأتْ هذه النارُ التي أعتدناها لهؤلاءِ المكذبينَ أشخاصَهُمْ من مكانٍ بعيد، تَغَيَّظَتْ عليهم، وذلك أنْ تغلي وتفور، يقال: فلان تَغَيَّظَ على فلانٍ، وذلك إذا غضبَ عليه، فغلى صدره من الغضب عليه، وتبين في كلامه، وزفيراً، وهو صوتها.

فإن قال قائل: وكيف قيل: «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً»، والتغيظ: لا يسمع، قيل: معنى ذلك: سمعوا لها صوتَ التغيظ من التلهُّبِ والتوقُّد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أُلقيَ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بالساعة من النار مكاناً ضيقاً، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال «دَعَوْا هُنالكَ ثُبُوراً»، والثبور في هذا الموضعِ دعاء هؤلاءِ القوم بالندمِ على انصرافِهم، عن طاعةِ الله في الدنيا، والإيمان بما جاءهم به نبيُّ الله ﷺ، حتى استوجبوا العقوبةَ منه، كما يقول القائل: واندامتاه، واحسرتاه على ما فَرَّطت في جَنْبِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المكذِّبينَ بالساعة: أهذه النارُ التي وصفَ لكم رَبُّكم صِفَتَها وصِفَةَ أهلِها خيرٌ؟ أم بستانُ الخلد الذي يدومُ نعيمُه ولا يبيدُ، الذي وَعَدَ مَنِ اتقاه في الدنيا بطاعته فيما أمره ونهاه؟

وقوله: «كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً»، يقولُ: كانت جنةُ الخلد للمتقينَ جزاءَ أعمالِهم للهِ في الدنيا بطاعته، وثواب تقواهم إياه، ومصيراً لهم، يقولُ: ومصيراً للمتقين يصيرونَ إليها في الآخرةِ.

وقوله: «لَهُمْ فيها ما يَشاءُونَ»، يقولُ: لهؤلاءِ المتقين في جنة الخُلْدِ التي وَعدهُمُوها اللهُ ما يشاؤونَ مما تشتهيه الأنفسُ، وتَلَذُّ الأعينُ «خالِدِينَ فيها»، يقولُ: لابثينَ فيها ماكثينَ أبداً، لا يزولون عنها، ولا يزول عنهم نَعِيمُهَا.

وقوله: «كَانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً» وذلك أنَّ المؤمنينَ سألوا رَبَّهم ذلك في الدنيا حين قالوا: «آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ»، يقول الله تبارك وتعالى: وكان إعطاءُ اللهِ المؤمنينَ جنةَ الخلدِ التي وصف صفتها في الآخرة وعداً وعدهم اللهُ على طاعتهم إياه في الدنيا، ومسألتهم إياهُ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ نحشرُ هؤلاءِ المكذِّبينَ بالساعةِ، العابدينَ الأوثان، وما يعبدونَ من دونِ الله من الملائكةِ والإنس والجنّ.

وقوله: «فَيَقُولُ أأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هَؤلاءِ»، يقولُ: فيقولُ اللهُ للذين كان هؤلاءِ المشركونَ يعبدونهم من دونِ الله: أنتم أضللتم عبادي هؤلاءِ: يقولُ: أنتم أزلتموهم عن طريق الهدى، ودعوتُموهُمْ إلى الغيِّ والضلالة، حتى تَاهُوا وهَلَكُوا، أم هُمْ ضَلُّوا السبيلَ، يقولُ: أم عبادي هم الذين ضلوا سبيلَ الرشدِ

والحقِّ، وسلكوا العطب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الملائكةُ الذين كان هؤلاءِ المشركونَ يعبدونهم من دونِ الله وعيسى تنزيهاً لكَ يا رَبَّنَا، وتبرئةً مما أضافَ إليكَ هؤلاءِ المشركونَ، ما كان ينبغي لنا أنْ نتخذَ من دونكَ من أولياء نواليهم، أنتَ وَلِيُّنا من دونِهم ولكنْ مَتَّعتهم بالمالِ يا رَبَّنَا في الدنيا والصحة، حتى نَسُوا الذِّكْرَ، وكانوا قوماً هَلْكى، قد غلبَ عليهم الشقاءُ والخذلان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عما هو قائلٌ للمشركين عند تبرِّي مَنْ كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله منهم، قد كذَّبوكم أيها الكافرون، مَنْ زعمتم أنهم أضلُّوكم، ودعوكم إلى عبادَتِهم بما تقولون، يعني بقولكم، يقولُ: كذَّبوكم بكذبكم.

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً»، يقولُ: فما يستطيعُ هؤلاءِ الكفار صَرْفَ عذابِ الله حين نزلَ بهم عن أنفسهم، ولا نصرها من اللهِ حين عَذَّبَها وعاقبها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: «وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ» أيها المؤمنونَ، يعني بقوله: «وَمَنْ يَظْلِمْ» ومَنْ يُشْرِكْ بالله فيظلمْ نفسَهُ، فذلك نُذِقْهُ عذاباً كبيراً كالذي ذكرنا أنَّا نُذيقُه الذين كذَّبُوا بالساعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

وهذا احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه على مشركي قومه الذين قالوا: «ما لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ ويَمْشِي في الأَسْوَاقِ» وجوابٌ لهم عنه. يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وما أنكرَ يا محمدُ هؤلاءِ القائلون: ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعام، ويمشي في الأسواق، من أكلك الطعام، ومشيك في الأسواق، وأنتَ للهِ رسولٌ، فقد عَلِمُوا أنَّا ما أرسلنا قبلَكَ من المرسلينَ إلَّا إنهم ليأكلونَ الطعامَ ويمشونَ في الأسواقِ، كالذي تأكلُ أنتَ وتمشي، فليس لهم عليكَ بما قالوا من ذلك حجةٌ.

فإن قال قائل: فإن «مَن» ليست في التلاوة، فكيف قلت: معنى الكلام: إلا مَن إنهم ليأكلون الطعام؟ قيل: قلنا في ذلك: معناه: أنَّ الهاء والميم في قوله: إنهم، كناية أسماء لم تُذكر، ولابدَّ لها من أنْ تعودَ على من كُني عنه بها، وإنما ترك ذكر «من» وإظهاره في الكلام، اكتفاء بدلالة قوله: «مِن المُرْسَلِينَ» عليه، كما اكتفى في قوله: «وَما مِنَّا إلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ» من إظهار «من»، ولاشكَّ أن معنى ذلك: وما منا إلا مَنْ له مقامٌ معلوم، كما قيل: «وإنْ مِنْكُمْ إلَّا وَارِدُها» ومعناه: وإن منكم إلا مَنْ هو وارِدُها، فقوله: «إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» صلة لمن المتروك، كما يقال في الكلام: ما أرسلتُ إليك من الناسِ إلا من إنه ليبلِّغكَ الرسالةَ، فإنه ليبلغك الرسالة صِلةٌ لمن.

وقوله: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وامْتَحَنَّا أيها النـاسُ بعضَكم ببعضٍ، جعلنـا هذا نبياً وخصصنـاه بالـرسـالةِ، وهذا مَلِكاً وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيراً وحرمناه الدنيا لنختبرَالفقيرَ بصبرِه على ما حرم مما أُعطيه الغنيُّ، والمَلِكَ بصبره على ما أُعطيه الرسولُ من الكرامة، وكيف رضيَ كُلُّ إنسانٍ منهم بما أُعطيَ، وقسم له، وطاعته ربه مع ما حُرِمَ مما أُعطي غيره، يقـولُ: فمن أجلِ ذلك لم أُعطِ محمداً الدنيا، وجعلته يطلبُ المعاشَ في الأسواقِ، ولأبتليكم أيها الناسُ، وأختبر طاعتَكُمْ رَبَّكُمْ وإجابتكم رسولَهُ إلى ما دعاكُمْ إليه، بغيرِ عَرَضٍ من الدنيا ترجونه من محمدٍ أنْ يعطيكم على اتباعكم إياه، لأني لو أعطيته الدنيا لسارعَ كثيرٌ منكم إلى اتباعه طمعاً في دنياه أن يَنال منها.

وقوله: «وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً»، يقولُ: وربك يا محمدُ بصيرٌ بمن يجزعُ ومَنْ يصبر على ما امْتُحِنَ به من المحن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾



يقول تعالى ذِكْرُه: وقال المشركونَ الذين لا يخافونَ لِقاءنا، ولا يَخْشَوْنَ عِقابنا، هَلَّا أنزل الله علينا ملائكةً، فتخبرنا أنَّ محمداً مُحِقٌّ فيما يقول، وأنَّ ما جاءنا به صدقٌ، أو نرى رَبَّنَا فيخبرنا بذلك، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ مُخبراً عنهم: «وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً»، ثم قال بعد: «أَوْ تَأْتِيَ باللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً»، يقول الله: لقد استكبرَ قائِلُو هذه المقالة في أنفسهم، وتعظموا، «وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً»، يقولُ: وتجاوزوا في الاستكبار بقِيلِهم ذلك حَدَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يوم يرى هؤلاءِ الذين قالوا: «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنا المَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا» بتصديقِ محمدٍ الملائكة، فلا بُشْرَى لهم يومئذٍ بخير. «يقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً»، يعني أن الملائكة يقولون للمجرمين حِجراً محجوراً، حراماً محرَّماً عليكمُ اليومَ البُشْرى أن تكونَ لكم من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقَدِمْنَا» وعمدنا إلى ما عَمِلَ هؤلاءِ المجرمون «مِنْ عَمَلٍ».

وقوله: «فَجَعَلْنَاهُ هَباءً مَنْثُوراً»، يقولُ: فجعلناه باطلاً، لأنهم لم يعملوه لله وإنما عملوه للشيطانِ. والهباء: هو الذي يُرَى كهيئةِ الغبارِ إذا دخلَ ضوءُ الشمسِ من كُوَّةٍ يحسبُه الناظرُ غباراً ليس بشيءٍ تقبضُ عليه الأيدي ولا تَمَسُّهُ، ولا يرى ذلك في الظلِّ.

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وأَحْسَن مَقِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: أهلُ الجنةِ يومَ القيامة خيرٌ مستقراً، وهو الموضعُ الذي يستقرّون فيه من منازلهم في الجنة من مستقرِّ هؤلاءِ المشركينَ الذين يفتخرون بأموالهم، وما أُوتُوا من عَرَضِ هذه الدنيا في الدنيا، وأحسن منهم فيها مَقِيلاً.

فإن قال قائل: وهل في الجنة قائلة؟ فيقال: «وَأَحْسَنُ مَقِيلاً» فيها؟ قيل: معنى ذلك: وأحسن فيها قراراً في أوقات قائلتهم في الدنيا وذلك أنه ذكر أنَّ

أهلَ الجنة لا يمرُّ فيهم في الآخرة إلا قَدْر ميقاتِ النهار من أوَّله إلى وقتِ القائلة، حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، فذلك معنى قوله: «وأحْسَنُ مَقِيلاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾



تأويلُ الكلام: ويومْ تُشقق السماءُ عن الغمامِ، وقيل: إنَّ ذلك غمامٌ أبيض مثل الغمام الذي ظَلَّلَ على بني إسرائيل، وجعلت الباء، في قوله: «بالغَمامِ» مكان «عن» كما تقول: رميت عن القوس وبالقوس، وعلى القوس بمعنى واحد.

وقوله: «وَنُـزِّلَ المَـلائكَةُ تَنْزِيلاً»، يقولُ: ونُزِّلَ الملائكةُ إلى الأرض تنـزيلاً. «المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرَّحْمَنِ»، يقولُ: الملكُ الحقُّ يومئذٍ خالصٌ للرحمنِ دونَ كلِّ مَنْ سواه، وبطلت الممالكُ يومئذٍ سوى ملكه. وقد كان في الدنيا ملوكٌ، فبطل الملكُ يومئذٍ سوى مُلْك الجبارِ «وكانَ يَوْماً عَلى الكافِرينَ عَسِيراً»، يقـول: وكان يومُ تَشَقُّقِ السماءِ بالغمامِ يوماً على أهلِ الكفرِ بالله عسيراً، يعني صعباً شديداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم يَعَضُّ الظالمُ نفسَهُ المشركُ بربِّه على يديه ندماً وأسفاً على ما فَرَّطَ في جنب الله، وأوبقَ نفسَهُ بالكفرِ به في طاعةِ خليله الذي صَدَّهُ عن سبيلِ ربه، يقولُ: يا ليتني اتخذتُ في الدنيا مع الرسولِ سبيلاً، يعني طريقاً إلى النجاةِ من عذابِ الله.

وقوله: «يا وَيْلَتا لَيْتَنِي لم أتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً».

وقوله: «لَقَدْ أضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إذْ جاءَنِي»، يقول جَلَّ ثناؤه مخبراً عن هذا النادمِ على ما سَلَفَ منه في الدنيا، من معصيةِ رَبِّه في طاعة خليله، لقد أضلني عن الإيمانِ بالقرآن، وهو الذكر، بعد إذ جاءني من عند الله، فصدَّني عنه، يقول الله: «وكَانَ الشَّيْطانُ للإنْسانِ خَذُولاً»، يقولُ: مسلماً لما يَنزلُ به من البلاء غير مُنْقِذِهِ ولا مُنَجِّيهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الرسولُ يوم يعضُّ الظالمُ على يديه: يا ربِّ إنَّ قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدكَ اتَّخَذُوا هذا القرآنَ مهجوراً.

واختلف أهلُ التأويل في معنى اتخاذهم القرآنَ مهجوراً، فقال بعضهم: كان اتخاذهم ذلك هُجراً، قولهم فيه السيىء من القولِ، وزَعْمَهُمْ أنه سحرٌ، وأنه شِعرٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبرُ عن المشركينَ أنهم هجروا القرآنَ وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له.

وهذا القولُ أوْلى بتأويل ذلك، وذلك أنَّ الله أخبر عنهم أنهم قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيهِ، وذلك هجرهم إياه.

وقوله: «وكَذلكَ جَعلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وكما جعلنا لكَ يا محمدُ أعداء من مشركي قومكَ، كذلك جعلنا لكلِّ مَنْ نَبَّأْنَاهُ مِنْ قَبلكَ عدوّاً من مشركي قومِه، فلم تُخصصْ بذلك من بينهم، يقولُ: فاصبرْ لِما نالَكَ منهم كما صبرَ مِنْ قبلكَ أُولُو العزمِ من رسلنا.

وقوله: «وَكَفَى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وكفاك يا محمدُ بربك هادياً يهديك إلى الحقِّ، ويُبَصِّرُكَ الرُّشْدَ، ونصيراً: يقولُ: ناصراً لكَ على أعدائكَ، يقولُ: فلا يَهُولَنَّكَ أعداؤكَ من المشركينَ، فإني ناصرك عليهم، فاصبرْ لأمري، وامضِ لتبليغِ رسالتي إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله «لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ»، يقولُ: هَلاَّ نُزِّلَ على محمدٍ ﷺ القرآن «جُمْلَةً وَاحِدَةً» كما أُنزلتِ التوراةُ على موسى جملةً واحدةً؟ قال الله «كَذلكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» تنزيله عليك الآيةَ بعد الآية، والشيءَ بعد الشيء، لنثبتَ به فؤادكَ نَزلناه. ويعني بقوله: «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» لنصحح به عزيمةَ قلبكَ ويقينَ نفسكَ، ونشجعك به.

وقوله: «وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»، يقولُ: وشيئاً بعد شيء عَلَّمْنَاكَهُ حتى تحفَظَـهُ، والترتيلُ في القراءة: الترسُّلُ والتَّثَبُّتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يأتيك يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بمثلٍ يضربونَهُ إلا جئناكَ من الحقِّ، بما نبطلُ به ما جاؤوا به، وأحسن منه تفسيراً.

وقـوله: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكاناً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: هؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ، القائلونَ لكَ: «لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» ومَنْ كان على مثل الذي هُمْ عليه من الكفرِ باللهِ، الذي يُحْشَرونَ يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم، فَيُساقُونَ إلى جهنم شرٌّ مستقرّاً في الدنيا والآخرة من أهلِ الجنةِ في الجنة، وأضلُّ منهم في الدنيا طريقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ يَتَوَعَّدُ مشركي قومِه على كُفْرِهم باللهِ، وتكذيبهم رسوله ويخوِّفُهم مِنْ حلول نقمته بهم، نظيرَ الذي يحلُّ بمن كان قبلَهُم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها. «وَلَقَدْ آتَيْنَا» يا محمدُ «مُوسَى الكِتابَ» يعني التوراة، كالذي آتيناك من الفرقان «وَجَعَلْنَا مَعَهُ أخَاهُ هارُونَ وَزِيراً» يعني مُعيناً وظهيراً «فقُلْنا اذْهَبا إلى القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا»، يقولُ: فقلنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومِه الذين كذَّبُوا بإعلامنا وأدلتنا، فدمرناهم تدميراً. وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالة ما ذكر من ذكره وهو: فذهبا فكذبوهما، فدمرناهم حينئذٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقومَ نوح لما كذَّبوا رُسُلَنَا، وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من الحقِّ، أغرقناهم بالطوفانِ. «وَجَعَلْنَاهُمْ للنَّاسِ آيَةً»، يقولُ: وجعلنا تغريقنا إياهم وإهلاكَنَا عِظةً وعبرةً للناس يعتبرون بها. «وأعْتَدْنا للظَّالِمِينَ عَذَاباً أليماً»، يقولُ: وأعددنا لهم من الكافرين بالله في الآخرةِ عذاباً أليماً، سوى الذي حَلَّ بهم من عاجلِ العذابِ في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ودَمَّرنا أيضاً عاداً وثمود وأصحابَ الرسِّ.

واختلف أهلُ التأويل في أصحابِ الرسِّ، فقال بعضهم: أصحاب الرسِّ من ثمود.

وقال آخرون: بل هي قريةٌ من اليمامةِ يقال لها الفَلْج.

وقال آخرون: هم قوم رَسُّوا نبيهُم في بئر.

وقال آخرون: هي بئر كانت تسمى الرسّ.

والصواب من القول في ذلك، قولُ من قال: هم قوم كانوا على بئرٍ، وذلك أن الرَّسَّ في كلامِ العربِ كلّ محفورٍ مثل البئر والقبر ونحو ذلك، ولا أعلمُ قوماً لهم قصةٌ بسببِ حفرةٍ، ذكرهم الله في كتابهِ إلا أصحاب الأخدود، وإنْ يكونوا غيرَهُمْ فلا نعرفُ لهم خبراً إلا ما جاء من جملةِ الخبرِ عنهم أنهم قومٌ رسوا نبيهم في حفرة.

وقوله: «وكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكل هذه الأمم التي أهلكناها التي سميناها لكم أو لم نُسَمِّها ضربنا له الأمثالَ، يقولُ: مَثَّلْنَا له الأمثالَ ونَبَّهْنَاهَا على حججنا عليها، وأَعْذَرْنَا إليها بالعبرِ والمواعظِ، فلم نهلكْ منهم أمةً إلا بعد الإبلاغِ إليهم في المعذرة.

وقوله: «وكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكل هؤلاءِ الذين ذكرنا لكم أَمْرَهُمْ استأصلناهم، فدمرناهم بالعذابِ إبادةً، وأهلكناهم جَميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾**

يقـول تعالى ذِكْرُه: ولقد أتى هؤلاءِ الذين اتخذوا القرآنَ مهجوراً على القرية التي أمطرها اللهُ مَطَرَ السوءِ وهي سَدُوم، قرية قوم لوط، ومطر السوء: هو الحجارةُ التي أمطرها اللهُ عليهم فأهلكهم بها.

وقـولـه: «أَفَلَمْ يَكُـونُـوا يَرَوْنَهَـا»، يقـول جَلَّ ثناؤه: أو لم يَكُنْ هؤلاءِ المشركونَ الذين قد أتوا على القريةِ التي أُمْطِرَتْ مطرَ السوءِ يرونَ تلك القرية، وما نزلَ بها من عذابِ الله بتكذيب أهلِهَا رُسُلَهم، فيعتبروا ويتذكَّرُوا، فيراجعوا التوبةَ من كُفْرِهم وتكذِيبهم محمداً ﷺ. «بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما كَذَّبُوا محمداً فيما جاءهم به من عند الله، لأنهم لم يكونوا رأوا ما حلَّ بالقريةِ التي وصفتُ، ولكنهم كَذَّبُوه من أجلِ أنهم قومٌ لا يخافون نُشوراً بعـد الممـاتِ، يعني أنهم لا يوقِنُـونَ بالعقـابِ والثـوابِ، ولا يؤمنونَ بقيامِ الساعة، فيردَعُهُمْ ذلك عما يأتونَ من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾**

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا رآكَ هؤلاءِ المشركونَ الذين قَصَصْتُ عليك قصصهم. «إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً»، يقولُ: ما يتخذونك إلا سخريةً يسخرونَ منك، يقولون: «أهذَا الَّذِي بَعثَ اللهُ» إلينا «رَسُولاً» من بينِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاءِ المشركينَ الذين كانوا يهزؤونَ برسولِ الله ﷺ إنهم يقولون إذا رأوه: قد كادَ هذا يُضِلّنَا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدّنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها. «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ»، يقولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: سيبينُ لهم حين يعاينون عذابَ الله قد حَلَّ بهم على عبادتهم الآلهةَ «مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً»، يقولُ: مَنِ الراكبُ غيرَ طريقِ الهدى، والسالكُ سبيلَ الردى أنتَ أو هُمْ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «أَرَأَيْتَ» يا محمدُ، «مَنِ اتخذَ إلهَهُ» شَهْوَتَهُ التي يهواها، وذلك أنَّ الرجلَ من المشركينَ كان يعبدُ الحجرَ. فإذا رأى أحسنَ منه رمى به، وأخذ الآخرَ يعبُده، فكان معبودهُ وإلهه ما يَتَخَيَّرُه لنفسِه، فلذلك قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «أرأيْتَ مَن اتَّخذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، أفأنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفأنتَ تكونُ يا محمدُ على هذا حفيظاً في أفعاله مع عظيمِ جهله؟ «أمْ

تَحْسَبُ» يا محمدُ أنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ «يَسْمعُونَ» ما يُتلى عليهم، فَيَعُونَ «أَوْ يَعْقِلُونَ» ما يُعَاينونَ من حججِ اللهِ، فيفهمون. «إنْ هُمْ إلَّا كالأنْعَامِ»، يقولُ: ما هُمْ إلا كالبهائِمِ التي لا تعقلُ ما يقالُ لها، ولا تفقه، بل هم من البهائمِ أضلُّ سبيلاً لأنَّ البهائمَ تهتدي لمراعيها، وتنقادُ لأربابها، وهؤلاءِ الكَفَرَةُ لا يطيعونَ رَبَّهم، ولا يشكرون نعمةَ مَنْ أنعمَ عليهم، بل يَكْفُرونَها، ويعصون مَنْ خلقهم وبرأهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «كَيْفَ مَدَّ» رَبُّكَ «الظِّلَّ»، وهو ما بين طلوعِ الفجر إلى طلوعِ الشمس.

قوله: «وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً»، يقولُ: ولو شاء لجعله دائماً لا يزولُ، ممدوداً لا تُذْهِبُه الشمسُ، ولا تنقصه.

وقوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: ثم دللناكم أيها الناسُ بنسخِ الشمس إياه عند طلوعها عليه، أنه خَلْقٌ من خَلْقِ رَبِّكم، يُوجِدُه إذا شاء، ويفنيه إذا أراد؛ والهاء في قوله: «عليه» من ذكر الظلِّ. ومعناه: ثم جعلنا الشمسَ على الظلِّ دليلاً. قيل: معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكنِ الشمسُ التي تنسخُه لم يعلم أنه شيء إذا كانت الأشياء إنما تعرف بأضدادها نظير الحلوِ الذي إنما يُعْرَفُ بالحامضِ والبارد بالحارِّ، وما أشبه ذلك.

وقوله: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم قبضنا ذلك

الدليلَ من الشمسِ على الظلِّ إلينا قَبْضاً خَفِيّاً سريعاً بالفيء الذي نأتي به بالعشيّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي مَدَّ الظلَّ ثم جعلَ الشمسَ عليه دليلاً، هو الذي جعل لكم أيها الناسُ الليلَ لباساً. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِباساً» لأنه جعله لخلْقِه جُنَّةً يجتنون فيها ويسكنون، فصار لهم سترا يستترون به، كما يستترون بالثياب التي يُكسونها.

وقوله: «والنَّوْم سُباتاً»، يقولُ: وجعل لكم النومَ راحةً تستريحُ به أبدانكم، وتهدأُ به جوارحكم.

وقوله: «وَجَعَلَ النَّهارَ نُشوراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ النهارَ يقظةً وحياةً من قولهم: نَشر الميتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي أرسلَ الرياحَ الملقحة «بُشْراً»: حياةً أو من الحيا والغيثِ الذي هو مُنْزِلُه على عبادِه. «وأَنْزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ ماءً طَهُوراً»، يقولُ: وأنزلنا من السحابِ الذي أنشأناهُ بالرياحِ من فوقِكم أيها الناسُ ماءً طهوراً. «لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً»، يعني أرضاً قَحِطةً عذيةً لا تُنْبتُ. وقال «بَلْدَةً مَيْتاً» ولم يقل ميتةً، لأنه أُريدَ بذلك لنحييَ به موضعاً ومكاناً ميتاً. «وَنُسْقِيَهُ»

من خَلْقِنَا «أنْعَاماً» من البهائمِ «وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً»، يعني الأناسيّ: جمع إنسان وجمع أناسي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد قسمنا هذا الماءَ الذي أنزلناهُ من السماء طهوراً لنحييَ به الميتَ من الأرضِ بين عبادي، ليتذكَّروا نِعمي عليهم، ويشكروا أياديَّ عنـدهـم وإحسـاني إليهم، «فأبى أكْثَرُ النَّاسِ إلَّا كُفُوراً»، يقولُ: إلا جُحُوداً لِنِعمي عليهم، وأياديَّ عليهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شئنا يا محمدُ لأرسلنا في كلِّ مِصْرٍ ومدينةٍ نذيراً ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فَيخِفُّ عنكَ كثيرٌ من أعباءِ ما حَمَّلْنَاكَ منه، ويسقط عنـك بذلـك مؤنةٌ عظيمة، ولكنا حملناك ثِقَلَ نذارةِ جميعِ القرى، لتستوجبَ بصبركَ عليه إنْ صبرتَ ما أعدَّ اللهُ لكَ من الكرامةِ عنده، والمنازلِ الرفيعةِ قِبَله، فلا تُطعِ الكافرينَ فيما يدعونكَ إليه من أنْ تعبدَ آلهتهم، فنذيقكَ ضِعْفَ الحياةِ وضعف المماتِ، ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتى ينقادوا للإقرارِ بما فيه من فرائضِ الله، ويدينوا به ويذعنوا للعملِ بجميعه طوعاً وكرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ

الفرقان: ٥٣

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي خلطَ البحرينِ، فأمرجَ أحدهما في الآخر، وأفاضَهُ فيه، وأصلُ المرج الخلط، ثم يقال للتخليةِ مرج، لأنَّ الرجلَ إذا خلى الشيء حتى اختلطَ بغيره، فكأنه قد مَرَجَهُ، ومنه الخبرُ عن النبيِّ ﷺ، وقوله لعبدالله بن عمرو: «كَيْفَ بِكَ يا عَبْدَاللهِ إذَا كُنْتَ في حُثالَةٍ مِنَ النَّاسِ، قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وأماناتُهُمْ، وَصَارُوا هَكَذَا وشَبَّكَ بين أصابعه»[1]؟ يعني بقوله: قد مرجت: اختلطت، ومنه قول الله: «في أمْرٍ مَرِيجٍ»: أي مُخْتلط.

وقـولـه: «هَـذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ» الفرات: شديدُ العذوبةِ، يقال: هذا ماءٌ فُرات: أي شديد العذوبة.

وقوله: «وَهَذَا مِلْحٌ أُجاجٌ»، يقولُ: وهذا ملح مرٌّ، يعني بالعذبِ الفراتِ: مياهَ الأنهارِ والأمطار، وبالملح الأجاج: مياه البحار.

وإنما عنى بذلك أنه من نعمته على خَلْقِه، وعظيم سلطانه، يخلطُ ماءَ البحرِ العذبِ بماءِ البحرِ الملح الأُجاج، ثم يمنع الملحَ من تغييرِ العذبِ عن عذوبته، وإفسادِهِ إياه بقضائِه وقُدْرتِه، لئلا يضرَّ إفساده إياه بركبان الملح منهما، فلا يجدوا ماءً يشربونه عند حاجتهم إلى الماء، فقال جَلَّ ثَناؤُهُ: «وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخـاً»، يعني حاجـزاً يمنـعُ كُلَّ واحـدٍ منهمـا من إفسـادِ الآخر. «وَحِجْراً مَحْجُوراً»، يقولُ: وجعل كلّ واحد منهما حراماً محرّماً على صاحبِه أنْ يُغَيِّرَه ويفسده.

وإنما اخترنا القولَ الذي اخترناه في معنى قوله: «وجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً»، دونَ القولِ الذي قاله مَنْ قال معناه: إنه جعل بينهما حاجزاً

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٢) وابن ماجة (٣٩٥٧)، والحاكم: ٤/٤٣٥وصححه، ووافقه الذهبي.

من الأرضِ أو من اليبس، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ في أوّلِ الآيةِ أنه مرجَ البحرينِ، والمرجُ: هو الخلطُ في كلامِ العربِ على ما بيَّنتُ قبل، فلو كان البرزخُ الذي بين العذبِ الفراتِ من البحرينِ، والملحِ الأُجاجِ أرضاً أو يبساً لم يكن هناك مرجٌ للبحرينِ، وقد أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزِهِ هذا الملحَ الأُجاجَ عن إفسادِ هذا العذبِ الفراتِ، مع اختلاطِ كلٍّ واحدٍ منهما بصاحبه. فأما إذا كان كلُّ واحد منهما في حَيِّزٍ عن حيزِ صاحبِه، فليس هناك مرجٌ، ولا هناك من الأعجوبةِ ما يُنبه عليه أهل الجهل به من الناسِ، ويذكرون به وإنْ كان كلّ ما ابتدعه رَبُّنا عجيباً، وفيه أعظمُ العبرِ والمواعظِ والحججِ البوالغ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي خلق من النطفِ بشراً إنساناً فجعله نسباً، وذلك سبعةٌ، وصهراً، وهو خمسةٌ، كما حُدِّثت عن الضحاكِ أنه قال في قوله: «فجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً» النسب: سبع، قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ»... إلى قوله: «وَبَناتُ الأُخْتِ». والصهرُ خمسٌ، قوله: «وأُمَّهاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ»... إلى قوله: «وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ»[1].

وقوله: «وكانَ رَبُّكَ قَدِيراً»، يقولُ: وربك يا محمدُ ذُو قدرةٍ على خلْقِ ما يشاء من الخلق، وتصريفهم فيما شاء وأراد.

---

(١) وذكر الماوردي أن المناكح سميت صهراً لاختلاط الناس بها كما يختلط الشيءُ إذا صهر (زاد المسير: ٦/٩٧).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعبدُ هؤلاءِ المشركونَ بالله من دونِه آلهةً لا تنفعهم، فتجلب إليهم نفعاً إذا هم عبدوها، ولا تضرُّهم إنْ تركوا عبادتها، ويتركونَ عبادةَ مَنْ أنعمَ عليهم هذه النِّعَمَ التي لا كفاءَ لأدناها، وهي ما عَدَّدَ علينا جَلَّ جلالُه في هذه الآيات من قوله: «أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» إلى قوله: «قَدِيراً»، ومن قدرته القدرة التي لا يمتنعُ عليه معها شيءٌ أرادَهُ، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ أراد فعله، ومَنْ إذا أرادَ عقابَ بعضِ مَنْ عصاه من عبادِه أحلَّ به ما أحلَّ بالذين وصفَ صِفَتَهم من قومِ فرعون وعادٍ وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ، وقُروناً بين ذلك كثيراً، فلم يكن لمن غضبَ عليه منه ناصرٌ، ولا له عنه دافع «وكانَ الكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان الكافرُ معيناً للشيطانِ على ربه، مُظَاهراً له على معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وما أَرْسَلْناكَ» يا محمدُ إلى مَنْ أرسلناكَ إليه «إلَّا مُبَشِّراً» بالثوابِ الجزيل، مَنْ آمَنَ بك وصدَّقَكَ، وآمنَ بالذي جئتهم به من عندي، وعملوا به، «ونَذِيراً» من كَذَّبَكَ وكَذَّبَ ما جئتهم به من عندي، فلم يُصَدِّقُوا به، ولم يعملوا «قُلْ ما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»، يقول له: قُلْ لهؤلاءِ الذين أرسلتكَ إليهم، ما أسألكم يا قوم على ما جئتكم به من عند ربي أجراً، فتقولون: إنما يطلبُ محمدٌ أموالنا بما يدعونا إليه، فلا نتبعه فيه، ولا نعطيه من أموالنا شيئاً، «إلَّا مَنْ شاءَ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبيلاً»، يقولُ: لكن

مَنْ شاء منكم اتَّخَذَ إلى رَبِّه سبيلاً، طريقاً بإنفاقِهِ من مالِهِ في سبيله، وفيما يُقَرِّبُه إليه من الصدقةِ والنفقةِ في جهادِ عَدُوِّهِ، وغير ذلك من سُبُلِ الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتوكَّلْ يا محمدُ على الذي له الحياةُ الدائمةُ التي لا موتَ معها، فَثِقْ به في أمرِ ربك، وفَوِّضْ إليه، واستسلمْ له، واصبرْ على ما نابكَ فيه.

قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ»، يقولُ: واعبده شكراً منك له على ما أنعمَ به عليكَ.

قوله: «وكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عبادِهِ خَبيراً»، يقولُ: وحَسْبُكَ بالحيِّ الذي لا يموتُ خابراً بذنوبِ خَلْقِه، فإنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها وهو مُحْصٍ جميعَها عليهم حتى يجازيهم بها يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَتَوَكَّلْ عَلى الحَيِّ الذِّي لا يَمُوتُ - الذِّي خَلَقَ السَّمـوَاتِ والأرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ» فقال: «وَمَا بَيْنَهُما»، وقد ذكر السمواتِ والأرضِ، والسمواتُ جماع، لأنهِ وَجَّهَ ذلك إلى الصنفين والشيئين.

وقوله: «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»، قيل: كان ابتداء ذلك يوم الأحد، والفراغ يوم الجمعة. «ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ الرَّحْمنُ»، يقولُ: ثم استوى على العرش الرحمن وعَلاَ عليه، وذلك يوم السبت فيما قيل. وقوله: «فاسْأَلْ بهِ خَبيراً»،

يقولُ: فاسأل يا محمدُ خبيراً بالرحمن، خبيراً بخلقه، فإنه خالقُ كلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه ما خلق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قيل لهؤلاءِ الذين يعبدونَ من دونِ الله ما لا ينفَعُهُمْ ولا يضرُّهم: «اسْجُدُوا لِلْرَّحْمَن»: أي اجعلوا سجودَكُمْ لله خالصاً دونَ الآلهةِ والأوثانِ، قالوا: «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة: «لِمَا تَأْمُرُنا» بمعنى: أنسجد نحن يا محمدُ لما تأمرنا أنتَ أنْ نسجدَ له. وقرأته عامةُ قَرَأَةِ الكوفة: «لِمَا يَأْمُرُنا» بالياء، بمعنى: أنسجدُ لما يأمرُ الرحمنُ، وذَكَرَ بعضُهم أنَّ مُسيلمةَ كان يُدْعى الرحمن، فلما قال لهم النبيُّ ﷺ: اسجدوا للرحمنِ، قالوا: أنسجدُ لما يأمرنا رحمنُ اليمامةِ؟ يعنون مُسَيلمة بالسجود له[1].

والصواب من القولِ في ذلك، أنهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماءُ من القَرَأَةِ، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيب.

وقوله: «وَزَادَهُمْ نُفُوراً»، يقولُ: وزاد هؤلاءِ المشركينَ قولُ القائلِ لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاصِ السجودِ لله، وإفرادِ الله بالعبادةِ بُعْداً مما دُعُوا إليه من ذلك فِراراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا

---

(١) هذا بعيد، وإنما أمروا بالسجود للرحمن رب العالمين، وهو استفهام إنكار، ومعناه: لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تَقَدَّسَ الربُّ الذي جعل في السماء بروجاً، ويعني بالبروج: القصور في قول بعضهم، وهو الأوْلى بالصواب، لأن ذلك في كلام العرب، ولقوله تعالى: «ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة».

وقرأته عامة قَرَأة الكوفيين «وَجَعَلَ فِيها سُرُجاً» على الجماع، كأنهم وَجَّهُوا تأويلَهُ: وجعلَ فيها نجوماً «وقَمَراً مُنِيراً» وجعلوا النجوم سرجاً إذْ كان يُهْتَدى بها.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنْ يقالَ: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار، لكلٍّ واحدةٍ منهما وجهٌ مفهوم، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقوله: «وَقَمَراً مُنِيراً»، يعني بالمنير: المضيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً»، فقال بعضهم: معناه: أن الله جعل كُلَّ واحدٍ منهما خلفاً من الآخر، في أنَّ ما فاتَ أحدهما من عملٍ يعملُ فيه لله، أُدْرِكَ قضاؤه في الآخر.

قوله: «وَجَعَلَ فيها سِرَاجاً»، اختلف القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة: «وَجَعَلَ فِيها سِرَاجاً» على التوحيدِ، ووجَّهُوا تأويلَ ذلك إلى أنه جعل فيها الشمسَ، وهي السراج التي عَنَى عندهم بقوله: «وَجَعَلَ فِيها سِرَاجاً».

وقال آخرون: بل معناه: أنه جعلَ كُلَّ واحدٍمنهمامخالفاً صاحبَهُ، فجعلَ هذا أسود وهذا أبيض.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يخلفُ صاحبه إذا ذَهَبَ هذا جاءَ هذا، وإذا جاء هذا ذهبَ هذا.

والعرب تقول: خلف هذا من كذا خلفة، وذلك إذا جاء شيءٌ مكانَ شيءٍ ذَهَبَ قبله[1].

وقوله: «لِمَنْ أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: جعلَ الليلَ والنهارَ، وخلوفَ كُلٍّ واحدٍ منهما الآخرَ حجةً وآيةً لمن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ أمرَ الله، فينيبَ إلى الحقِّ، «أوْ أرَادَ شُكُوراً» أو أراد شُكْرَ نعمةِ الله التي أنعمها عليه في اختلافِ الليل والنهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأرْضِ هَوْناً» بالحلمِ والسكينةِ والوقارِ غيرَ مستكبرينَ، ولا متجبِّرينَ، ولا ساعينَ فيها بالفسادِ ومعاصي الله.

وقوله: «وَإِذَا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالُو سَلاماً»، يقولُ: وإذا خاطبهم الجاهلونَ بالله بما يكرهونه من القولِ أجابوهم بالمعروفِ من القولِ، والسدادِ من الخطاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

---

(١) هذا هو اختيار المؤلف، كما سيأتي النص عليه بعد قليل.

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يبيتون لربِّهم يُصَلُّونَ لله، يراوحونَ بين سجودٍ في صلاتهم وقيام.

وقوله: «وَقِياماً» جمع قائم، كما الصيامُ جمع صائم «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يَدْعُونَ الله أنْ يصرفْ عنهم عقابَهُ وعذابَهُ حَذَراً منه ووجلاً.

وقوله: «إنَّ عَذَابها كانَ غَرَاماً»، يقولُ: إنَّ عذابَ جهنم كان غراماً ملحاً دائماً لازماً غير مفارقٍ مَنْ عُذِّبَ به من الكفارِ، ومُهْلِكاً له، ومنه قولهم: رَجُلٌ مُغْرَمٌ، من الغُرْمِ والدَّين. ومنه قيل للغريم غَريم لطلبه حَقَّهُ، وإلحاحَهُ على صاحبِهِ فيه. ومنه قيل للرجلِ المولَعِ للنساء: إنه لمغرَمٌ بالنساء، وفلانٌ مغرَم بفلانٍ: إذا لم يصبرْ عنه.

«إنَّها ساءَت مُسْتَقَرّاً ومَقَاماً»، يقولُ: إنَّ جهنم ساءت مستقرّاً ومقاماً، يعني بالمستقرّ: القرار، وبالمقام: الإقامة؛ كأنَّ معنى الكلام: ساءت جهنمُ منزلاً ومقاماً، وإذا ضُمَّتِ الميمُ من المقام فهو من الإقامةِ، وإذا فتحت فهو من قمت، ويقال: المقام إذا فتحت الميم أيضاً هو المجلس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يُسْرِفُوا في إنفاقها.

ثم اختلف أهلُ التأويل في النفقة التي عناها اللهُ في هذا الموضع، وما الإسرافُ فيها والإقتار، فقال بعضهم: الإسرافُ: ما كان من نفقةٍ في معصيةِ الله، وإنْ قَلَّتْ، قال: وإياها عَنَى الله، وسماها إسرافاً. قالوا: والإقتار: المنعُ من حَقِّ الله.

الفرقان: ٦٧

وقال آخرون: الإسرافُ هو أن تأكلَ مالَ غيرِكَ بغير حقٍّ.

وقال آخرون: السرف: المجاوزةُ في النفقة الحدّ؛ والإقتار: التقصير عن الذي لابدَّ منه.

والصواب من القول في ذلك، قولُ مَنْ قال: الإسرافُ في النفقة الذي عَنَاهُ اللهُ في هذا الموضع: ما جاوزَ الحدَّ الذي أباحهُ اللهُ لعبادِهِ إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمرَ اللهُ به، والقوام: بين ذلك.

وإنما قلنا: إنَّ ذلكَ كذلك، لأنَّ المسرفَ والمقتر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصاً فيهما ما كانا مذمومين، ولا كانَ المسرفُ ولا المقتر مذموماً، لأنَّ ما أذن الله في فعله فغيرُ مستحقٍّ فاعلُه الذمَّ.

فإن قال قائل: فهل لذلك من حَدٍّ معروف تبينه لنا؟ قيل: نعم ذلك مفهومٌ في كلِّ شيء من المطاعم والمشاربِ والملابسِ والصدقةِ وأعمالِ البرِّ وغير ذلك نكره تطويلَ الكتابِ بذكرِ كُلِّ نوعٍ من ذلك مفصلاً، غير أنَّ جملة ذلك هو ما بيَّنا، وذلك نحو أكلِ آكلٍ من الطعامِ فوقَ الشبعِ ما يضعفُ بَدَنَهُ، ويُنْهِكُ قُواه، ويَشْغَلُه عن طاعةِ رَبِّه، وأداءِ فرائضه، فذلك من السرف، وأنْ يتركَ الأكلَ وله إليه سبيلٌ حتى يضعفَ ذلك جسمه، ويَنْهَك قواه ويضعفه عن أداءِ فرائضِ ربه، فذلك من الإقتارِ وبين ذلك القوام على هذا النحو كلّ ما جانس ما ذكرنا. فأما اتخاذ الثوبِ للجمال يلبسهُ عند اجتماعهِ مع الناسِ، وحضوره المحافلَ والجُمَعَ والأعيادَ دونَ ثوبِ مهنته، أو أكله من الطعام ما قَوَّاهُ على عبادةِ رَبِّه، مما ارتفع عما قد يسدُّ الجوع مما هو دونه من الأغذية، غير أنـه لا يعينُ البدنَ على القيامِ لله بالواجبِ معونته، فذلك خارجٌ عن معنى الإسرافِ، بل ذلك من القوام، لأنَّ النبيَّ ﷺ قد أمرَ ببعضِ ذلك، وحضَّ على

بعضه كقوله: «ما عَلى أَحدِكُمْ لَو اتَّخذَ ثَوْبَيْن: ثَوْباً لِمِهْنَتِه، وثَوْباً لِجُمعَتِهِ وَعِيدِهِ؟»[1].

وكقوله: «إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلى عَبْدٍ نِعْمَةً أَحبَّ أَنْ يَرى أَثَرَهَا عَلَيْهِ»[2]، وما أشبه ذلك.

وأما قوله: «وكانَ بينَ ذلكَ قَواماً»، فإنه النفقةُ بالعدلِ والمعروفِ على ما قد بيَّنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخرَ، فيشركون في عبادتهم إياهُ، ولكنهم يخلصون له العبادةَ ويُفْرِدُونَهُ بالطاعة. «وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ» قتلها «إلا بالحَقِّ» إما بكفرٍ بالله بعد إسلامها، أو زنا بعد

(١) حديث صحيح بشاهده من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه ابن خزيمة (١٧٦٥)، وابن ماجة (١٠٩٦)، وابن حبان (٢٧٧٧)، وشاهده عن أبي داود (١٠٧٨)، وابن ماجة (١٠٩٥).

(٢) صحيح بشواهده من حديث عمران بن حصين: أخرجه أحمد ٢٣٨/٤، وابن سعد ٢٩١/٤، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» ١٥١/٤، وشواهده في كتاب الشكر.

إحصانِها، أو قتل نَفْسٍ؛ فتقتل بها «وَلَا يَزْنُونَ» فيأتون ما حَرَّمَ اللهُ عليهم إتيانَهُ من الفروجِ. «وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ»، يقولُ: ومَنْ يأتِ هذه الأفعالَ، فدعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله بغير الحقِّ، وزنى. «يَلْقَ أثاماً»، يقولُ: يَلْقَ من عقابِ الله عقوبةً ونكالاً، كما وصفه ربُّنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وهو أنه «يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيامَةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً».

وقـد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ قومٍ من المشركينَ أرادوا الدخولَ في الإسلام، ممن كان منه في شركه هذه الذنوب، فخافوا أنْ لا ينفعهم مع ما سلَفَ منهم من ذلك إسلام، فاستفتَوْا رسولَ الله ﷺ في ذلك، فأنزلَ اللهُ تبارك وتعالى هذه الآيةَ، يُعْلِمُهُمْ أنَّ الله قابلٌ توبةَ مَنْ تابَ منهم.

وقوله: «وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً»، ويبقى فيه إلى ما لا نهايةَ في هوان.

وقوله: «إلَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يفعل هذه الأفعالَ التي ذكرها جَلَّ ثَنَاؤُهُ يلق آثاماً. «إلَّا مَنْ تَابَ»، يقولُ: إلا مَنْ راجـعَ طاعـةَ الله تبـارك وتعـالى بتركه ذلكَ، وإنابته إلى ما يرضاهُ اللهُ. «وآمَنَ»، يقولُ: وصَدَّقَ بما جاء به محمدٌ نبيُّ الله. «وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً»، يقولُ: وعمل بما أمرَهُ اللهُ من الأعمالِ، وانتهى عما نَهاهُ اللهُ عنه.

قولـه: «فَـأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَناتٍ» اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: فأولئك يبدّل اللهُ بقبائحِ أعمالهم في الشرك محاسن الأعمالِ في الإسلام، فيبدله بالشركِ إيماناً. وبقِيلِ أهلِ الشركِ باللهِ قِيلَ أهلِ الإيمانِ به، وبالزنا عفة وإحصاناً.

وقـال آخـرون: بل معنى ذلـك، فأولئك يبدِّلُ الله سيئاتهم في الدنيا حسنات لهم يوم القيامة.

وأَوْلى التأويلين بالصوابِ في ذلك، تأويل مَنْ تأوَّلَهُ: فأولئكَ يبدِّلُ اللهُ سيئاتهم: أعمالهم في الشِّرْكِ حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمالِ إلى ما يرضى.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأنَّ الأعمالَ السيئة قد كانت مَضَتْ على ما كانتْ عليه من القُبْحِ، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفةٍ إلى خلافِ ما كانتْ عليه إلا بتغييرها عما كانتْ عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب إنْ فعل ذلك كذلكَ أنْ يصيرَ شركُ الكافر الذي كان شركاً في الكفر بعينه إيماناً يوم القيامة بالإسلام ومعاصيه كلها بأعيانها طاعةً، وذلك ما لا يقوله ذُو حجا.

وقوله: «وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان اللهُ ذا عفوٍ عن ذنوبِ مَنْ تابَ مِن عباده وراجع طاعته، وذا رحمةٍ به أنْ يعاقبه على ذنوبِه بعد توبته منها.

قوله: «وَمَنْ تابَ»، يقولُ: ومن تاب من المشركين، فآمَنَ باللهِ ورسوله. «وَعَمِلَ صَالِحاً»، يقولُ: وعملَ بما أمره الله فأطاعه، فإنَّ الله فاعلٌ به من إبدالِه سيىءَ أعمالِه في الشرك بحسنها في الإسلام، مِثْلَ الذي فَعَلَ من ذلك بمن تابَ وآمَنَ وعملَ صالحاً قبل نزولِ هذه الآيةِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الزور الذي وصف اللهُ هؤلاءِ القوم بأنهم لا يشهدونه، فقال بعضهم: معناه الشرك بالله.

وقال آخرون: بل عَنَى به الغِناء.

وقال آخرون: هو قولُ الكذب.

وأصلُ الزورِ تحسينُ الشيء ووصفُه بخلافِ صِفَتِه، حتى يخيل إلى مَنْ يسمعُه أو يراهُ أنه خلاف ما هُوَ به، والشركُ قد يدخلُ في ذلك لأنه مُحَسَّنٌ لأهله، حتى قد ظنوا أنه حقٌّ، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيعُ الصوت، حتى يستحلي سامعُه سماعَهُ، والكذبُ أيضاً قد يدخلُ فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظنَّ صاحبه أنه حقٌّ، فكلُّ ذلك مما يدخلُ في معنى الزور.

فإذا كان ذلـك كذلـك، فأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدونَ شيئاً من الباطل لا شِرْكاً، ولا غِنَاءً، ولا كذباً ولا غيره، وكلّ ما لزمه اسمُ الزور، لأنَّ الله عَمَّ في وصفه إياهم أنهم لا يشهدونَ الزورَ، فلا ينبغي أنْ يُخَصَّ من ذلك شيءٌ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ أو عقل.

وقوله: «وَإذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً» اختلف أهلُ التأويل في معنى اللغو الذي ذُكِر في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: ما كان المشركونَ يقولونه للمؤمنينَ، ويُكَلِّمُونَهُمْ به من الأذى، ومرورهم به كِراماً: إعراضهم عنهم وصفحهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإذا مَرُّوا بذكْرِ النكاح، كَفُّوا عنه.

وقال آخرون: إذا مَرُّوا بما كان المشركونَ فيه من الباطلِ مَرُّوا مُنْكِرينَ له.

وقال آخرون: عنى باللغو ههنا: المعاصي كلها.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ عندي، أن يقال: إنَّ الله أخبر عن هؤلاءِ المؤمنينَ الـذين مَدَحهم بأنهم إذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِراماً، واللغو في كلامِ العربِ هو كُلُّ كلامٍ أو فعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصل، أو ما يُسْتَقْبَحُ،

فسبُّ الإنسانِ الإنسانَ بالباطلِ الذي لا حقيقةَ له من اللَّغوِ، وذِكْرُ النكاحِ بصريحِ اسمهِ مما يُستقبحُ في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تعظيمُ المشركينَ آلِهَتَهُمْ من الباطلِ الذي لا حقيقةَ لما عَظَّمُوه على نحوِ ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقبحٌ في أهل الدين، فكل ذلك يدخلُ في معنى اللغو، فلا وْجه إذْ كان كُلُّ ذلك يلزمه اسم اللغو، أنْ يقال: عنى به بعض ذلك دون بعض، إذْ لم يكن لخصوصِ ذلك دلالةٌ من خبرٍ أو عقلٍ. فإذْ كان ذلك كذلك، فتأويلُ الكلام: وإذا مَرُّوا بالباطلِ فسمعوه أو رأوه، مَرُّوا كراماً، مرورهم كراماً في بعض ذلك بأنْ لا يسمعوه، وذلك كالغناء. وفي بعض ذلك: بأن يعرضوا عنه ويصفحوا، وذلك إذا أُوذُوا بإسماعِ القبيحِ من القولِ. وفي بعضه: بأن يَنْهَوْا عن ذلك وذلك بأنْ يروا من المنكرِ ما يغيَّرُ بالقولِ فيغيروهُ بالقولِ. وفي بعضه بأنْ يُضارَبُوا عليه بالسيوفِ، وذلك بأن يروا قوماً يقطعونَ الطريقَ على قومٍ، فَيَسْتَصْرِخُهم المراد ذلك منهم، فيصرخونهم، وكلُّ ذلك مرورهم كراماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا ذَكَّرهم مُذَكِّرٌ بحججِ الله، لم يكونوا صُمَّاً لا يسمعون، وعمياً لا يبصرونها ولكنهم يِقَاظُ القلوب، فُهَمَاءُ العقول، يفهمون عن الله ما يُذَكِّرُهُمْ به، ويفهمون عنه ما يُنَبِّههم عليه، فيوعون مواعظه آذاناً سمعته، وقلوباً وعته.

فإن قال قائل: وما معنى قوله: «لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمَّاً وعُمْياناً» أو يَخرُّ الكافرون صماً وعمياناً إذا ذُكِّرُوا بآياتِ الله، فَيُنْفَى عن هؤلاءِ ما هو صفة للكفار؟ قيل: نعم، الكافرُ إذا تُليتْ عليه آياتُ الله خَرَّ عليها أصمَّ وأعمى،

وخَرُّه عليها كذلك: إقامتُه على الكفر، وذلك نظير قولِ العرب: سببت فلاناً، فقام يبكي، بمعنى فَظَلَّ يبكي، ولا قيامَ هنالك، ولعلَّه أن يكون بكى قاعداً، وكما يقال: نهيتُ فلاناً عن كذا، فقعد يشتمني: ومعنى ذلك: فجعل يشتمني، وظَلَّ يشتمني، ولا قعود هنالك، ولكنَّ ذلك قد جرى على ألسنِ العرب، حتى قد فهموا معناه، وذكر الفرّاء[1] أنه سمع العربَ تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يرغبون إلى الله في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: رَبَّنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرِّياتنا ما تَقَرُّ به أعيننا من أنْ تُرِيَنَاهُمْ يعملونَ بطاعتكَ.

وقوله: «وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إماماً» اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: اجعلنا أئمةً يَقْتَدِي بنا مَنْ بَعْدَنَا.

وقال آخرون: بل معناه: واجعلنا للمتقين إماماً نَأْتَمُّ بهم، ويأتمُّ بنا مَنْ بعدَنَا.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معناه: واجعلنا للمتقينَ الذين يتقون معاصيكَ، ويخافون عقابكَ؟ إماماً يأتمونَ بنا في الخيرات، لأنهم إنما سألوا رَبَّهم أنْ يجعلهم للمتقينَ أئمةً ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إماماً.

---

(١) معاني القرآن: ٢/٢٧٤.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين وصفتُ صِفتهم من عبادي، وذلك من ابتداءِ قوله: «وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأَرْضِ هَوْناً»... إلى قوله: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْوَاجِنَا... » الآية «يُجْزَوْنَ»، يقولُ: يُثابُونَ على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا «الغُرْفَةَ» وهي منزلةٌ من منازلِ الجنة رفيعة «بِما صَبرُوا»، يقولُ: بصبرهم على هذه الأفعال، ومقاساة شدتها.

وقوله: «وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءته، فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والبصرة «وَيُلَقَّوْنَ» مضمومة الياء مشدَّدةَ القاف، بمعنى: وتَتَلَقَّاهُم الملائكةُ فيها بالتحيةِ، وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة: «وَيَلْقَوْنَ» بفتح الياء وتخفيف القاف.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيب، غير أنَّ أعجبَ القراءتين إليَّ أنْ أقرأ بها «وَيَلْقَوْنَ فِيها» بفتح الياء وتخفيف القاف، لأنَّ العرب إذا قالت ذلك بالتشديد قالت: فلان يُتَلَقَّ بالسلامِ وبالخير ونحن نتلقاهم بالسلام قرنته بالياء وقَلَّمَا تقول: فلان يُلَقَّى السلام، فكان وجهُ الكلام لو كان بالتشديد أن يقال: ويُتَلَقَّوْنَ فيها بالتحيةِ والسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾

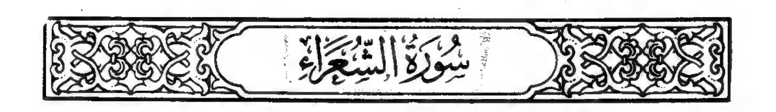
يقول تعالى ذِكْرُه: أولئك يُجْزَوْنَ الغرفةَ بما صبروا، خالدينَ في الغرفة، يعني أنهم ماكثونَ فيها، لابثونَ إلى غيرِ أمدٍ، حَسُنَتْ تلك الغرفةُ قراراً لهم ومقاماً يقولُ: وإقامةً.

وقوله: «قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُمْ ربّي» يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه: قُلْ يا محمدُ، لهؤلاءِ الذين أرسلت إليهم: أيّ شيء يَعُدّكم، وأيّ شيء يصنع بكم ربي، يقال منه: عبأت به أعبأُ عبئاً، وعبأتُ الطيب أعبؤه: إذا هَيَّأْتُه.

وقوله: «لَوْلا دُعاؤُكُمْ»، يقولُ: لولا عبادةُ مَنْ يَعبدُه منكم، وطاعةُ مَنْ يطيعه منكم.

وقوله: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لمشركي قريش قومِ رسولِ الله ﷺ: فقد كَذَّبتم أيها القومُ رسولَكُمْ الذي أُرسلَ إليكم وخالفتم أمرَ رَبِّكم الذي أمر بالتمسكِ به لو تمسكتم به، كان يعبأُ بكم ربي، فسوفَ يكونُ تكذيبكم رسولَ رَبِّكم، وخلافكم أمرَ بارئِكُمْ، عذاباً لكم ملازِماً، قتلاً بالسيوفِ وهلاكاً لكم مُفْنِياً يَلْحَقُ بعضَكم بعضاً. ففعل الله ذلك بهم، وصَدَقَهُمْ وَعْدَهُ، وقتلهم يومَ بدرٍ بأيدي أوليائه، وألحقَ بعضَهم ببعضٍ، فكان ذلك العذابُ اللزام.





سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في ابتداء فواتحِ سورِ القرآنِ من حروف الهجاء، وبيَّنا الذي هو أوْلى بالصوابِ من القولِ فيه فيما مضى من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته[1]، وقد ذكر عنهم من الاختلاف في قوله: طسم وطس، نظير الذي ذكر عنهم في: ألم وألمر وألمص.

فتأويلُ الكلام على قولِ ابن عباس والجميع: إنَّ هذه الآيات التي أنزلتُها على محمدٍ ﷺ في هذه السورة لآيات الكتابِ الذي أنزلتُه إليه من قبلها الذي بَيَّنَ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ بفهمٍ، وفَكَّرَ فيه بعقلٍ، أنه من عند الله جَلَّ جلالُه، لم يتخرَّصْهُ محمدٌ ﷺ، ولم يتقوَّلْهُ من عنده، بل أوحاهُ إليه ربُّه.

وقوله: «لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أنْ لا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لعلك يا محمدُ قاتلٌ نفسكَ ومُهْلِكُهَا إنْ لم يؤمنْ قومُكَ بك، ويُصَدِّقُوكَ على ما جئتهم به، والبَخْع: هو القتلُ والإهلاكُ في كلام العرب.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ». . . الآية، فقال بعضهم: معناه: فظلَّ القومُ الذين أنزل عليهم من السماء آية خاضعة أعناقهم لها من الذلَّةِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلت سادَتُهم وكبراؤهم للآيةِ خاضعينَ، ويقولُ: الأعناقُ: هم الكُبَراءُ من الناس.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ وأشبهها بما قالَ أهلُ التأويل في ذلك أنْ تكونَ الأعناقُ هي أعناقُ الرجال، وأنْ يكون معنى الكلام: فظلت أعناقُهم ذليلةً للآيةِ التي ينزلها الله عليهم من السماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يجيءُ هؤلاءِ المشركينَ الذينَ يكذِّبونكَ ويجحدونَ ما أتيتَهُمْ به يا محمدُ من عند رَبِّكَ من تذكيرٍ وتنبيه على مواضعِ حُججِ الله عليهم على صِدْقِكَ، وحقيقةِ ما تَدْعُوهم إليه مما يُحَدِّثُه الله إليكَ ويوحيهِ إليك، لتذكرهم به، إلا أعرضوا عن استماعِه، وتركوا إعمالَ الفكرِ فيه وتدبره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: فقد كذَّبَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بالذكر الذي أتـاهم من عند الله، وأعرضوا عنه. «فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: فسيأتيهم أخبارُ الأمرِ الذي كانوا يسخرون منه وذلك وعيدٌ من اللهِ لهم أنه مُحِلٌّ بهم عقابَهُ على تمادِيهم في كفرهم، وتمرُّدِهم على رَبِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يَرَ هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبون بالبعث والنشر إلى الأرض، كم أنبتنا فيها بعد أنْ كانت ميتةً لا نباتَ فيها «مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» يعني بالكريم: الحسن، كما يقال للنخلةِ الطيبةِ الحملِ: كريمة، وكما يقال للشاةِ أو الناقةِ إذا غَزرتَا، فكثرتْ ألبانُهما: ناقةٌ كريمةٌ، وشاةٌ كريمةٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إنباتنا في الأرض من كلِّ زوجٍ كريم لآيةً: يقولُ: لدلالةً لهؤلاءِ المشركينَ المكذِّبينَ بالبعثِ، على حقيقتِهِ، وأنَّ القدرةَ التي بها أنبتَ اللهُ في الأرض ذلك النباتَ بعد جُدوبَتها، لن يُعجزه أن يُنْشِر بها الأمواتَ بعد مماتِهم أحياءً من قبورِهم.

وقوله: «وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وما كان أكثرُ هؤلاءِ المكذِّبينَ بالبعثِ، الجاحدينَ نبوَّتكَ يا محمدُ بمُصَدِّقيكَ على ما تأتيهم به من عندِ الله من الذِّكْرِ، يقول جَلَّ ثناؤه: وقد سَبَقَ في علمي أنهم لا يؤمنون، فلا يؤمن بك أكثرُهم للسابقِ من عِلْمي فيهم.

وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ»، يقولُ: وإنَّ رَبَّكَ يا محمدُ لهو العزيزُ في نقمته، لا يمتنع عليه أحدٌ أرادَ الانتقامَ منه، يقول تعالى ذِكْرُه: وإني إنْ أحللتُ بهؤلاءِ المكذِّبينَ بك يا محمدُ، المُعْرِضينَ عما يأتيهم من ذِكْرٍ من عندي، عقوبتي بتكذيبهم إياك، فلن يمنعهم مني مانعٌ، لأني أنا العزيزُ الرحيم، يعني أنه ذو الرحمة بمن تابَ من خَلْقِه من كفره ومعصيته أنْ يعاقبه على ما سَلَفَ من جُرْمِه بعد توبته.

وإنما اخترنا القولَ الذي اخترناه في ذلك في هذا الموضع، لأنَّ قوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ» عقيبَ وعيدِ الله قوماً من أهلِ الشركِ والتكذيبِ بالبعثِ، لم يكونوا أهلكوا، فيوجه إلى أنه خَبَرٌ من الله عن فِعْلِه بهم وإهلاكِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ يا محمدُ إذ نادى رَبُّكَ موسى بن عمران «أنِ ائْتِ القَوْمَ الظَّالِمِينَ»، يعني الكافرينَ قومَ فرعون.

وقوله: «ألا يَتَّقُونَ»، يقولُ: ألا يتقون عقابَ الله على كُفْرِهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» موسى لربه «رَبِّ إنِّي أخافُ» من قوم فِرعونَ الذين أمرتني أنْ آتيهم «أنْ يُكَذِّبونِ» بِقِيلي لهم: إنكَ أرسلتني إليهم «وَيَضِيقُ صَدْرِي» من تكذيبهم إياي إنْ كذَّبوني، ورفع قوله «وَيَضِيقُ صَدْرِي» عطفاً به

على أخاف، ومعناه: وإني يضيق صدري.

وقوله: «وَلا يَنْطَلقُ لسانِي» يقولُ: ولا ينطلقُ بالعبارةِ عما ترسلني به إليهم للعلَّةِ التي كانت بلسانِه.

وقوله: «فأَرْسِلْ إلى هارُونَ»، يعني هارون أخاه، ولم يقل: فأرسِلْ إليَّ هارون ليؤازِرَني وليعينَني، إذْ كان مفهوماً معنى الكلام، وذلك كقولِ القائل: لو نزلتْ بنا نازلةٌ لفزعنا إليك، بمعنى: لفزعنا إليك لِتُعِينَنَا.

وقوله: «وَلَهُمْ عَليَّ ذَنْبٌ»، يقولُ: ولقومِ فرعونَ عليَّ دعوى ذنبٍ أذنبت إليهم، وذلك قتلُه النفسَ التي قتلها منهم.

وقوله: «فَأخافُ أنْ يَقْتُلُونِ»، يقولُ: فأخافُ أنْ يقتلوني قوداً بالنفسِ التي قتلتُ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «كَلَّا»: أي لن يقتلكَ قومُ فرعون «فاذْهَبا بآياتِنا»، يقولُ: فاذهبْ أنتَ وأخوكَ بآياتنا، يعني بأعلامنا وحُجَجِنَا التي أعطيناكَ عليهم.

وقوله: «إنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» من قومِ فرعونَ ما يقولونَ لكم، ويجيبونكم به.

وقوله: «فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا». . . الآية، يقولُ: فأتِ أنتَ يا موسى وأخوكَ هارونُ فرعونَ «فَقُولا إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالَمين» إليكَ بـ«أنْ أرْسِلْ مَعَنا بَنِي إسْرائِيلَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾

وفي هذا الكلام محذوف اسْتُغْنِي بدلالةَ ما ظهر عليه منه، وهو: فَأْتِيَا فرعونَ فأبْلغَاهُ رسالَةِ رَبِّهما إليه، فقال فرعونُ: أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا يا موسى وليداً، ولبثتَ فينا من عُمُرِكَ سنين، وذلك مُكْثُه عنده قبل قَتْلِه القتيلَ الذي قتله من القبطِ، وفعلتَ فَعْلَتَكَ التي فعلتَ: يعني قتلَهُ النفسَ التي قتل من القبط.

وقوله: «وأَنْتَ مِنَ الكافِرِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنتَ من الكافرينَ بالله على ديننا، وهو قول السدي.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأنتَ من الكافرينَ نعمتَنا عليكَ، وهو قولُ ابن زيد.

وهذا القولُ الذي قاله ابن زيد أشبهُ بتأويلِ الآية، لأنَّ فرعونَ لم يكن مُقِرّاً لله بالربوبية وإنما كان يزعمُ أنه هو الربُّ، فغير جائزٍ أنْ يقول لموسى: إنْ كان موسى كان عنده على دينه يوم قتل القتيل على ما قاله السديّ: فعلت الفعلة وأنت من الكافرين، الإيمان عنده: هو دينه الذي كان عليه موسى عنده، إلا أن يقول قائل: إنما أراد: وأنتَ من الكافرينَ يومئذٍ يا موسى، على قولكَ اليومَ، فيكون ذلك وجهاً يتوجه.

فتـأويل الكلام إذن: وقتلتَ الذي قتلتَ مِنّا وأنتَ من الكافرينَ نِعْمَتَنا عليكَ، وإحسانَنَا إليك في قتلِكَ إياهُ. وقد قيل: معنى ذلك: وأنتَ الآن من الكافرينَ لنعمتي عليكَ، وتربيتي إياكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى لفرعون: فعلتَ تلك الفعلةَ التي فعلتَ: أي قتلتُ تلك النفسَ التي قتلتُ إذنْ وأنا من الضالين: يقولُ: وأنا من الجاهلينَ قبلَ أنْ يأتيني من الله وحيٌ بتحريمِ قتله عليَّ. والعرب تضع الضلال موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق وضلَّ الطريق، بمعنى واحد.

وقوله: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ موسى لفرعونَ: «فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ» معشرَ الملأ من قومِ فرعونَ «لَمَّا خِفْتُكُمْ» أنْ تقتلوني بقتلي القتيلَ منكم «فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً»، يقولُ: فوهَبَ لي ربي نبوّةً وهي الحكم.

وقوله: «وَجَعَلَنِي مِنَ المُرْسَلِينَ»، يقولُ: وألحقني بعدادِ مَنْ أرسلَهُ إلى خَلْقِهِ، مُبَلِّغاً عنه رسالَتَهُ إليهم بإرسالِه إيايَ إليكَ يا فرعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيلِ نبيه موسى ﷺ لفرعونَ «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ»، يعني بقوله: وتلك تربية فرعون إياه، يقولُ: وتربيتكَ إيايَ، وتركَكَ استعبادي، كما استعبدتَ بني إسرائيل نعمة منك تمنها عليَّ بحقٍّ، وفي

الكلام محذوفٌ استغني بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو: وتلك نعمةٌ تمنها عليَّ أنْ عبدتَ بني إسرائيل وتركتني، فلم تستعبدني، فترك ذِكْرَ: وتركتني، لدلالة قوله: أنْ عبدتَ بني إسرائيل عليه.

وقوله: «قال فِرْعَوْنُ ومَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»، يقولُ: وأيّ شيءٍ ربُّ العالمين؟ «قالَ» موسى: هو «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ» ومالكهنّ. «وما بَيْنَهُمَا»، يقولُ: ومالك ما بينَ السمواتِ والأرضِ من شيء. «إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ»، يقولُ: إنْ كنتم مُوقِنينَ أنَّ ما تُعَاينونَهُ كما تعاينونه، فكذلك فأيقنوا أنَّ ربنا هو ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ألا تَسْتَمِعُونَ» قال فرعونُ لِمَنْ حولَهُ من قومِه: ألا تستمعون لما يقولُ موسى، فأخبرَ موسى عليه السلام القومَ بالجوابِ عن مسألة فرعونَ إياهُ وقِيلِه له: «وما رَبُّ العَالَمِينَ؟» ليفهم بذلك قومُ فرعونَ مقالتَهُ لفرعون، وجوابه إياه عما سأله، إذْ قال لهم فرعونُ «ألا تَسْتَمِعُونَ» إلى قولِ موسى، فقال لهم: الذي دعوتُه إليه وإلى عبادته «رَبُّكُمْ» الذي خلقكم «وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ» فقال فرعون لما قال لهم موسى ذلك، وأخبرهم عما يدعو إليه فرعون وقومه: «إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُون»، يقولُ: إنَّ رسولكم هذا الذي يزعمُ أنه أُرسلَ إليكم لمغلوبٌ على عقله، لأنه يقولُ قولاً لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونَسَبَ موسى عدوُّ اللهِ إلى الجِنَّةِ، لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا ربَّ غيرُه يُعْبَدُ، وأنَّ الذي يدعوه إليه موسى باطلٌ ليست

له حقيقةٌ، فقال موسى عند ذلك محتجاً عليهم، ومُعَرِّفَهُمْ رَبَّهم بصفتِه وأدِلَّته، إذْ كان عند قومِ فرعونَ أنَّ الذي يعرفونه رباً لهم في ذلك الوقت هو فرعون، وأن الذي يعرفونه لآبائهم أرباباً ملوكٌ أُخر، كانوا قبلَ فرعون، قد مَضَوْا فلم يكن عندهم أنَّ موسى أخبرهم بشيءٍ له معنى يفهمونَهُ ولا يعقلونه، ولذلك قال لهم فرعـون: إنه مجنون، لأنَّ كلامه كان عندهم كلاماً لا يعقلونَ معناه: الذي أدعـوكم، وفرعونَ إلى عبادتِه رَبُّ المشرق والمغرب وما بينهما، يعني ملكُ مشرقِ الشمسِ ومغربها، وما بينهما من شيء، لا إلى عبادةِ ملوكِ مصرَ الذين كانوا ملوكَها قبلَ فرعونَ لآبائِكم فَمَضَوْا، ولا إلى عبادةِ فرعونَ الذي هو ملكها «إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ»، يقـولُ: إنْ كانَ لكم عقـولٌ تعقلونَ بهـا ما يقالُ لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم عليه السلام بالأمرِ الذي علموا أنه الحقُّ الواضحُ، إذ كان فرعونُ ومَنْ قَبْلَهُ من ملوكِ مصر لم يجاوزْ مُلْكُهُمْ عريشَ مصر، وتَبَيَّنَ لفرعون ومَنْ حوله من قومه أنَّ الذي يدعوهم موسى إلى عبـادتِه، هو الملكُ الذي يملكُ الملوكُ قال فرعون حينئذٍ استكباراً عن الحقِّ، وتمادياً في الغيّ لموسى: «لَئِن اتَّخَذْتَ إلَهاً غَيْري»، يقولُ: لئن أقررت بمعبودٍ سواي «لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونينَ»، يقولُ: لأسجننك مع مَنْ في السجن من أهله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى لفرعون لما عَرَّفَهُ رَبَّهُ، وأنه ربُّ المشرقِ والمغـربِ، ودعـاهُ إلى عبـادتـه وإخلاصِ الألوهةِ له، وأجابه فرعونُ بقوله:

«لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ» أتجعلني من المسجونين «وَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ» يبينُ لك صِدْقَ ما أقولُ يا فرعون وحقيقة ما أدعوكَ إليه. وإنما قال ذلك له، لأنَّ من أخلاقِ الناسِ السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحقِّ بعد البيان؛ فلما قال موسى له ما قال من ذلك قال له فرعون: فأتِ بالشيء المُبَيِّن حقيقةَ ما تقول، فإنا لن نسجنك حينئذٍ إنِ اتخذتَ إلهاً غيري إنْ كنتَ من الصادقين، يقولُ: إنْ كنتَ محقاً فيما تقولُ، وصادقاً فيما تصف وتخير، «فأَلْقَى عَصَاهُ فإذا هيَ ثُعْبَانٌ مُبينٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فألقى موسى عصاه فتحوَّلَتْ ثعباناً، وهي الحيَّةُ الذَّكَرُ كما قد بيَّنتُ فيما مضى قَبْلُ من صِفَتِه.

وقوله: «مُبينٌ»، يقولُ: يبين لفرعونَ والملأ من قومِه أنه ثعبان.

وقوله: «وَنَزَعَ يَدَهُ فإذَا هيَ بَيْضَاءُ»، يقولُ: وأخرجَ موسى يَدَهُ من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع «للنَّاظِرِينَ» لمن ينظرُ إليها ويراها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال فرعونُ لما أراهُ موسى من عظيمِ قدرةِ الله وسلطانِه حُجَّةً عليه لموسى بحقيقةِ ما دعاهُ إليه، وصدق ما أتاهُ به من عند ربه «لِلْمَلإِ حَوْلَه» يعني لأشرافِ قومه الذين كانوا حوله «إنَّ هَذَا لَساحِرٌ عَلِيمٌ»، يقولُ: إنَّ موسى سَحَرَ عصاهُ حتى أراكُموهَا ثعبانا. «عَلِيمٌ»، يقولُ: ذو علمٍ بالسحرِ وبَصَرٍ به. «يُرِيدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ»، يقولُ: يريد أن يخرج بني إسرائيلَ من أرضكم إلى الشأم بقهرِه إياكم بالسحر. وإنما قال: يريد أن

يخرجكم فجعل الخطاب للملإ حوله من القبطِ، والمعنيّ به بنو إسرائيلَ، لأنَّ القِبطَ كانوا قد استعبدوا بني إسرائيلَ، واتخذوهم خدماً لأنفسهم ومُهَّاناً، فلذلك قال لهم: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ» وهو يريدُ أنْ يخرجَ خَدَمَكُمْ وعبيدَكُمْ من أرضِ مصر إلى الشأم.

وإنما قلتُ معنى ذلك كذلك، لأنَّ الله إنما أرسلَ موسى إلى فرعونَ يأمرهُ بإرسالِ بني إسرائيل معه، فقال له ولأخيه: «فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بني إِسْرائِيلَ».

وقوله: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ»، يقولُ: فأيّ شيءٍ تأمرونِ في أمرِ موسى وما به تُشِيرونَ من الرأي فيه، «قالُوا أَرْجِهْ وأخاهُ، وَابْعَثْ في المَدَائِنِ حاشِرِينَ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: فأجاب فرعونَ الملأُ حولَهُ بأنْ قالوا له: أَخِّرْ موسى وأخاهُ وأنْظِرْهُ، وابعثْ في بلادكَ وأمصارِ مصرَ حاشرينَ يحشرون إليكَ كُلَّ سَحَّارٍ عليمٍ بالسحرِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجمع الحاشرون الذين بعثهم فرعونُ بحشرِ السَّحَرةِ «لِمَيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»، يقولُ: لوقتٍ واعد فرعون لموسى الاجتماعَ معه فيه من يومٍ معلوم، وذلك يومُ الزينة. «وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى»، وقيل للناس: هل أنتم مجتمعونَ لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان، ولمن تكونُ الغَلَبَةُ، لموسى أو للسحرة؟ فَلَعَلَّنَا نتبعُ السحرةَ، ومعنى لعلَّ هنا كي، يقولُ: كي نَتَّبعَ السحرة إنْ كانوا هم الغالبين موسى. وإنما قلت ذلك معناها، لأنَّ قومَ فرعون كانوا على

دِينِ فرعون، فغيرُ معقولٍ أنْ يقول: مَنْ كان على دينٍ أنظر إلى حجة من هو على خلافي لعلي أتبعُ ديني، وإنما يقال: أنظر إليها كي أزداد بصيرةً بديني، فأقيم عليه، وكذلك قال قوم فرعون، فإياها عَنوا بقِيلِهم: لعلنا نتبع السحرةَ إنْ كانـوا هم الغالبين. وقيل: إنَّ اجتماعَهُمْ للميقاتِ الذي اتَّعَدَ للاجتماعِ فيه فرعون وموسى كان بالإسكندرية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ» فرعونَ لوعدِ لموسى وموعدِ فرعون قالُوا لِفرْعَوْنَ أئِنَّ لَنا لَأجرَ سِحرِنَا قبلَكَ «إنْ كُنَّا نَحْنُ الغالِبِينَ» موسى، «قالَ» فرعونُ لهم «نَعَمْ» لكم الأجرُ على ذلك «وإنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِينَ» مِنَّا، فقالوا عند ذلك لموسى: إما أنْ تُلْقيَ، وإما أنْ نكونَ نحنُ المُلْقِينَ، وتَرَكَ ذِكْر قِيلهم ذلك لدلالةِ خبرِ الله عنهم أنهم قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم مُلْقُونَ، على أنَّ ذلك معناه فـ«قالَ لَهُمْ مُوسَى ألْقُوا ما أنْتُمْ مُلْقُونَ» من حبالِكُمْ وعِصِيِّكُمْ، «فَأَلْقَوْا حِبَـالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ» من أيديهم. «وَقـالُـوا بعزَّةِ فرْعَوْنَ»، يقولُ: أقسموا بقوَّةِ فرعونَ وشدَّةِ سلطانه، ومنعة مملكته «إنَّا لَنَحْنُ الغالِبُونَ» موسى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ

فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ» حين ألقتِ السَّحَرَةُ حبالهم وعِصِيَّهُمْ، «فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ»، يقولُ: فإذا عصا موسى تَزْدَرِدُ ما يأتون به من الفِـرْيةِ والسحرِ الذي لا حقيقةَ له، وإنما هو مخاييل وخدعة «فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجدِينَ»، يقولُ: فلما تَبَيَّنَ السحرةُ أنَّ الذي جاءهم به موسى حقٌّ لا سحرٌ، وأنه مما لا يقدرُ عليه غيرُ اللهِ الذي فَطَرَ السمواتِ والأرضِ من غير أصلٍ، خَرُّوا لوجوههم سُجَّداً لله، مُذْعِنينَ له بالطاعة، مُقِرِّينَ لموسى بالذي أتاهم به من عندِ الله أنه هو الحقُّ، وأن ما كانوا يعملونه من السحر باطلٌ، قائلينَ «آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» الذي دعانا موسى إلى عبادته دون فرعون، وملئه «رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال فرعونُ للذين كانوا سَحَرَتَهُ: فآمنوا: آمنتُمْ لموسى بأنَّ ما جاء به حقٌّ قبلَ أنْ آذنَ لكم في الإيمانِ به «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ»، يقولُ: إن موسى لرئيسُكم في السحرِ، وهو الذي عَلَّمَكُمُوهُ، ولذلك آمنتم به، «فَلَسَوْفَ تَعْلَمونَ» عند عقابي إياكم وَبَالَ ما فعلتم، وخطأً ما صنعتم من الإيمانِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

يقولُ: «لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُمْ» مخالفاً في قَطْعِ ذلك منكم بين قطعِ الأيدي والأرجلِ، وذلك أنْ أقطعَ اليدَ اليمنى والرِّجْلَ اليسرى، ثم اليدَ اليسرى والرجلَ اليمنى، ونحو ذلك من قطعِ اليد من جانبٍ، ثم الرِّجْلِ من الجانبِ الآخـرِ، وذلـك هو القـطع من خلاف. «وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمَعِينَ» فَوَكَّـدَ ذلـك بأجمعينَ إعلاماً منه أنه غير مُسْتَبْقٍ منهم أحداً. «قالُوا لا ضَيْرَ»، يقول تعالى

ذِكْرُه: قالت السَّحَرَةُ: لا ضيرَ علينا وهو مصدرٌ من قولِ القائل: قد ضار فلاناً فلاناً فهو يضير ضيراً، ومعناه: لا ضرر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ السحرةِ: إنَّا نطمعُ: إنَّا نرجو أنْ يصفحَ لنا رَبُّنَا عن خطايانا التي سلفت منا قبل إيماننا به، فلا يعاقبنا بها. «أنْ كُنَّا أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: لأنْ كُنَّا أوَّلَ مَنْ آمَن بموسى وصدَّقَهُ بما جاء به من توحيدِ الله وتكذيب فرعونَ في ادّعائِه الربوبيةَ في دهرنا هذا وزماننا.

وقوله: «وأوْحَيْنا إلى مُوسَى أنْ أسْرِ بعِبادِي»، يقولُ: وأوحينا إلى موسى إذْ تمادى فرعونُ في غَيِّهِ وأبى إلا الثباتَ على طغيانِه بعدما أرَيْنَاهُ آياتنا، أنْ أسْرِ بعبادي: يقولُ: أنْ سِرْ ببني إسرائيلَ ليلاً من أرض مصر. «إنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» إنَّ فرعونَ وجُنْدَهُ مُتَّبِعُوكَ وقومكَ من بني إسرائيل، ليحولوا بينكم وبين الخروجِ من أرضهم، أرض مصر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسل فرعونُ في المدائنِ يحشرُ له جُنْدَهُ وقومه، ويقول لهم: «إنَّ هَؤُلاءِ» يعني بهؤلاءِ: بني إسرائيلَ «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ» يعني بالشرذمة: الطائفة والعصبة الباقية من عصب جبيرة، وشرذمة كل شيء: بقيته القليلة.

وقوله: «وإنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ»، يقولُ: وإنَّ هؤلاءِ الشرذمة لنا لغائظونَ، فذكر أنَّ غيظَهم إياهم كان قتل الملائكة مَنْ قتلت من أبكارِهم.

وقوله: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرونَ»، اختلفت القرأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرأةِ الكوفة «وإنا لجميعٌ حاذرون» بمعنى: أنهم مُؤْدُونَ ذَوُو أداةٍ وقوّةٍ وسلاح، وقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة والبصرة «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ» بغير ألفٍ. وكان الفرّاء يقول: كأنَّ الحاذرَ الذي يحذركَ الآن، وكأن الحَذِرَ المخلوق حذراً لا تلقاهُ إلا حذِراً[1].

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأةِ الأمصار متقاربتا المعنى، فبأيِّتِهِمَا قرأَ القارىءُ، فمصيبٌ الصوابَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأخرجنا فرعونَ وقومَهُ من بساتين وعيونِ ماء، وكنوزِ ذهبٍ وفضة، ومقامٍ كريم. قِيلَ: إنَّ ذلك المقامَ الكريم: المنابر.

وقوله: «كَذلكَ»، يقولُ: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفتُ لكم في هذه الآية والتي قبلها. «وأَوْرَثْناها»، يقولُ: وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكِهم بني إسرائيل.

وقوله: «فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ»، فأتبع فرعون وأصحابه بني إسرائيل، «مشرقين» حين أشرقتِ الشمسُ، وقِيلَ حين أصبحوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٨٠.

بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما تناظرَ الجمعانِ: جَمْعُ موسى وهم بنو إسرائيل، وجمعُ فرعون وهم القبطُ «قال أصْحابُ مُوسَى إنَّا لَمُدْرَكُونَ» أي إنَّا لَمُلْحَقُونَ، الآنَ يلحقنا فرعونُ وجنودُه فيقتلوننا، وذُكِرَ أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤماً بموسى.

وقوله: «كَلَّا إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ»، قال موسى لقومه: ليسَ الأمرُ كما ذكرتم، كلا لن تُدْرَكُوا إنَّ معي ربي سيهدين، يقولُ: سيهدينِ لطريقٍ أنجُو فيه من فرعونَ وقومِه.

وقوله: «فَأَوْحَيْنا إلى مُوسَى أنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فانْفَلَقَ» ذُكِرَ أنَّ الله كان قد أمرَ البحرَ أنْ لا ينفلقَ حتى يضربه موسى بعصاه.

وقوله: «فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فكان كل طائفةٍ من البحرِ لَمَّا ضربه موسى كالجبلِ العظيمِ، وذُكر أنه انفلق اثنتي عشرة فلقةً على عددِ الأسباطِ، لكلِّ سبطٍ منهم فِرْقٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «وأزْلَفْنا ثَمَّ الآخَرِينَ»: وقَرَّبْنَا هنالك آلَ فرعونَ من البحر، وقَدَّمْنَاهُمْ إليه، ومنه قوله: «وأُزْلفَتِ الجَنَّةُ للْمُتَّقِينَ» بمعنى: قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ.

وقوله: «وأنجَيْنا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أجمَعِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنجينا

موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرقِ في البحرِ ومَنْ مع موسى من بني إسرائيل أجمعين.

وقوله: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ»، يقولُ: ثم أغرقنا فرعونَ وقومَهُ من القِبْطِ في البحر بعد أنْ أنجينا موسى منه ومَنْ معه.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لآيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فيما فعلتُ بفرعونَ ومَنْ معه من تغريقي إياهم في البحر إذْ كَذَّبُوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعدَ الإعذارِ إليهم، والإنذارِ لدلالةً بَيِّنَةً يا محمدُ لقومكَ من قريش على أنَّ ذلك سنتي فيمن سلكَ سبيلَهُمْ من تكـذيب رسلي، وعِـظَةً لهم وعبرةً أنِ ادَّكِرُوا واعتبرُوا أنْ يفعلوا مِثْلَ فِعلهم من تكذيبكَ مع البرهانِ والآياتِ التي قد أتيتهم، فيحلّ بهم من العقوبةِ نظير ما حلَّ بهم، ولكَ آيةٌ في فعلي بموسى، وتنجيتي إياهُ بعد طولِ علاجهِ فرعونَ وقومَهُ منه، وإظهاري إياه وتوريثه وقومه دُورَهُمْ وأرْضَهُمْ وأموالهم، على أني سالكٌ فيكَ سبيله، إنْ أنتَ صبرتَ صبره، وقمتَ من تبليغِ الرسالةِ إلى مَنْ أرسلتكَ إليه قيامه، ومُظْهركَ على مُكَذِّبيكَ ومُعْليكَ عليهم، «وما كان أكثرهم مؤمنين»، يقولُ: وما كان أكثر قومكَ يا محمدُ مؤمنينَ بما آتاكَ اللهُ من الحقِّ المبين، فسابقٌ في علمي أنهم لا يؤمنون. «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ» في انتقامِه مِمَّنْ كفرَ به وكَذَّبَ رُسُلَهُ من أعدائِه، «الرَّحِيمُ» بمن أنجى من رُسُلِه، وأتباعهم من الغرقِ والعذابِ الذي عذَّبَ به الكَفَرَةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: واقصصْ على قومكَ من المشركينَ يا محمدُ خبرَ إبراهيمَ حين قال لأبيهِ وقومه: أيّ شيء تعبدون؟ «قَالوا» له: «نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ» يقولُ: فنظلُّ لها خَدَماً مُقيمينَ على عبادتها وخدمتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لهم: هل تسمعُ دعاءكم هؤلاءِ الآلهةُ إذْ تَدْعُونَهُمْ؟

وقوله: «أوْ يَنْفَعُونَكُمْ أوْ يَضُرُّونَ»، يقولُ: أو تنفعكم هذه الأصنامُ، فيرزقونكم شيئاً على عبادَتِكُمُوها، أو يضرُّونكم فيعاقبونَكُمْ على تَرْكِكُمْ عبادَتَها بأنْ يسلبوكم أموالَكُم، أو يهلكوكم إذا هلكتم وأولادكم. «قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلكَ يَفْعَلُونَ»، وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ ما ذكر عما ترك، وذلك جوابهم إبراهيمَ عن مسألتِه إياهم: «هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ، أوْ يَنْفَعُونَكُمْ أوْ يَضُرُّونَ»، فكان جوابهم إياه، لا، ما يسمعونَنَا إذا دَعَوْنَاهُمْ، ولا ينفعوننا ولا يضرُّون يدلُّ على أنهم بذلك أجابوه.

قولهم: «بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلكَ يَفْعَلُونَ» وذلك أنَّ بَلْ رجوعٌ عن مجحودٍ، كقولِ القائل: ما كان كذا بل كذا وكذا، ومعنى قولهم: «وَجَدْنا آباءَنا كذلكَ يَفْعَلُونَ» وجدنا مَنْ قَبْلَنَا من آبائنا يعبدونها ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها، فنحن نفعلُ ذلك اقتداءً بهم، واتباعاً لمنهاجهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ لقومه: أفرأيتم أيها القومُ ما كنتم تعبدونَ من هذهِ الأصنامِ أنتم وآباؤكم الأقدمون، يعني بالأقدمين: الأقدمين من الذين كان إبراهيمُ يخاطبهم، وهم الأوَّلُون قَبْلَهُمْ ممن كان على مِثلِ ما كانَ عليه

الذين كَلَّمهم إبراهيمُ من عبادةِ الأصنامِ، فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين: يقول قائل: وكيف يُوصَفُ الخشبُ والحديد والنحاس بعداوةِ ابنِ آدم، فإنَّ معنى ذلك: فإنهم عدوٌّ لي لو عبدتهم يومَ القيامة، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «واتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً» [مريم: ٨١].

وقوله: «إلَّا رَبَّ العالَمِينَ» نصباً على الاستثناء، والعدوُّ بمعنى الجمع، ووحّدَ لأنه أخرج مخرجَ المصدرِ، مثل القعود والجلوس، ومعنى الكلام: أفرأيتم كلَّ معبودٍ لكم ولآبائكم، فإني منه بريءٌ لا أعبده، إلا ربَّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠﴾

يقولُ: فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين للصوابِ من القولِ والعمل، ويُسدِّدُني للرشادِ. «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ»، يقولُ: والذي يَغْذُوني بالطعامِ والشراب، ويرزقني الأرزاقَ «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»، يقولُ: وإذا سقم جسمي واعتلَّ فهو يُبْرِئُه ويعافيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

يقولُ: والذي يُميتني إذا شاء ثم يُحْيِيني إذا أرادَ بعد مماتي «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفرَ لي خَطِيئَتِي يَوْمِ الدِّينِ» فربي هذا الذي بيدهِ نفعي وضرّي، وله القدرةُ والسلطانُ، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دُعِيَ، ولا ينفعُ ولا يضر.

وإنما كان هذا الكلامُ من إبراهيمَ احتجاجاً على قومه، في أنه لا تصلحُ الألوهةُ، ولا ينبغي أنْ تكونَ العُبودَةُ إلا لمن يفعلُ هذه الأفعال، لا لمن لا يطيقُ نفعاً ولا ضرّاً.

ويعني بقوله: «يَوْمَ الدِّينِ» يوم الحساب، يوم المجازاة، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه مخبراً عن مسألة خليلِه إبراهيم إياهُ «رَبِّ هَبْ لي حُكْمـاً»، يقولُ: ربِّ هَبْ لي نبوَّةً «وأَلْحِقْني بالصَّالِحِينَ»، يقولُ: واجعلني رسولاً إلى خَلْقِكَ حتى تُلْحِقني بذلك بعدادِ مَنْ أرسلتَهُ من رُسُلِكَ إلى خَلْقِكَ، واثْتَمَنْتَهُ على وَحْيِكَ، واصطفَيْتَهُ لنفسكَ.

وقوله: «وَاجْعَلْ لي لِسانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ»، يقولُ: واجعلْ لي في الناسِ ذِكْراً جميلاً، وثناءً حسناً باقياً فيمن يجيءُ من القرونِ بعدي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

يعني إبراهيمُ صلواتُ الله عليه بقوله: «وَاجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعيم» أورثني يا ربِّ من منـازلِ من هلك من أعـدائكَ المشركينَ بكَ من الجنة، وأسكنِّي ذلك. «وَاغْفِرْ لأبي»، يقولُ: واصفحْ لأبي عن شِرْكِه بكَ، ولا تعاقبه

عليه، «إنَّه كانَ مِنَ الضَّالِّينَ»، يقولُ: إنه كان ممن ضَلَّ عن سبيلِ الهدى فكفرَ بكَ.

وقد بيَّنا المعنى الذي من أجله استغفرَ إبراهيمُ لأبيهِ صلوات الله عليه، واختلاف أهلِ العلم في ذلك، والصواب عندنا من القولِ فيه فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ»، يقولُ: ولا تُذِلَّني بعقابكَ إيايَ يومَ تبعثُ عبادكَ من قبورهم لموقفِ القيامة. «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ»، يقولُ: لا تُخْزِنِي يومَ لا ينفعُ مَنْ كَفَرَ بك وعصاكَ في الدنيا مالٌ كانَ له في الدنيا، ولا بُنُوهُ الذين كانوا له فيها، فيدفع ذلك عنه عقابَ الله إذا عاقبه، ولا ينجيه منه.

وقوله: «إلَّا مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»، يقولُ: ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفعُ إلا القلب السليم.

والذي عنى به من سلامةِ القلبِ في هذا الموضع: هو سلامةُ القلب من الشكِّ في توحيدِ الله، والبعثِ بعدَ المماتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾

يعني جَلَّ ثَنـاؤُهُ بقوله: «وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» وأُدنيتِ الجنةُ وقُرِّبَتْ للمتقين، الـذين اتقوا عقابَ الله في الآخرةِ بطاعتهم إياه في الدنيا «وبُرِّزَتْ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ»، يقولُ: وأُظْهِرَتِ النارُ للذين غَوُوا فَضَلُّوا عن سواءِ السبيل «وَقِيلَ» للغاوين «أيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ» من الأنداد «هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ»

اليومَ من الله، فينقذونكم من عذابه، «أَوْ يَنْتَصِرُونَ» لأنفسهم، فينجونَها مما يُرَادُ بها؟

وقوله: «فَكُبْكِبُوا فيها هُمْ والغاوُونَ»، يقولُ: فرمى ببعضهم في الجحيم على بعضٍ، وطرح بعضُهم على بعضٍ مُنْكَبِّينَ على وجوههم. وأصل كُبْكِبُوا، كُبِبُوا ولكنَّ الكافَ كُرِّرتْ كما قيل: «بِريحٍ صَرْصَرٍ»، يعني به صرٍّ، ونهنهني يُنهنَهني، يعني به: نهنهني.

وقوله: «وَجُنُودُ إبْلِيسَ أجمَعُونَ»، يقولُ: وكُبْكِبَ فيها مع الأندادِ والغاوينَ جنودُ إبليسَ أجمعون، وجنوده: كُلُّ مَنْ كان من تُبَّاعِه من ذرِّيتهِ كانَ أو مِنْ ذرِّيةِ آدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال هؤلاءِ الغاوونَ والأندادُ التي كانوا يعبدونها من دونِ الله وجنود إبليسَ، وهم في الجحيم يختصمون «تالله إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقولُ: تالله لقد كُنَّا في ذهابٍ عن الحقِّ، إن كنا لفي ضلال مبين، يُبينُ ذهابنا ذلك عنه عن نفسِه، لِمَنْ تأمَّلَهُ وتَدَبَّرَهُ، أنه ضلالٌ وباطل.

وقوله: «إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ»، يقولُ: الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله: تالله إنْ كنا لفي ذهابٍ عن الحق حين نَعْدِلُكُمْ بربِّ العالمين فنعبدكُمْ من دونِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخبراً عن قيلِ هؤلاءِ الغاوين في الجحيم: «وَما أَضَلَّنا إِلَّا المُجْرِمُونَ»، يعني بالمجرمين إبليس، وابن آدم الذي سَنَّ القتل.

وقوله: «فَمَا لَنا مِنْ شافِعِينَ»، يقولُ: فليس لنا شافعٌ فيشفع لنا عند الله من الأباعدِ، فيعفوَ عنا، وينجينا من عقابه، «وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ» من الأقارب.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنوا بالشافعين، وبالصديقِ الحميم، فقال بعضهم: عنى بالشافعين: الملائكة، وبالصديق الحميم: النسيب.

وقال آخرون: كل هؤلاءِ من بني آدم.

وقوله: «فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: فلو أنَّ لنا رجعةً إلى الدنيا فنؤمن بالله فنكون بإيماننا به من المؤمنينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فيما احتجَّ به إبراهيمُ على قومِه من الحججِ التي ذكرنا له لدلالة بَيِّنة واضحة لمن اعتبرَ، على أنَّ سنةَ الله في خَلْقِه الذين يستنون بسنةِ قومِ إبراهيمَ من عبادةِ الأصنام والآلهة، ويقتدون بهم في ذلك ما سنَّ فيهم في الدار الآخرة، من كَبْكَبَتِهم وما عَبَدُوا من دونِه مع جنود إبليس في الجحيم، وما كان أكثرهُمْ في سابقِ عِلْمِه مؤمنينَ، وإنَّ رَبَّكَ يا محمدُ لهو الشديدُ الانتقامِ ممن عبد دونه، ثم لم يَتُبْ من كُفْره حتى هلك، الرحيمُ بمن تابَ منهم أنْ يعاقبه على ما كان سَلَفَ من قبل توبته من إثم وجرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ» رُسُلَ الله الذين أرسلهم إليهم لما «قـالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ» فتحذروا عقابَهُ على كُفْرِكُمْ به، وتكذِيبكم رُسُلَهُ «إنّي لَكُمْ رَسُولٌ» من الله «أمِينٌ» على وَحْيِه إليَّ، برسالتِه إيايَ إليكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا عقابَ الله أيها القوم على كفركم به، وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم باتقائه. «وماأسْألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أطلبُ منكم على نصيحتي لكم وأمري إياكم باتقاءِ عقابِ الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم، من ثوابٍ ولا جزاء «إنْ أجريَ إلاَّ عَلى رَبِّ العالَمِينَ» دونَكم ودونَ جميعِ خَلْقِ الله، فاتقوا عقابَ الله على كفركم به، وخافوا حُلولَ سخطهِ بكم على تكذيبكم رُسُلَه، «وأطيعونِ»، يقول: وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم بإخلاص العبادة لخالقكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال قومُ نوحٍ له مُجِيبيه عن قِيلِه لهم: «إني لكم رسولٌ أمين، فاتقوا الله وأطيعونِ» قالوا: أنؤمنُ لك يا نوح، ونُقِرُّ بتصديقكَ فيما تَدْعُونَا إليه، وإنما اتَّبَعَكَ مِنَّا الأرذلون دونَ ذوي الشرفِ وأهلِ البيوتات. «قال وَمَـا عِلْمِي بِمـا كانُـوا يَعْمَلُونَ» قال نوح لقـومه: وما علمي بما كان أتباعي يعملون، إنما لي منهم ظاهرُ أمْرِهم دونَ باطنِه، ولم أكلَّفْ عِلْمَ باطنهم، وإنما كلفت الظاهر، فَمَنْ أظْهَرَ حسناً ظننتُ به حسناً، ومَنْ أظهر سيئاً ظننتُ به سيئاً.

«إنْ حِسابَهُمْ إلاَّ عَلى ربّي لَوْ تَشْعُرُونَ» يقولُ: إن حساب باطنِ أمرِهم الذي خَفِيَ عني إلا على ربي لو تشعرون، فإنه يعلمُ سِرَّ أمرهم وعلانيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١١٥ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نوحٍ لقومه: وما أنا بطاردٍ مَنْ آمنَ بالله واتبعني على التصديقِ بما جئتُ به من عند الله. «إنْ أنا إلاَّ نَذيرٌ مُبينٌ»، يقولُ: ما أنا إلا نذيرٌ لكم من عند رَبِّكم أُنْذِرُكُمْ بأسَهُ، وسطوته على كفركم به مبين: يَقول: نذيرٌ قد أبانَ لكم إنذاره، ولم يَكْتُمكم نصيحتَهُ. «قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ»، يقولُ: قال لنوحٍ قومُه: لئن لم تنته يا نوحُ عما تقولُ، وتدعو إليه، وتعيبُ به آلهتنا، لتكوننَّ من المشتومين، يقولُ: لنشتمك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال نوح: «رَبِّ إنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ» فيما أَتيتُهم به من الحقِّ من عندك، وردُّوا عليَّ نصيحتي لهم. «فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً»، يقولُ: فاحكُمْ بيني وبينهم حكماً من عندكَ تُهْلك به المُبْطِلَ، وتنتقم به ممن كَفَرَ بك وجحدَ توحيدكَ، وكذَّبَ رسولك. «ونَجِّنِي»، يقولُ: ونجني من ذلك العذاب الذي تأتي به حكماً بيني وبينهم. «وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقولُ: والذين معي من أهلِ الإيمانِ بكَ والتصديقِ لي.

وقوله: «فَأنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ المَشْحُونِ»، يقولُ: فأنجينا نوحاً ومَنْ معه من المؤمنينَ حين فتحنا بينَهم وبينَ قومهم، وأنزلنا بأسنا بالقومِ الكافرينَ في الفلك المشحون، يعني في السفينةِ الموقرةِ المملوءة.

وقوله: «ثُمَّ أغْرَقْنَا بَعْدُ الباقِينَ» من قومه الذين كذَّبُوهُ، ورَدُّوا عليه النصيحة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فيما فعلنا يا محمدُ بنوحٍ ومَنْ معه من المؤمنينَ في الفلك المشحون، حين أنزلنا بأسنا وسَطْوتَنا، بقومِه الذين كذَّبُوه، لآية لكَ ولقومكَ المُصَدِّقيكَ منهم والمكذِّبيكَ، في أنَّ سنتنا تنجيةُ رسلنا وأتباعهم، إذا نزلت نقمتنا بالمكذِّبينَ بهم من قومهم، وإهلاك المكذّبين بالله، وكذلك سنتي فيكَ وفي قومكَ. «وما كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: ولم يكن أكثرُ قومكَ بالذين يصدِّقونكَ مما سَبَقَ في قضاءِ اللهِ أنهم لن يؤمنوا «وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ» في انتقامه ممن كفر به، وخالف أمره. «الرَّحِيمُ» بالتائب منهم، أن يعاقبه بعد توبته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَتْ عَادٌ» رُسُلَ اللهِ إليهم «إذْ قالَ لَهُمْ أخُوهُمْ هُودٌ ألاَ تَتَّقُونَ عقابَ اللهِ على كُفْرِكم به. «إنّي لَكُمْ رَسُولٌ» من ربي يأمركُمْ بطاعتِه،

ويحذِّرُكُمْ على كفركم بأسَهُ، «أمينٌ» على وحيِهِ ورسالتِه «فاتَّقُوا الله» بطاعتِه والانتهـاءِ إلى ما يأمركم وينهـاكم «وأطِيعُـونِ» فيمـا آمـركُمْ به من اتقاءِ الله وتحذيركم سطوته. «وَما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أطلبُ منكم على أمـري إياكم باتقاءِ الله جزاءً ولا ثواباً. «إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمِينَ»، يقولُ: ما جزائي وثوابي على نصيحتي إياكم إلا على ربِّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه مخبراً عن قيلِ هودٍ لقومِه: «أتَبْنُونَ بِكُلِّ ريع آيَةً تَعْبَثُـونَ»، والريع: كلّ مكانٍ مُشْرِفٍ من الأرْضِ مرتفع، ويعني بقوله «آيَةً» بنيانـاً، عَلَماً. وقد بيَّنا في غير موضع من كتابنا هذا، أنَّ الآيةَ هي الدلالة والعلامة بما أغنى من إعادتِه في هذا الموضع.

وقوله: «تَعْبَثُونَ»، قال: تلعبون.

وقوله: «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ» اختلف أهلُ التأويل في معنى المصانع، فقال بعضهم: هي قصور مُشَيَّدة.

وقال آخرون: بل هي مآخذُ للماء.

والصـواب من القـول في ذلـك أن يقال: إنَّ المصانعَ جمع مصنعة، والعربُ تسمي كل بناء مصنعة، وجائزٌ أنْ يكون ذلك البناءُ كان قصوراً وحصوناً مشيدة، وجائزٌ أنْ يكون كان مآخذَ للماء، ولا خبرَ يقطعُ العُذْرَ بأيِّ ذلك كان، ولا هو مما يُدرك من جهة العقل، فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانعَ.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ»، يقولُ: كأنكم تخلدون، فتبقون في الأرض.

وقوله: «وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ»، يقولُ: وإذا سطوتم سطوتم قتلاً بالسيوفِ، وضرباً بالسياط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيلِ هودٍ لقومِه من عادٍ: اتقوا عقابَ الله أيها القومُ بطاعتكم إياهُ فيما أَمَرَكُمْ ونهاكم، وانتهوا عن اللهوِ واللعب، وظُلْمِ الناس، وقهرِهم بالغَلَبةِ والفسادِ في الأرض، واحذروا سخطَ الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون، وأعانكم به من بين المواشي والبنين والبساتين والأنهار. «إِنِّي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ» من الله «عَظِيمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت عادٌ لنبيهم هود ﷺ: معتدلٌ عِنْدَنا وَعْظُكَ إيانا، وتَرْكُكَ الوعظَ، فلن نؤمنَ لكَ ولن نصدِّقَكَ على ما جِئْتَنا به.

وقوله: «إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قَرَأَة المدينة سوى أبي جعفر؛ وعامة قَرَأَة الكوفة المتأخرين منهم «إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ» من قَبْلِنَا. وقرأ ذلك أبو جعفر، وأبو عمرو بن العلاء «إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الأَوَّلِينَ» بفتح الخاء وتسكين اللام بمعنى: ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأَوَّلين وأحاديثهم.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، نحو اختلاف القرَّاء في قراءته،

فقال بعضهم: معناه: ما هذا إلا دين الأوَّلين وعادتهم وأخلاقهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، ما هذا إلا كذب الأوَّلين وأساطيرهم.

وأوْلى القراءتين في ذلك بالصواب قراءةُ من قرأ: «إنْ هَذَا إلَّا خُلُقُ الأوَّلِينَ» بضمّ الخاء واللام بمعنى: إنْ هذا إلا عادةُ الأوَّلينَ ودِينُهم، كما قال ابن عباس، لأنهم إنما عُوتِبُوا على البنيانِ الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطشَ الجبابرةِ، وقلة شكرهم رَبَّهم فيما أنعمَ عليهم، فأجابوا نبيهم بأنهم يفعلونَ ما يفعلونَ من ذلك، احتذاءً منهم سُنَّةَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأمم، واقتفاء منهم آثارَهُمْ، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خُلُق الأوَّلينَ، يعنون بالخلق: عادة الأوَّلين. ويزيدُ ذلك بياناً وتصحيحاً لما اخترنا من القراءةِ والتأويل قولهم: «وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبينَ» لأنهم لو كانوا لا يُقِرُّونَ بأنَّ لهم رباً يقدرُ على تعذيبهم، ما قالوا: «وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبينَ» بل كانوا يقولون: إنَّ هذا الذي جئتنا به يا هودُ إلا خُلُقُ الأوَّلين، وما لنا من معذِّبٍ يعذِّبنا، ولكنهم كانوا مُقِرِّينَ بالصانعِ، ويعبدونَ الآلهةَ، على نحو ما كان مشركو العربِ يعبدونها. ويقولون: إنَّها تُقَرِّبُنا إلى اللهِ زُلْفَى، فلذلك قالوا لهودٍ وهُمْ منكرونَ نبوّته «سَواءٌ عَلَيْنا أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ»، ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادةُ مَنْ قَبْلَنَا وأخلاقهم، وما اللهُ مُعَذِّبنا عليه. كما أخبرنا تعالى ذِكْرُه عن الأمم الخالية قبلنا، أنهم كانوا يقولون لرسلهم: «إنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فكذَّبتْ عادٌ رسولَ رَبِّهم هوداً، والهاء في قوله: «فَكَذَّبُوهُ» من ذكر هود «فَأهْلَكْناهُمْ»، يقولُ: فأهلكنا عاداً بتكذيبهم رسولَنا «إنَّ

فِي ذلكَ لآيَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إهلاكنا عاداً بتكذيبها رسولها، لعبرةً وموعظةً لقومكَ يا محمدُ، المُكذِّبيك فيما أتيتَهُمْ به من عند رَبِّكَ. «وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وما كان أكثر مَنْ أهلكنا بالذين يؤمنون في سابقِ عِلْمِ الله «وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ» في انتقامه من أعدائه، الرحيم بالمؤمنينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَتْ ثمود رُسُلَ الله، إذْ دَعاهم صالحُ أخوهم إلى الله، فقال لهم: ألا تتقون عقابَ الله يا قوم على معصيتِكُمْ إياه، وخلافِكم أمْرَهُ، بطاعتكم أمرَ المفسدينَ في أرض الله، «إنّي لَكُمْ رَسُولٌ» من الله أرسلني إليكم بتحذيركم عقوبتَهُ على خِلافِكُمْ أمرَهُ «أمِينٌ» على رسالته التي أرسلها معي إليكم «فـاتَّقُوا الله» أيها القومُ، واحذروا عقابه «وأطِيعُونِ» في تحذيري إياكم، وأمـر رَبِّكم باتبـاعِ طاعته. «وَما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أسألكم على نُصْحي إياكم، وإنذاركم من جزاء ولا ثواب «إنْ أجْرِيَ إلاَّ على رَبِّ العالَمِينَ»، يقولُ: إن جزائي وثوابي إلاَّ على ربِّ جميعِ ما في السموات، وما في الأرض، وما بينهما من خلق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ صالحٍ لقومِه من ثمود: أيترككم يا قومِ رَبُّكم في هذه الدنيا آمنينَ، لا تخافون شيئاً. «في جَنَّاتٍ وعُيُونٍ»، يقولُ: في بساتين وعيونِ ماءٍ «وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «هَضِيمٌ»، فقال بعضهم: معناه اليانع النضيج.

وقال آخرون: بل هو المُتَهَشِّمُ المتفتتُ.

وقال آخرون: هو الرطبُ اللَّيِّن.

وقال آخرون: هو الراكبُ بعضه بعضاً.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ أنْ يقال: الهضيم: هو المُتَكَسِّرُ من لِينِه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتَحَيَّفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقُّصُ منه من رطوبتِهِ ولِينِهِ إما بمسِّ الأيدي، وإما بركوبِ بعضِه بعضاً، وأصله مفعول صرف إلى فعيل.

وقوله: «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وتتخذون من الجبال بيوتاً، فاختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «فارِهِينَ» فقرأته عامة قَرَأة أهل الكوفة «فارِهِينَ» بمعنى: حاذقينَ بنحتها. وقرأته عامة قَرَأة أهل المدينة والبصرة «فَرِهِينَ» بغير ألف، بمعنى أَشِرينَ بَطِرينَ.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إن قراءة مَنْ قرأها «فارِهِينَ» وقراءة من قرأ «فَرِهِينَ» قراءتان معروفتان، مستفيضةُ القراءةُ بكلِّ واحدةٍ منهما في علماء القَرَأةِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب. ومعنى قراءة من قرأ «فَارِهِينَ»: حاذقينَ بنحتها، مُتَخَيِّرينَ لمواضعِ نحتها، كَيِّسينَ، من الفراهة. ومعنى قراءة من قرأ «فَرِهِينَ»: مَرِحِينَ أَشِرِينَ. وقد يجوزُ أنْ يكون معنى فاره وفَرِه واحداً، فيكون فاره مبنياً على بنائِه، وأصله من فعل يفعل، ويكون فَرِه صفةً، كما

يقال: فلانٌ حاذقٌ بهذا الأمر وحَذِقٌ.

وقوله: «فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاتقوا عقابَ الله أيها القومُ على معصيتكم رَبَّكم، وخلافِكُمْ أمره، وأطيعون في نصيحتي لكم، وإنذاري إياكم عقابَ الله ترشدوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ صالحٍ لقومه من ثمود: لا تطيعوا أيها القومُ أمرَ المسرفينَ على أنفسهم في تماديهم في معصيةِ الله، واجترائهم على سخطِه، وهم الرهطُ التسعةُ الذين كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون من ثمود الذين وَصَفَهُمُ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وَكانَ في المَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ» [النمل: ٤٨]، يقولُ: الذين يسعون في أرضِ الله بمعاصيه، ولا يصلحون، يقولُ: ولا يصلحون أنفسَهُمْ بالعملِ بطاعة الله.

وقوله: «إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: إنما أنتَ من المسحورين، وهو قول مجاهد.

وقال آخرون: معناه: من المخلوقين، وهو قول ابن عباس.

والصواب من القول في ذلك عندي القولُ الذي ذكرته عن ابن عباس، أنَّ معناه: إنما أنتَ من المخلوقينَ الذين يعللون بالطعام والشراب مثلنا، ولستَ رباً ولا ملكاً فنطيعك، ونعلم أنك صادقٌ فيما تقول، والمسَحَّرُ: المفعل من السحرة، وهو الذي له سحرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا

تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ ثمود لنبيها صالح «ما أنْتَ» يا صالحُ «إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا» من بني آدم تأكلُ ما نأكلُ، وتشربُ ما نشربُ، ولست بربٍّ ولا ملكٍ، فَعلامَ نَتَّبِعُكَ، فإن كنتَ صادقاً في قِيلِكَ، وأنَّ الله أرسلكَ إلينا «فَأْتِ بآيَة»، يعني: بدلالةٍ وحجةٍ على أنك محقٌّ فيما تقولُ، إنْ كنتَ ممن صدقنا في دعواه أنَّ الله أرسَلَهُ إلينا.

وقوله: «قالَ هَذِهِ ناقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْم مَعْلُومٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال صالحٌ لثمودَ لما سألوه آيةً يعلمون بها صِدْقَهُ، فأتاهم بناقةٍ أخرجها من صخرةٍ أو هضبة: هذه ناقة يا قوم، لها شِرْبٌ ولكم مِثْلُه شِرْبُ يومٍ آخر. معلومٌ ما لكم من الشرب، ليس لكم في يومِ وِرْدِهَا أنْ تشربوا من شِرْبها شيئاً، ولا لها أنْ تشربَ في يومكم مِمَّا لكم شيئاً. ويعني بالشرب: الحظّ والنصيب من الماء، يقولُ: لها حظٌّ من الماء، ولكم مِثْلُه، والشُّرْب والشِّرْب مصادر كلها بالضم والفتح والكسر.

وقوله: «وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ»، يقولُ: لا تَمَسُّوها بما يؤذيها من عَقْرٍ وقتلٍ ونحوِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخالفت ثمود أمرَ نَبِيِّها صالح ﷺ، فعقروا الناقة التي قال لهم صالح: لا تَمَسُّوها بسوءٍ، فأصبحوا نادمينَ على عقرها، فلم ينفعهم

ندمهم، وأخذهم عذابُ الله الذي كان صالح تَوَعَّدَهُمْ به فأهلكهم «إنَّ في ذلكَ لآيَةً»، يقولُ: إنَّ في إهلاكِ ثمود بما فعلتْ من عقرها ناقةَ الله وخلافها أمر نبيٍّ الله صالح لعبرةً لمن اعتبرَ به يا محمدُ من قومكَ. «وما كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ»، يقولُ: ولن يؤمن أكثرهم في سابقِ عِلْمِ الله «وَإنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «لَهُوَ العَزِيزُ» في انتقامه من أعدائه «الرَّحِيمُ» بمن آمنَ به من خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ» مَنْ أرسَلَهُ اللهُ إليهم من الرسل حين «قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ لُوطٌ: ألاَ تَتَّقُونَ» اللهَ أيها القومُ «إنّي لَكُمْ رَسُولٌ» من ربِّكم «أمِينٌ» على وحيه، وتبليغ رسالته «فاتَّقُوا اللهَ» في أنفسكم، أنْ يحلَّ بكم عقابُه على تكذيبكم رسوله «وأطِيعُونِ» فيما دَعَوْتُكُمْ إليه أَهْدِكُمْ سبيلَ الرشاد: «وما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقولُ: وما أسألكم على نصيحتي لكم ودعايتكم إلى ربي جزاءً ولا ثواباً. «إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمِينَ»، يقولُ: ما جزائي على دعايتكم إلى الله، وعلى نُصحي لكم وتبليغ رسالاتِ الله إليكم، إلا على ربِّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾

يعني بقوله: «أتأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العالَمِينَ»: أتنكحون الذكران من بني

آدمَ في أدبارهم.

وقـولـه: «وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ»، يقولُ: وتَدَعُونَ الذي خلق لكم رَبُّكم من أزواجكم من فروجهنَّ، فأحلَّهُ لكم.

وقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ»، يقولُ: بل أنتم قومٌ تتجاوزونَ ما أباحَ لكم رَبُّكم، وأحَلَّهُ لكم من الفروجِ إلى ما حَرَّمَ عليكم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قوم لوط: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ» عن نَهْيِنَا عن إتيانِ الذُّكرانِ «لَتَكُونَنَّ مِنَ المُخْرَجِينَ» من بين أَظْهُرِنَا وبَلَدِنَا «قال إنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القالِينَ»، يقولُ لهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونَهُ من إتيانِ الذكرانِ في أدبارهم من القالينَ، يعني من المُبْغِضِينَ، المُنْكِرينَ فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستغاثَ لوطٌ حين تَوَعَّدَهُ قومُه بالإخراجِ من بلدهم إنْ هو لم يَنْتَهِ عن نهيهم عن ركوبِ الفاحشة، فقال: «رَبِّ نَجِّني وَأَهْلِي» من عقوبتكَ إياهم على ما يعملون من إتيانِ الذكران «فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ من عقوبتنا التي عاقبنا بها قومَ لوط «أجمَعينَ إلاَّ عَجُوزاً في الغابِرينَ»، يعني في الباقين، لطولِ مرورِ السنين عليها، فصارت هَرِمةً، فإنها أُهْلِكت من بينِ أهلِ لوط، لأنها كانت تدلُّ قومَها على الأضيافِ. وقد قيل: إنما قيل من الغابرينَ لأنها لم تهلكْ مع قومها في قريتهم، وأنها إنما أصابها الحجرُ بعدما خرجتْ عن قريتهم مع

لوطٍ وابنتيه، فكانت من الغابرينَ بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطرَ على بقايا قوم لوطٍ من الحجارة، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أهلكنا الآخرينَ من قومِ لوطٍ بالتدمير «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً» وذلك إرسال الله عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ من السماء «فَساءَ مَطَر المُنْذَرِينَ»، يقولُ: فبئسَ ذلك المطرُ مَطَرُ القومِ الذين أنذرهم نَبِيُّهم فكذَّبُوه. «إنَّ في ذلك لآيةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إهلاكنا قومَ لوطٍ الهلاكَ الذي وَصَفْنا بتكذِيبهم رسولَنَا، لعبرةً وموعظةً لقومكَ يا محمدُ، يَتَّعِظُونَ بها في تكذيبهم إياكَ، وردِّهم عليكَ ما جئتهم به من عندِ رَبِّكَ من الحقِّ «وَمَا كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» في سابقِ عِلْمِ الله «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ» بمن آمنَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «كَذَّبَ أصحابُ الأَيْكَةِ»، والأيكة: الشجرُ المُلْتَفُّ، وهي واحدة الأيك.

وأصحاب الأيكة: هم أهلُ مَدْيَنَ فيما ذُكِر.

وقـولـه: «إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ألا تَتَّقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال لهم شعيب: ألا تتقون عقابَ الله على معصيتكم رَبَّكُمْ «إنِّي لَكُمْ» من اللهِ «رَسُولٌ أمِينٌ» على وحيهِ «فاتَّقُوا» عقابَ الله على خلافِكم أمرَهُ «وأطِيعُونِ» تَرْشُدُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١﴾

يقـولُ: «وَمَـا أَسْأَلُكُمْ» على نُصْحي لكم من جزاء وثواب، ما جزائي وثوابي على ذلكَ «إلَّا عَلى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أوْفُوا الكَيْلَ»، يقولُ: أوفوا الناسَ حقـوقَهُم من الكيلِ. «وَلا تَكُـونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ»، يقولُ: ولا تكونوا ممن نقصَهم حقوقَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣﴾

يعني بقـولـه: «وزِنُوا بالقِسْطاسِ» وزِنُوا بالميزانِ «المُسْتَقِيمِ» الذي لا بخسَ فيه على مَنْ وزنتم له «وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْياءَهُمْ»، يقولُ: ولا تنقصوا الناسَ حقوقهم في الكيلِ والوزن «وَلا تَعْثَوْا في الأرْضِ مُفْسِدِينَ»، يقولُ: ولا تُكْثِرُوا في الأرْضِ الفسادَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «وَاتَّقُوا أيها القومُ عقابَ رَبِّكم «الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَ» خَلَقَ «الجبلةَ الأَوَّلِينَ» يعني بالجِبِلَّة: الخَلْقَ الأوَّلين.

وقوله: «قالُوا إنَّمَا أنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ»، يقولُ: قالوا: إنما أنتَ يا شعيبُ معللٌ تعللَ بالطعامِ والشراب، كما نعلل بهما، ولست ملَكاً «وما أنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا» تأكلُ وتشربُ «وَإنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكاذِبينَ»، يقولُ: وما نَحْسَبُكَ فيما تُخْبِرُنا وتَـدْعُونَا إليه، إلا مِمَّنْ يكذِبُ فيما يقولُ، فإنْ كنتَ صادقاً فيما تقولُ بأنك رسولُ الله كما تزعم. «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ»، يعني قِطعاً من السماء، وهي جمع كِسفة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال شُعيبٌ لقومِه: «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ»، يقولُ: بأعمالهم هو بها محيطٌ، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مُجازيكم بها جزاءَكم. «فَكَـذَّبُوهُ»، يقولُ: فكذَّبه قومُه «فأَخَذَهُمْ عَذَابُ يومِ الظُّلَّةِ»، يعني بالظلة: سحابةٌ ظللتهم، فلما تَتامُّوا تحتها التهبتْ عليهم ناراً وأحرقتهم.

وقوله: «إنَّهُ كانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: إنَّ عذابَ يومِ الظلة كانَ عذابَ يومٍ لقومِ شُعيب عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في تعذيبنا قومَ شُعيب عذابَ يومِ الظُّلَّةِ بتكذيبهم

نبيهم شُعيباً لآيةٍ لقومك يا محمدُ، وعبرة لمن اعتبر، إن اعتبروا أنَّ سنتنا فيهم بتكذيبهم إياكَ سُنَّتَنا في أصحابِ الأيكة. «وما كانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» في سابقِ عِلْمِنَا فيهم «وَإِنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «لَهُوَ العَزِيزُ» في نقمتِه ممن انتقمَ منه من أعدائِه «الرَّحِيمُ» بمن تابَ من خَلْقِه، وأنابَ إلى طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القرآنَ لتنزيلُ ربِّ العالمين، والهاء في قوله: «وَإِنَّهُ» كنايةُ الذِّكرِ الذي في قوله: «وَما يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْر مِنَ الرَّحْمَنِ» [الشعراء: ٥].

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ» فقرأته عامةُ قَرَأة الحجاز والبصرة «نَزَلَ بِهِ» مخففة «الرُّوحُ الأَمِينُ» رفعاً بمعنى: أنَّ الروحَ الأمينَ هو الذي نزل بالقرآنِ على محمدٍ، وهو جبريل، وقرأ ذلك عامة قَرَأة أهل الكوفة «نَزَّلَ» مشددة الزاي «الرُّوحَ الأَمِينَ» نصباً، بمعنى: أنَّ ربَّ العالمين نَزَّلَ بالقرآنِ الروحَ الأمينَ، وهو جبريل عليه السلام.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أنْ يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قَرَأةِ الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب، وذلك أنَّ الروحَ الأمين إذا نزل على محمدٍ بالقرآن، لم ينزل به إلا بأمرِ الله إياهُ بالنزولِ، ولَنْ يجهلَ أنَّ ذلك كذلك ذُو إيمانٍ بالله، وأنَّ الله إذا أنزله به نزل.

وقوله: «عَلى قَلْبِكَ»، يقولُ: نزل به الروحُ الأمينُ فتلاه عليكَ يا محمدُ، حتى وَعَيْتَهُ بقلبكَ.

وقوله: «لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ»، يقولُ: لتكون من رُسُلِ الله الذين كانوا

ينذرونَ مَنْ أُرْسِلُوا إليه من قومهم، فتنذرَ بهذا التنزيلِ قومكَ المكذِّبينَ بآياتِ الله.

وقوله: «بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»، يقولُ: لتنذرَ قومكَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، يبينُ لمن سمعه أنه عربيٌّ، وبلسانِ العرب نزل، والباء من قوله: «بِلِسانٍ» من صِلَةِ قولِه: «نَزَلَ»، وإنما ذكر تعالى ذِكْرُه أنه نزل هذا القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبين في هذا الموضع، إعلاماً منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك، لئلا يقولوا إنه نزلَ بغيرِ لساننا، فنحنُ إنما نعرضُ عنه ولا نسمعُه، لأنَّا لا نفهمه، وإنما هذا تقريعٌ لهم، وذلك أنه تعالى ذِكْرُه قال: «مَا يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَن مُحْدَثٍ إلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» [الشعراء: ٥]، ثم قال: لم يُعْرِضُوا عنه لأنهم لا يفهمونَ معانيه، بل يفهمونها، لأنه تنزيلُ ربِّ العالمين نزلَ به الروحُ الأمينُ بلسانهم العربيِّ، ولكنهم أعرضوا عنه تكذيباً به واستكباراً «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيأْتيهِمْ أنباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ» [الشعراء: ٦] كما أتى هذه الأممَ التي قَصَصْنا نبأَها في هذه السورة حين كذَّبَتْ رُسُلَها أنباء ما كانوا به يُكذبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وإن هذا القرآن لفي زُبُرِ الأوَّلينَ: يعني في كُتُبِ الأوَّلينَ، وخرج مَخْرَجَ العموم ومعناهُ الخصوص، وإنما هو: وإنَّ هذا القرآن لفي بعضِ زبر الأوَّلين، يعني: أنَّ ذِكْرَهُ وخَبَرَهُ في بعضِ ما نزلَ من الكتبِ على بعضِ رسله.

وقوله: «أوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إسْرائِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يكن لهؤلاءِ المُعْرِضِينَ عما يأتيك يا محمدُ من ذكر ربك، دلالةً على أنكَ رسولُ ربِّ العالمين، أنْ يعلم حقيقةَ ذلك وصِحَّتَهُ علماءُ بني إسرائيل. وقيل: عَنَى بعلماء بني إسرائيل في هذا الموضع: عبدالله بن سلام ومَنْ أَشْبَهَهُ ممن كان قد آمنَ برسولِ الله ﷺ من بني إسرائيل في عصره.

وقوله: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: ولو نَزَّلْنا هذا القرآنَ على بعضِ البهائمِ التي لا تنطقُ، وإنما قيل على بعض الأعجمين، ولم يقل على بعض الأعجميين، لأنَّ العربَ تقول إذا نَعتتِ الرجلَ بالعُجْمةِ وأنه لا يفصحُ بالعربية: هذا رجل أعْجم، وللمرأة: هذه إمرأة عَجْماء، وللجماعة: هؤلاءِ قوم عُجْمٌ وأعجمون، وإذا أريد هذا المعنى وصف به العربيّ والأَعْجَميّ، لأنه إنما يعني أنه غير فصيحِ اللسان، وقد يكون كذلك، وهو من العرب. فأما إذا أُريدَ به نسبةُ الرجلِ إلى أصله من العجم، لا وصفه بأنه غيرُ فصيحِ اللسانِ، فإنه يقال: هذا رجل عجميٌّ، وهذان رجلان عجميان، وهؤلاءِ قوم عَجَمٌ، كما يقال: عربيٌّ، وعربيان، وقوم عرب. وإذا قيل: هذا رجل أعجميٌّ، فإنما نسب إلى نفسه كما يقال للأحمر: هذا أحمري ضخم. وقوله: «فَقَرَأهُ عَلَيْهِمْ»، يقولُ: فقرأَ هذا القرآنَ على كفارِ قومكَ يا محمدُ الذين حتمتْ عليهم أنْ لا يؤمنوا ذلك الأعجمُ ما كانوا به مؤمنينَ: يقولُ: لم يكونوا ليؤمنوا به، لما قد جرى لهم في سابقِ عِلْمي من الشقاء.

وهذا تسليةٌ من الله نبيه محمداً ﷺ عن قومه، لئلا يشتدَّ وَجْدَه بإدبارِهم عنه، وإعراضِهم عن الاستماعِ لهذا القرآنِ، لأنه كان ﷺ شديداً حِرْصُه على قبولهم منه، والدخول فيما دعاهم إليه، حتى عاتبه ربّه على شدَّةِ حِرْصِه على ذلك منهم، فقال له: «لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [الشعراء: ٣]، ثم قال مُؤْيِسَهُ من إيمانِهم وأنهم هالكونَ ببعضِ مثلاته، كما هلك بعضُ الأمم

الذين قصَّ عليهم قصصهم في هذه السورة، ولو نزَّلناهُ على بعض الأعجمين يا محمدُ لا عليكَ، فإنك رجل منهم، ويقولون لكَ: ما أنتَ إلا بشرٌ مثلنا، وهَلَّا نزلَ به ملك، فقرأ ذلك الأعجمُ عليهم هذا القرآنَ، ولم يكن لهم علة يدفعونَ بها أنه حقٌّ، وأنه تنزيلٌ من عندي، ما كانوا به مُصَدِّقينَ، فَخَفِّضْ من حِرْصِكَ علىٰ إيمانهم به، ثم وَكَّدَ تعالى ذِكْرُه الخبرَ عما قد خَتَّمَ على هؤلاءِ المشركينَ، الذين آيسَ نبيه محمداً ﷺ من إيمانِهم من الشقاءِ والبلاءِ، فقال: كما حتمنا على هؤلاءِ أنهم لا يؤمنون بهذا القرآن «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ» فقـرأه عليهم «كَـذَلِـكَ نَسْلُكُـه» التكـذيبُ والكفـر «في قُلُوبِ المجرِمِينَ». ويعني بقوله: سلكنا: أَدْخَلْنَا، والهاء في قوله «سَلَكْنَاهُ» كناية من ذكرِ قوله: «ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ»، كأنه قال: كذلك أدخلنا في قلوبِ المجرمين تركَ الإيمانِ بهذا القرآن.

وقوله: «لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حتى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ»، يقولُ: فعلنا ذلك بهم لئلا يُصَدِّقُوا بهذا القرآنِ، حتى يروا العذابَ الأليمَ في عاجل الدنيا، كما رأت ذلك الأممُ الذين قَصَّ اللهُ قَصصهم في هذه السورة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٠٢ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيأتي هؤلاءِ المكذِّبينَ بهذا القرآن، العذابُ الأليمُ «بَغْتَةً»، يعني فجأة. «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم بغتةً «فَيَقُولُوا» حين يأتيهم بغتة «هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ»: أي هل نحنُ مؤخَّرٌ عنا العذابُ، ومُنْسأٌ في آجالنا لنتوبَ، ونُنِيبَ إلى اللهِ من شِرْكنا وكُفْرِنَا باللهِ، فنراجع الإيمانَ به، وننيب إلى طاعته.

وقوله: «أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفبعذابنا هؤلاءِ المشركونَ يستعجلون بقولهم: لن نؤمنَ لك حتى تُسقط السماءَ كما زعمتَ علينا كسفاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم جاءهم العذابُ الذي كانوا يُوعَدُونَ على كُفْرِهم بآياتنا، وتكذيبهم رسولَنا، «ما أَغْنَى عَنْهُمْ»، يقولُ: أيّ شيء أغنى عنهم التأخيرُ الذي أخَّرْنَا في آجالهم، والمتاعُ الذي مَتَّعناهُمْ به من الحياة، إذْ لم يتوبوا من شركهم، هل زادهم تمتيعنا إياهم ذلك إلا خبالاً، وهل نفعهم شيئاً، بل ضَرَّهُمْ بازديادِهم من الآثامِ، واكتسابِهم من الإجرامِ ما لو لم يُمَتَّعُوا لم يكتسبوه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ» من هذه القرى التي وصفتُ في هذه السور «إلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ»، يقولُ: إلا بعدَ إرسالِنا إليهم رسلاً ينذرونهم بأسَنا على كفرهم وسخطنا عليهم. «ذِكْرَى»، يقولُ: إلا لها منذرون ينذرونهم، تذكرةً لهم وتنبيهاً لهم على ما فيه النجاةُ لهم من عذابنا.

قوله: «وَما كُنَّا ظالِمِينَ»، يقولُ: وما كنا ظالميهم في تَعْذِيبِنَاهُمْ وإهلاكهم، لأنَّا إنما أهلكناهم، إذ عَتَوْا علينا، وكفروا نِعْمَتنا، وعبدوا غيرَنا بعد

الإعذارِ عليهم والإنذار، ومتابعةِ الحججِ عليهم بأنَّ ذلك لا ينبغي أن يفعلوه، فأبوا إلا التمادي في الغيّ.

وقوله: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما تنزَّلَتْ بهذا القرآنِ الشياطينُ على محمدٍ، ولكنه ينزل به الروح الأمين «وَما يَنْبَغِي لَهُمْ»، يقولُ: وما ينبغي للشياطين أنْ ينزلوا به عليه، ولا يصلح لهم ذلك «وَما يَسْتَطِيعُونَ»، يقولُ: وما يستطيعون أنْ يتنزَّلوا به، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ»، يقولُ: إنَّ الشياطين عن سمعِ القرآنِ من المكانِ الذي هو به من السماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أنْ يتنزَّلوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «فَلا تَدْعُ» يا محمدُ، «مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ»: أي لا تعبد معه معبوداً غيره «فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ» فينزل بك من العذابِ ما نزلَ بهؤلاءِ الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا.

وقوله: «وأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنذر عشيرتَكَ من قومكَ الأقربينَ إليك قرابةً، وحذِّرْهُم من عذابنا أنْ ينزلَ بهم بكفرهم.

وذُكر أن هذه الآية لما نزلت، بدأ ببني جَدِّهِ عبدِالمطلب وولده، فحذَّرَهُمْ وأنذرهم.

وقوله: «وَاخْفِضْ جَناحَكَ»، يقولُ: وألِنْ جانبَكَ وكلامَكَ «لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ عصتك يا محمدُ عشيرتكَ الأقربونَ الذين أمرتُكَ بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامةَ على عبادةِ الأوثان، والإشراكَ بالرحمنِ، فقل لهم: «إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» من عبادةِ الأصنام ومعصية باريء الأنام «وتَوَكَّلْ على العَزيزِ» في نقمته من أعدائه «الرَّحِيمِ» بمن أنابَ إليه وتابَ من معاصيه، «الَّذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ»، يقولُ: الذي يراك حين تقومُ إلى صلاتكَ.

«وتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ويرى تَقَلُّبَكَ في صلاتكَ حين تقومُ، ثم تركع، وحين تسجد.

وقال آخرون: بل معنى ذلكَ: ويرى تقلبك في المصلين، وإبصارَكَ منهم مَنْ هو خلفك، كما تبصر مَنْ هو بين يديك منهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتقلبك مع الساجدين: أي تَصَرُّفَكَ معهم في الجلوسِ والقيام والقعود.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ويرى تصرُّفَكَ في الناس.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتصرُّفك في أحوالك كما كانت الأنبياءُ من قبلك تفعله، والساجدون في قولِ قائلِ هذا القول: الأنبياء.

وأولى الأقوال في ذلك بتأويله قولُ مَنْ قال تأويله: ويرى تقلبكَ مع الساجدينَ في صلاتهم معكَ، حين تقومُ معهم وتركع وتسجد، لأنَّ ذلك هو الظاهر من معناه. فأما قولُ مَنْ وجَّهه إلى أن معناه: وتقلبك في الناس، فإنه قولٌ بعيد من المفهومِ بظاهرِ التلاوة، وإنْ كان له وجه، لأنه وإنْ كان لا شيءَ إلا وظلُّه يسجدُ لله، فإنه ليس المفهوم من قولِ القائل: فلانٌ مع الساجدين، أو في الساجدين، أنه مع الناسِ أو فيهم، بل المفهومُ بذلك أنه مع قومٍ سُجودٍ، السجودَ المعروفَ، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأغلبِ أولى من توجيههِ إلى الأنكرِ، وكذلك أيضاً في قولِ مَنْ قال: معناه: تتقلَّبُ في أبصار الساجدين، وإنْ كان له وجه، فليس ذلك الظاهر من معانيه.

فتأويلُ الكلام إذن: وتوكَّلْ على العزيز الرحيم، الذي يراكَ حين تقومُ إلى صلاتك، ويرى تَقَلُّبَكَ في المُؤْتَمِّينَ بكَ فيها بين قيامٍ وركوعٍ وسجود وجلوس.

وقوله: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربك هو السميعُ تلاوتَكَ يا محمدُ، وذِكْرَكَ في صلاتك ما تتلو وتذكر، العليمُ بما تعملُ فيها ويعملُ فيها من يتقلَّبُ فيها معكَ مؤتماً بك، يقولُ: فرتلْ فيها القرآنَ، وأَقِمْ حُدودَها، فإنك بمرأى من رَبِّكَ ومسمع.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ» أيها الناسُ «عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ» من الناسِ؟ «تَنزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ» يعني كذّابٍ بَهَّاتٍ «أثِيمٍ» يعني: آثم.

وقوله: «يُلْقُونَ السَّمْعَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يلقي الشياطينُ السمعَ، وهو

ما يسمعونَ مما اسْتَرَقُوا سَمْعَهُ من حين حَدَثَ من السماء إلى «كُلِّ أفاكٍ أثِيمٍ» من أوليائِهم من بني آدم.

وقوله: «وأكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ»، يقولُ: وأكثرُ من تَنَزَّلُ عليه الشياطينُ كاذبونَ فيما يقولونَ ويخبرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والشعراءُ يتبعهم أهلُ الغيِّ لا أهلُ الرشادِ والهدى.

واختلف أهلُ التأويل في الذين وصفوا بالغيِّ في هذا الموضع فقال بعضهم: رُوَاةُ الشعر.

وقال آخرون: هم الشياطين.

وقال آخرون: هم السفهاء، وقالوا: نَزَلَ ذلك في رجلين تهاجَيا على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: هم ضلال الجنِّ والإنس.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال فيه ما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إن شعراء المشركينَ يتبعهم غُواةُ الناس، وَمَرَدَةُ الشياطين، وعُصَاةُ الجنِّ، وذلك أنَّ الله عَمَّ بقوله: «والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» فلم يخصصْ بذلك بعضَ الغواةِ دونَ بعضٍ، فذلك على جميعِ أصنافِ الغواةِ التي دخلت في عموم الآية.

قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تر يا محمدُ أنهم، يعني الشعراء في كلِّ وادٍ يذهبون، كالهائمِ على وجههِ على غيرِ قصدٍ، بل جائراً على الحقِّ، وطريقِ الرشاد، وقصد السبيل.

وإنما هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ لهم في افتنانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حقٍّ، فيمدحونَ بالباطل قوماً ويهجونَ آخرينَ كذلك بالكذبِ والزور.

وقوله: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ»، يقولُ: وأنَّ أكثرَ قِيلِهم باطلٌ وكَذِبٌ.

وقوله: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وهذا استثناء من قوله: «والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ـ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». وذُكِرَ أنَّ هذا الاستثناء نزل في شعراء رسولِ الله ﷺ، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ثم هو لكلِّ مَنْ كان بالصفةِ التي وَصَفَهُ اللهُ بها.

وقوله: «وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً»، اختلف أهلُ التأويل في حال الذكر الذي وصف الله به هؤلاءِ المستثنينَ من الشعراء، فقال بعضهم: هي حال منطقهم ومحاورتهم الناسَ، قالوا: معنى الكلام: وذكروا اللهَ كثيراً في كلامهم.

وقال آخرون: بل ذلك شِعْرُهم.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله وصف هؤلاءِ الذين استثناهم من شعراءِ المؤمنينَ بذكرِ الله كثيراً، ولم يخص ذكرهم الله على حالٍ دونَ حالٍ في كتابِه، ولا على لسانِ رسولِه فَصِفَتُهم أنهم يذكرونَ الله كثيراً في كلِّ أحوالهم.

وقوله: «وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا»، يقولُ: وانتصروا مِمَّنْ هَجَاهُمْ من شعراءِ المشركينَ ظلماً بشعرهم وهجائهم إياهم، وإجابتهم عما هجوهم به.

وقوله: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسيعلمُ الذين ظلموا أنفسَهُمْ بِشِرْكِهم باللهِ من أهلِ مكة «أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»، يقولُ: أيَّ مرجعٍ يرجعونَ إليه، وأيَّ معادٍ يعودونَ إليه بعد مماتهم، فإنهم يصيرونَ إلى نارٍ لا يُطفأ سعيرُهَا، ولا يَسْكُن لهبها.

سُورَةُ النَّمْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾

وقد بيَّنا القولَ فيما مضى من كتابنا هذا فيما كان من حروفِ المعجم في فواتح السور، فقوله: «طسٓ» من ذلك[1]. وقد رُوي عن ابن عباس أن قوله: «طسٓ»: قَسَمٌ أقسمه الله، هو من أسماء الله.

وقال بعضهم: «الطاء من اللطيف والسين من السَّميع»[2]، فالواجبُ على هذا القول أن يكون معناه: والسميع اللطيف، إنَّ هذه الآيات التي أنزلتُها إليكَ يا محمدُ لآيات القرآن، وآيات كتاب مبين. يقولُ: يبينُ لمن تدبَّرَهُ، وفكَّرَ فيه بفهمٍ أنه من عندِ الله، أنزلَهُ إليكَ، لم تتخرَّصْهُ أنتَ ولم تتقوَّلْهُ، ولا أحد سواك من خَلْقِ الله، لأنه لا يقدرُ أحدٌ من الخلق أن يأتي بمثله، ولو تظاهرَ عليه الجنُّ والإنسُ. وخفض قوله: «وكِتابٍ مُبينٍ» عطفاً به على القرآن.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

(٢) وقع هنا سقط في المطبوعات والمخطوط، فاستدركنا ما بين الحاصرتين من (زاد المسير) لابن الجوزي ٦/١٥٤ ليتسق المعنى.

وقوله: «هُدًى» من صِفَةِ القرآنِ، يقولُ: هذه آياتُ القرآنِ بيانٌ من الله بَيَّنَ به طريقَ الحقِّ وسبيلَ السلام. «وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: وبشارة لمن آمنَ به، وصدَّقَ بما أنزل فيه بالفوز العظيم في المعاد.

وقوله: «والَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ»، يقولُ: هو هُدى وبُشْرى لمن آمنَ بها، وأقامَ الصلاةَ المفْروضةَ بحدودها.

وقوله: «وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ»، يقولُ: ويؤدُّونَ الزكاةَ المفروضة. وقيل: معناه: ويُطَهِّرُونَ أجسادهم من دَنَسِ المعاصي. «وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»، يقولُ: وهم مع إقامتهم الصلاةَ، وإيتائهم الزكاةَ الواجبةَ بالمعادِ إلى الله بعد المماتِ يُوقِنُونَ، فيذلون في طاعةِ الله، رجاءَ جزيلِ ثوابهِ، وخوفَ عظيمِ عقابهِ، وليسوا كالذين يكذِّبُونَ بالبعثِ، ولا يبالون، أحْسَنُوا أمْ أساؤوا وأطاعوا، أم عصوا، لأنهم إنْ أحسنوا لم يرجوا ثواباً، وإنْ أساؤوا لم يخافوا عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن الذين لا يصدِّقُونَ بالدارِ الآخرة، وقيامِ الساعة، وبالمعادِ إلى الله بعد المماتِ والثواب، والعقابِ «زَيَّنا لَهُمْ أعمالَهُمْ»، يقولُ: حَبَّبْنَا إليهم قبيحَ أعمالهم، وسَهَّلْنَا ذلك عليهم «فَهُمْ يَعْمَهُونَ»، يقولُ: فهم في ضلالِ أعمالهم القبيحة التي زَيَّناها لهم يتردَّدُونَ حيارى، يحسبون أنهم يحسنون.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ لهم سُوءُ العذابِ في الدنيا، وهم الذين قتلوا ببدر من مشركي

قريش. «وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ»، يقول: وهم يومَ القيامةِ هم الأوضعونَ تجارةً والأوكَسُوهَا باشترائِهم الضلالةَ بالهدى. «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» [البقرة: ١٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنك يا محمدُ لَتُحَفَّظُ القرآنَ وتعلمه «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ»، يقولُ: من عند حكيمٍ بتدبيرِ خَلْقِه، عليمٍ بأنباء خلقه ومصالحهم، والكائن من أمورهم، والماضي من أخبارهم، والحادث منها «إِذْ قَالَ مُوسَى» وإِذْ من صِلَةِ عليم، ومعنى الكلام: عليم حين قال موسى «لأَهْلِهِ» وهو في مسيرِه من مدينَ إلى مصرَ، وقد آذاهم بردُ ليلِهم لما أَصْلَدَ زَنْدُه[1] «إِنِّي آنَسْتُ ناراً»: أي أبصرتُ ناراً أو أَحْسَسْتُها، فامكثُوا مكانكم «سآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ»، يعني من النار، والهاء والألف من ذكر النار، «أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبسٍ».

واختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة «بِشِهاب قَبَسٍ» بإضافة الشهابِ إلى القبس، وترك التنوين، بمعنى: أو آتيكم بشعلةِ نارٍ أقتبسها منها. وقرأ ذلك عامة قَرَأة أهل الكوفة: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» بتنوين الشهاب وترك إضافته إلى القبس، يعني: أو آتيكم بشهاب مقتبس.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

---

(١) أصلد الزَّنْدُ: صَوَّتَ ولم يُورِ، أي صوت ولم يُخْرِجْ ناراً.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»، يقولُ: كي تصطلوا بها من البرد.

وقوله: «فَلَمَّا جاءَها»، يقولُ: فلما جاء موسى النار التي آنسها «نُودِيَ أنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ومَنْ حَوْلَهَا».

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «مَنْ فِي النَّارِ»، فقال بعضهم: عَنَى جلَّ جلاله بذلك نفسه، وهو الذي كان في النار، وكانت النارُ نورَهُ تعالى ذِكْرُه في قول جماعةٍ من أهلِ التأويل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: بُورِكَتِ النارُ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى النار في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: النورُ كما ذكرتُ عمن ذكرتُ ذلك عنه.

وقال آخرون: معناه النارُ لا النورُ.

وقوله: «وَمَنْ حَوْلَها»، يقولُ: ومَنْ حولَ النارِ. وقيل: عَنَى بمن حولها: الملائكة.

وقال آخرون: هو موسى والملائكة.

وقوله: «وَسُبْحانَ الله رَبِّ العَالَمِينَ» يقولُ: وتنزيهاً لله ربِّ العالمين، مما يَصِفُه به الظالمون.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيله لموسى: «إِنَّهُ أنا اللهُ العَزِيزُ» في نقمته من أعـدائه «الحَكِيمُ» في تدبيره في خَلْقِه، والهاء التي في قوله: «إِنَّهُ» هاء

عماد، وهم اسمٌ لا يظهرُ في قولِ بعضِ أهلِ العربية، وقال بعض نحويي الكوفة: يقول هي الهاء المجهولة، ومعناها: أنَّ الأمر والشأن: أنا الله.

وقـولـه: «وألْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ» في الكلام محذوف تُرك ذِكْرُه، استغناءً بما ذُكِر عما حُذف، وهو: فألقاها فصارتْ حَيَّةً تهتزُّ «فَلَمَّا رآها تَهْتَزُّ كأنَّها جانٌّ»، يقولُ: كأنها حيةٌ عظيمة، والجانّ: جنس من الحيات معروف.

وقوله: «وَلَّى مُدْبراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وَلَّى موسى هارباً خوفاً منها. «وَلَمْ يُعَقِّبْ»، يقولُ: ولم يرجع، من قولهم: عقب فلان: إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ.

وقوله: «يا موسَى لا تَخَفْ إنِّي لا يَخاف لَديَّ المُرْسَلُونَ إلاَّ مَنْ ظَلَمَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فناداه رَبُّهُ: يا موسى لا تَخَفْ من هذه الحيةِ، إني لا يخافُ لديَّ المرسلون: يقولُ: إني لا يخافُ عندي رسلي وأنبيائي الذين أَخْتَصُّهم بالنبوَّةِ، إلا مَنْ ظلم منهم، فعملَ بغيرِ الذي أُذِنَ له في العملِ به.

وقوله: «ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْد سُوءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فمن أتى ظلماً من خَلْقِ الله، وركب مأثماً، ثم بَدَّلَ حُسناً، يقولُ: ثم تابَ من ظُلْمِه ذلك، وركوبه المأثم، «فإني غَفُورٌ»، يقولُ: فإني ساترٌ على ذنبه وظلمه ذلك بعفوي عنه، وتركِ عقوبته عليه «رَحِيمٌ» به أن أعاقبه بعد تبديله الحسن بضده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِه لنبيه موسى: «وأدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ» ذُكِرَ أنه تعالى ذِكْرُه أمره أنْ يُدْخِلَ كَفَّهُ في جيبه، وإنما أمره بإدخالِه في جيبه، لأنَّ الذي كان عليه يومئذٍ مِدرعة من صوفٍ. قال بعضهم: لم يكن لها كُمٌّ.

وقال بعضهم: كان كُمُّهَا إلى بعضِ يده.

وقوله: «تَخْرُجْ بَيْضَاءَ»، يقولُ: تخرج اليدُ بيضاءَ بغير لونِ موسى «من غيرِ سُوءٍ»، يقولُ: من غير بَرَصٍ في تسعِ آياتٍ، يقول تعالى ذِكْرُه: أدخِلْ يدكَ في جيبكَ تخرجْ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ، فهي آية في تسعِ آياتٍ مُرْسَلٌ أنتَ بهنَّ إلى فرعون، وتركِ ذِكْرَ مُرْسَل لدلالة قوله: «إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ» على أن ذلك معناه.

والآياتُ التسـع: هُنَّ: العصـا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والطوفان، والدم، والحجر، والطمس الذي أصابَ آلَ فرعونَ في أموالهم.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وقومه من القبط كانوا قوماً فاسقين، يعني كافرينَ بالله، وقد بَيَّنا معنى الفسق فيما مضى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءت فرعونَ وقومَهُ آياتُنَا، يعني أدِلَّتَنَا وحججنا، على حقيقةِ ما دعاهم إليه موسى وصحته وهي الآيات التسع التي ذكرناها قَبْلُ.

وقوله: «مُبْصِرَةً»، يقولُ: يُبْصِرُ بها مَنْ نظرَ إليها ورآها حقيقةَ ما دَلَّتْ عليه.

]قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبينٌ»، يقولُ: قال: فرعون وقومه: هذا الذي جاءنا به موسى سحرٌ مبين، يقولُ: يبينُ للناظرينَ له أنه سحرٌ.

وقوله: «وَجَحَدُوا بِهَا»، يقولُ: وكَذَّبُوا بالآياتِ التسعِ أنْ تكونَ من عند الله.

وقوله: «وَاسْتَيْقَنَتْهَا أنْفُسُهُمْ»، يقولُ: وأيقنتها قلوبُهم، وعلموا يقيناً أنها من عند الله، فعاندوا بعد تَبَيُّنِهم الحقَّ، ومَعْرفتهم به.

وقوله: «ظُلْماً وَعُلُوّاً»، يعني بالظلم: الاعتداء، والعلوّ، الكِبْر، كأنه قيل: اعتداء وتَكَبُّراً.

وقوله: «فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فانظر يا محمدُ بعينِ قلبكَ كيف كان عاقبةُ تكذيبِ هؤلاءِ الذين جحدوا آياتنا حين جاءتهم مُبْصِرَةً، وماذا حلَّ بهم من إفسادِهم في الأرض ومعصيتهم فيها رَبَّهم، وأعقبوا ما فعلوا، فإنَّ ذلك أخرجهم من جناتٍ وعيونٍ، وزروعٍ ومقامٍ كريم، إلى هلاكٍ في العاجل بالغرق، وفي الآجل إلى عذابٍ دائم، لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون. يقولُ: وكذلك يا محمدُ سنتي في الذين كَذَّبُوا بما جِئْتَهُمْ به من الآياتِ على حقيقةِ ما تدعوهم إليه من الحقِّ من قومك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانُ عِلْماً»، وذلك علم كلامِ الطيرِ والدوابّ، وغير ذلك مما خَصَّهُمُ اللهُ بعلمه. «وَقالا الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ المُؤْمِنِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: وقال داود وسليمان: الحمدُ لله الذي فَضَّلَنا بما خَصَّنا به من العلمِ الذي آتاناهُ دونَ سائرِ خَلْقِه من بني آدم في زماننا هذا على كثيرٍ من عبادِهِ المؤمنينَ به في دهرنا هذا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ» أباه «دَاوُدَ» العلم الذي كانَ آتاهُ اللهُ في حياتِه، والمُلْكَ الذي كان خَصَّهُ به على سائرِ قومه، فجعله له بعد أبيه دونَ سائرِ ولدِ أبيه. «وَقالَ يا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ»، يقولُ: وقال سليمانُ لقومه: يا أيها الناسُ عُلِّمْنَا منطقَ الطيرِ، يعني: فهمنا كلامَها، وجعلَ ذلك من الطيرِ كمنطقِ الرجلِ من بني آدمَ إذْ فهمه عنها.

وقوله: «وأُوتينا مِنْ كلّ شَيْءٍ»، يقولُ: وأُعطينا ووهبَ لنا من كلِّ شيءٍ من الخيرات. «إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ»، يقولُ: إن هذا الذي أُوتينا من الخيراتِ لَهُوَ الفضلُ على جمعِ أهلِ دَهْرِنَا المبين، يقولُ: الذي يبينُ لمن تأمَّله وتَدَبَّرَهُ أنه فضلُ أُعْطِينَاهُ على مَنْ سِوَانا من الناسِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجُمِعَ لسليمانَ جنوده من الجنِّ والإنس والطير في مسيرٍ لهم فهم يوزعون.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «فَهُمْ يُوزَعُونَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: فهم يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرهم حتى يجتمعوا.

وقال آخرون: بل معناه: فهم يتقدمون.

وقال آخرون: معنى ذلك: فهم يُسَاقُون.

وأوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معناه: يُرَدُّ أوَّلُهم على آخرهم، وذلك أن الوازِعَ في كلام العرب هو الكافُّ، يقال منه: وزع فلان فلاناً عن الظلم: إذا كفَّهُ عنه. وإنما قيل للذين يدفعون الناسَ عن الولاةِ والأمراءِ وَزَعة: لِكَفِّهم إياهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «حتى إذَا أتَوْا عَلى وَادِي النَّمْلِ» حتى إذا أتى سليمانُ وجنودُه على وادي النمل. «قالَتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سلَيْمانُ وَجُنُودُهُ»، يقولُ: لا يكسرنكم ويقتلنَّكُمْ سليمانُ وجنوده. «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وهم لا يعلمون أنهم يحطمونكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فتبسَّمَ سليمانُ ضاحكاً من قولِ النملة التي قالت ما قالت، وقال: «رَبِّ أوْزِعْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أنْعَمْتَ عَليَّ»، يعني بقوله: «أوْزِعْنِي» ألهمني.

وقوله: «وأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ»، يقولُ: وأوزعني أنْ أعملَ بطاعتك ما ترضاه «وأدْخِلْنِي برَحْمَتِكَ في عِبادِكَ الصَّالِحينَ»، يقولُ: وأدخلني برحمتك مع عبادِكَ الصالحينَ، الذين اخترتهم لرسالتك وانتخبتهم لوحيكَ، يقولُ: أدخلني من الجنة مداخلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى

ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَتَفَقَّدَ» سليمانُ «الطَّيْرَ فَقَالَ ما لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ» وكان سبب تفقده الطيرَ وسؤاله عن الهدهدِ خاصةً من بين الطير. . أنَّ سليمان نزلَ منزلة في مسيرٍ له، فلم يَدْرِ ما بُعْد الماءِ، فقال: مَنْ يعلم بُعْدَ الماء؟ قالوا: الهدهد، فذاك حين تَفَقَّدَهُ.

وقوله: «فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ» أخطأه بصري فلا أراه وقد حضر أم هو غائبٌ فيما غابَ من سائرِ أجناس الخَلْقِ فلم يحضر.

وقوله: «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً»، يقولُ: فلما أُخْبِرَ سليمانُ عن الهدهدِ أنه لم يحضرْ وأنه غائبٌ غيرُ شاهدٍ، أقسَمَ «لَأُعَذِّبَنَّه عَذَاباً شَدِيداً» وكان تعذيبه الطيرَ فيما ذُكِرَ عنه إذا عذَّبَها أنْ ينتفْ ريشها.

وقوله: «أو لَأَذْبَحَنَّهُ»، يقولُ: أو لأقتلنه.

وقوله: «أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بسُلْطانٍ مُبينٍ»، يقولُ: أو ليأتيني بحجةٍ تبينُ لسامعها صحتها وحقيقتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَمَكَثَ غيرَ بَعِيدٍ» فمكث سليمانُ غيرَ طويلٍ من حينِ سألَ عن الهدهدِ، حتى جاء الهدهد.

واختلف القَرَأة في قراءة قوله: «فَمَكَثَ» فقرأت ذلك عامة قَرَأة الأمصارِ سوى عاصم «فَمَكُثَ» بضمّ الكاف، وقرأه عاصم بفتحها، وكلتا القراءتين عندنا

صواب، لأنهما لغتان مشهورتان، وإنْ كان الضمُّ فيها أعجب إليَّ، لأنها أشهر اللغتين وأفصحهما.

وقوله: «فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ»، يقولُ: فقال الهدهدُ حين سأله سليمانُ عن تخلفه وغيبته: أحطتُ بعلمِ ما لم تُحِطْ به أنت يا سليمان.

وقوله: «وَجِئْتُكَ مِنْ سَبإٍ بِنَبإٍ يَقِينٍ»، يقولُ: وجئتك من سبإٍ بخبرٍ يقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قِيلِ الهدهدِ لسليمانَ مخبراً بعذره في مغيبه عنه «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ»، يعني تملكُ سبأ، وإنما صارَ هذا الخبرُ للهدهدِ عذراً وحجةً عند سليمان، درأَ به عنه ما كان أُوعِدَ به، لأنَّ سليمانَ كان لا يرى أنَّ في الأرض أحداً له مملكة معه، وكان مع ذلك ﷺ رجلاً حُبِّبَ إليه الجهادُ والغزو، فلما دَلَّهُ الهدهدُ على مُلْكٍ بموضعٍ من الأرضِ هو لغيره، وقومٍ كَفَرَةٍ يعبـدونَ غير الله، له بجهادهم وغزوهم الأجرُ الجزيل، والثوابُ العظيم في الآجـل، وضَمَّ مملكةٍ لغيره إلى ملكه، حقَّت للهدهدِ المعذرةُ، وصَحَّتْ له الحجةُ في مغيبه عن سليمان.

وقوله: «وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»، يقولُ: وأوتيتْ من كلِّ شيء يُؤْتَاهُ الملكُ في عاجلِ الدنيا مما يكونُ عندهم من العتاد والآلة.

وقوله: «وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: ولها كرسي عظيم. وعنى بالعظيم

في هذا الموضع: العظيم في قَدْرِه، وعِظَمِ خَطَرِه، لا عِظَمَهُ في الكبر والسعة.

وقوله: «وَجَدْتُهَا وقَوْمَها يَسْجُدُونَ للشَّمْس مِنْ دُونِ اللهِ»، يقولُ: وجدتُ هذه المرأةَ ملكةَ سبأ، وقومَها من سبأ، يسجدونَ للشمس فيعبدونها من دونِ الله.

وقـولـه: «وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ أعمـالَهُمْ»، يقـولُ: وحَسَّنَ لهم إبليسُ عبادتهم الشمسَ، وسجودهم لها من دونِ الله، وحَبَّبَ ذلك إليهم «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ»، يقولُ: فمنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتبعوا الطريقَ المستقيم، وهو دينُ الله الـذي بعثَ به أنبياءه، ومعنـاه: فَصَدَّهُمْ عن سبيلِ الحقِّ «فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ»، يقولُ: فهم لما قد زين لهم الشيطانُ ما زيَّنَ من السجود للشمس من دون الله والكفـر به لا يهتـدون لسبيل الحقِّ ولا يسلكـونه، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يتردَّدُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

قوله: «ألَّا يَسْجُدوا»، بمعنى: وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم لئلا يسجدُوا لله.

ويعني بقوله: «يُخْرِجُ الخَبْءَ» يخرجُ المَخْبُوءَ في السمواتِ والأرضِ من غيثٍ في السماء، ونباتٍ في الأرض ونحو ذلك.

«وَيَعْلَمُ ما تُخْفُـونَ ومَا تُعْلِنُونَ»، يقولُ: ويعلم السرَّ من أمورِ خَلْقِه، هؤلاءِ الذين زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم والعلانية منها.

وقوله: «اللهُ لا إلَهَ إلاّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، لا إله إلا هو، لا معبودَ سواهُ تصلحُ له العبادة، فأخلصوا له العبادَةَ، وأفردوه بالطاعةِ، ولا تشركوا به شيئاً «رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ»، يعني بذلك: مالكُ العرشِ العظيمِ الذي كُلُّ عرشٍ وإنْ عَظُمَ فدونه، لا يُشبهه عرشُ ملكةِ سبأ ولا غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» سليمان للهدهد «سَنَنْظُرُ» فيما اعتذرتَ به من العذر، واحتججتَ به من الحجة لغيبتكَ عنا، وفيما جِئْتَنا به من الخبرِ «أصَدَقْتَ» في ذلك كله «أمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ» فيه «اذْهَبْ بكِتابي هَذَا فأَلْقِهِ إلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانْظُر ماذَا يَرْجِعُونَ».

فاختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: اذهب بكتابي هذا؛ فألْقِه إليهم؛ فانظر ماذا يَرْجعون؛ ثم تولَّ عنهم منصرفاً إليَّ، فقال: هو من المؤخَّرِ الذي معناه التقديمُ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: اذهب بكتابي هذا فألْقِه إليهم، ثم تولَّ عنهم فَكُنْ قريباً منهم، وانظرْ ماذا يرجعون؛ قالوا: وفعل الهدهدُ وسمعَ مراجعة المرأةِ أهلَ مملكتها، وقولَها لهم: «إنّي أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كَرِيمٌ، إنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» وما بعد ذلك من مراجعة بعضِهم بعضاً. وهذا القول أشبهُ بتأويلِ الآية، لأنَّ مراجعةَ المرأةِ قومَها، كانت بعد أن أُلقيَ إليها الكتابُ، ولم يكن الهدهد لينصرفَ وقد أُمِرَ بأنْ ينظرَ إلى مراجعةِ القومِ بينهم

ما يتراجعونه قبل أنْ يفعلَ ما أمرَهُ به سليمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾



يقول تعالى ذِكْرُه: فذهب الهدهد بكتابِ سليمان إليها، فألقاهُ إليها؛ فلما قرأته قالت لقومها: «يا أيُّها المَلأُ إنِّي أُلْقِيَ إليَّ كِتابٌ كَرِيمٌ»، والملأ: أشرافُ قومها.

واختلف أهل العلم في سبب وصفها الكتابَ بالكريمِ، فقال بعضهم: وَصَفَتْهُ بذلك لأنه كان مختوماً.

وقال آخرون: وصفته بذلك لأنه كان من ملكٍ فوصفته بالكرمِ لكرمِ صاحبه.

وقـولـه: «إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» كُسِرت إن الأولى والثانية على الردّ على إني من قوله: «إنِّي أُلْقِيَ إليَّ كِتابٌ كَرِيمٌ». ومعنى الكلام: قالت: يا أيها الملأ إني ألقي إليَّ كتابٌ، وإنه من سليمان.

وقوله: «أنْ لا تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، يقولُ: أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كريم ألا تَعْلُوا عليَّ.

وعنى بقوله: «أنْ لا تَعْلُوا عَلَيَّ»: أنْ لا تتكبروا ولا تتعاظَمُوا عما دَعَوْتُكم إليه.

وقوله: «وأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، يقولُ: وأقبلوا إليَّ مُذْعِنينَ لله بالوحدانية والطاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت ملكةُ سبأ لأشرافِ قومها: «يا أَيُّها المَلأُ أَفْتُونِي في أَمْرِي»، تقول: أشيروا عليَّ في أمري الذي قد حَضَرني من أمرِ صاحبِ هذا الكتابِ الذي أُلقيَ إليَّ، فجعلت المشورة فتيا.

وقوله: «ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ»، تقول: ما كنتُ قاضيةً أمراً في ذلك حتى تشهدون، فأشاوركم فيه.

وقوله: «قالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وأُولُو بأسٍ شَدِيدٍ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: قال الملأُ من قومِ ملكةِ سبأ إذْ شاورتهم في أمرها وأمرِ سليمان: نحن ذَوُو القوَّةِ على القتال، والبأسِ الشديدِ في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليكِ في القتال وفي تركه، فانظري من الرأي ما ترين، فَمُرِينا نأتمرْ لأمركِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت صاحبة سبأ للملأ من قومها إذْ عرضوا عليها أنفسهم لقتالِ سليمان إنْ أمرتهم بذلك: «إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً» عُنْوَةً وغَلَبة «أفْسَدُوها»، يقولُ: خرَّبُوها «وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أهْلها أذِلَّةً» وذلك باستعبادهم الأحرارَ، واسترقاقِهم إياهم، وتناهى الخبرُ منها عن الملوكِ في هذا الموضع فقال الله: «وكذلكَ يَفْعَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكما قالتْ صاحبةُ سبأ تفعلُ الملوكُ إذا دخلوا قريةً عنوة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ذكر أنها قالت: إني مرسلةٌ إلى سليمان، لتختبرَهُ بذلك وتعرفَهُ به، أملكٌ هو، أم نبيٌّ؟ وقالت: إن يكن نبياً لم يقبل الهديةَ، ولم يَرْضَهُ منا، إلا أنْ نتبعه على دِينه، وإن يكنْ ملكاً قَبِلَ الهديةَ وانصرف.

وقوله: «فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ»، تقول: فأنظر بأيِّ شيءٍ من خَبره وفِعْلِه في هديتي التي أرسلها إليه ترجع رسلي، أبقبولٍ وانصرافٍ عنا، أم بردِّ الهديةِ والثباتِ على مطالبتنا باتباعه على دينه؟ وقالت: «وإنِّي مُرْسِلَةٌ إلَيْهِمْ» وإنما أرسلت إلى سليمانَ وحده على النحو الذي بيَّنا في قوله: «عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ»، وقوله: «فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قال أتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ».

إن قال قائل: وكيف قيل «فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ» فجعل الخبر في مجيء سليمان عن واحد، وقد قال قبل ذلك: «فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ» فإن كان الرسولُ كان واحداً، فكيف قيل: «بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ» وإنْ كانوا جماعة فكيف قيل: فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمانَ»؟

قيل هذا نظير ما قد بَيَّنا قَبْلُ من إظهارِ العربِ الخبرَ في أمرٍ كان من واحدٍ على وجه الخبر عن جماعةٍ إذا لم يقصد الخبر عن شخص واحد بعينه، يُشار إليه بعينه، فسمى في الخبر، وقد قيل: إنَّ الرسول الذي وجَّهتهُ ملكةُ سبأ إلى سليمان كان امرأً واحداً، فلذلك قال: «فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ» يُراد به: فلما جاء الرسولُ سليمانَ، واستدلَّ قائلو ذلك على صحة ما قالوا من ذلك بقول سليمان للرسول «ارْجِعْ إلَيْهِمْ».

وقوله: «قال أتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ»، يقولُ: قال سليمان لما جاء الرسول من قِبَلِ المرأةِ بهداياها: أتمدونن بمال.

وقوله: «فَمَا آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ»، يقولُ: فما آتاني اللهُ من المالِ والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل. «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ»، يقولُ: ما أفرح بهديتكم التي أهديتم إليَّ، بل أنتم تفرحون بالهديةِ التي تُهدى إليكم، لأنكم أهلُ مفاخرةٍ بالدنيا، ومكاثرةٍ بها، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي، لأنَّ الله تعـالى ذِكْـرُه قد مَكَّنني منها ومَلَّكني فيها ما لم يُمَلِّكْ أحداً «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ»، وهذا قول سليمان لرسولِ المرأة «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها» لا طاقةَ لهم بها ولا قدرةَ لهم على دفعهم عما أرادوا منهم.

وقـولـه: «وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ»، يقولُ: ولنخرجنَّ مَنْ أرسلَكم من أرضِهم أذلةً وهم صاغرون إنْ لم يأتوني مسلمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

اختلف أهلُ العلم في الحِينِ الذي قال فيه سليمان: «يا أيها المَلأُ أيُّكُم يَأْتيني بِعَرْشِها»، فقال بعضهم: قال ذلك حين أتاه الهدهدُ بنبأ صاحبةِ سبأ، وقـال له: «جِئْتُكَ مِنْ سَبإٍ بِنَبإٍ يَقِينٍ»، وأخبره أنَّ لها عرشاً عظيماً، فقال له سليمان ﷺ: «سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ» فكان اختباره صِدْقَهُ من

كذبه وأنْ قال لهؤلاءِ: أيُّكُمْ يأتيني بعرشِ هذه المرأة قبل أن يأتوني مسلمين.
وقالوا: إنما كتب سليمان الكتابَ مع الهدهد إلى المرأةِ بعدما صَحَّ عنده صِدْقُ الهدهدِ بمجيء العالم بعرشها إليه على ما وصفَهُ به الهدهدُ، قالوا: ولولا ذلك كان محالاً أنْ يكتبَ معه كتاباً إلى مَنْ لا يدري، هل هو في الدنيا أم لا؟ قالوا: وأخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتاباً إلى المرأةِ قبل مجيء عرشها إليه، وقبل علمه صِدْقَ الهدهد بذلك، لم يكن لقوله له: «سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ»، معنًى، لأنه لا يُلِم بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك، إلا نحو الذي علم بخبره الأوَّل حين قال له «جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ»، قالوا وإنْ لم يكن في الكتاب معهم امتحانُ صِدْقِه من كذبه، وكان محالاً أن يقول نبيُّ الله قولاً لا معنى له وقد قال: «سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ» علم أن الذي امتحنَ به صدق الهدهد من كذبه هو مصيرُ عرشِ المـرأةِ إليه، على ما أخبره به الهدهدُ الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها.

وقال آخرون: بل إنما اختبر صِدْقَ الهدهد سليمانُ بالكتاب، وإنما سأل من عنده إحضاره عرش المرأة بعدما خرجتْ رُسُلُهَا من عندِه، وبعد أن أقبلت المرأةُ إليه.

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله خصَّ سليمان مسألةَ الملأ من جندِه إحضـارَ عرشِ هذه المـرأةِ من بين أمـلاكها قبل إسلامها، فقال بعضهم: إنما فعل ذلك لأنه أعجبه حين وصف له الهدهد صفته، وخشي أنْ تُسْلِمَ فَيَحْرُمُ عليه مالُها، فأراد أنْ يأخذ سريرَها ذلك قبل أن يَحْرُمَ عليه أخذُه بإسلامها.

وقال آخرون: بل فعل ذلك سليمان ليعاتبها به، ويختبر به عَقْلَها، هل تُثْبتُه إذا رأتْهُ، أم تُنْكِرُه؟

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «قَبْلَ أنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، فقال بعضهم: معناه: قبل أن يأتوني مستسلمين طوعاً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قبل أن يأتوني مسلمين الإسلامَ الذي هو دينُ الله.

وأولى الأقوال بالصواب في السبب الذي من أجله خصَّ سليمان بسؤاله الملأ من جنده بإحضاره عرشَ هذه المرأةِ دونَ سائرِ مُلْكِهَا عندنا، ليجعل ذلك حجةً عليها في نبوَّته، ويُعَرِّفَهَا بذلك قُدرةَ اللهِ وعظيمَ شأنه، أنها خلَّفته في بيتٍ في جوفِ أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله، بغيرِ فتحِ أغلاقٍ وأقفال، حتى أوصله إلى وَلِيِّهِ من خَلْقِه، وسَلَّمَهُ إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمانُ، وعلى صِدْقِ سليمانَ فيما أعلمها من نبوّته.

فأما الذي هو أوْلى التأويلين في قوله: «قَبْلَ أنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» بتأويله، فقول مَنْ قال: إن معناه طائعين، لأن المرأةَ لم تأتِ سليمانَ إذْ أتته مسلمةً، وإنما أسلمتْ بعد مقدمها عليه وبعد محاورةٍ جرت بينهما ومساءلة.

وقوله: «قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال رئيسٌ من الجنِّ ماردٌ قويٌّ.

وقوله: «أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ»، يقولُ: أنا آتيك بعرشها قبل أنْ تقومَ من مقعدك هذا، وكان فيما ذُكر قاعداً للقضاء بين الناس، فقال: أنا آتيكَ به قبلَ أنْ تقومَ من مجلسك هذا الذي جلستَ فيه للحكم بين الناس. وذكر أنه كان يقعدُ إلى انتصافِ النهار.

وقوله: «وإنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أمِينٌ» على ما فيه من الجواهر، ولا أخونُ فيه.

قوله: «قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتاب»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال الذي

عنده علمٌ من كتابِ الله وكان رجلاً فيما ذكر من بني آدم.

وقوله: «أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أنا آتيكَ به قبل أن يصلَ إليكَ مَنْ كان منك على مَدِّ البصر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: من قبل أن يبلغ طَرْفُكَ مَدَاهُ وغايته.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: قبل أن يرجع إليك طرفك من أقصى أثـره، وذلك أن معنى قوله: «يَرْتَدَّ إلَيْكَ» يرجع إليك البصر، إذا فتحت العين غير راجع، بل إنما يمتدُّ ماضياً إلى أن يتناهى ما امتدَّ نوره. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله إنما أخبرنا عن قائل ذلك: «أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ» لم يكن لنا أن نقول: أنا آتيكَ به قبل أن يرتدَّ راجعاً «إلَيْكَ طَرْفُكَ» من عند منتهاه.

وقوله: «فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ»، يقولُ: فلما رأى سليمانُ عرشَ ملكةِ سبأ مستقرّاً عنده. وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالة ما ظهر عما ترك، وهو: فدعا الله، فأتى به؛ فلما رآهُ سليمانُ مستقرّاً عنده.

وذُكر أنَّ العالم دعا الله، فغار العرش في المكان الذي كان به، ثم نبعَ من تحتِ الأرضِ بين يدي سليمان.

وقوله: «قالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَني»، يقولُ: هذا البصرُ والتمكنُ والمُلْكُ والسلطانُ الذي أنا فيه حتى حُمِلَ إليَّ عرشُ هذه في قَدْرِ ارتدادِ الطرفِ من مأربَ إلى الشام، من فضلِ ربي الذي أَفْضَلَهُ عليَّ وعطائِه الذي جادَ به عليَّ «ليبلوني»، يقولُ: ليختبرني ويمتحنني، أأشكرُ ذلك من فعله عليَّ، أم أكفرُ نعمته عليَّ بترك الشكرِ له.

وقد قيل: إن معناه: أأشكرُ على عرشِ هذه المرأةِ إذْ أُتيتُ به، أم أكفرُ

إذْ رأيت مَنْ هو دوني في الدنيا أعلم مني.

وقوله: «وَمَنْ شَكَرَ فإنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ»، يقولُ: ومَنْ شكر نعمةَ الله عليه، وفضلَهُ عليه، فإنما يشكرُ طلبَ نفعِ نفسِه، لأنه ليس ينفعُ بذلك غيرَ نفسِه، لأنه لا حاجة للهِ إلى أحدٍ من خَلْقِه، وإنما دعاهم إلى شكرِه تعريضاً منه لهم للنفع، لا لاجتلابٍ منه بشكرِهم إياهُ نفعاً إلى نفسِه، ولا دفع ضرٍّ عنها، «وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»، يقولُ: ومن كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه لنفسِه ظلمَ وحظَّها بخَسَ، والله غنيٌّ عن شكره، لا حاجةَ به إليه، لا يضرُّه كُفْـرُ مَنْ كفرَ به من خلقِه. كريم، ومن كرمه إفضالُه على مَنْ يكفرُ نِعَمَهُ، ويجعلها وصلةً يتوصل بها إلى معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: قال سليمان لما أتى عرش بلقيس صاحبة سبأ، وقَدِمَتْ هي عليه لجندِه: غَيِّرُوا لهذه المرأةِ سريرها.

وقوله: «نَنْظُرْ أتَهْتَدِي»، يقولُ: ننظر أتعقلُ فَتُثْبِتُ عَرْشَها أنه هو الذي لها «أمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ»، يقولُ: من الذين لا يعقلون فلا تثبت عرشها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لما جاءت صاحبةُ سبأ سليمانَ، أخرجَ لها عرشها،

فقال لها: «أَهَكَذَا عَرْشُكِ؟» قَالت وشبهته به: «كَأَنَّهُ هُوَ».

وقـولـه: «وأوتينـا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ سليمان، وقال سليمان: «وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا» أي هذه المرأة، باللهِ وبقدرتِه على ما يشاء، «وَكُنَّا مُسْلِمِينَ» للهِ من قَبْلِهَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنَعَ هذه المرأةَ صاحبة سبأ «ما كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ الله»، وذلك عبادتها الشمسَ أنْ تعبدَ الله.

وقوله: «إنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ»، يقولُ: إنَّ هذه المرأةَ كانت كافرةً من قومٍ كافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

ذُكِـر أنَّ سليمـانَ لما أقبلت صاحبةُ سبأ تريده، أمرَ الشياطينَ فَبَنُوا له صرحـاً، وهو كهيئةِ السطح من قوارير، وأجرى من تحتهِ الماء ليختبرَ عقلها بذلـك، وفَهْمَهَـا على نحوِ الذي كانت تفعلُ هي من توجيهها إليه الوصائفَ والوصفاء ليميزَ بين الذكورِ منهم والإناث معاتبةً بذلك كذلك. وجائزٌ عندي أن يكون سليمان أمرَ باتخاذِ الصرحِ للأمرين، ليختبر عقلها، وينظر إلى ساقها وقدمها، ليعرف صحة ما قيل له فيها.

وقوله: «فَلَما رأتْهُ حَسِبَتْهُ لُجةً»، يقولُ: فلما رأت المرأةُ الصرحَ حسبته لبياضِه واضطرابِ دوابِ الماء تحته لجةَ بحرٍ كشفتْ عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان.

وقوله: «إنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال سليمان لها: إنَّ هذا ليس ببحرٍ، إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير، يقولُ: إنما هو بناء مبنيٌّ مشيد من قوارير.

وقوله: «قَالَتْ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وأسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه قالت المرأةُ صاحبةُ سبأ: ربِّ إني ظلمتُ نفسي في عبادتي الشمس، وسجودي لما دونك «وأسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ»، تقول: وانْقَدْتُ مع سليمانَ مُذْعِنةً لله بالتوحيدِ، مُفْرِدةً له بالألوهةِ والربوبيةِ دونَ كلِّ مَنْ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ أرْسَلْنا إلى ثَمُودَ أخاهُمْ صَالِحاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ» وَحده لا شَرِيك له، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره. «فإذَا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ»، يقولُ: فلما أتاهم صالح داعياً لهم إلى الله صار قومُه من ثمودَ فيما دعاهم إليه فريقين يختصمون، ففريقٌ مُصَدِّقٌ صالحاً مؤمنٌ به، وفريق مكذِّبٌ به كافر بما جاء به.

وقوله: قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال صالح لقومه: يا قوم لأيِّ شيءٍ تستعجلونَ بعذابِ الله قبل الرحمة.

وقوله: «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقولُ: هلا تتوبون إلى الله من كفركم، فيغفر لكم ربكم عظيمَ جُرْمِكم، يصفح لكم عن عقوبتِه إياكم على ما قد أتيتم من عظيمِ الخطيئة.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقولُ: ليرحمكم رَبُّكم باستغفارِكم إياه من كفركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت ثمود لرسولها صالح «اطَّيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ» أي تشاءمنا بكَ وبمن معكَ من أتباعنا، وزجرنا الطيرَ بأنَّا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال لهم: «طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ» أي ما زجرتم من الطير لما يُصِيبكم من المكاره عند الله عِلْمُه، لا يدري أيّ ذلك كائن، أما تظنون من المصائب أو المكاره، أم لا تَرْجُونَهُ من العافيةِ والرجاءِ والمحاب.

وقوله: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ»، يقولُ: بل أنتم قوم تُخْتَبَرُونَ، يختبركم رَبُّكم إذْ أرسلني إليكم، أتطيعونه، فتعملون بما أمركم به، فيجزيكم الجزيلَ من ثوابهِ، أم تَعْصُونَهُ، فتعملونَ بخلافِه، فيحلُّ بكم عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكان في مدينة صالح، وهي حِجر ثمود، تسعةُ أنفسٍ

يفسدونَ في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض: كُفْرُهُمْ باللهِ، ومعصيتُهم إياه، وإنما خصَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ هؤلاءِ التسعةَ الرهطِ بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإنْ كان أهلُ الكفر كُلُّهم في الأرضِ مفسدين، لأنَّ هؤلاءِ التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقرِ الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتلِ صالح من بين قومِ ثمود. وقد ذكرنا قصصهم وأخبارهم فيما مضى من كتابنا هذا.

وقوله: «قالُوا تَقاسَمُوا باللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وأَهْلَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال هؤلاءِ التسعة الرهط الذين يُفسدون في أرضِ حِجْرِ ثمود، ولا يصلحون، تقاسموا بالله: تحالفوا بالله أيها القوم، ليحلفْ بعضُكم لبعضٍ: لَنُبَيِّتَنَّ صالحاً وأهله، فلنقتلنه. «ثم لنقولن لوليه: ما شهدنا مَهْلِكَ أهله».

وقوله: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»، نقول لوليه: وإنا لصادقون، أنَّا ما شهدنا مهلك أهله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وغَدَرَ هؤلاءِ التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالحٍ بمصيرِهم إليه ليلاً ليقتلوهُ وأهلَهُ، وصالحٌ لا يشعرُ بذلك. «وَمَكَرْنا مَكْراً»، يقولُ: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذابَ لهم «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» بمكرنا.

وقد بيَّنا فيما مضى معنى: مكر الله بمن مكرَ به، وما وجه ذلك، وأنه أخْذُهُ مَنْ أخذَهُ منهم على غِرَّةٍ، أو استدراجُه منهم مَنِ استدرج على كفرِه به،

ومعصيته إياه، ثم إحلاله العقوبةَ به على غرّةٍ وغفلة.

وقوله: «فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقبَةُ مَكْرِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانظُر يا محمدُ بعينِ قلبكَ إلى عاقبةِ غدرِ ثمودَ بنبيِّهم صالح كيف كانت، وما الذي أورثها اعتداؤُهم وطغيانُهم وتكذيبهم، فإنَّ ذلك سنتنا فيمن كذَّبَ رسلنا، وطغى علينا من سائرِ الخلق، فَحَذِّرْ قومكَ من قريش أنْ ينالهم بتكذيبِهم إياكَ ما نالَ ثمود بتكذيبِهم صالحاً من المَثُلات.

وقوله: «أنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أجْمَعِينَ»، يقولُ: إنا دمرنا التسعةَ الرهط الذين يفسدون في الأرض من قوم صالح وقومهم من ثمود أجمعين، فلم نُبْقِ منهم أحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً» فتلك مساكنهم خاويةً خاليةً منهم، ليس فيها منهم أحدٌ، قد أهلكهم الله فأبادهم «بِمَا ظَلَمُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: بظلمهم أنفسَهُمْ بِشِرْكهم بالله، وتكذيبهم رسولهم. «إنَّ في ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن في فعلنا بثمود ما قَصَصْنَا عليكَ يا محمدُ من القصة، لعِظَةً لمن يعلم فِعْلَنا بهم ما فعلنا من قومكَ الذين يكذِّبُونَكَ فيما جئتهم به من عند رَبِّكَ وعبرةً. «وأنجَيْنا الَّذِينَ آمَنُوا»، يقولُ: وأنجينا من نقمتنا وعذابنا الذي أحللناهُ بثمود رسولَنا صالحاً والمؤمنينَ به. «وكانُوا يَتَّقُونَ»، يقولُ: وكانوا يتقون بإيمانهم، وبتصديقهم صالحاً الذي حَلَّ

بقومهم من ثمود ما حلَّ بهم من عذابِ الله، فكذلك ننجيكَ يا محمدُ وأتباعَكَ، عند إحلالنا عقوبتنا بمشركي قومك من بين أظهرهم.

وذكر أنَّ صالحاً لما أحلَّ الله بقومه ما أَحَلَّ، خرج هو والمؤمنونَ به إلى الشام، فنزل رملةَ فلسطين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأرسلنا لوطاً إلى قومه، إذْ قال لهم: يا قوم «أتأتُونَ الفاحِشَةَ وأنْتُمْ تُبْصِرُونَ» أنها فاحشة، لِعِلْمِكُمْ بأنه لم يسبقكم إلى ما تفعلونَ من ذلك أحدٌ.

وقوله: «أئِنَّكُمْ لَتأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً» منكم بذلك من دونِ فُروجِ النساء التي أباحها الله لكم بالنكاحِ.

وقوله: «بَلْ أنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ»، يقولُ: ما ذلك منكم إلا أنكم قومٌ سفهاء جَهَلَةٌ بعظيمِ حقِّ الله عليكم، فخالفتم لذلك أمره، وعصيتم رسولَهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يكن لقومِ لوطٍ جوابٌ له، إذْ نَهاهُمْ عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيانِ الرجال، إلا قِيل بعضِهم لبعضٍ «أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» عما نفعله نحنُ من إتيانِ الذكرانِ في أدبارهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنجينا لوطاً وأهلَهُ سِوى امرأته من عذابنا حين أَحْلَلْنَاهُ بهم، ثم «قَدَّرْناها»، يقولُ: فإن امرأته قَدَّرْنَاهَا: جعلناها بتقديرنا «مِنَ الغابرينَ» من الباقين «وأمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً» وهو إمطارُ اللهِ عليهم من السماءِ حجارةً من سِجِّيل، «فَسَاءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ»، يقولُ: فساء ذلك المطرُ مطر القومِ الذين أنذرهم الله عقابَهُ على معصيتهم إياهُ، وخَوَّفَهُمْ بأسَهُ بإرسالِ الرسولِ إليهم بذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ»، يا محمدُ «الحَمْدُ للهِ» على نِعَمِه علينا، وتوفيقِه إيانا لما وفَّقنا من الهداية. «وَسَلامٌ»، يقولُ: وأَمَنَةٌ منه من عقابِهِ الذي عاقبَ به قومَ لوطٍ، وقوم صالح، على الذين اصطفاهم، يقولُ: الذين اجْتَبـاهُمْ لنبيهِ محمدٍ ﷺ، فجعلهم أصحابه ووزراءه على الدِّينِ الذي بعثه بالدعاء إليه دونَ المشركينَ به، الجاحدينَ نبوَّة نبيه.

وقـوله: «ءَ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ الذين زيَّنا لهم أعمالَهم من قومِكَ فهم يَعْمَهُونَ: اللهُ الذي أنعمَ على أوليائه هذه النِّعَمَ التي قَصَّها عليكم في هذه السورة، وأهلكَ أعداءه بالذي أهلكهم به من صنوفِ العذابِ التي ذكرها لكم، فيها خيرٌ، أَمَّا تُشْرِكُونَ من أوثانِكم التي لا تنفعكم ولا تضرُّكم، ولا تدفعُ عن أنفسها ولا عن أوليائها سوءً،

ولا تجلبُ إليها ولا إليهم نفعاً، يقولُ: إن هذا الأمر لا يُشكِلُ على مَنْ له عقلٌ، فكيف تستجيزون أنْ تُشركوا عبادةَ مَنْ لا نفعَ عندَهُ لكم، ولا دفعَ ضُرٍّ عنكم في عبادةِ مَنْ بيدهِ النفعُ والضرّ، وله كلُّ شيء. ثم ابتدأ تعالى ذِكْرُه تعديدَ نِعَمِه عليهم، وأياديه عندهم، وتعريفهم بقلة شكرهم إياه على ما أولاهم من ذلك، فقال: «أمَّنْ خلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من قُريش: أعبادةُ ما تعبدونَ من أوثانِكم التي لا تضرُّ ولا تنفعُ خيرٌ، أم عبادةُ مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ؟ «وأنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماء»، يعني مطراً، وقد يجوز أن يكون مريداً به العيونَ التي فجَّرها في الأرضِ، لأنَّ كل ذلك من خَلْقِه «فأنْبَتْنا بِهِ»، يعني بالماء الذي أنزل من السماء «حَدَائِقَ» وهي جمع حديقة، والحديقة: البستان عليه حائط محوّط، وإنْ لم يكن عليه حائطٌ لم يكن حديقة.

وقوله: «ذَاتَ بَهْجَةٍ»، يقولُ: ذاتَ منظرٍ حَسَن.

وقوله: «ما كانَ لَكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: أنبتنا بالماء الذي أنزلناه من السماء لكم هذه الحدائقَ إذْ لم يكن لكم، لولا أنه أنزلَ عليكم الماءَ من السماءِ، طاقةٌ أنْ تُنْبِتُوا شجرَ هذه الحدائق، ولم تكونوا قادرينَ على ذهابِ ذلك، لأنه لا يصلحُ ذلك إلا بالماء.

وقوله: «أإلَهٌ مَعَ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أمعبودٌ مع الله أيها الجَهَلَةُ خلق

ذلك، وأنزلَ من السماء الماء، فأنبتَ به لكم الحدائقَ، فقوله: أءلهٌ مَردودٌ على تأويل: أمَعَ اللهِ إلهٌ. «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: بل هؤلاءِ المشركونَ قوم ضلال، يعدلون عن الحقِّ، ويجورون عليه، على عمدٍ منهم لذلك، مع عِلْمِهم بأنهم على خطأ وضلالٍ ولم يعدلوا عن جهلٍ منهم، بأنَّ من لا يقدرُ على نفعٍ ولا ضرّ، خيرٌ مِمَّنْ خلقَ السمواتِ والأرض، وفعل هذه الأفعال، ولكنهم عدلوا على عِلْمٍ منهم ومعرفة، اقتفاءً منهم سُنَّةَ مَنْ مضى قبلهم من آبائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعبادةُ ما تُشْرِكُونَ أيها الناسُ بربِّكم خيرٌ وهو لا يضرُّ ولا ينفع، أم الذي جعل الأرضَ لكم قراراً تستقرُّونَ عليها لا تميدُ بكم «وَجَعَلَ» لكم «خِلالَهَا أنهاراً»، يقولُ: بينها أنهاراً «وجعل لَها رَواسِيَ» وهي ثوابت الجبال، «وَجَعَلَ بينَ البَحْرَيْنِ حاجِزاً» بين العذب والملح، أنْ يُفْسِدَ أحدُهُما صاحبَهُ «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ» سواه فَعَلَ هذه الأشياء فأشركتموه في عبادتكم إياه؟

وقولـه: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل أكثرُ هؤلاءِ المشركينَ لا يعلمون قَدْرَ عظمةِ الله، وما عليهم من الضرِّ في إشراكِهم في عبادةِ الله غيره، وما لهم من النفعِ في إفرادهم اللهَ بالألوهةِ، وإخلاصهم له العبادةَ، وبراءتهم من كلِّ معبودٍ سواه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم ما تُشركون بالله خيرٌ، أم الذي يجيب المضطرَّ إذا دَعَاهُ، ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: «ويجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأرْضِ»، يقولُ: ويستخلف بعد أمرائكم في الأرضِ، منكم خلفاءَ أحياء يخلفونهم.

وقوله: «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ»، يقولُ: أءِلَهٌ مع الله سواه يفعل هذه الأشياءَ بكم، وينعم عليكم هذه النعم؟

وقوله: «قَليلاً ما تَذَكَّرونَ»، يقولُ: تَذَكُّراً قليلاً، من عظمةِ الله وأياديه عندكم، تَذَكَّرُونَ وتعتبرونَ حججَ الله عليكم يسيراً، فلذلك أشركتم باللهِ غيرَهُ في عبادته.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣﴾(١)

يقول تعالى ذِكْرُه: أم ما تشركون بالله خيرٌ، أمِ الذي يهديكم في ظلماتِ البرِّ والبحرِ إذا ضللتم فيهما الطريق، فأظلمتْ عليكم السُّبُلُ فيهما.

قوله: «وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بينَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»، يقولُ: والذي يرسل

---

(١) في المطبوعات والمخطوط ومفردات الراغب ولسان العرب: نُشْراً ـ بضم النون وسكون الشين المعجمة ـ وهي قراءة ابن عامر الشامي هنا وكذلك فعلنا في الآية ٥٧ من سورة الأعراف، وأثبتنا قراءة المصحف عند ورودها في التفسير.

الرياح بُشْراً لموتَانِ الأرضِ بين يدي رحمته، يعني قَدَّامَ الغيثِ الذي يحيي مواتَ الأرض.

وقوله: «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعالى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أءِلهٌ مع الله سوى الله يفعل بكم شيئاً من ذلك فتعبدوه من دونه، أو تشركوه في عبادتكم إياه. «تَعَالَى اللهُ»، يقولُ: لله العلوُّ والرِفعةُ عن شِرْكِكُمْ الذي تشركون به، وعبادتكم معه ما تعبدون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم ما تشركون أيها القومُ خيرٌ، أم الذي يبدأُ الخلقَ ثم يُعيده، فينشئه من غيرِ أصلٍ، ويبتدعه ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أنْ يفنيه، والذي يرزقكم من السماء والأرض فينزل من هذه الغيث، وينبت من هذه النبات لأقواتِكم، وأقواتِ أنعامكم «أءِلَهٌ مَعَ اللهِ» سوى الله يفعل ذلك؟ وإنْ زعموا أنَّ إلهاً غير الله يفعل ذلك أو شيئاً منه فـ «قُلْ» لهم يا محمدُ، «هاتُوا بُرْهانَكُمْ»: أي حجتكم على أنَّ شيئاً سوى الله يفعل ذلك «إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في دعواكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: «قُـلْ»، يا محمدُ لسائليكَ من

المشركينَ عن الساعةِ متى هي قائمة «لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ» الذي قد استأثرَ اللهُ بعلمه، وحجبَ عنه خَلْقَهُ غيره، والساعة[1] من ذلك. «وَما يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وما يدري مَنْ في السموات والأرض من خَلْقِه متى هُمْ مبعوثونَ من قبورِهم لقيامِ الساعة.

وقوله: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة أهل المدينة سوى أبي جعفر وعامة قَرَأة أهل الكوفة «بَلِ ادَّارَكَ» بكسر اللام من بل وتشديد الدال من ادَّارَكَ، بمعنى: بل تدارك عِلْمُهم أي تَتَابَع علمهم بالآخرة هل هي كائنة أم لا.

وقرأته عامة قَرَأة أهل مكة: «بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ» بسكون الدال وفتح الألف، بمعنى هل أدرك علمهم عِلْمَ الآخرة.

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ عندنا.

وقوله: «بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْها»، يقولُ: بل هؤلاءِ المشركونَ الذين يسألونك عن الساعة في شَكٍّ من قيامها لا يوقنون بها ولا يصدِّقُونَ بأنهم مبعوثون من بعدِ الموتِ، «بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ»، يقولُ: بل هم من العلم بقيامها عَمُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

---

(١) يعني: علم الساعة، وهو يوم القيامة.

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الذين كفروا بالله أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ من قبورنا أحياء، كهيئتنا من بعدِ مماتنا بعد أنْ كُنَّا فيها تراباً قد بَلِينا. «لَقَدْ وُعِدْنا هَذا نَحْنُ وآباؤُنا مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: لقد وَعَدَنا هذا من قبلِ محمدٍ واعدونَ وَعَدُوا ذلك آباءَنا، فلم نَرَ لذلك حقيقةً، ولم نتبينْ له صِحَّةً. «إنْ هَذا إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، يقولُ: قالوا: ما هذا الوعدُ إلا ما سَطَّرَ الأوَّلُونَ من الأكاذيبِ في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحدَّثُوا به من غيرِ أنْ يكون له صحةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المكذِّبينَ ما جِئْتَهُمْ به من الأنباء من عند ربك: «سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا» إلى ديارِ مَنْ كان قبلكم من المكذِّبينَ رُسُلَ الله ومساكنهم كيف هي، ألم يُخَرِّبْهَا الله، ويهلك أهلَها بتكذيبهم رسلهم، وردّهم عليهم نصائحهم فَخَلَتْ منهم الديارُ وتعفَّت منهم الرسومُ والآثار، فإنَّ ذلك كان عاقبةَ إجرامهم، وذلك سنة ربكم في كلِّ مَنْ سلك سبيلهم في تكذيبِ رُسُلِ رَبِّهم، والله فاعلٌ ذلك بكم إنْ أنتم لم تبادروا الإنابةَ من كُفْرِكُم وتكذيبكم رسولَ رَبِّكم.

وقوله: «وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تحزنْ على إدبارِ هؤلاءِ المشركينَ عنك وتكذيبهم لك «وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ»، يقولُ: ولا يَضِقْ صدرُكَ من مكرهم بك، فإنَّ الله ناصرك عليهم، ومهلكهم قتلاً بالسيف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقولُ مشركو قومكَ يا محمدُ، المكذِّبُوكَ فيما أتيتهم به من عند رَبِّك «مَتى» يكون «هَذَا الوَعْدُ» الذي تَعِدُنَاهُ من العذاب، الذي هو بنا فيما تقولُ حالٌّ «إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ» فيما تَعِدُونَنَا به. «قُلْ عَسَى أنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ»، يقول جَلَّ جَلاله: «قُلْ» لهم يا محمدُ: عسى أن يكون اقتربَ لكم ودَنَا «بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ» من عذابِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «وَإنَّ رَبَّكَ» يا محمدُ «لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» بتركِه معاجلَتَهُم بالعقوبةِ على معصيتهم إياه، وكُفْرهم به، وذُو إحسانٍ إليهم في ذلك وفي غيرِه من نعمهِ عندهم «وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَـ»ـهُ على ذلك من إحسانِه وفَضْلِه عليهم، فيخلصوا له العبادةَ، ولكنهم يشركون معه في العبادةِ ما يضرُّهُمْ ولا ينفعهم ومَنْ لا فضلَ له عندهم ولا إحسان.

وقوله: «وَإنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ»، يقولُ: وإنَّ رَبَّكَ ليعلمُ ضمائرَ صدورِ خَلْقِه، ومكنونَ أنفسهم، وخَفِيَّ أسرارهم، وعلانيةَ أمورهم الـظاهرةِ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو مُحْصِيهَا عليهم حتى يجازيَ جميعَهُمْ بالإحسانِ إحساناً وبالإساءَةِ جزاءها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَمَا مِنْ» مكتوم سرٍّ وخفيٍّ أمرٍ يغيبُ عن أبصارِ الناظرينَ «في السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا في كِتَابٍ» وهو أُمُّ الكتابِ الذي أثبتَ رَبُّنا فيه كُلَّ ما هو كائنٌ من لَدُن ابتدأَ خَلْقَ خَلْقِه إلى يومِ القيامة. ويعني بقوله: «مُبِينٍ» أنه يبينُ لمن نظر إليه، وقرأ ما فيه مما أثبتَ فيه رَبُّنا جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقوله: «إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَقُصُّ عَلى بَني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلته إليك يا محمدُ، يَقُصُّ على بني إسرائيل الحقَّ في أكثرِ الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمرِ عيسى، فقالت اليهودُ فيه ما قالتْ، وقالت النصارى فيه ما قالت. وتَبَرَّأَ لاختلافِهم فيه هؤلاء مِنْ هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمورِ التي اختلفوا فيها، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم: إنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ عليكم الحقَّ فيما اختلفتم فيه فاتَّبِعُوه، وأقرّوا لما فيه، فإنه يقصُّ عليكم بالحقِّ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هذا القرآن لهدى، يقولُ: لبيان من الله، بَيَّنَ به الحقَّ فيما اختلفَ فيه خَلْقُه من أمورِ دِينهم «وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقولُ: ورحمة لمن صَدَّقَ به وعملَ بما فيه «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ»، يقولُ: إنَّ ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بحكمِه فيهم، فينتقم من المُبْطِلِ منهم، ويجازي المحسنَ منهم المحقّ بجزائِه «وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ»، يقولُ: وربُّك العزيزُ في انتقامِهِ من المبطل منهم ومن غيرهم، لا يقدرُ أحدٌ على منعه من الانتقامِ منه إذا انتقم العليمُ بالمحقِّ المحسنِ من هؤلاءِ المختلفين من بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، ومن غيرهم من المُبْطِلِ الضالِّ عن الهدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ففوِّض إلى الله يا محمدُ أمورَكَ، وثِقْ به فيها، فإنه كافيكَ «إنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِين» لمن تأمَّله، وفكر ما فيه بعقلٍ، وتدبره بفهمٍ، أنه الحقّ، دونَ ما عليه اليهودُ والنصارى المختلفون من بني إسرائيل، ودونَ ما عليه أهلُ الأوثانِ المكذِّبُوكَ فيما أتيتهم به من الحقِّ، يقولُ: فلا يحزنك تكذيبُ مَنْ كذَّبكَ، وخلاف من خالفك، وامضِ لأمرِ ربك الذي بعثك به، وقوله: «إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى»، يقولُ: إنك يا محمدُ لا تقدر أن تُفهِم الحقَّ مَنْ طبعَ اللهُ على قلبِهِ فأماته، لأنَّ الله قد ختمَ عليه أنْ لا يفهمه. «وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ»، يقولُ: ولا تقدر أنْ تُسْمِعَ ذلك مَنْ أَصَمَّ اللهُ عن سماعِهِ سَمْعَهُ. «إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ»، يقولُ: إذا هم أدبروا معرضينَ عنه، لا يسمعون له لغلَبَةِ دينِ الكفرِ على قلوبهم، ولا يُصغون للحقِّ، ولا يتدبرونه، ولا ينصتون لقائلِه، ولكنهم يعرضون عنه، وينكرون القول به، والاستماع له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾

تأويل الكلام ما وصفت «وَمَا أنتَ» يا محمدُ «بِهادِي» مَنْ أعماهُ اللهُ عن الهدى والرشاد فجعلَ على بصرِه غشاوةً عن أنْ يتبين سبيلَ الرشادِ عن ضلالته التي هو فيها إلى طريقِ الرشادِ وسبيلِ الرشاد.

وقوله: «إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنا»، يقولُ: ما تقدر أنْ تُفْهِمَ الحقَّ

وتُوعِيه سَمْعَ أحدٍ إلا سمعَ مَنْ يصدِّقُ بآياتنا يعني بأدلته وحججه وآيِ تنزيله «فَهُمْ مُسْلِمُونَ» فإن أولئك يسمعون منكَ ما تقولُ ويتدبرونه، ويفكرون فيه، ويعملون به، فهم الذين يسمعون.

(وقوله: «وإذا وَقَع القولُ عَليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض»، يقولُ: إذا وجب الغضب عليهم أخرجنا لهم دابة)[1].

وقال جماعة من أهل العلم: خروجُ هذه الدابة التي ذكرها حين لا يأمرُ الناسُ بمعروفٍ ولا ينهون عن منكر. وذُكِرَ أنَّ الأرضَ التي تخرجُ منها الدابةُ مكة.

وقوله: «تُكَلِّمهم»، يقولُ: تخبرهم وتحدثهم.

وقوله: «أنَّ النَّاسَ كَانُوا بآياتِنا لا يُوقِنُونَ» اختلفت القَرَأةُ في قراءةِ ذلك، فقرأته عامةُ قَرَأةِ الحجاز والبصرة والشام «إنَّ النَّاسَ» بكسر الألف من «إن» على وجه الابتداء بالخبرِ عن الناسِ أنهم كانوا بآياتِ الله لا يوقنون، وهي وإنْ كسرت في قراءة هؤلاءِ فإنَّ الكلامَ لها متناولٌ، وقرأ ذلك عامة قَرَأةِ الكوفة وبعض أهل البصرة «أنَّ النَّاسَ كانُوا» بفتح أن بمعنى: تكلمهم بأنَّ الناسَ، فيكون حينئذٍ نصباً بوقوعِ الكلام عليها.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى مستفيضتان في قراءة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ

(١) وقع في هذا الموضع سقط في المطبوعات والمخطوط، واستدركنا ما بين الحاصرتين من الآثار التي ساقها المؤلف تثبيتاً لتفسيره، ليتصل الكلام.

تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ويومَ نجمعُ مِنْ كلِّ قرنٍ وملةٍ فوجاً، يعني جماعةً منهم، وزمرة «مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآياتِنا»، يقولُ: ممن يكذِّبُ بأدلتنا وحججنا، فهو يحبسُ أوَّلَهُمْ على آخرِهم، ليجتمعَ جميعُهم، ثم يُساقُونَ إلى النار.

وقوله: «حتى إذَا جاؤُوا قالَ أكَذَّبْتُمْ بآياتِي»، يقول تعالى ذِكْرُه: حتى إذا جاء من كُلِّ أمةٍ فوجٌ ممن يكذِّبُ بآياتنا فاجتمعوا قال الله: «أكذَّبتم بآياتي»: أي بحججي وأدلتي. «وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً»، يقول ولم تعرفوها حَقَّ معرفتها؟ «أمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فيها من تكذيبٍ أو تصديق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ووجبَ السخطُ والغضبُ من الله على المكذِّبينَ بآياتِه «بِمَـا ظَلَمُوا» يعني بتكذيبهم بآياتِ الله، يوم يُحشَرون. «فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ»، يقولُ: فهم لا ينطقون بحجةٍ يدفعونَ بها عن أنفسِهم عظيمَ ما حلَّ بهم ووقعَ عليهم من القول.

وقوله: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يَرَ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما بتصييرِنَا هذا سكنـاً لهم يسكنون فيه، ويهدؤون راحةَ أبدانِهم من تعبِ التصرُّفِ والتقلب نهـاراً، وهـذا مضيئاً يُبْصِرُونَ فيه الأشياء ويعاينونها فيتقلبونَ فيه لمعايشهم، فيتفكَّرُوا في ذلك، ويتدبَّرُوا، ويعلموا أنَّ مُصَرِّفَ ذلك كذلك هو الإلهُ الذي

لا يُعْجِزُه شيءٌ، ولا يتعذَّرُ عليه إماتةُ الأحياء، وإحياءُ الأمواتِ بعد المماتِ، كما لم يتعذَّرْ عليه الذهابُ بالنهار والمجيء بالليل، والمجيء بالنهار والذهابِ بالليل مع اختلاف أحوالهما. «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في تصييرنا الليلَ سكناً، والنهار مُبصراً لدلالة لقومٍ يؤمنونَ بالله على قُدْرَتِه على ما آمنوا به من البعثِ بعد الموتِ، وحجةً لهم على توحيدِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخ في الصورِ»، وقد ذكرنا اختلافهم فيما مضى، وبيَّنا الصوابَ من القولِ في ذلك عندنا.

قوله: «فَفَزِعَ مَنْ فِي السَمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ»، يقولُ: ففزع مَنْ في السمواتِ من الملائكة ومَنْ في الأرضِ من الجنِّ والإنسِ والشياطين، من هَوْلِ ما يعاينون ذلك اليوم.

وقوله: «إلا مَنْ شاءَ الله»، قيل: إنَّ الذين استثناهم اللهُ في هذا الموضع من أنْ ينالهم الفَزَعُ يومئذٍ الشهداءُ، وذلك أنهم أحياءٌ عند رَبِّهم يُرْزَقُونَ ، وإنْ كانوا في عِدَادِ الموتى عند أهلِ الدنيا.

وقوله: «وكُلٌّ آتَوْهُ داخِرِينَ»، يقولُ: وكلٌّ آتَوْهُ صاغرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَتَرى الجِبَالَ» يا محمدُ «تَحْسَبُهَا» قائمةً «وَهِي تَمُرُّ

مَرَّ السَّحاب»، يقولُ: ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيراً حثيثا.

قولـه: «صُنْـعَ الله الَّـذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» وأوثق خَلْقَهُ، «إنه خَبيرٌ بما يفعلون»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ اللهَ ذو علمٍ وخِبْرةٍ بما يفعلُ عباده من خَيْرٍ وشـرٍّ وطاعة له ومعصية، وهو مجازي جميعهُم على جميع ذلك على الخيرِ الخيرَ، وعلى الشرِّ الشرَّ نظيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «مَنْ جاءَ» الله بتوحيده والإيمان به، وقول لا إله إلا الله مُوقِناً به قلبه، «فَلَهُ» من هذه الحسنةِ عندَ الله «خَيرٌ» يومَ القيامة، وذلك الخيرُ أنْ يُثِيبَه الله «مِنْهَا» الجنةَ، ويؤمِّنُه «مِنْ فَزَعٍ» الصيحةِ الكبرى وهي النفخ في الصور «وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ»، يقولُ: ومَنْ جاء بالشرك به يومَ يَلْقَاهُ، وجحود وحدانيتِه «فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ» في نار جهنم.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» فقرأ ذلك بعض قَرَأة البصرة «وَهُمْ مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ» بإضافة فزع إلى اليوم. وقرأ ذلك جماعة قَرَأة أهلِ الكوفة «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» بتنوين فزع.

والصـواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قرأةِ الأمصـار متقـاربتـا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيب، غير أنَّ الإضافة أعجب إليَّ، لأنه فزع معلوم. وإذا كان ذلك كذلك كان معرفة على أنَّ ذلك في سياق قوله: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ

إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ»، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أنه عنى بقوله: «وَهُمْ مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» من الفزع الذي قد جرى ذِكْرُه قَبْلَهُ. وإذا كان ذلك كذلك، كان لاشكَّ أنه معرفة، وأنَّ الإضافةَ إذا كان معرفة به أولى من تركِ الإضافة؛ وأخرى أنَّ ذلك إذا أضيف فهو أبينُ أنه خبرٌ عن أمانِه من كلِّ أهوالِ ذلك اليوم منه إذا لم يُضَفْ ذلك، وذلك أنه إذا لم يُضَفْ كان الأغلب عليه أنه جعل الأمان من فزعٍ بعضِ أهواله.

وقوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هل تُجْزَوْنَ أيها المشركونَ إلا ما كنتم تعملون، إذ كَبَّكُمُ اللهُ لوجوهِكم في النار، وإلا جزاء ما كنتم تعملونَ في الدنيا بما يسخطُ رَبَّكم، وترك: يقال لهم اكتفاء بدلالةِ الكلامِ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ «قُلْ إنَّما أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ رَبَّ هَذِه الْبَلْدَةِ» وهي مكة «الَّذِي حَرَّمَهَا» على خَلْقِه أنْ يسفكوا فيها دماً حراماً، أو يظلمـوا فيها أحداً، أو يُصَادَ صَيْدُهَا، أو يُخْتَلى خلَاها دونَ الأوثانِ التي تعبدونها أيها المشركونَ.

وقوله: «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ»، يقولُ: ولربِّ هذه البلدة الأشياء كلها ملكاً، فإياهُ أُمرتُ أنْ أعبدَ، لا من لا يملك شيئاً. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها» فَخَصَّها بالذكرِ دونَ سائرِ البلدان، وهو ربُّ البلادِ كُلِّها، لأنه أرادَ تعريفَ المشركينَ من قومِ رسولِ الله ﷺ، الذين هُمْ أهلُ مكة بذلك نعمتَهُ عليهم، وإحسانَهُ إليهم، وأنَّ الذي ينبغي لهم أنْ يعبدوه هو الذي حَرَّمَ بلدهم، فمنعَ الناسَ منهم، وهم في سائرِ البلاد يأكلُ بعضُهم بعضاً، ويقتل بعضهم

بعضاً، لا مَنْ لم تجرِ له عليهم نعمةٌ، ولا يقدرُ لهم على نفعٍ ولا ضرٍّ.

وقوله: «وأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقولُ: وأمرني ربي أنْ أُسْلِمَ وجهي له حنيفاً، فأكون من المسلمينَ الذين دانوا بدين خليلهِ إبراهيمَ وجدِّكُمْ أيها المشركونَ، لا مَنْ خالفَ دِينَ جَدِّهِ المحقّ، ودانَ دِينَ إبليسَ عدوِّ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ إنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ» و«أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِين وأنْ أتْلُو القُرْآنَ، فَمَنِ اهْتَدَى»، يقولُ: فمن تبعني وآمن بي وبما جئتُ به، فسلكَ طريقَ الرشاد. «فإنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ»، يقولُ: فإنما يسلكُ سبيلَ الصوابِ باتباعه إيايَ، وإيمانه بي، وبما جئتُ به لنفسه، لأنه بإيمانه بي، وبما جئتُ به يأمنُ نقمته في الدنيا وعذابَهُ في الآخرة.

وقوله: «وَمَنْ ضَلَّ»، يقولُ: وَمَنْ جارَ عن قصدِ السبيل بتكذيبه بي وبما جئت به من عند الله «فقل إنما أنا من المنذرين»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقل يا محمدُ، لمن ضلَّ عن قصد السبيل، وكَذَّبَكَ، ولم يُصَدِّقْ بما جئتَ به من عندي، إنما أنا ممن ينذرُ قومَهُ عذابَ الله وسخطَهُ على معصيتِهم إياهُ، وقد أنذرتُكم ذلك معشرَ كفارِ قُريش، فإنْ قبلتم وانتهيتم عما يكرههُ الله منكم من الشركِ به، فحظوظَ أنفسِكُم تُصيبونَ، وإنْ رَدَدْتُمْ وكَذَّبتم فعلى أنفسكم جَنَيْتُمْ، وقد بَلَّغْتُكُمْ ما أُمرتُ بإبلاغهِ إياكم، ونصحتُ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ القائلينَ لكَ من مشركي قومكَ «مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - الحَمْدُ للهِ» على نعمتِه علينا بتوفيقِه إيَّانا للحقِّ الذي أنتم عنه عَمُونَ، سَيُرِيكم رَبُّكم آياتِ عذابِه وسخطه، فتعرفونَ بها حقيقةَ نُصحي كانَ لكم، ويتبينُ صِدْقُ ما دعوتُكُمْ إليه من الرشاد.

وقوله: «وَما رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما رَبُّكَ يا محمدُ بغافلٍ عما يعملِ هؤلاءِ المشركونَ، ولكنْ لهم أجلٌ هم بالِغُوه. فإذا بلغوه فلا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمون، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا يَحْزُنكَ تَكْذِيبُهم إياكَ، فإني من وراءِ إهلاكِهم، وإني لهم بالمرصاد، فأيقِنْ لنفسكَ بالنصرِ، ولعدوِّكَ بالذلِّ والخزي.

المجلد الخامس

فهرس المحتويات



